

عصر المأمون

المجلد الثاني

أحمد فريد رفاعي

٢٠٢٥م





رئيس مجلس الإدارة
م. رزق عبد السميع أحمد

المشرف العام على النشر
إيهاب الملاح

كتب ثقافية

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني
بدار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل -
القاهرة - جمهورية مصر العربية

فريد الرفاعي، أحمد فريد الرفاعي، ١٩٥٦ - ٠٠٠.
عصر المأمون / أحمد فريد رفاعي - القاهرة: دار المعارف،
٢٠٢٥.

مج ٢ - ، ٢٣.٥ سم.

تدمك ٢ ٩٥٣٤ ٠٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - العالم العربي، تاريخ - العصر العباسي الأول.
٢ - المأمون العباسي، عبدالله بن هارون الرشيد بن محمد
المهدي بن أبي جعفر المنصور، أبو العباس، ٧٨٦ - ٨٣٣.
أ - العنوان

تصنيف ديوي: ٩٥٣,٠٤

رقم الإيداع: ٢٠٢٥ / ٣٣٦٨

رقم أمر التشغيل: ١٠٥ / ٢٠٢٤ / ١

رقم الكونجرس: ٠ - ٨٤٢١٠٥ - ٠١ - ٢

لا يجوز استنساخ أي جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابي من دار المعارف.

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

باب المنثور

ذكرنا في مقدمة المجلد الأول من «عصر المأمون» أننا قسمنا المجلد الثاني إلى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة، وعنينا عناية خاصة إلى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كاتب خاص وشاعر خاص لتمثيل عصرهما. واتخذنا من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبي ربيعة أنموذجاً أموياً، ومن أبي الربيع محمد بن الليث وبشار بن برد مثلاً عباسياً، ومن عمرو بن مسعدة وأبي نواس أنموذجاً لتصوير الحياة الكتابية والشعرية في عصر الأمين والمأمون، إلى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام، وقد أوردناها من غير أن نعرض لها بتحليل أو بيان - اللهم إلا تفسير بعض ألفاظها الغريبة وشرح كلماتها الغامضة - فهي في وضوحها ودلالاتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة إلى شيء.

وها نحن أولاء نذكر ما وعدناك به.

(١) رسالتا أبي بكر وعليّ:

قال^(١) أبو حيان علي بن محمد التوحيدي البغدادي: سمرنا ليلة عند القاضي أبي حامد أحمد بن بشر المروزي ببغداد، فتصرف في الحديث كل متصرف؛ وكان غزير الرواية، لطيف الدراية، فجرى حديث السقيفة، فركب كل مركباً، وقال قولاً، وعرض بشيء، ونزع إلى فن. فقال: هل فيكم من يحفظ رسالة لأبي بكر^(٢) الصديق عليه السلام، إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وجواب علي عنها، ومبايعته إياه عقيب تلك المناظرة؟ فقال الجماعة لا والله؛

فقال: هي والله من بنات الحقائق، ومخبآت الصنادق، ومنذ حفظتها ما رويتها إلا لأبي محمد المهلبّي في وزارته، فكتبها عني بيده. وقال: لا أعرف رسالة أعقل منها ولا أبين؛ وإنما لتدل على علم وحلم، وفصاحة ونباهة، وبعد غور، وشدة غوص. فقال له العباداني: أيها القاضي، فلو أتممت المنّة علينا بروايتها! أسمعناها، فنحن أوعى لك من المهلبّي، وأوجب ذمًّا عليك؛ فاندفع وقال: حدثنا الخزاعي بمكة عن أبي ميسرة، قال حدثنا محمد بن أبي فليح عن عيسى بن دوّاب بن المتاح، قال سمعت مولاي أبا عبيدة يقول: لما استقامت الخلافة لأبي بكر رضي الله عنه بين المهاجرين والأنصار، بعد فتنة كاد الشيطان بها، فدفع الله شرها ويسر خيرها، بلغ أبا بكر عن علي تلكؤ وشماس^(٣)، وتهمم^(٤) ونفاس^(٥)، فكره أن يتماذى الحال فتبدو العورة، وتشتعل الجمرة، وتتفرق ذات البين؛ فدعاني بحضرته في خلوة، وكان عنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحده، فقال: يا أبا عبيدة، ما أئمن ناصيتك، وأئمن الخير بين عينيك، وطالما أعز الله بك الإسلام وأصلح شأنه على يديك، ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وآله بالمكان المحوط، والمحل المغبوط؛ ولقد قال فيك في يوم مشهود: «لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة»، ولم تزل للدين ملتجأ، وللمؤمنين مرتجى؛ ولأهلك ركنًا، ولإخوانك ردءًا. قد أردتك لأمر خطره مخوف، وإصلاحه من أعظم المعروف، ولئن لم يندمل جرحه بيسارك ورفقك، ولم تجب^(٦) حيته برقيتك، وقع اليأس، وأعضل البأس؛ واحتيج بعد ذلك إلى ما هو أمر منه وأعلق، وأعسر منه وأغلق؛ والله أسأل تمامه بك، ونظامه على يديك. فتأت^(٧) له أبا عبيدة وتلطف فيه، وانصح لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وآله، ولهذه العصاة غير آل جهدًا، ولا قال حمداً، والله كالكئ وناصرك، وهاديك ومبصرك، إن شاء الله.

امض إلى علي واخفض له جناحك، واغضض عنده صوتك، واعلم أنه سلاله أبي طالب، ومكانه ممن فقدناه بالأمس ﷺ مكانه، وقل له: البحر مغرقة، والبر مفرقة، والجو أكلف^(٨)، والليل أغدق^(٩)، والسماء جلواء^(١٠)، والأرض صلعاء^(١١)، والصعود متعذر، والهبوط متعسر، والحق عطوف رءوف، والباطل عنوف عسوف، والعجب قداحة الشر، والضغن رائد البوار، والتعريض شجار الفتنة، والقحة ثقب العداوة، وهذا الشيطان متكئ على شماله، متحيل يمينه، نافخ حضنيه^(١٢) لأهله، ينتظر الشتات والفرقة، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة، عناداً لله عز وجل أولاً، ولآدم ثانياً، ولنبيه ﷺ ودينه ثالثاً، يوسوس بالفجور، ويدلي بالغرور، ويمني أهل الشرور. يوحى إلى أوليائه زخرف القول غروراً بالباطل، دأباً له منذ كان على عهد أبينا آدم ﷺ، وعادة له منذ أهانه الله تعالى في سالف الدهر، لا منجى منه إلا بعض الناجز على الحق، وغض الطرف عن الباطل، ووطء هامة عدو الله بالأشد فالأشد، والآكد فالآكد، وإسلام النفس لله عز وجل في ابتغاء رضاه. ولا بد الآن من قول ينفع إذا ضر السكوت وخيف غيبه؛ ولقد أرشدك من أفاء^(١٣) ضالتك، وصافاك من أحيا مودته بعتابك، وأراد لك الخير من آثر البقاء معك؛ ما هذا الذي تسول لك نفسك، ويدوى به قلبك، ويلتوي عليه رأيك، ويتخاوص^(١٤) دونه طرفك، ويسري فيه ظعنك، ويتراد معه نفسك، وتكثر عنده صعداؤك، ولا يفيض به لسانك، أعجمة بعد إفصاح! أتلبس بعد إيضاح! أدين غير دين الله! أخلق غير خلق القرآن! أهدي غير هدي النبي ﷺ! أمثلي «تمشي»^(١٥) له الضراء وتدب له الخمر! أم مثلك ينقبض عليه الفضاء، ويكسف في عينه القمر! ما هذه القعقة بالشَّنان^(١٦)! وما هذه الوعوعة باللسان! إنك والله جد

عارف باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله ﷺ، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا، هجرة إلى الله عز وجل، ونصرة لدينه في زمان أنت فيه في كن الصبا، وخدر الغرارة، وعنفوان الشَّبية، غافل عما يشيب ويريب، لا تعي ما يراد ويشاد، ولا تحصل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جار عليه إلى غايتك التي إليها عدل بك، وعندها حط رحلك، غير مجهول القدر ولا محدود الفضل؛ ونحن في أثناء ذلك نعاني أحوالاً تزيل الرواسي؛ ونقاسي أهوالاً تشيب النواصي، خائضين غمارها، راكبين تيّارها، نتجرع صابها، ونشرح^(١٧) عيابها، ونحكم أساسها، ونبرم أمراسها،^(١٨) والعيون تحدج بالحسد، والأنوف تعطس بالكبر، والصدور تستعر بالغيظ، والأعناق تتطاول بالفخر، والشفار تشحذ بالمكر، والأرض تميد بالخوف؛ لا ننتظر عند المساء صباحاً، ولا عند الصباح مساءً، ولا ندفع في نحر أمر إلا بعد أن نحسو الموت دونه، ولا نبليغ مراداً إلا بعد الإيأس من الحياة عنده؛ فادين في جميع ذلك رسول الله ﷺ بالأب والأم، والخال والعم، والمال والنشب، والسبد^(١٩) واللبد، والهلة^(٢٠) والبله، بطيب أنفس، وقرة أعين، ورحب أعطان، وثبات عزائم، وصحة عقول، وطلاقة أوجه، وذلاقة ألسن؛ هذا مع خفيات أسرار، ومكنونات أخبار، كنت عنها غافلاً، ولولا سنك لم تكن عن شيء منها ناكلاً، كيف وفؤادك مشهوم^(٢١)، وعودك معجوم! والآن قد بلغ الله بك وأنقض الخير لك، وجعل مرادك بين يديك، وعن علم أقول ما تسمع؛ فارتقب زمانك، وقلص أردانك، ودع التقعس والتجسس لم لا يطلع لك إذا خطأ، ولا يتزحزح عنك إذا عطا^(٢٢)؛ فالأمر غص، والنفوس فيها مض، وإنك أديم هذه الأمة فلا تحلم^(٢٣) لجاجا، وسيفها العضب، فلا تنب اعوجاجا، وماؤها العذب فلا تحل أجاجا. والله لقد

سألت رسول الله ﷺ عن هذا الأمر، فقال لي: «يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يجاحش^(٢٤) عليه، ومن يتضاءل عنه لا لمن يتنفج إليه^(٢٥)، هو لمن يقال هو لك لا لمن يقول هو لي».

ولقد شاورني رسول الله ﷺ في الصهر، فذكر فتياناً من قريش، فقلت: أين أنت من علي! فقال ﷺ: إني أكره لفاطمة ميعة شبابه، وحادثة سنه. فقلت له: متى كنفته يدك، ورعته عينك، حفت بهما البركة، وأسبغت عليهما النعمة؛ مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك، وما كنت عرفت منك في ذلك لا حوجاء^(٢٦) ولا لوجاء، فقلت ما قلت وأنا أرى مكان غيرك، وأجد رائحة سواك؛ وكنت إذ ذاك خيراً لك منك الآن لي. ولئن كان عرض بك رسول الله ﷺ في هذا الأمر، فلم يكن معرضاً عن غيرك: وإن كان قال فيك فما سكت عن سواك؛ وإن تلجلج في نفسك شيء فهلهم، فالحكم مرضي، والصواب مسموع، والحق مطاع. ولقد نقل رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل، وهو عن هذه العصابة راض، وعليها حذر، يسره ما سرها ويسوءه ما ساءها، ويكيده ما كادها، ويرضيه ما أرضاها، ويسخطه ما أسخطها. أما تعلم أنه لم يدع أحداً من أصحابه وأقاربه وسُجرائه^(٢٧)، إلا أبانه بفضيلة، وخصه بمزية، وأفرده بحالة! أتظن أنه ﷺ ترك الأمة سدى بدداً، عبا^(٢٨)هـ، مباحل، طلاحى مفتونة بالباطل، مغبونة عن الحق، لا رائد ولا ذائد، ولا ضابط ولا حائط، ولا ساقى ولا واقى، ولا هادي ولا حادي! كلا! والله ما اشتاق إلى ربه تعالى ولا سأله المصير إلى رضوانه وقربه، إلا بعد أن ضرب المدى، وأوضح الهدى، وأبان الصوى^(٢٩) وأمن المسالك والمطارح، وسهل المبارك والمهايع^(٣٠)، وإلا بعد أن شدخ يافوخ^(٣١) الشرك بإذن الله، وشرم وجه النفاق لوجه الله سبحانه، وجدع

أنف الفتنة في ذات الله، وتفل في عين الشيطان بعون الله، وصدع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل.

وبعد، فهؤلاء^(٣٢) المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة واحدة ودار جامعة، إن استقالوني لك وأشاروا عندي بك، فأنا واضع يدي في يدك، وصائر إلى رأيهم فيك. وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون، وكن العون على مصالحهم، والفتاح لمغالقتهم، والمرشد لضالتهم، والرادع لغوايتهم. فقد أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، والتناصر على الحق. ودعنا نقضي هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل، ونلقى الله تعالى بقلوب سليمة من الضغن.

وبعد، فالناس ثمانية فارق بهم واحن عليهم ولن لهم، ولا تشق نفسك بنا خاصة فيهم، واترك ناجم الحقد حصيداً، وطائر الشر واقعاً، وباب الفتنة مغلقاً، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تبيع، والله على ما نقول شهيد، وبها نحن عليه بصير.

قال أبو عبيدة: فلما تأهبت للنهوض، قال عمر رضي الله عنه: كن لدى الباب هنيهة فلي معك دور من القول؛ فوقفت وما أدري ما كان بعدي، إلا أنه لحقني بوجه يندى تهلاً، وقال لي: قل لعلي: الرقاد محلمة، والهوى مقحمة، وما منا إلا له مقام معلوم، وحق مشاع أو مقسوم، ونبأ ظاهر أو مكتوم؛ وإن أكيس الكيس من منح الشارد تألفاً، وقارب البعيد تلفاً، ووزن كل شيء بميزانه، ولم يخلط خبره بعيانه، ولم يجعل فتره مكان شبره، ديناً كان أو دنياً، ضلالاً كان أو هدى. ولا خير في علم مستعمل في جهل، ولا خير في معرفة مشوبة بنكر. ولسنا كجلدة رفع^(٣٣) البعير بين العجان والذنب. وكل صال فبناره، وكل

سيل فإلى قرار. وما كان سكوت هذه العصابة إلى هذه الغاية لعي وشي^(٣٤)، ولا كلامها اليوم لفرق أو رفق. وقد جدع الله بمحمد ﷺ أنف كل ذي كبر، وقصم ظهر كل جبار، وقطع لسان كل كذوب، فماذا بعد الحق إلا الضلال. ما هذه الخنزروانة^(٣٥) التي في فراش رأسك! ما هذا الشجا المعترض في مدارج أنفاسك! ما هذه القذاة التي تغشت ناظرك! وما هذه الوحرة^(٣٦) التي أكلت شر اسيفك! وما هذا الذي لبست بسببه جلد النمر، واشتملت عليه بالشحناء والنكر! ولسنا في كسروية كسرى، ولا في قيصرية قيصر! تأمل لإخوان فارس وأبناء الأصفر! قد جعلهم الله جزراً لسيوفنا، ودرية لرماحنا، ومرمى لطعاننا، وتبعاً لسلطاننا؛ بل نحن في نور نبوة، وضياء رسالة، وثمره حكمة، وأثرة رحمة، وعنوان نعمة، وظل عصمة، بين أمة مهدية بالحق والصدق، مأمونة على الرتق والفتق، لها من الله قلب أبي، وساعد قوي، ويد ناصرة، وعين باصرة. أتظن ظناً يا علي أن أبا بكر وثب على هذا الأمر مفتتاً على الأمة خادعاً لها أو متسلطاً عليها! أترأه حل عقودها وأحال عقولها! أترأه جعل نهارها ليلاً، ووزنها كيلاً، ويقظتها رقاداً، وصلاحها فساداً! لا والله! سلا عنها فوهت له، وتطامن لها فلصقت به، ومال عنها فمالت إليه، واشمأز دونها فاشتملت عليه، حبوة حباه الله بها، وعاقبة بلغه الله إليها، ونعمة سربله جمالها، ويد أوجب الله عليه شكرها، وأمة نظر الله به إليها. والله أعلم بخلقها، وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخيرة. وإنك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ولا يحدد حقك فيما آتاك الله، ولكن لك من يزاحمك بمنكب أضخم من منكبك، وقرب أمس من قرابتك، وسن أعلى من سنك، وشيبة أروع من شبيبته، وسيادة لها أصل في الجاهلية وفرع في الإسلام، ومواقف ليس لك

فيها جمل ولا ناقة، ولا تذكر منها في مقدمة ولا ساقه، ولا تضرب فيها بذراع ولا إصبع، ولا تخرج منها ببازن ولا هبع.^(٣٧)

ولم يزل أبو بكر حبة قلب رسول الله ﷺ وعلاقة نفسه، وعيبة سره، ومفزع رأيه ومشورته، وراحة كفه، ومرمق طرفه. وذلك كله بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار، شهرته مغنية عن الدليل عليه. ولعمري إنك أقرب إلى رسول الله ﷺ قرابة، ولكنه أقرب منك قرابة، والقرابة لحم ودم، والقربة نفس وروح. وهذا فرق عرفه المؤمنون، ولذلك صاروا إليه أجمعون. ومهما شككت في ذلك، فلا تشك أن يد الله مع الجماعة، ورضوانه لأهل الطاعة. فادخل فيما هو خير لك اليوم وأنفع لك غداً، والفظ من فيك ما يعلق بلهاتك، وانفث سخيمة صدرك عن تقاتك، فإن يك في الأمد طول، وفي الأجل فسحة، فستأكله مريضاً أو غير مريض، وستشربه هنيئاً أو غير هنيء، حين لا راد لقولك إلا من كان آيساً منك، ولا تابع لك إلا من كان طامعاً فيك، يعض^(٣٨) إهابك، ويعرك^(٣٩) أديمك، ويزري على هديك. هنالك تقرع السن من ندم، وتجرع الماء ممزوجاً بدم، وحينئذ تأسى على ما مضى من عمرك ودارج قوتك، فتود أن لو سقيت بالكأس التي أبيتها، ورددت إلى حالتك التي استغويتها. والله تعالى فينا وفيك أمر هو بالغه، وغيب هو شاهده، وعاقبة هو المرجو لسرائها وضرائها، وهو الولي الحميد، الغفور الودود.

قال أبو عبيدة: فتمشيت متزماً أنوء كأنها أخطو على رأسي، فرقاً من الفرقة، وشفقاً على الأمة، حتى وصلت إلى علي عليه السلام^(٤٠) في خلأه، فابتشته بثي كله، وبرئت إليه منه، ورفقت به. فلما سمعها ووعاها، وسرت في مفاصله حمياها، قال: «حلت مُعلَّوطة»^(٤١)، وولت مُخروطة^(٤٢)، وأنشأ يقول:

إحدى لياليك فهسي^(٤٣) هيسي لا تنعمي الليلة بالتعريس

نعم يا أبا عبيدة، أكل هذا في أنفاس القوم، ويحسون به، ويضطغنون^(٤٤) عليّ! قال أبو عبيدة: فقلت: لا جواب لك عندي، إنما أنا قاض حق الدين، وراتق فتق المسلمين، وسأد ثلثة الأمة، يعلم الله ذلك من جلعجان^(٤٥) قلبي، وقرارة نفسي.

فقال عليّ عليه السلام: والله ما كان قعودي في كن هذا البيت قصداً للخلاف، ولا إنكاراً للمعروف، ولا زراية على مسلم، بل لما قد وقذني به رسول الله صلى الله عليه وآله من فراقه، وأودعني من الحزن لفقده. وذلك أنني لم أشهد بعده مشهداً إلا جدد عليّ حزناً، وذكرني شجناً. وإن الشوق إلى اللحاق به كاف عن الطمع في غيره. وقد عكفت على عهد الله أنظر فيه، وأجمع ما تفرق، رجاء ثواب معد لمن أخلص الله عمله، وأسلم لعلمه ومشيتته، وأمره ونهيه. على أنني ما علمت أن التظاهر عليّ واقع، ولا عن الحق الذي سيق إليّ دافع. وإذ قد أفعم الوادي بي، وحشد النادي من أجلي، فلا مرحباً بما ساء أحداً من المسلمين وسري، وفي النفس كلام لولا سابق عقد وسالف عهد، لشفيت غيظي بخنصري وبنصري، وخضت لجته بأخصي ومفرقي، ولكنني ملجئ إلى أن ألقى الله ربي، وعنده أحتسب ما نزل بي. وإني غاد إلى جماعتكم، فمبايع صاحبكم، صابر على ما ساءني وسركم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

قال أبو عبيدة: فعدت إلى أبي بكر رضي الله عنه فقصصت عليه القول على غرة^(٤٦)، ولم أختزل شيئاً من حلوه ومره، وبكرت غدوة إلى المسجد، فلما كان صباح يومئذ وإذا عليّ مخترق الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنهما فبايعه، وقال خيراً، ووصف جميلاً، وجلس زميلاً^(٤٧)، واستأذن للقيام فمضى وتبعه عمر مكرماً له، مستأثراً لما عنده.

فقال عليّ عليه السلام: ما قعدت عن صاحبكم كارهاً، ولا أتيته فرقاً، ولا أقول ما أقول تعلقة. وإني لأعرف منتهى طرفي، ومحط قدمي، ومنزع قوسي، وموقع سهمي؛ ولكن قد أزمّت على فأسي^(٤٨) ثقة بربي في الدنيا والآخرة.

فقال له عمر رضي الله عنه: كفكف غربك، واستوقف سربك، ودع العصيّ بلحائها، والدلاء على رشائها. فإننا من خلفها وورائها، إن قدحنا أورينا، وإن متحنا أروينا، وإن قرحنا أدمينا. ولقد سمعت أمائلك التي لغزت بها عن صدر أكل بالجوى، ولو شئت لقلت على مقاتلك ما إن سمعته ندمت على ما قلت. وزعمت أنك قعدت في كن بيتك لما وقذك به رسول الله ﷺ من فقده، فهو وقذك ولم يقذ غيرك! بل مصابه أعظم وأعم من ذلك، وإن من حق مصابه ألا تصدع شمل الجماعة بفرقة لا عصام لها، ولا يؤمن كيد الشيطان في بقائها. هذه العرب حولنا، والله لو تداعت علينا في صبح نهار لم نلتق في مسائه. وزعمت أن الشوق إلى اللحاق به كاف عن الطمع في غيره! فمن علامة الشوق إليه نصرة دينه، ومؤازرة أوليائه ومعاونتهم. وزعمت أنك عكفت على عهد الله تجمع ما تفرق منه؛ فمن العكوف على عهد الله النصيحة لعباد الله، والرافة على خلق الله، وبذل ما يصلحون به، ويرشدون عليه. وزعمت أنك لم تعلم أن التظاهر واقع عليك، وأي حق لط^(٤٩) دونك! قد سمعت وعلمت ما قال الأنصار بالأمس سرّاً وجهراً، وتقلبت عليه بطناً وظهراً، فهل ذكرت أو أشارت بك، أو وجدت رضاهم عنك؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلح لهذا الأمر؟ أو أوماً بعينه أو هم في نفسه؟ أتظن أن الناس ضلوا من أجلك، وعادوا كفاراً زهداً فيك، وباعوا الله تحاملاً عليك؟ لا والله! لقد جاءني عقيل ابن زياد الخزرجي في نفر من أصحابه ومعهم شرحبيل بن يعقوب الخزرجي

وقالو: إن عليًّا ينتظر الإمامة، ويزعم أنه أولى بها من غيره، وينكر على من يعقد الخلافة؛ فأنكرت عليهم، ورددت القول في نحرهم حيث قالوا: إنه ينتظر الوحي ويتوكف^(٥٠) مناجاة الملك؛ فقلت: ذاك أمر طواه الله بعد نبيه محمد ﷺ أكان الأمر معقودًا بأنشودة^(٥١)، أو مشدودًا بأطراف ليطه^(٥٢)؟ كلا! والله لا عجماء بحمد الله إلا أفصحت، ولا شوكاء إلا وقد تفتحت. ومن أعجب شأنك قولك: «ولولا سالف عهد وسابق عقد، لشفيت غيظي» وهل ترك الدين لأهله أن يشفوا غيظهم بيد أو بلسان؟ تلك جاهلية وقد استأصل الله شأفتها واقتلع جرثومتها، وهور ليلها، وغور سيلها، وأبدل منها الروح والريحان، والهدى والبرهان. وزعمت أنك ملجم؛ ولعمري إن من اتقى الله، وآثر رضاه، وطلب ما عنده، أمسك لسانه وأطبق فاه، وجعل سعيه لما وراه. فقال علي ﷺ: مهلاً يا أبا حفص، والله ما بذلت وأنا أريد نكته، ولا أقررت ما أقررت وأنا أبتغي حولاً عنه، وإن أخسر الناس صفقة عند الله من أثر النفاق، واحتضن الشقاق، وفي الله سلوة عن كل حادث، وعليه التوكل في جميع الحوادث. ارجع يا أبا حفص إلى مجلسك ناقع القلب، مبرود الغليل، فسيح اللبان^(٥٣)، فصيح اللسان، فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشد الأزر، ويحط الوزر، ويضع الإصر، ويجمع الألفة بمشيئة الله وحسن توفيقه. قال أبو عبيدة ﷺ: فانصرف علي وعمر رضي الله عنهما. وهذا أصعب ما مر عليّ بعد رسول الله ﷺ.

(٢) ومن كلام عائشة^(٥٤) رضي الله عنها في الانتصار لأبيها:

يروى أنه بلغ عائشة رضي الله عنها أن أقواماً يتناولون أبا بكر ﷺ، فأرسلت إلى أزفلة^(٥٥) من الناس، فلما حضروا، أسدلت أستارها، وعلت وسادها،

ثم قالت: أبي، وما أبيه! أبي والله لا تَعْطُوهُ^(٥٦) الأيدي، ذاك طود منيف؛ وفرع مديد، هيهات، كذبت الظنون! أنجح إذ أكديتم، وسبق إذ ونيتم؛ سبق الجواد إذا استولى على الأمد. فتى قريش ناشئاً، وكهفها كهلاً، يفك عانيها، ويريش مملقها، ويرأب شعبها، ويلم شعنها، حتى حليت قلوبها، ثم استشرى في دين الله فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائها مسجداً يحى فيه ما أمات المبطلون. وكان رحمه الله غزير الدمعة، وقيد الجوانح، شجي النشيج، فانقضت إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزئون به الله ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فأكبرت ذلك رجالات من قريش فحنت قسيها، وفوقت سهامها، وانتكأوه غرضاً، فما فلوا له صفاة، ولا قصفوا له قناة، ومر على سيسائه^(٥٧)، حتى إذا ضرب الدين بجرانه، ورست أوتاده، ودخل الناس فيه أفواجا، ومن كل فرقة أرسالاً وأشتاتاً، اختار الله لنيبه ما عنده؛ فلما قبض الله نبيه ﷺ ضرب الشيطان رواقه، ومد طنبه، ونصب حباله، وأجلب بخيله ورجله، واضطرب جبل الإسلام، ومرج عهده وماج أهله، وبُغي الغوائل، وظنت رجال أن قد أكثبت أطماعهم نهزها، ولات حين الذي يرجون، وأننى والصديق بين أظهرهم! فقام حاسراً مشمراً، فجمع حاشيته ورفع قُطْرِيه، فرد رسن الإسلام على غربه، ولم شعته بطبه، وانتاش الدين فنعشه، فلما أراح الحق على أهله، وقرر الرؤوس على كواهلها، وحقن الدماء في أهبها، آتته منيته، فسد ثُلُمته بنظيره في الرحمة، وشقيقه في السيرة والمعدلة، ذاك ابن الخطاب، لله در أم حملت به ودرت عليه! لقد أوحدت به، ففنخ^(٥٨) الكفرة وديخها، وشرد الشرك شذر مذر، وبعج الأرض وبخعها، فقاءت أكلها، ولفظت خبأها^(٥٩)، ترأمة ويصدف عنها، وتصدى له ويأبأها. ثم وزع فيها فيئها وودعها كما صحبها.

فأروني ماذا ترتنون، وأيَّ يومي أبي تنقمون: أيوم إقامته إذ عدل فيكم، أم يوم ظعنه إذ نظر لكم؟ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت: أنشدكم الله هل أنكرتم مما قلت شيئاً؟ قالوا: اللهم لا.

(٣) كلمة أم الخير بنت الحريش^(٦٠):

ومن كلام أم الخير بنت الحريش البارقية يوم صفين في الانتصار لعلي عليه السلام: يروى أن معاوية كتب إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش البارقية برحلهما، وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه بالخير خيراً وبالشر شراً. فلما ورد عليه كتابه، ركب إليها فأقرأها الكتاب، فقالت: أما أنا فغير زائغة عن طاعة ولا معتلة بكذب! ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمر تختلج في صدري. فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها: يا أم الخير، إن أمير المؤمنين كتب إليّ أنه يجازيني بقولك في بالخير خيراً وبالشر شراً؛ فما عندك؟ قالت: يا هذا لا يطمعنك برك بي أن أسرك بباطل، ولا تؤيسك معرفتي بك أن أقول فيك غير الحق. فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية، فأنزلها مع حريمه ثلاثاً، ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع، وعنده جلساؤه، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته؛ قال لها: وعليك السلام يا أم الخير، وبالرغم منك دعوتني بهذا الاسم؛ قالت: مه يا أمير المؤمنين! فإن بديهة السلطان مدحضة لما يجب علمه ولكل أجل كتاب؛ قال: صدقت، فكيف حالك يا خالة؟ وكيف كنت في مسيرك؟ قالت: لم أزل في عافية وسلامة حتى صرت إليك فأنا في مجلس أنيق، عند ملك رفيق؛ قال معاوية: بحسن نيتي ظفرت بكم؛ قالت: يا أمير المؤمنين أعيدك بالله من دحض المقال وما تُردي عاقبته، قال: ليس هذا أردنا، أخبريني كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر؟ قالت:

لم أكن والله زورته^(٦١) قبل ولا رويته بعد، وإنما كانت كلمات نفثهن لساني حين الصدمة، فإن شئت أن أحدث لك مقالاً غير ذلك فعلت؛ قال: لا أشاء ذلك. ثم التفت إلى أصحابه فقال: أيكم يحفظ كلام أم الخير؟ فقال رجل من القوم: أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي سورة الحمد؛ قال: هاته؛ قال: نعم كأني بها يا أمير المؤمنين في ذلك اليوم عليها برد زبيدي كثيف الحاشية، وهي على جمل أرمك^(٦٢) وقد أحيط حولها، وبيدها سوط منتشر الضفر، وهي كالفحل يهدر في شقشقته تقول: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إن الله قد أوضح الحق، وأبان الدليل، ونور السبيل، ورفع العلم، فلم يدعكم في عمياء مبهمة! ولا سوداء مدلهمة، فإلى أين تريدون رحمكم الله! أفراراً عن أمير المؤمنين، أم فراراً من الزحف، أم رغبة عن الإسلام، أم ارتداداً عن الحق! أما سمعتم الله عز وجل يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ .

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشر الرعب، وبيدك يا رب أزمة القلوب، فاجمع الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والوصي الوفي، والصديق الأكبر! إنها إحن بدريه، وأحقاد جاهليته، وضغائن أحمديه؛ وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس.

ثم قالت: ﴿فَقَنَّبُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾. صبراً معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم، وكأني بكم غداً قد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة، فرت من قسورة، لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا

الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، وعمّا قليل ليصبحن نادمين، حين تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة! إنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل في النار. أيها الناس، إن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها واستبطنوا مدة الآخرة فسعوا لها. والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه، فإلى أين تريدون - رحمكم الله - عن ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته وأبي ابنه؟ خلق من طيئته، وتفرع عن نبعته، وخصه بسرّه، وجعله باب مدينته، وأعلم بحبه المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين. فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته، ويمضي على سنن استقامته، لا يعرج لراحة اللذات. وهو مفلق الهام، ومكسر الأصنام، إذ صلى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون. فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزي بدر، وأفى أهل أحد، وفرق جمع هوازن؛ فيا لها وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً، وردة وشقاقاً، وقد اجتهدت في القول، وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال معاوية: والله يا أم الخير ما أردت بهذا إلا قتلى! والله لو قتلتك ما خرجت في ذلك.

قالت: والله ما يسوءني يابن هند أن يجري الله ذلك على يدي من يسعدني الله بشقائه؛ قال: هيهات يا كثيرة الفضول، ما تقولين في عثمان بن عفان؟ قالت: وما عسيت أن أقول فيه، استخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون؛ فقال: إيها يا أم الخير، هذا والله أصلك الذي تبين عليه؛ قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيداً، ما أردت بعثمان نقصاً، ولقد كان سباقاً

إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة. قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة، اغتيل من مأمنه، وأتي من حيث لم يحذر، وقد وعده رسول الله ﷺ الجنة. قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: يا هذا لا تدعني كرجيع الصبيغ يُعرك في المكن (٦٣)؛ قال: حقاً لتقولن ذلك وقد عزمت عليك؛ قالت: وما عسيت أن أقول في الزبير ابن عمه رسول الله ﷺ وحواريه، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، ولقد كان سباقاً إلى كل مكرمة في الإسلام. وإني أسألك بحق الله يا معاوية، فإن قريشاً تحدث أنك من أحلمها، أن تسعني بفضل حلمك، وأن تعفيني من هذه المسائل، وامض لما شئت من غيرها؛ قال: نعم وكرامة، قد أعفيتك؛ وردها مكرمة إلى بلدها.

(٤) كلمة الزرقاء بنت عدي:

ومن كلام الزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية ما قالته يوم صفين أيضاً: يروى أنها ذكرت عند معاوية يوماً، فقال لجلسائه: أيكم يحفظ كلامها؟ قال بعضهم: نحن نحفظه يا أمير المؤمنين؛ قال: فأشيروا علي في أمرها؛ فأشار بعضهم بقتلها، فقال: بئس الرأي! أحسن بمثلي أن يقتل امرأة! ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها إليه مع ثقة من ذوي محرمها وعدة من فرسان قومها، وأن يمهد لها وطاء ليناً، ويسترها بستر خفيف (٦٥)، ويوسع لها في النفقة. فلما دخلت على معاوية، قال: مرحباً بك وأهلاً! قدمت خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة! قال: كيف كنت في مسيرك؟ قالت: ربيبة بيت أو طفلاً ممهداً؛ قال: بذلك أمرناهم. أتدرين فيم بعثت إليك؟ قالت: وأنا لي بعلم ما لم أعلم؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل؛ قال: ألسنت الراكبة الجمل الأحمر، والواقفة بين الصفين بصفين تحضين الناس

على القتال، وتوقدين الحرب؟ فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبت الزنب، ولن يعود ما ذهب؛ والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر؛ قال لها معاوية: أتحفظين كلامك يومئذ؟ قالت: لا والله، ولقد أنسيته؛ قال: لكنني أحفظه، لله أبوك حين تقولين:

أيها الناس، ارعوا وارجعوا! إنكم أصبحتم في فتنة غشتكم جلايب الظلم، وجارت بكم عن قصد المحجة. فيا لها فتنة عمياء، صماء بكماء، لا تسمع لناعقها، ولا تسلس لقائدها. إن المصباح لا يضيء في الشمس، والكواكب لا تنير مع القمر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد. ألا من استرشد أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه.

أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها! فصبراً يا معاشر المهاجرين والأنصار على الغصص؛ فكان قد اندمل شعب الشتات، والتأمت كلمة التقوى، ودمغ الحق باطله! فلا يجهلن أحد فيقول: كيف العدل وأناى! ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء! ولهذا اليوم ما بعده، والصبر خير في عواقب الأمور. إيهًا إلى الحرب قدماً غير ناكسين ولا متشاكسين.

ثم قال لها: يا زرقاء، لقد شرتك علياً في كل دم سفكه؛ قالت: أحسن الله بشارتك، وأدام سلامتك؛ فمثلك من بشر بخير وسر جليسه؛ قال: ويسرك ذلك؟ قالت: نعم سررت بالخبر فأنى لي بتصديق الفعل! فضحك معاوية وقال: لوفاؤكم له بعد موته أعجب عندي من حبكم له في حياته! اذكري حاجتك؛ قالت: يا أمير المؤمنين، آليت على نفسي ألا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً، ومثلك من أعطى من غير مسألة، وجاد من غير طلبه؛ قال: صدقت، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكسًا.

(٥) عكرشة بنت الأطرش:

ومن كلام عكرشة بنت الأطرش ما قالت يوم صفين أيضاً:

يروى أنها دخلت على معاوية متوكئة على عكاز لها، فسلمت عليه بالخلافة ثم جلست؛ فقال لها معاوية: الآن صرت عندك أمير المؤمنين؟ قالت: نعم إذ لا عليّ حي! قال: ألسنت المتقلدة حائل السيف بصفين وأنت واقفة بين الصفين تقولين: أيها الناس، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم. إن الجنة لا يحزن من قطنهما، ولا يهرم من سكنها، ولا يموت من دخلها؛ فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم همومها. وكونوا قومًا مستبصرين في دينهم، مستظهرين على حقهم؛ إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب، لا يفقهون الإيمان، ولا يدرون ما الحكمة. دعاهم إلى الباطل فأجابوه، واستدعاهم إلى الدنيا فلبوه. فالله عباد الله في دين الله! وإياكم والتواكل فإن ذلك ينقض عرى الإسلام، ويطفئ نور الحق. هذه بدر الصغرى، والعقبة الأخرى. يا معشر المهاجرين والأنصار، امضوا على بصيرتكم، واصبروا على عزيزتكم، فكأنى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة تقصع قصع^(٦٦) البعير.

ثم قال: فكأنى أراك على عصاك هذه قد انكفأ عليك العسكران يقولون هذه عكرشة بنت الأطرش، فإن كدت لتفلين أهل الشام لولا قدر الله، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، يقول الله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ الآية، وإن اللبيب إذا كره أمرًا لا يجب إعادته؛ قال: صدقت، فاذكري حاجتك؛ قالت: كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فترد على فقرائنا، وقد فقدنا ذلك، فما يجبر لنا كسير، ولا ينعش لنا فقير؛ فإن كان عن رأيك فمثلك من انتبه من الغفلة

وراجع التوبة، وإن كان عن غير رأيك فما مثلك من استعان بالخونة، ولا استعمل الظلمة؛ قال معاوية: يا هذه، إنه ينوبنا من أمور رعيتنا ثغور تفتق، وبحور تتدفق؛ قالت: سبحان الله! والله ما فرض الله لنا حقاً فجعل فيه ضرراً لغيرنا وهو علام الغيوب؛ قال معاوية: هيهات يا أهل العراق، نبهكم عليّ فلن تطاقوا. ثم أمر برد صدقاتهم فيهم وإنصافهم.

(٦) رسالة لعبد الحميد الكاتب^(٦٧)؛

كتب عبد الحميد^(٦٨) بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد لبعض من ولاه^(٦٩):

أما بعد، فإن أمير المؤمنين - عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الجلف الجافي الأعرابي، المتسكع في حيرة الجهالة، وظلم الفتنة، ومهاوي الهلكة، ورعاية الذين عاثوا في أرض الله فساداً، وانتهكوا حرمة الإسلام استخفافاً، وبدلوا نعمة الله كفرًا، واستحلوا دماء أهل سلمه جهلاً - أحب أن يعهد إليك في لطائف أمورك، وعوام شئونك، ودخائل أحوالك، ومصطفرف تنقلك عهداً يملك فيه أدبه، ويشرع لك به عظته، وإن كنت بحمد الله من دين الله وخلافته بحيث اصطنعك الله لولاية العهد مختصاً لك بذلك دون لحمته وبني أبيك. ولولا ما أمر الله تعالى به دالاً عليه، وتقدمت فيه الحكماء آمرين به: من تقديم العظة، والتذكير لأهل المعرفة، وإن كانوا أولى سابقة في الفضل وخصيصاء في العلم، لاعتمد أمير المؤمنين على اصطناع الله إياك وتفضيله لك بما رآك أهله في محلك من أمير المؤمنين، وسبقك إلى رغائب أخلاقه، وانتزاعك محمود شيمه، واستيلائك على مشابه تدبيره. ولو كان المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم، أو لقتوه إلهاماً من تلقائهم ولم نصبهم تعلموا شيئاً من غيرهم،

لنحللناهم علم الغيب، ووضعناهم بمنزلة قصر بها عنهم خالقهم المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيتها في فردانيتها وسابق لاهوتيتها، احتجاجاً منهم لتعقب في حكمه، وتثبت في سلطانه وتنفيذ إرادته، على سابق مشيئته. ولكن العالم الموفق للخير، المخصوص بالفضل، المحبو بمزية العلم وصفوته، أدركه معاناً عليه بلطف بحثه، وإذلال كنفه، وصحة فهمه، وهجر سآمته.

وقد تقدم أمير المؤمنين إليك، آخذاً بالحجة عليك، مؤدياً حق الله الواجب عليه في إرشادك وقضاء حقك، وما ينظر به الوالد المعنوي الشفيق لولده. وأمير المؤمنين يرجو أن ينزهك الله عن كل قبيح يهش له طمع، وأن يعصمك من كل مكروه حاق بأحد، وأن يحصنك من كل آفة استولت على امرئ في دين أو خلق، وأن يبلغه فيك أحسن ما لم يزل يعود به ويريه من آثار نعمة الله عليك، سامية بك إلى ذروة الشرف، متبججة بك بسطة الكرم، لائحة بك في أزهر معالي الأدب، موروثة لك أنفس ذخائر العز؛ والله يستخلف عليك أمير المؤمنين ويسأل حياتك، وأن يعصمك من زيغ الهوى، ويحضرك داعي التوفيق، معاناً على الإرشاد فيه، فإنه لا يعين على الخير ولا يوفق له إلا هو.

اعلم أن للحكمة مسالك تفضي مضايق أوائلها بمن أمها سالكا، وركب أخطارها قاصداً، إلى سعة عاقبتها، وأمن سرحها، وشرف عزها. وأنها لا تعار بسخف الخفة، ولا تنشأ بتفريط الغفلة، ولا يتعدى فيها بامرئ حده. وربما أظهرت بسطة الغي مستور العيب. وقد تلقنتك أخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها، من غير تعب البحث في طلبها، ولا متناول لمناولة ذروتها؛ بل تأثلت منها أكرم نبعاتها، واستخلصت منها أعتق جواهرها؛ ثم سموت إلى لباب مصاصها^(٧٠)، وأحرزت منفس ذخائرها، فاقتعد ما أحرزت، ونافس فيها أصبت.

واعلم أن احتواءك على ذلك وسبقك إليه بإخلاص تقوى الله في جميع أمورك مؤثراً لها، وإضمار طاعته منظوياً عليها، وإعظام ما أنعم الله به عليك شاكراً له، مرتبطاً فيه للمزيد بحسن الحياطة له والذب عنه من أن تدخلك منه سامة ملال، أو غفلة ضياع، أو سنة تهاون، أو جهالة معرفة، فإن ذلك أحق ما بدئ به ونظر فيه، معتمداً عليه بالقوة والآلة والعدة والانفراد به من الأصحاب والحامة. فتمسك به لاجئاً إليه، واعتمد عليه مؤثراً له، والتجئ إلى كنفه متحيزاً إليه: فإنه أبلغ ما طلب به رضا الله وأنجحه مسألة، وأجزله ثواباً، وأعوده نفعاً، وأعمه صلاحاً؛ أرشدك الله لحظك، وفهمك سداده، وأخذ بقلبك إلى محموده. ثم اجعل لله في كل صباح ينعم عليك ببلوغه، ويظهر منك السلامة في إشراقه، من نفسك نصيباً تجعله له شكراً على إبلاغه إياك يومك ذلك بصحة جوارح وعافية بدن، وسبوغ نعم، وظهور كرامة، وأن تقرأ فيه من كتاب الله - تبارك وتعالى - جزءاً تردد رأيك في آية، وترتل^(٧١) لفظك بقراءته، وتحضره عقلك ناظراً في محكمه، وتفهمه مفكراً في متشابهه: فإن في القرآن شفاء الصدور من أمراضها، وجلاء وساوس الشيطان وصعاصعه^(٧٢)، وضياء معالم النور، تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون. ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك، فإنه مغلاق الحسنات، ومفتاح السيئات، وخصم العقل.

واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك، ويعترض غفلتك، لأنها خدع إبليس، وخواتل مكره، ومصايد مكيدته؛ فاحذر لها مجانباً لها، وتوقها محترساً منها؛ واستعد بالله عز وجل من شرها، وجاهدها إذا تناصرت عليك بعزم صادق لا ونية^(٧٣) فيه، وحزم نافذ لا مثنوية^(٧٤) لرأيك بعد إصداره، وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه؛ ومضاعة صارمة لا أناة معها، ونية صحيحة

لا خلجة شك فيها: فإن ذلك ظهري صدق لك على ردعها عنك، وقمعها دون ما تتطلع إليه منك؛ فهي واقية لك سخطة ربك، داعية إليك رضا العامة عنك، ساترة عليك عيب من دونك؛ فازدن بها متحليًا، وأصب بأخلاقك مواضعها الحميدة منها، وتوق عليها الآفة التي تقتطعك عن بلوغها، وتقصر بك دون شأوها: فإن المثونة إنما اشتدت مستصعبة، وفدحت باهظة أهل الطلب لأخلاق أهل الكرم المتحلين سمو القدر، بجهالة مواضع ذميم الأخلاق ومحمودها، حتى فرط أهل التقصير في بعض أمورهم، فدخلت عليهم الآفات من جهات أمنوها، فنسبوا إلى التفریط، ورضوا بذل المنزل، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل، عمهين عن درج الشرف، ساقطين دون منزلة أهل الحجا. فحاول بلوغ غاياتها محرزًا لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع، محصنًا أعمالك من العجب: فإنه رأس الهوى، وأول الغواية، ومقاد الهلكة؛ حارسًا أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوي الألقاب وذميم تنازها، من حيث أتت الغفلة، وانتشر الضياع، ودخل الوهن. فتوق غلوب الآفاق على عقلك، فإن شواهد الحق ستظهر بأماراتها تصديق آرائك عند ذوي الحجا حال الرأي وفحص النظر. فاجتلب لنفسك محمود الذكر وباقي لسان الصدق بالحذر لما تقدم إليك فيه أمير المؤمنين، متحرزًا من دخول الآفات عليك من حيث أمنك وقلة ثقتك بمحكمها: من ذلك أن تملك أمورك بالقصد، وتداري جندك بالإحسان، وتصون سرك بالكتمان، وتداوي حقدك بالأنصاف، وتذلل نفسك بالعدل، وتحصن عيوبك بتقويم أودك، وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه بالعجب المُردي. وأناتك فوقها الملال وفوت العمل، ومضاءتك فدرعها روية النظر واكنفها بأناة الحلم. وخلوتك فاحرسها من الغفلة واعتماد الراحة، وصمتك

فانف عنه عي اللفظ، وخف سوء القالة؛ واستماعك فأرعه حسن التفهم، وقوه بإشهاد الفكر؛ وعطاءك فامهد له بيوتات الشرف وذوي الحسب، وتحرز فيه من السرف واستطالة البذخ وامتنان الصنيعة؛ وحياءك فامنعه من الخجل وبلادة الحصر؛ وحلمك فزعه عن التهاون وأحضره قوة الشكيمة؛ وعقوبتك فقصر بها عن الإفراط، وتعمد بها أهل الاستحقاق؛ وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق، وخذ به واجب المفترض، وأقم به أود الدين؛ واستئناسك فامنع منه البداء وسوء المناقشة^(٧٥). وتعهذك أمورك فحده أوقاتها، وقدره ساعات لا تستفرغ قوتك، ولا تستدعي سآمتك؛ وعزمالك فانف عنها عجلة الرأي، ولجاجة الإقدام؛ وفرحاتك فاشكمها عن البطر، وقيدها عن الزهو؛ وروعاتك فحطها من دهش الرأي واستسلام الخضوع؛ وحذراتك فامنعه من الجبن، واعمد بها الحزم؛ ورجاءك فقيده بخوف الفأنت، وامنعه من أمن الطلب.

هذه جوامع خلال، دخال النقص منها واصل إلى العقل بلطائف أبنة، وتصارييف حويله^(٧٦)، فأحكمها عارفاً بها، وتقدم في الحفظ لها، معتزماً على الأخذ بمراشدها والانتهاه منها إلى حيث بلغت بك عظة أمير المؤمنين وأدبه إن شاء الله.

ثم لتكن بطانتك وجلساؤك في خلواتك ودخلاؤل في سرك، أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك، وعامة قوادك ممن قد حنكته السن بتصارييف الأمور، وخبطته فصالها بين فراسن^(٧٧) البزل منها، وقلبته الأمور في فنونها، وركب أطوارها، عارفاً بمحاسن الأمور ومواضع الرأي وعين المشورة؛ مأمون النصيحة، منطوي الضمير على الطاعة. ثم أحضرهم من نفسك وقاراً يستدعي لك منهم الهيبة، واستئناساً يعطف إليك منهم المودة، وإنصافاً

يفل إفاضتهم له عندك بما تكره أن ينشر عنك من سخافة الرأي وضياع الحزم. ولا يغلبن عليك هواك فيصرفك عن الرأي ويقتطعك دون الفكر. وتعلم أنك وإن خلوت بسر فألقيت دونه ستورك، وأغلقت عليه أبوابك، فذلك لا محالة مكشوف للعامة، ظاهر عنك وإن استترت بربما ولعل وما أرى إذاعة ذلك وأعلم، بما يرون من حالات من ينقطع به في تلك المواطن. فتقدم في إحكام ذلك من نفسك، واسدد خلله عنك: فإنه ليس أحد أسرع إليه سوء القالة ولغط العامة بخير أو شر ممن كان في مثل حالك ومكانك الذي أصبحت به من دين الله والأمل المرجو المنتظر فيك. وإياك أن يغمز فيك أحد من حافتك وبطانة خدمتك بضعفة يجد بها مساعاً إلى النطق عندك بما لا يعتزلك عيبه، ولا تخلو من لائمته، ولا تأمن سوء الأحداث فيه، ولا يرخص سوء القالة به إن نجم ظاهراً أو علن بادياً، ولن يجترئوا على تلك عندك إلا أن يروا منك إصغاء إليها وقبولاً لها وترخيصاً لهم في الإفاضة بها. ثم إياك وأن يفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات والمزاح والمضحك التي يتسخر بها أهل البطالة، ويتسرع نحوها ذوو الجهالة؛ ويجد فيها أهل الحسد مقالاً لعب يذيعونه، وطعنًا في حق يجحدونه؛ مع ما في ذلك من نقص الرأي، ودرن العرض، وهدم الشرف، وتأثيل الغفلة، وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم ككمون النار في الحجر الصلد، فإذا قدح لاح شرره، وتلهب وميضه، ووقد تضرمه. وليست في أحد أقوى سطوة، وأظهر توقدًا، وأعلى كموئًا، وأسرع إليه بالعب وتطرق الشين منها لمن كان في مثل سنك: من أغفال^(٧٨) الرجال وذوي العنفوان في الحداثة الذين لم يقع عليهم سمات الأمور، ناطقاً عليهم لائحها، ظاهرًا فيهم وسمها، ولم تحضهم شهادتها، مظهرة للعامة فضلهم، مديعة حسن الذكر

عنهم؛ ولم يبلغ بهم الصيت في الحنكة مستمعا يدفعون به عن أنفسهم نواطق
ألسن أهل البغي، ومواد أبصار أهل الحسد.

ثم تعهد من نفسك لطيف عيب لازم لكثير من أهل السلطان والقدرة:
من إبطار^(٧٩) الذرع ونخوة الشرف والتهيب وعيب الصلف؛ فإنها تسرع بهم إلى
فساد وتهجين عقولهم في مواطن جهة، وأنحاء مصطفة، منها قلة اقتدارهم
على ضبط أنفسهم في مواكبهم ومسائرتهم العامة: فمن مقلقل شخصه بكثرة
الالتفات عن يمينه وشماله، تزدهيه الخفة، ويبطره إجلال الرجال حوله؛ ومن
مقبل في موكبه على مداعبة مسائره بالمفاكهة له والتضاحك إليه، والإيجاف في
السير مرحا، وتحريك الجوارح متسرعا يخال أن ذلك أسرع له وأحث لمطيته.
فلتحسن في ذلك هيئتك، ولتجمل فيه دعتك؛ وليقل على مسارك إقبالك إلا
وأنت مطرق النظر، غير ملتفت إلى محدث، ولا مقبل عليه بوجهك في موكبك
لمحادثته، ولا موجف في السير مقلقل لجوارحك بالتحريك والاستنهاض؛
فإن حسن مسيرة الوالي واتداعه في تلك الحالة دليل على كثير من غيوب أمره
ومستتر أحواله.

واعلم أن أقواما يتسرعون إليك بالسعاية، ويأتونك على وجه النصيحة،
ويستميلونك بإظهار الشفقة، ويستدعونك بالإغراء والشبهة، ويوطئونك
عشوة الحيرة؛ ليجعلوك لهم ذريعة إلى استئكال العامة بموضعهم منك في
القبول منهم والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة، أو أسرعوا بك في أمره
إلى الظنة؛ فلا يصلن إلى مشافهتك ساع بشبهة، ولا معروف بتهمة، ولا
منسوب إلى بدعة فيعرضك لإيتاغ^(٨٠) دينك، ويحملك على رعتك بما لا
حقيقة له عندك، ويلحملك^(٨١) أعراض قوم لا علم لك بدخلهم^(٨٢)، إلا بما
أقدم به عليهم ساعيا وأظهر لك منهم منتصحا. وليكن صاحب شرطتك

المتولي لإنهاء ذلك هو المنصوب لأولئك، والمستمع لأقاويلهم، والفاحص عن نصائحهم؛ ثم لينه ذلك إليك على ما يرفع إليه منه لتأمره بأمرك فيه، وتقفه على رأيك من غير أن يظهر ذلك للعامة، فإن كان صواباً نالتك خيرته، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل، أو فرطة سعى بها كاذب، فنالت الساعي منها أو المظلوم عقوبة، أو بدر من واليك إليه عقوبة ونكال، لم يعصب^(٨٣) ذلك الخطأ بك ولم تنسب إلى تفريط، وخلوت من موضع الذم فيه محضراً إليه ذهنك وصواب رأيك.

وتقدم إلى من تولى ذلك الأمر وتعتمد عليه فيه ألا يقدم على شيء ناظراً فيه، ولا يحاول أخذ أحد طارقاً له، ولا يعاقب أحداً منكلاً به، ولا يخلي سبيل أحد صافحاً عنه لإصحار^(٨٤) برائته وصحة طريقته، حتى يرفع إليك أمره، وينهي إليك قضيته على جهة الصدق، ومنحى الحق، ويقين الخبر؛ فإن رأيت عليه سبيلاً لمحبس أو مجازاً لعقوبة، أمرته بتولي ذلك من غير إدخاله عليك، ولا مشافهة لك منه؛ فكان المتولي لذلك ولم يجر على يديك مكروه رأي ولا غلظة عقوبة. وإن وجدت إلى العفو عنه سبيلاً، أو كان مما قرف به خلياً، كنت أنت المتولي للإنعام عليه بتخلية سبيله، والصفح عنه بإطلاق أسره؛ فتوليت أجر ذلك واستحققت ذخره، وأنطقت لسانه بشكرك، وطوقت قومه حمدك، وأوجبت عليهم حقك؛ فقرنت بين خصلتين، وأحرزت حظوتين: ثواب الله في الآخرة، ومحمود الذكر في الدنيا.

ثم إياك أن يصل إليك أحد من جنك وجلسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك، أو حاجة يدهك بطلبها، حتى يرفعها قبل ذلك إلى كاتبك الذي أهدفه لذلك ونصبته له، فيعرضها عليك منهياً لها على جهة

الصدق عنها، وتكون على معرفة من قدرها: فإن أردت إسعافه بها ونجاح ما سألت منها، أذنت له في طلبها، باسماً له كنفك، مُقبلاً عليه بوجهك؛ مع ظهور سرورك بما سألك، وفسحة رأي وبسطة ذرع، وطيب نفس. وإن كرهت قضاء حاجته، وأحببت رده عن طلبته؛ وثقل عليك إجابته إليها وإسعافه بها، أمرت كاتبك فصفحه^(٨٥) عنها، ومنعه من مواجعتك بها؛ فخفت عليك في ذلك المئونة، وحسن لك الذكر، ولم ينشر عنك تجهم الرد، وينلك سوء القالة في المنع، وحمل على كاتبك في ذلك لائحة أنت منها بريء الساحة.

وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طراً عليك من الوفود وأتاك من الرسل، فلا يصلن إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إليك، وعلم ما قدم له عليك، وجهة ما هو مكلمك به، وقدر ما هو سائلك إياه إذا هو وصل إليك، فأصدرت رأيك في حوائجه، وأجلت فكرك في أمره، واخترت معترماً على إرادتك في جوابه، وأنفذت مصدور رويتك في مرجوع مسألته قبل دخوله عليك، وعلمه بوصول حاله إليك؛ فرفعت عنك مئونة البديهة، وأرخيت عن نفسك خناق الروية، وأقدمت على رد جوابه بعد النظر وإجالة الفكر فيه. فإن دخل إليك أحد منهم فكلمك بخلاف ما أنهى إلى كاتبك وطوى عنه حاجته قبلك، دفعته عنك دفعاً جميلاً، ومنعته جوابك منعاً وديعاً؛ ثم أمرت حاجبك بإظهار الجفوة له والغلظة عليه، ومنعه من الوصول إليك؛ فإن ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب، صارفاً عنك مئونها، ومسهلاً عليك مستصعبها. احذر تضييع رأيك وإهمالك أدبك في مسالك الرضا والغضب واعتوارهما إياك، فلا يزدهنك إفراط عجب تستخفك روائعه، ويستهويك منظره، ولا يبدرن منك ذلك خطأ ونزق خفة لمكروه إن حل بك، أو حادث إن طراً عليك.

وليكن من نفسك ظهري ملجأً تتحرز به من آفات الردى، وتستعضده في مهم^(٨٦) نازل، وتتعقب به أمورك في التدبير. فإن احتجت إلى مادة من عقلك، وروية من فكرك، أو انبساط من منطقك؛ كان انحيازك إلى ظهريك مزداداً مما أحبت الامتياح منه والامتياز؛ وإن استدبرت^(٨٧) من أمورك بوادٍ جهل أو مضي زلل أو معاندة حق أو خطل تدبير، كان ما احتجت إليه من رأيك عذراً لك عند نفسك، وظهرياً قوياً على رد ما كرهت، وتخفيفاً لمثونة الباغين عليك في القالة وانتشار الذكر؛ وحصناً من غلوب الآفات عليك، واستعلائها على أخلاقك.

وامنع أهل بطانتك وخاصة خدمك من استلحام أعراض الناس عندك بالغيبة، والتقرب إليك بالسعاية، والإغراء من بعض ببعض؛ أو النيمة إليك بشيء من أحوالهم المستترة عنك، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة: فإن ذلك أبلغ بك سموّاً إلى منالة الشرف، وأعون لك على محمود الذكر، وأطلق لعنان الفضل في جزالة الرأي وشرف المهمة وقوة التدبير.

واملك نفسك عن الانبساط في الضحك والانفهاق، وعن القطوب بإظهار الغضب وتنحله: فإن ذلك ضعف عن ملك سورة الجهل، وخروج من انتحال اسم الفضل. وليكن ضحكك تبساً أو كشراً في أحيان ذلك وأوقاته، وعند كل رائع مستخف مطرب، وقطوبك إطراقاً في مواضع ذلك وأحواله، بلا عجلة إلى السطوة ولا إسراع إلى الطيرة، دون أن تكنفها روية الحلم؛ وتملك عليها بادرة الجهل.

إذا كنت في مجلس ملئك، وحيث حضور العامة مجلسك، فإياك والرمي بنظرِك إلى خاص من قوادك، أو ذي أثره عندك من حشمك. وليكن نظرك

مقسومًا في الجميع، وإراعتك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة، ووقار حسن، وحضور فهم مجتمع، وقلة تضجر بالحدث. ثم لا يبرح وجهك إلى بعض حرسك وقوادك متوجهًا بنظر ركين، وتفقد محض. وإن وجه إليك أحد منهم نظرة محدقًا، أو رماك ببصره ملحًا، فاخفض عنه إطرًا جميلًا باتداع وسكون. وإياك والتسرع في الإطراق، والخفة في تصريف النظر، والإلحاح على من قصد إليك في مخاطبته إياك رامقًا بنظره.

واعلم أن تصفحك وجوه جلسائك وتفقدك مجالس قوادك من قوة التدبير، وشهامة القلب، وذكاء الفطنة، وانتباه السنة. فتفقد ذلك عارفًا بمن حضرك وغاب عنك، عالمًا بمواضعهم من مجلسك، ثم اعد بهم عن ذلك سائلًا لهم عن أشغالهم التي منعتهم من حضور مجلسك، وعاقبتهم بالتخلف عنك.

إن كان أحد من حشمك وأعوانك تثق منه بغيب ضمير، وتعرف منه لين طاعة، وتشرف منه على صحة رأي، وتأمنه على مشورتك، فإياك والإقبال عليه في كل حادث يرد عليك، والتوجه نحوه بنظرك عند طوارق ذلك، وأن تريه أو أحدًا من أهل مجلسك أن بك حاجة إليه موحشة، أو أن ليس بك عنه غنى في التدبير، أو أنك لا تقضي دونه رأيًا، إشرًا منك له في رويته، وإدخالًا منك له في مشورتك، واضطرارًا منك إلى رأيه في الأمر يعروك، فإن ذلك من دخائل العيوب التي ينتشر بها سوء القالة عن نظرائك، فانفها عن نفسك خائفًا لا اعتلاقها ذكرك، واحجبها عن رويته قاطعًا لأطباع أوليائك عن مثلها عندك، أو غلوبهم عليها منك.

واعلم أن للمشورة موضع الخلوة وانفراد النظر، ولكل أمر غاية تحيط بحدوده، وتجمع معاملة. فابغها محرزًا لها، ورمها طالبًا ليلها؛ وإياك والقصور عن غايتها أو العجز عن دركها، أو التفريط في طلبها. إن شاء الله تعالى.

إياك والإغرام عن حديث ما أعجبك، أو أمر ما ازدهاك بكثرة السؤال، أو القطع لحديث من أرادك بحديثه حتى تنفضه عليه بالخوض في غيره أو المسألة عما ليس منه: فإن ذلك عند العامة منسوب إلى سوء الفهم وقصر الأدب عن تناول محاسن الأمور والمعرفة بمساوئها، ولكن أنصت لمحدثك وأرعه سمعك حتى يعلم أن قد فهمت حديثه، وأحطت معرفة بقوله؛ فإن أردت إجابته فعن معرفة بحاجته وبعد علم بطلته؛ وإلا كنت عند انقضاء كلامه كالمتعجب من حديثه بالتبسم والإغضاء، فأجزى عنك الجواب، وقطع عنك ألسن العتب. إياك وأن يظهر منك تبرم بطول مجلسك، أو تضجر ممن حضرك؛ وعليك بالثبوت عند سورة الغضب، وحمية الأنف، وملال الصبر: في الأمر تستعجل به والعمل تأمر بإنفاذه؛ فإن ذلك سخف شائن، وخفة مردية، وجهالة بادية. وعليك بثبوت المنطق، ووقار المجلس، وسكون الريح، والرفض لحشو الكلام، والترك لفضوله والإغرام بالزيادات في منطقك، والترديد للفظك: من نحو اسمع، وافهم عني، ويا هناء، وألا ترى، أو ما يلهج به من هذه الفضول المقصرة بأهل العقل، الشائنة لذوي الحجا في المنطق، المنسوبة إليهم بالعي، المردية لهم بالذكر. وخصال من معائب الملوك، والسوقة عنها غيبة النظر إلا من عرفها من أهل الأدب، وقلما حامل لها، مضطلع بها، صابر على ثقلها آخذ لنفسه بجوامعها، فانفها عن نفسك بالتحفظ منها، واملك عليها اعتيادك إياها معتنياً بها، منها كثرة التنخم، والتبصق، والتنخع، والثوباء، والتمطي، والجشاء، وتحريك القدم، وتنقيض^(٨٨) الأصابع، والعبث بالوجه واللحية أو الشارب أو المخصرة أو ذؤابة السيف، أو الإيماض بالنظر، أو الإشارة بالطرف إلى بعض خدمك بأمر إن أردته، أو السرار في مجلسك، أو الاستعجال في

طعمك أو شربك. وليكن طعمك متدعًا، وشربك أنفاسًا، وجرعك مصًا. وإياك والتسرع إلى الأيمان فيما صغر أو كبر من الأمور، والشتيمة بقول: يابن الهناه؛ أو الغميمة^(٨٩) لأحد من خاصتك بتسويغهم مقارفة الفسوق بحيث محضرك أو دارك وفناؤك: فإن ذلك كله مما يقبح ذكره، ويسوء موقع القول فيه، وتحمل عليك معاييه، وينالك شينه، ويتنشر عليك سوء النبا به. فاعرف ذلك متوقيًا له، واحذر مجانبًا لسوء عاقبته.

استكثر من فوائد الخير: فإنها تنشر المحمدة، وتقليل العثرة؛ واصبر على كظم الغيظ: فإنه يورث الراحة، ويؤمن الساحة؛ وتعهد العامة بمعرفة دخلهم، وتبطن أحوالهم، واستشارة دفائنهم؛ حتى تكون منها على رأي عين، ويقين خبرة؛ فتنعش عديمهم، وتجبر كسيرهم؛ وتقيم أودهم، وتعلم جاهلهم، وتستصلح فاسدهم: فإن ذلك من فعلك بهم يورثك العزة، ويقدمك في الفضل؛ ويبقى لك لسان الصدق في العاقبة، ويجرز لك ثواب الآخرة، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك، وقلوبهم المتنحية عنك.

قس بين منازل أهل الفضل في الدين والحجا والرأي والعقل والتدبير والصيت في العامة وبين منازل أهل النقص في طبقات الفضل وأحواله، والحمول عند مباهاة النسب؛ وانظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل، وتستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل؛ وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المتصرف بك. فاعتمد عليهم مدخلًا لهم في أمرك، وآثرهم بمجالستك لهم مستمعًا منهم؛ وإياك وتضييعهم مفرطًا، وإهمالهم مضيعةً.

هذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسرًا، وجمع لك شواذها مؤلفًا، وأهداها إليك مرشدًا؛ فقف عند أوامرها، وتناه عن زواجرها، وتثبت

في مجامعها؛ وخذ بوثائق عراها، تسلم من معاطب الردى، وتتل أنفـس الحظوظ ورغـيب الشرف؛ وأعلى درج الذكر، وتأثـل^(٩٠) سطر العز. والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد، وتتابع المزيد، وبلوغ الأمل، وأن يجعل عاقبة ذلك بك إلى غبطة يسوغك إياها، وعافية يحلك أكنافها، ونعمة يلهمك شكرها: فإنه الموفق للخير، والمعين على الإرشاد؛ منه تمام الصالحات، وهو مؤتي الحسنات، عنده مفاتيح الخير، ويده الملك وهو على كل شيء قدير.

فإذا أفضيت نحو عدوك، واعتزمت على لقائهم، وأخذت أهبة قتالهم، فاجعل دعامتـك التي تلجأ إليها، وثقتك التي تأمل النجاة بها، وركنك الذي ترتجي منالة الظفر به وتكتـهف^(٩١) به لمعالق الحذر، تقوى الله مستشعرًا لها بمراقبته، والاعتصام بطاعته متبعًا لأمره، مجتنبًا لسخطه، محتذيًا سنته، والتوقي لمعاصيه في تعطيل حدوده، أو تعدي شرائعه؛ متوكلاً عليه فيما صمدت له، واثقًا بنصره فيما توجهت نحوه، متبرئًا من الحول والقوة فيما نالك من ظفر وتلقاك من عز، راغبًا فيما أهاب^(٩٢) بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد، ورمى بك إليه محمود الصبر فيه عند الله من قتال عدو المسلمين، أكلبهم^(٩٣) عليه وأظهره عداوة لهم، وأفدحه ثقلًا لعامتهم، وأخذه بربقهم، وأعلاه عليهم بغيًا، وأظهره عليهم فسقًا وفجورًا، وأشدّه على فيئهم الذي أصاره الله لهم وفتحـه عليهم مئونة وكلا^(٩٤). والله المستعان عليهم، والمستنصر على جماعتهم، عليه يتوكل أمير المؤمنين، وإياه يستصرخ عليهم، وإليه يفوض أمره، وكفى بالله وليًا وناصرًا ومعينًا، وهو القوي العزيز.

ثم خذ من معك من تباعك وجندك بكف معرفتهم، ورد مشتعل جهالهم، وإحكام ضياع عملهم، وضم منتشر قواصـيهم، ولم شعث أطرافهم، وتقـييدهم عمن مروا به من أهل ذمتك وملتك بحسن السيرة، وعفاف الطعمة، ودعة

الوقار، وهدى الدعة، وجمام المستجم، محكمًا ذلك منهم، متفقًا لهم تفقدك إياه من نفسك. ثم اصمد لعدوك المتسمى بالإسلام، الخارج من جماعة أهله، المنتحل ولاية الدين مستحلًا لدماء أوليائه، طاعنًا عليهم، راغبًا عن سنتهم، مفارقًا لشرائعهم؛ يبغيهم الغوائل، وينصب لهم المكابد؛ أضرم حقدًا عليهم، وأرصد عداوة لهم، وأطلب لغرات فرصهم من الترك وأمم الشرك وطواغي الملل؛ يدعو إلى المعصية والفرقة، والمروق من دين الله إلى الفتنة، مخترعًا بهواه للأديان المنتحلة والبدع المتفرقة خسارًا وتحسيرًا، وضلالًا وتضليلًا، بغير هدى من الله ولا بيان. ساء ما كسبت له يداها وما الله بظلام للعبيد، وساء ما سولت له نفسه الأمانة بالسوء، والله من ورائه بالمرصاد: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

حصن جندك، واشكم نفسك بطاعة الله في مجاهدة أعدائه، وارج نصره، وتنجز موعوده، متقدمًا في طلب ثوابه على جهادهم، معتزمًا في ابتغاء الوسيلة إليه على لقائهم: فإن طاعتك إياه فيهم، ومراقبتك له ورجاءك نصره مسهل لك وعوره، وعاصمك من كل سبة، ومنجيك من كل هوة، وناعشك من كل صرعة، ومقيلك من كل كبوة، ودارئ عنك كل شبهة، ومذهب عنك لطنخة كل شك، ومقويك بكل أيدٍ^(٩٥) ومكيدة، ومعزك في كل معترك قتال، ومؤيدك في كل مجمع لقاء، وكالثك عند كل فتنة مغشية،^(٩٦) وحائطك من كل شبهة مردية؛ والله وليك وولى أمير المؤمنين فيك، والمستخلف على جندك ومن معك.

اعلم أن الظفر ظفران: أحدهما - وهو أعم منفعة، وأبلغ في حسن الذكر قالة، وأحوطه سلامة، وأتمه عافية، وأحسنه في الأمور وأعلاه في الفضل شرفًا،

وأصححه في الروية حزمًا، وأسلمه عند العامة مصدرًا - ما نيل بسلامة الجنود، وحسن الحيلة، ولطف المكيدة ويمن النقية، واستنزال طاعة ذوي الصدوف بغير إخطار الجيوش في وقدة جمرة الحرب، ومبارزة الفرسان في معترك الموت؛ وإن ساعدتك طلوق الظفر، ونالك مزيد السعادة في الشرف، ففي مخاطرة التلف مكروه المصائب، وعضاض السيوف وألم الجراح، وقصاص الحروب وسجالها بمغاورة^(٩٧) أبطاها. على أنك لا تدري لأي يكون الظفر في البديهة، ومن المغلوب بالدولة، ولعلك أن تكون المطلوب بالتمحيص، فحاول إصابة أبلغهما في سلامة جندك ورعيتك، وأشهرهما صيتًا في بدو تدبيرك ورأيك، وأجمعهما لألفة وليك وعدوك، وأعونهما على صلاح رعيتك وأهل ملتك، وأقواهما شكيمة في حزمك، وأبعدهما من وصم عزمك، وأعلقهما بزمام النجاة في آخرتك، وأجزلهما ثوابًا عند ربك.

وابدأ بالإعذار إلى عدوك، والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة وعز الألفة، آخذًا بالحجة عليهم، متقدمًا بالإنذار لهم، باسطًا أمانك لمن لجأ إليك منهم، داعيًا لهم إليه باللين لفظك والطف حيلك، متعطفًا برأفتك عليهم، مترفقًا بهم في دعائك، مشفقًا عليهم من غلبة الغواية لهم وإحاطة الهلكة بهم، منفذًا رسلك إليهم بعد الإنذار: تعدهم إعطاء كل رغبة يهش إليها طمعهم في موافقة الحق، وبسط كل أمان سألوه لأنفسهم ومن معهم ومن تبعهم؛ موطنًا نفسك فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عقدك؛ قابلاً توبة نازعهم عن الضلالة، ومراجعة مسيئهم إلى الطاعة؛ مرصداً للمنحاز إلى فئة المسلمين وجماعتهم إجابة إلى ما دعوته إليه وبصرته إياه من حقك وطاعتك، بفضل المنزلة، وإكرام المثوى، وتشريف الجاه. وليظهر من

أثرك عليه وإحسانك إليه ما يرغب في مثله الصادف عنك، المصر على خلافك ومعصيتك؛ ويدعو^(٩٨) إلى اعتلاق حبل النجاة وما هو أملك به في الاعتصام عاجلاً، وأنجى له من العقاب آجلاً، وأحوطه على دينه ومهجته بدءاً وعاقبة؛ فإن ذلك مما يستدعي به من الله نصره عليهم، ويعتضد به في تقديمه الحجة إليهم، معذراً أو منذراً، إن شاء الله.

ثم أذك عيونك على عدوك متطلعاً لعلم أحوالهم التي يتقلبون فيها، ومنازلهم التي هم بها، ومطامعهم التي قد مدوا أعناقهم نحوها، وأي الأمور ادعى لهم إلى الصلح، وأقودها لرضاهم إلى العافية، وأسهلها لاستئصال طاعتهم، ومن أي الوجوه مأتاهم: أمن قبل الشدة والمنافرة والمكيدة والمباعدة والإرهاب والإيعاد، أم الترغيب والإطاع؛ مثبتاً في أمرك، متخيراً في رويتك، مستمكناً من رأيك، مستشيراً لذوي النصيحة الذين قد حنكتهم المسنن، وخبطتهم التجربة، ونجذتهم الحروب، متشنناً^(٩٩) في حرك، آخذاً بالحزم في سوء الظن، معداً للحذر، محترساً من الغرة؛ كأنك في مسيرك كله ونزولك أجمع مواقف لعدوك رأى عين تنتظر حملاتهم، وتتخوف كراتهم، معداً أقوى مكائيدك، وأرهب عتادك، وأنكأ جدك، وأجد تشميرك؛ معظماً أمر عدوك لأعظم مما بلغك، حذراً يكاد يفراط: لتعد له من الاحتراس عظيماً، ومن المكيدة قوياً؛ من غير أن يفثأك^(١٠٠) ذلك عن إحكام أمورك، وتديير رأيك، وإصدار رويتك، والتأهب لما يحزبك، مصغراً له بعد استشعار الحذر، واضطمار الحزم، وإعمال الزوية، وإعداد الأهبة. فإن ألفت عدوك كليل الحد، وقم^(١٠١) الحزم، نضيض^(١٠٢) الوفر، لم يضررك ما اعتددت له من قوة وأخذت له من حزم، ولم يزدك ذلك إلا جرأة عليه، وتسرعاً إلى لقائه. وإن ألفتته متوقداً الحرب، مستكثف

الجمع، قوي التبع، مستعلي سورة الجهل، معه من أعوان الفتنة وتبع إبليس من يو قد هب الفتنة مسعراً، ويتقدم إلى لقاء أبطالها متسرّعاً، كنت لأخذك بالحزم، واستعدادك بالقوة، غير مهين الجند، ولا مفرط في الرأي، ولا متلهف على إضاعة تدبير، ولا محتاج إلى الإعداد وعجلة التأهب مبادرة تدهشك، وخوفاً يقلقلك. ومتى تغتر بترقيق المرققين، وتأخذ بالهويناء في أمر عدوك لتصغير المصغرين، ينتشر عليك رأيك، ويكون فيه انتقاض أمرك ووهن تدبيرك، وإهمال للحزم في جندك، وتضييع له وهو ممكن الإصحار، رحب المطلب، قوي العصمة، فسيح المضطرب؛ مع ما يدخل رعيك من الاغترار والغفلة عن إحكام أحراسهم، وضبط مراكزهم، لما يرون فيه من استنامتك إلى الغرة، وركونك إلى الأمن، وتهاونك بالتدبير؛ فيعود ذلك عليك في انتشار الأطراف، وضياح الأحكام، ودخول الوهن بما لا يستقال محذوره، ولا يدفع مخوفه.

احفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من أخبار عدوك. وإياك ومعاقبة أحد منهم على خبر إن أتاك به اتهمته فيه أو سؤت به ظناً وأتاك غيره بخلافه، أو أن تكذبه فيه فترده عليه، ولعله أن يكون قد محضك النصيحة وصدقك الخبر وكذبك الأول، أو خرج جاسوسك الأول متقدماً قبل وصول هذا من عند عدوك، وقد أبرموا لك أمراً، وحاولوا لك مكيدة وأرادوا منك غرة فازدلفوا إليك في الأهبة، ثم انتقض بهم رأيهم واختلف عنه جماعتهم، فأرادوا رأياً، وأحدثوا مكيدة، وأظهروا قوة، وضربوا موعداً، وأموا مسلكاً لمدد أتاها، أو قوة حدثت لهم، أو بصيرة في ضلالة شغلته؛ فالأحوال بهم متنقلة في الساعات، وطوارق الحادثات. ولكن ألبسهم جميعاً على الانتصاح، وارضخ لهم بالمطامع، فإنك لن تستعبدهم بمثلها. وعدهم جزالة المثلث، في غير ما استنامة منك إلى ترقيقهم أمر عدوك، والاعترار إلى ما يأتونك به دون

أن تعمل رويتك في الأخذ بالحزم، والاستكثار من العدة. واجعلهم أوثق من تقدر عليه، وآمن من تسكن إلى ناحيته، ليكون ما يبرم عدوك في كل يوم وليلة عندك إن استطعت ذلك، فتنقض عليهم برأيك وتدبيرك ما أبرموا، وتأتيهم من حيث أمنوا، وتأخذ لهم أهبة ما عليه أقدموا، وتستعد لهم مثل ما حذروا. واعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك وربما غشوك، وربما كانوا لك وعليك: فنصحوا لك وغشوا عدوك، وغشوك ونصحوا عدوك؛ وكثيراً ما يصدقونك ويصدقونه. فلا تبدرن منك فرطة عقوبة إلى أحد منهم، ولا تعجل بسوء الظن إلى من اتهمته على ذلك؛ واستنزل نصائحهم بالمياحة^(١٠٣) والمنالة، وابسط من آمالهم فيك من غير أن يرى أحد منهم أنك أخذت من قوله أخذ العامل به والمتبع له، أو عملت على رأيه عمل الصادر عنه، أو رددته عليه رد المكذب به، المتهم له، المستخف بما أتاك منه، فتفسد بذلك نصيحته، وتستدعي غشه، وتجتر عداوته. واحذر أن يعرفوا في عسكريك أو يشار إليهم بالأصابع. وليكن منزلهم على كاتب رسائلك وأمين سرّك، ويكون هو الموجه لهم، والمدخل عليك من أردت مشافهته منهم.

واعلم أن لعدوك في عسكريك عيوناً راصدة، وجواسيس متجسّسة^(١٠٤)، وأنه لن يقع^(١٠٥) رأيه عن مكيدتك بمثل ما تكايد به، وسيحتال لك كاحتيالك له، ويعد لك كإعدادك فيما تزاوله منه، ويحاولك كمحاولتك إياه فيما تقارعه عنه، فاحذر أن يشهر رجل من جواسيسك في عسكريك فيبلغ ذلك عدوك ويعرف موضعه، فيعد له المراسد، ويحتال له بالمكايد. فإن ظفر به فأظفر عقوبته، كسر ذلك ثقات عيونك، وخذّهم عن تطلب الأخبار من معادنها، واستقصائها من عيونها، واستعذاب اجتنائها من يبايعها، حتى يصيروا إلى أخذها مما عرض من غير الثقة ولا المعاينة، لقطاً لها بالأخبار الكاذبة،

والأحاديث المرجفة. واحذر أن يعرف بعض عيونك بعضاً: فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك، وممالاتهم عدوك، واجتماعهم على غشك، وتطابقهم على كذبك، وإصفاقهم^(١٠٦) على خيانتك، وأن يورط بعضهم بعضاً عند عدوك، فأحكم أمرهم فإنهم رأس مكيدتك، وقوام تدبيرك، وعليهم مدار حربك، وهو أول ظفرك. فاعمل على حسب ذلك وحيث رجائك به، تنل أملك من عدوك، وقوتك على قتاله، واحتيالك لإصابة غراته وانتهاز فرصه، إن شاء الله. فإذا أحكمت ذلك وتقدمت في إتقانه، واستظهرت بالله وعونه، فول شرطتك وأمر عسكريك أوثق قوادك عندك، وأظهرهم نصيحة لك، وأنفذهم بصيرة في طاعتك، وأقواهم شكيمة في أمرك، وأمضاهم صريمة^(١٠٧)، وأصدقهم عفافاً، وأجزأهم غناء، وأكفاهم أمانة، وأصحهم ضميراً، وأرضاهم في العامة ديناً، وأحمدهم عند الجماعة خلقاً، وأعطفهم على كافتهم رافة، وأحسنهم لهم نظراً، وأشدهم في دين الله وحقه صلابة. ثم فوض إليه مقوياً له، وأبسط من أمله مظهرًا عنه الرضا، حامداً منه البلاء. وليكن عالماً بمراكز الجنود، بصيراً بتقدم المنازل، مجرباً، ذا رأي وحزم في المكيدة؛ له نباهة في الذكر، وصيت في الولاية، معروف البيت، مشهور الحسب. وتقدم إليه في ضبط معسكره، وإذكاء أحراسه في آناء ليله ونهاره؛ ثم حذره أن يكون منه إذن لجنوده في الانتشار والاضطراب، والتقدم لطلائعك، فتصاب لهم غرة يجترئ بها عدوك عليك، ويسرع إقداماً إليك، ويكسر من إياد^(١٠٨) جندك ويوهن من قوتهم؛ فإن الصوت^(١٠٩) في إصابة عدوك الرجل الواحد من جندك أو عبيدهم مطمع لهم فيك، مقو لهم على شحذ أتباعهم عليك وتصغيرهم أمرك، وتوهينهم تدبيرك، فحذره ذلك وتقدم إليه فيه؛ ولا يكونن منه إفراط

في التضييق عليهم، والحصار لهم، فيعمهم أزاله^(١١٠)، ويشملهم ضنكه؛ وتسوء عليهم حاله، وتشتد به المئونة عليهم، وتبحث له ظنونهم. وليكن موضع إنزاله إياهم ضامًا لجماعتهم، مستديرًا بهم جامعًا لهم؛ ولا يكون منبسطًا منتشرًا متبددًا، فيشق ذلك على أصحاب الأحراس، وتكون فيه النهزة للعدو، والبعد من المادة^(١١١) إن طرق طارق في فجآت الليل وبغتاته. وأوعز إليه في أحراسه، وتقدم إليه فيهم كأشد التقدم وأبلغ الإيعاز. ومره فليول عليهم رجلًا ركينًا مجربًا جريء الإقدام، ذاكي الصرامة، جلد الجوارح، بصيرًا بمواضع أحراسه، غير مصانع ولا مشفع للناس في التنحي إلى الرفاهية والسعة، وتقدم العسكر والتأخر عنه، فإن ذلك مما يضعف الوالي ويوهنه لاستنامته إلى من ولاه ذلك وأمنه به على جيشه.

واعلم أن مواضع الأحراس من معسكرك، ومكانها من جندك، بحيث الغناء عنهم والرد عليهم، والحفظ لهم، والكلاءة لمن بغتهم طارقًا، أو أرادهم خاتلاً؛ ومراصدها المنسل، منها والآبق من أرقائهم وأعبدهم؛ وحفظها من العيون والجواسيس من عدوهم. واحذر أن تضرب على يديه أو تشكمه عن الصرامة بمؤامرتك في كل أمر حادث وطارئ إلا في المهم النازل والحدث العام: فإنك إذا فعلت ذلك به، دعوته إلى نصحك، واستوليت على محصول ضميره في طاعتك؛ وأجهد نفسه في ترتيبك، وأعمل رأيه في بلوغ موافقتك وإعانتك؛ وكان ثقتك وردأك وقوتك ودعامتك، وتفرغت أنت لمكايدة عدوك، مريجًا لنفسك من هم ذلك والعناية به، ملقيًا عنك مئونة باهظة وكلفة فادحة. واعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام، ولا بمثل محله أحد من الولاة؛ لما يجري على يديه من مغاليز الأحكام ومجاري الحدود. فليكن

من توليه القضاء في عسكريك [من ذوي] ^(١١٢) الخير والقناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع، والبصر بوجوه القضايا ومواقعها، قد حنكته السن وأيدته التجربة وأحكمته الأمور، ممن لا يتصنع للولاية ويستعد للنهزة، ويجترئ على المحاباة في الحكم، والمداهنة في القضاء، عدل الأمانة، عفيف الطعمة، ^(١١٣) حسن الإنصاف، فهم القلب، ورع الضمير، متخشع السميت، بادي الوقار، محتسبًا للخير. ثم أجر عليه ما يكفيه ويسعه ويصلحه؛ وفرغه لما حملته، وأعنه على ما وليته: فإنك قد عرضته لهلكة الدنيا وبوار الآخرة، أو شرف الدنيا وحظوة الآجلة، إن حسنت نيته، وصدقت رويته، وصحت سريرته، وسلط حكم الله على رعيته؛ مطلقًا عنانه، منفذًا قضاء الله في خلقه، عاملاً بسنته في شرائعه، آخذًا بحدوده وفرائضه.

واعلم أنه من جندك بحيث ولايتك ^(١١٤)، الجارية أحكامه عليهم، النافذة أفضيته فيهم؛ فاعرف من توليه ذلك وتسندة إليه. ثم تقدم في طلائعك فإنها أول مكيدتك، ورأس حربك، ودعامة أمرك، فانتخب لها من كل قادة وصحابة رجالًا ذوي نجدة وبأس، وصرامة وخبرة، حماة كفاة، قد صلوا بالحرب وذاقوا سجالها، وشربوا مرار كئوسها، وتجرعوا غصص درتها؛ وزبنتهم بتكرار عواطفها، وحملتهم على أصعب مراكبها، وذللتهم بثقاف أودها. ثم انتقمهم على عينك، واعرض كراعهم بنفسك؛ وتوخ في انتقائك ظهور الجلد، وشهامة الخلق، وكمال الآلة. وإياك أن تقبل من دوابهم إلا الإناث من الخيل المهلوبة ^(١١٥) فإنهن أسرع طلبًا، وأنجى مهربًا، وألين معطفًا، وأبعد في اللحوق غاية، وأصبر في معترك الأبطال إقدامًا.

وخذهم من السلاح بأبدان الدروع، ماذية ^(١١٦) الحديد، شاكاة النسج، متقاربة الحلق، متلاحمة المسامير وأسواق الحديد، مموهة الركب، محكمة الطبع

خفيفة الصوغ؛ وسواعد طبعها هندي، وصوغها فارسي؛ رقاق المعاطف بكف واقية وعمل محكم. ويلمق^(١١٧) البيض مذهبة ومجردة، فارسية الصوغ، خالصة الجوهر، سابغة الملبس، واقية الجنن، مستديرة الطبع، مبهمة السرد، وافية الوزن كترك^(١١٨) النعام في الصنعة واستدارة التقيب، واستواء الصوغ، معلمة بأصناف الحرير وألوان الصبغ؛ فإنها أهيب لعدوهم، وأفت لأعضاء من لقيهم، والمعلم مخشي مخذور، له بديهة رادعة، وهيبة هائلة؛ معهم السيوف الهندية، وذكور البيض اليمانية؛ رقاق الشفرات، مسنونة الشحذ، مشطبة^(١١٩) الضرائب. معتدلة الجواهر، صافية الصفائح؛ لم يدخلها وهن الطبع، ولا عابها أمت^(١٢٠) الصوغ، ولا شانها خفة الوزن، ولا فدح حاملها بهور الثقل؛ قد أشرعوا لدن القنا، طوال الهوادي، مقومات الأود، زرق الأسنة، مستوية الثعالب^(١٢١)؛ وميضها متوقد، وسنخها^(١٢٢) متلهب، معاقص^(١٢٣) عقدها منحوتة، ووصوم أودها مقومة، وأجناسها مختلفة، وكعوبها جعدة، وعقدها حبكة؛ شطبة الأسنان، مموهة الأطراف، مستحدة الجنبات، دقاق الأطراف، ليس فيها التواء أود، ولا أمت وصم، ولا بها مسقط عيب، ولا عنها وقوع أمنية؛ مستحقي كنائن النبل وقسي الشوحط^(١٢٤) والنبع؛ أعرابية التعقيب، رومية النصول، مسمومة الصوغ؛ ولتكن سهامها على خمس قبضات سوى النصول، فإنها أبلغ في الغاية، وأنفذ في الدروع، وأشك في الحديد؛ سامطين حقائبهم على متون خيولهم، مستخفين من الآلة والأمتعة والزاد، [إلا ما لا غناء بهم عنه^(١٢٥)].

واحذر أن تكل مباشرة عرضهم وانتخابهم إلى أحد من أعوانك وكتابك؛ فإنك إن وكلته إليهم أضعت مواضع الحزم، وفرطت حيث الرأي، ووقفت

دون عزم الروية، ودخل عملك ضياع الوهن، وخلص إليك عيب المحابة، وناله فساد المداينة، وغلب عليه من لا يصلح أن يكون طليعة للمسلمين ولا عدة ولا حصناً يدرّئون به، ويكتفون بموضعه. والطلائع حصون المسلمين وعيونهم، وهم أول مكيدتك، وعروة أمرك، وزمام حربك. فليكن اعتناؤك بهم، وانتقاؤك إياهم بحيث هم من مهم عملك، ومكيدة حربك؛ ثم انتخب للولاية عليهم رجلاً بعيد الصوت، مشهور الاسم، طاهر الفضل، نبيه الذكر؛ له في العدو وقعات معروفة، وأيام طوال وصولات متقدّمات؛ قد عرفت نكايته، وحذرت شوكته، وهيب صوته، وتنكب لقاؤه؛ أمين السريرة، ناصح الجيب^(١٢٦)؛ قد بلوت منه ما يسكنك إلى ناحيته: من لين الطاعة، وخالص المودة، وركانة الصرامة، وغلوب الشهامة، واستجماع القوة، وحصافة التدبير. ثم تقدم إليه في حسن سياستهم، واستنزال طاعتهم، واجتلاب موداتهم واستعذاب ضمايرهم؛ وأجر عليهم وعليه أرزاقاً تسعهم، وتمد من أطماعهم سوى أرزاقهم في العامة، فإن ذلك من القوة لك عليهم، والاستنامة إلى ما قبلهم.

واعلم أنهم في أهم الأماكن لك، وأعظمها غناء عنك وعن معك، وأقمعها كتباً لمحادّك، وأشجاها غيظاً لعدوك. ومن يكن في الثقة، والجلد، والبأس، والطاعة، والقوة، والنصيحة والعدة، والنجدة حيث وصف لك أمير المؤمنين وأمرك به، يضع عنك مئونة الهم؛ ويرخ من خناقك روع الخوف، وتلتجئ إلى أمر منيع، وظهر قوي، ورأي حازم، تأمن به فجأت عدوك، وغرات بغتاتهم، وطوارق أحداثهم؛ ويصير إليك علم أحوالهم، ومتقدّمات خيولهم؛ فانتخبهم رأى عين، وقوهم بما يصلحهم من المنالات والأطماع والأرزاق، واجعلهم

منك بالمنزل الذي هم به من محارز علاقتك، وحصانة كهوفتك، وقوة سيارة
عسكرك. وإياك أن تدخل فيهم أحدًا بشفاعة، أو تحتمله على هودة، أو
تقدمه لأثرة؛ أو أن يكون مع أحد منهم بغل نفل^(١٢٧)، أو فضل من الظهر،
أو ثقل^(١٢٨) فادح، فتشتد عليهم مئونة أنفسهم، ويدخلهم كلال السامة فيما
يعالجون من أثقالهم، ويشغلون به من عدوهم إن دهمهم منه رائع؛ أو فجأهم
منه طليعة. فتفقد ذلك محكمًا له، وتقدم فيه آخذًا بالحزم في إمضائه؛ أرشدك الله
لإصابة الحظ، ووفقت ليمن التدبير، وقصد بك لأسهل الرأي وأعوذه نفعًا في
العاجل والآجل، وأكتبته لعدوك وأشجاء لهم، وأردعه لعاديتهم.

ول دراجة عسكرك وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكزهم رجالًا من أهل
بيوتات الشرف، محمود الخبرة، معروفًا بالنجدة، ذا سن وتجربة، لين الطاعة،
قديم النصيحة، مأمون السريرة، له بصيرة بالحق نافذة تقدمه، ونية صادقة عن
الإدهان^(١٢٩) تحجزه. واضمم إليه عدة نفر من ثقات جندك وذوي أسنانهم
يكونون شرطة معه؛ ثم تقدم إليه في إخراج المصاف، وإقامة الأحراس وإذكاء
العيون، وحفظ الأطراف، وشدة الحذر؛ ومره فليضع القواد بأنفسهم مع
أصحابهم في مصافهم، كل قائد بإزاء مكانه، وحيث منزله، قد سد ما بينه
وبين صاحبه بالرماح شارعة، والترسة موضونة^(١٣٠)، والرجال راصدة، ذاكية
الأحراس، وجلة الروع، خائفة طوارق العدو وبياته. ثم مره فليخرج كل ليلة
قائدًا في أصحابه أو عدة منهم إن كانوا كثيرًا، على غلوة أو اثنتين من عسكرك،
متبذًا عنك محيطًا بمنزلك، ذاكية أحراسه، قلقة التردد، مفرطة الحذر، معدة
للروع، متأهبة للقتال، آخذة على أطراف المعسكر ونواحيه، متفرقين في
اختلافهم كردوسًا كردوسًا^(١٣١)؛ يستقبل بعضهم بعضًا [في الاختلاف]^(١٣٢)

ويكسع تال متقدماً في التردد؛ واجعل ذلك بين قوادك وأهل عسكريك نوباً معروفة، وحصصاً مفروضة، لا تعر منها مزدلفاً منك بمودة، ولا تتحامل فيه على أحد بموجدة. إن شاء الله تعالى.

فوض إلى أمراء أجنادك وقواد خيلك أمور أصحابهم، والأخذ على قافية أيديهم، رياضة منك لهم على السمع والطاعة لأمرائهم، والاتباع لأمرهم، والوقوف عند نهيمهم؛ وتقدم إلى أمراء الأجناد في النوائب التي ألزمتهم إياها، والأعمال التي استنجدتهم لها، والأسلحة والكراع التي كتبتها عليهم؛ واحذر اعتلال أحد من قوادك عليك بما يحول بينك وبين تأديب جنذك، وتقويمهم لطاعتك، وقمعهم عن الإخلال بمراكزهم لشيء مما وكلوا به من أعمالهم؛ فإن ذلك مفسدة للجند، مفثأة للقواد^(١٣٣) عن الجد والإيثار للمناصفة، والتقدم في الأحكام.

واعلم أن في استخفافهم بقوادهم وتضييعهم أمر رؤسائهم دخولاً للضياع على أعمالك، واستخفافاً بأمرك الذي يأتمرون به ورأيك الذي ترتئي. وأوعز إلى القواد ألا يقدم أحد منهم على عقوبة أحد من أصحابه، إلا عقوبة تأديب في تقويم ميل، وثقيف أود، فأما عقوبة تبلغ تلف المهجة، وإقامة حد في قطع، أو إفراط في ضرب، أو أخذ مال، أو عقوبة في شعر، فلا يلين ذلك من جنذك أحد غيرك، أو صاحب شرطتك بأمرك وعن رأيك وإذذك؛ ومتى لم تذلل الجند لقوادهم، وتضرعهم لأمرائهم؛ توجب لهم عليك الحجة بتضييع - إن كان منهم - لأمرك، أو خلل - إن تهاونوا به - من عملك، أو عجز - إن فرط منهم - في شيء مما وكلتهم به أو أسندته إليهم؛ ولا تجد إلى الإقدام عليهم باللوم وعض العقوبة عليهم مجازاً تصل به إلى تعنيفهم، بتفريطك في تذليل أصحابهم لهم، وإفسادك إياهم عليك وعليهم. فانظر في ذلك نظراً محكماً، وتقدم فيه

برفقتك تقدماً بليغاً؛ وإياك أن يدخل حزمك وهن، أو يشوب عزمك إيثار، أو يخلط رأيك ضياع؛ والله يستودع أمير المؤمنين نفسك ودينك.

إذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنن لقاء مختصر، وكان من عسكريك مقترباً قد شامت طلائعك مقدمات ضلالته وحماة فتنته، فتأهب أهبة المناجز، وخذ اعتداد الحذر، وكتب^(١٣٤) خيولك، وعب جندك. وإياك والمسير إلا في مقدمة ويمينة وميسرة وساقة، قد شهرُوا الأسلحة، ونشروا البنود والأعلام. وعرف جندك مراكزهم سائرين تحت ألويتهم قد أخذوا أهبة القتال، واستعدوا للقاء؛ ملتجئين إلى مواقفهم، عارفين بمواضعهم في مسيرهم ومعسكرهم. وليكن ترحلهم وتنزلهم على راياتهم وأعلامهم وفي مراكزهم، قد عرّف كل قائد منهم أصحابه مواقفهم: من اليمين والميسرة والقلب والساقة والطليعة، لازمين لها، غير مخلين بما استنجدوا له، ولا متهاونين فيما أهيب بهم إليه؛ حتى تكون عساكرك في منهل تصل إليه، ومسافة تختارها، كأنها عسكر واحد في اجتماعها على العدو، وأخذها بالحزم، ومسيرها على راياتها، ونزولها في مراكزها، ومعرفتها بمواضعها: إن ضلت دابة من موضعها، عرف أهل العسكر من أي المراكز هي، ومن صاحبها، وفي أي المحل حلوله منها، فردت إليه، هداية معروفة بسمت صاحب قيادتها؛ فإن تقدمك في ذلك وإحكامك له طارح عن جندك مئونة الطلب، وعناية المعرفة، وابتغاء الضالة.

ثم اجعل على ساقتك أوثق أهل عسكريك في نفسك صرامة ونفاذاً ورضاً في العامة، وإنصافاً من نفسه للرعية، وأخذاً بالحق في المعدلة، مستشعراً تقوى الله وطاعته؛ أخذاً بهديك وأدبك، واقفاً عند أمرك ونهيك، معترفاً على مناصحتك وتزيينك، نظيراً لك في الحال وشبيهاً بك في الشرف، وعديلاً في الموضع،

ومقارِبًا في النسب^(١٣٥)؛ ثم أكثف معه الجمع، وأيده بالقوة، وقوه بالظهر، وأعنه بالأموال، واعمده بالسلاح، ومره بالتعطف على ذوي الضعف من جندك ومن أزحفت به دابته وأصابته نكبة: من مرض أو رجلة^(١٣٦) أو آفة، من غير أن يأذن لأحد منهم في التنحي عن عسكره، أو التخلف بعد ترحله، إلا لمجهود سقماً، أو لمطروق بأفة جائحة. ثم تقدم إليه محذراً، ومره زاجراً؛ وانه مغلظاً في الشدة على من مر به منصرفاً عن معسكرك من جندك بغير جوازك، شاداً لهم أسراً، وموقرهم حديداً، ومعاقبهم موجعاً، وموجههم إليك فتنهكهم عقوبة، وتجعلهم لغيرهم من جندك عظة.

واعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تسكن إليه واثقاً بنصيحته قد بلوت منه أمانة تسكنك إليه، وصرامة تؤمنك مهنته، ونفاذاً في أمرك يرخي عنك خناق الخوف في إضاعته - لم يأمن أمير المؤمنين تسلل الجند عنك لوأذاً^(١٣٧)، ورفضهم مراكزهم، وإخلالهم بمواضعهم، وتخلفهم عن أعمالهم، آمين تغيير ذلك عليهم، والشدة على من اجترمه منهم، فأوشك ذلك في وهنك، وخذل من قوتك، وقلل من كثرتك.

اجعل خلف ساقنتك رجلاً من وجوه قوادك، جليداً، ماضيًا، عفيفاً، صارماً، شهم الرأي، شديد الحذر، شكيم القوة، غير مداهن في عقوبة، ولا مهين في قوة، في خمسين فارساً يحشر إليك جندك، ويلحق بك من تخلف عنك بعد الإبلاغ في عقوبتهم، والنهك لهم، والتنكيل بهم. وليكن بعقوتك^(١٣٨) في المنزل الذي ترحل عنه، والمنهل الذي تتقوض منه، مفراطاً في النقض له، والتبع لمن تخلف عنك به؛ مشتداً في أهل المنزل وساكنه بالتقدم، موعزاً إليهم في إزعاج الجند عن منازلهم، وإخراجهم عن مكانهم؛ وإيعاد العقوبة الموجهة والنكال

المبسل في الأشعار والأبشار، واستصفاء الأموال وهدم العقار لمن آوى منهم أحداً أو ستر موضعه، أو أخفى محله. وحذره عقوبتك إياه في الترخيص لأحد، والمحابة لذي قرابة، والاختصاص بذلك لذي أثره وهوادة. ولتكن فرسانه منتخبين في القوة، معروفين بالنجدة؛ عليهم سوابغ الدروع دونها شعار الحشو وجب الاستجنان؛ متقلدين سيوفهم، سامطين^(١٣٩) كنائهم، مستعدين لهيج إن بدههم [أو كمين إن يظهر لهم^(١٤٠)]. وإياك أن تقبل منهم في دوابهم إلا فرساً قوياً أو برزوناً وثيجاً^(١٤١)؛ فإن ذلك من أقوى القوة لهم، وأعون الظهري على عدوهم، إن شاء الله.

ليكن رحيلك إباناً واحداً، ووقتاً معلوماً: لتخف المثونة بذلك على جندك، ويعلموا أوان رحيلهم، فيقدموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم، وأعلاف دوابهم، وتسكن قلوبهم إلى الوقت الذي وقفوا عليه، ويطمئن ذوو الرأي إلى إبان الرحيل. ومتى يكن رحيلك مختلفاً تعظم المثونة عليك وعلى جندك ولا يزال ذوو السفه [والنزق] يترحلون بالإرجاف وينزلون بالتوهم، حتى لا ينتفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة.

إياك أن تظهر استقلالاً، أو تنادي برحيل من منزل تكون فيه، حتى تأمر صاحب تعبثتك بالوقوف بأصحابه على معسكرك آخذاً بجنبتي فوهته، بأسلحتهم عدة لأمر إن حضر أو مفاجأة من طليعة للعدو إن رأت منكم نهزة، أو لمحت عندكم غرة. ثم مر الناس بالرحيل وخيلك واقفة، وأهبتك معدة، وجنتك واقية، حتى إذا استقللتم من معسكركم، وتوجهتم من منزلكم، سرتم على تعبثتكم بسكون ريح، وهدو حملة، وحسن دعة. فإذا انتهيت إلى منهل أردت نزوله أو هممت بالمعسكر به، فإياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله،

والمعرفة بمرافقته؛ ومر صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله، ويستشير لك علم دفينه، ويستبطن علم أموره ثم ينهيها إليك على ما صارت إليه؛ لتعلم كيف احتماله لعسكرك، وكيف ماؤه وأعلافه وموضع معسكرك منه، وهل لك - إن أردت مقامًا به، أو مطاولة عدوك أو مكايده فيه - قوة تحملك ومدد يأتيه^(١٤٢)؛ فإنك إن لم تفعل ذلك، لم تأمن أن تهجم على منزل يعجزك ويزعجك عنه ضيق مكانه، وقلة مياهه، وانقطاع مواده، إن أردت بعدوك مكيدة، أو احتجت من أمورهم إلى مطاولة، فإن ارتحلت منه كنت غرضًا لعدوك، ولم تجد إلى المحاربة والإخطار سبيلًا؛ وإن أقمت به أقمت على مشقة وحصر وفي أزل وضيق، فاعرف ذلك وتقدم فيه. فإن أردت نزولًا أمرت صاحب الخيل التي وكلت بالناس فوقفت خيله متنحية من معسكرك، عدة لأمر إن غالك، ومفرغًا لبديهة إن راعتك، فقد أمنت بحمد الله وقوته فجأة عدوك، وعرفت موقعها من حزرك، حتى يأخذ الناس منازلهم، وتوضع الأثقال مواضعها، ويأتيك خبر طلائعك، وتخرج دبابتك من معسكرك دراجة ودبابًا محيطين بعسكرك، وعدة إن احتجت إليها. ولتكن دبابات جندك أهل جلد وقوة، قائدًا أو اثنين أو ثلاثة بأصحابهم، في كل ليلة ويوم نوبًا بينهم. فإذا غربت الشمس ووجب^(١٤٣) نورها، أخرج إليهم صاحب تعييتك أبداهم، عسًا بالليل في أقرب من مواضع دبابي النهار، يتعاور ذلك قوادك جميعًا بلا محابة لأحد فيه ولا إدهان.

إياك وأن يكون منزلك إلا في خندق وحصن تأمن به بيات عدوك وتستنيم فيه إلى الحزم من مكيدتك. إذا وضعت الأثقال وحطت أبنية أهل العسكر، لم يمدد طنب، ولم يرفع خباء، ولم ينصب بناء حتى نقطع لكل قائد ذرعًا معلومًا من الأرض بقدر أصحابه، فيحفروه عليهم خندقًا يطيفون به بعد ذلك بخنادق

الحسك^(١٤٤)، طارحين لها دون اشتجار الرماح، ونصب الترس، لها بابان قد وكلت بحفظ كل باب منهما رجلاً من قوادك في مائة رجل من أصحابه؛ فإذا فرغ من الخندق كان ذاك الرجلان القائدان بمن معها من أصحابها أهل ذلك المركز، وموضع تلك الخيل، وكانوا هم البوابين والأحراس لذينك الموضعين، قد كفوهما وضبطوهما وأعفوا من أعمال العسكر ومكروهه غيرهما. واعلم أنك إذا كنت في خندق، أمنت بإذن الله وقوته طوارق عدوك وبغثاتهم، فإن راموا تلك منك، كنت قد أحكمت ذلك وأخذت بالحزم فيه، وتقدمت في الإعداد له، ورتقت مخوف الفتق منه؛ وإن تكن العافية استحققت حمد الله عليها، وارتببت شكره بها، ولم يضررك أخذك بالحزم: لأن كل كلفة ونصب ومثونة إنفاق ومشقة عمل مع السلامة غنم وغير خطر بالعاقبة، إن شاء الله. فإن ابتليت ببيات عدوك أو طرقك رائعاً في ليلك، فليلفك حذرًا مشمرًا عن ساقك، حاسرًا عن ذراعك، متشزنًا^(١٤٥) لحربك؛ قد تقدمت دراجتك إلى مواضعها على ما وصفه لك أمير المؤمنين، ودبابتك في أوقاتها التي قدر لك، وطلائعك حيث أمرك، وجندك على ما عبأ لك، قد خطرت عليهم بنفسك؛ وتقدمت إلى جندك، إن طرقهم طارق أو فاجأهم عدو، ألا يتكلم منهم أحد رافعًا صوته بالتكبير مغرًا في الإجلاب، معلنًا بالإرهاب لأهل الناحية التي يقع بها العدو طارقًا، وليشرعوا رماحهم ناشيين بها في وجوههم، ويرشقوهم بالنبل مكتنين بترسهم، لازمين لمراكزهم، غير مزيلى قدم عن موضعها، ولا متجاوزين إلى غير مركزهم، وليكبروا ثلاث تكبيرات متواليات وسائر الجند هادون، لتعرف موضع عدوك من معسكرك، فتمد أهل تلك الناحية بالرجال من أعوانك وشرطتك، ومن انتخبت قبل ذلك عدة للشدائد بحضرتك، وتدس إليهم النشاب والرماح.

وإياك وأن يشهروا سيفاً يتجالدون به، وتقدم إليهم ألا يكون قتالهم في تلك المواضع لمن طرقهم إلا بالرماح مسندين لها إلى صدورهم، والنشاب راشقين به وجوههم؛ قد ألدوا بالأتربة، واستجنوا بالبيض، وألقوا عليهم سوابغ الدروع وجباب الحشو. فإن صد العدو عنهم حاملين على جهة أخرى، كبر أهل تلك الناحية التي يقع فيها كفعل الناحية الأولى، وبقية العسكر سكوت والناحية التي صد عنها العدو لازمة مراكزهم منطقة الهدو ساكنة الريح، ثم عملت في تقويتهم وإمدادهم بمثل صنيعك في إخوانهم.

وإياك أن تحمد نار رواقك؛ وإذا وقع العدو في معسكرك فأججها ساعراً لها وأوقدها حطباً جزلاً يعرف به أهل العسكر مكانك وموضع رواقك، فيسكن نافر قلوبهم، ويقوى واهي قوتهم، ويشدد منخزل ظهورهم، ولا يرجعون بك الظنون، ويجعلون لك آراء السوء، ويرجفون بك آناء الخوف؛ وذلك من فعلك راد عدوك بغيظه لم يستفل منك ظفراً، ولم يبلغ من نكايتك سروراً. وإن انصرف عنك عدوك ونكل عن الإصابة من جندك وكانت بخيلك قوة على طلبه أو كانت لك من فرسانك خيل معدة وكتيبة منتخبة، [و] قدرت على أن تركب بهم أكساءهم^(١٤٦)، وتحملهم على سننهم؛ فأتبعهم جريدة خيل عليها الثقات من فرسانك وأولو النجدة من حماتك؛ فإنك ترهق^(١٤٧) عدوك وقد أمن من بياتك، وشغل بكلاله عن التحرز منك والأخذ بأبواب معسكره والضبط لمحارسه عليك، موهنة حماتهم لغبة أبطالهم: لما ألفوكم عليه من التشمير والجد، قد عقر الله فيهم، وأصاب منهم، وجرح من مقاتلتهم، وكسر من أمانى ضلالهم، ورد من مستعلي جماحهم.

وتقدم إلى من توجهه في طلبهم، وتتبعه أكساءهم: في سكون الريح، وقلة الرفت وكثرة التسبيح والتهليل، واستنصار الله عز وجل بألستهم وقلوبهم

سرّاً وجهراً، بلا لجب ضجة، ولا ارتفاع ضوضاء، دون أن يردوا على مطلبهم، وينتهزوا فرصتهم. ثم ليظهروا السلاح، وينتضوا السيوف، فإن لها هيبة رائعة، وبديهة مخوفة، لا يقوم لها في بُهمة الليل وحِدسه إلا البطل المحارب، وذو البصيرة المحامي، والمستमित المقاتل، وقليل ما هم عند تلك الحمية وفي ذلك الموضع.

ليكن أول ما تتقدم به في التهيؤ لعدوك، والاستعداد للقائه، انتخابك من فرسان عسكرك وحماة جندك ذوي البأس والحنكة والجلد والصرامة، ممن قد اعتاد طراد الكهامة، وكشر عن ناجذه في الحرب، وقام على ساق في منازل الأقران، ثقف الفروسية، مجتمعة القوة، مستحصدة الميريرة، صبوراً على هول الليل، عارفاً بمناهزة الفرص؛ لم تمهنه الحنكة ضعفاً، ولا بلغت به السن كلالاً، ولا أسكرته غرة الحداثة جهلاً، ولا أبطرتة نجدة الأغمار صلفاً، جريئاً على مخاطرة التلف، مقدماً على ادراع الموت، مكابراً لمهيب الهول، متحماً مخشى الختوف، خائضاً غمرات المهالك؛ برأي يؤيده الحزم، ونية لا يخالجها الشك، وأهواء مجتمعة، وقلوب مؤتلفة؛ عارفين بفضل الطاعة وعزها وشرفها، وحيث محل أهلها من التأيد والظفر والتمكين، ثم اعرضهم رأى عين على كراعتهم وأسلحتهم، ولتكن دوابهم إناث عتاق الخيل، وأسلحتهم سوابغ الدروع وكمال آلة المحارب، متقلدين سيوفهم المستخلصة من جيد الجوهر وصافي الحديد، المتخيرة من معادن الأجناس، هندية الحديد يمانية الطبع، رقاق المضارب، مسمومة الشحذ، مشطبة الضريبة؛ ملبدين بالترسة الفارسية، صينية التعقيب، معلمة المقابض بحلق الحديد، أنحاؤها مربعة، ومخارزها بالتجليد مضاعفة، محملها مستخف؛ وكنائن النبل وجعاب القسي قد استحقبوها، وقسي الشريان^(١٤٨) والنبع أعراية الصنعة، مختلفة الأجناس،

محكمة العمل، مقومة التشقيف؛ ونصول النبل مسمومة، وعملها مصيصي، وتركيبها عراقي، وتريشها بدوي؛ مختلفة الصوغ في الطبع، شتى الأعمال فيه التشطيب والتجنيح والاستدارة. ولتكن الفارسية مقلوبة المقابض، منبسطة السية، سهلة الانعطاف، مقربة الانحناء، ممكنة المرمى، واسعة الأسهم؛ فرضها سهلة الورود، ومعاطفها غير مقربة المواتاة. ثم ول على كل مائة رجل منهم رجلاً من أهل خاصتك وثقاتك، ونصحائك، له صيت في الرياسة، وقدم في السابقة، وأولية في المشايعة. وتقدم إليه في ضبطهم، وكف معرفتهم، واستنزال نصائحهم، واستعداد طاعتهم، واستخلاص ضمايرهم، وتعاهد كراعمهم وأسلحتهم، معفيًا لهم من النوائب التي تلزم أهل عسكري وعامة جندك؛ واجعلهم عدة لأمر إن حزبك، أو طارق إن أتاك؛ ومرهم أن يكونوا على أهبة معدة، وحذر ناف لسنة الغفلة عنهم؛ فإنك لا تدري أي الساعات من ليلك ونهارك تكون إليهم حاجتك. فليكونوا كرجل واحد في التشمير والترادف وسرعة الإجابة؛ فإنك عسيت ألا تجد عند جماعة جندك في مثل تلك الروعة والمباغنة - إن احتجت إلى ذلك منهم - معونة كافية، ولا أهبة معدة، بل ذلك كذلك فليكن هؤلاء القوم الذين تنتخب عدتك وقوتك، بعوثاً قد وظفتها على القواد الذين وليتهم أمورهم، فسميت أولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً وسادساً؛ فإن اكتفيت فيما يطرقك ويدهك ببعث واحد، كان معداً لم تحتج إلى انتخابهم في ساعتك تلك، فقطع البعث عليهم عند ما يرهقك. وإن احتجت إلى اثنين أو ثلاثة، وجهت منهم إرادتك أو ما ترى قوتك، إن شاء الله.

وكلّ بخزائنك ودواوينك رجلاً ناصحاً أميناً، ذا ورع حاجز، ودين فاصل، وطاعة خالصة، وأمانة صادقة؛ واجعل معه خيلاً يكون مسيرها ومنزلها ومرحلها مع خزائنك وحولها. وتقدم إليه في حفظها، والترقي عليها، واتهام

كل من تسند إليه شيئاً منها على إضاعته والتهاون به، والشدة على من دنا منها في مسير، أو ضامها في منزل، أو خالطها في منهل. وليكن عامة الجند والجيش - إلا من استخلصت للمسير معها - متنحين عنها، مجانبين لها في المسير والمنزل؛ فإنه ربما كانت الجولة وحدثت الفرعة، فإن لم يكن للخزائن ممن يوكل بها أهل حفظ لها وذبح عنها، وحيطة دونها، وقوة على من أراد انتهابها، أسرع الجند إليها وتداعوا نحوها، حتى كاد يترامى ذلك بهم إلى انتهاب العسكر واضطراب الفتنة؛ فإن أهل الفتن وسوء السيرة كثير، وإنما همتهم الشر؛ فإياك أن يكون لأحد في خزائنك ودواوينك وبيوت أموالك مطمع، أو يجد سبيلاً إلى اغتيالها ومرزأتها.

واعلم أن أحسن مكيدتك أثراً في العامة، وأبعدها صيتاً في حسن القالة؛ ما نلت الظفر فيه بحزم الروية، وحسن السيرة، ولطف الحيلة. فلتكن رويتك في ذلك وحرصك على إصابته بالحيل لا بالقتال وأخطار التلف؛ وادسس إلى عدوك، وكاتب رؤساءهم وقادتهم وعدهم المنالات، ومنهم الولايات، وسوغهم التراث، وضع عنهم الإحن، واقطع أعناقهم بالمطامع، واستدعهم بالمشاوب؛ واملاً قلوبهم بالترهيب إن أمكنتك منهم الدوائر، وأصارتهم إليك الرواجع؛ وادعهم إلى الوثوب بصاحبهم أو اعتزاله إن لم يكن لهم بالوثوب عليه طاقة؛ ولا عليك أن تطرح إلى بعضهم كتباً كأنها جواب كتب لهم إليك، وتكتب على ألسنتهم كتباً إليك تدفعها إليهم وتحمل بها صاحبهم عليهم، وتنزلهم عنده بمنزلة التهمة ومحل الظنة؛ فلعل مكيدتك في ذلك أن يكون فيها افتراق كلمتهم، وتشتيت جماعتهم، وإحن قلوبهم، وسوء الظن من واليهم بهم، فيوحشهم منه خوفهم إياه على أنفسهم إذا أيقنوا باتهامه إياهم، فإن بسط يده

فقتلهم، وأولغ سيفه في دمائهم، وأسرع الوثوب بهم، أشعرهم جميعاً بالخوف، وشملهم الرعب، ودعاهم إليك الهرب، فتهافتوا نحوك بالنصيحة وأموك بالطلب. وإن كان متأنياً محتملاً رجوت أن يستميل إليك بعضهم، ويستدعي الطمع ذوي الشره منهم، وتنال بذلك ما تحب من أخبارهم، إن شاء الله.

إذا تدانى الصفان، وتواقف الجمعان، واحتضرت الحرب، وعبأت أصحابك لقتال عدوهم؛ فأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، والتوكل على الله عز وجل والتفويض إليه، ومسأله توفيقك وإرشادك، وأن يعزم لك على الرشد المنجي، والعصمة الكاثية، والحيطة الشاملة. ومر جندك بالصمت وقلة التلفت عند المصاولة، وكثرة التكبير في أنفسهم والتسبيح بضمائرهم، ولا يظهروا تكبيراً إلا في الكرات والحملات، وعند كل زلفة يزدلفونها؛ فأما وهم وقوف فإن ذلك من الفشل والجن؛ وليذكروا الله في أنفسهم ويسأله نصرهم وإعزازهم، وليكثروا من قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم انصرنا على عدوك وعدونا الباغي، واكفنا شوكته المستحدة، وأيدنا بملائكتك الغالبين، واعصمنا بعونك من الفشل والعجز إنك أرحم الراحمين».

وليكن في معسكرك المكبرون في الليل والنهار قبل الواقعة، وقوم موقوفون يحضونهم على القتال ويحرضونهم على عدوهم، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم، ويذكرونهم الجنة ودرجاتها، ونعيم أهلها وسكانها، ويقولون: اذكروا الله يذكركم، واستنصروه ينصركم، والتجئوا إليه يمنعكم. وإن استطعت أن تكون أنت المباشر لتلبية جندك ووضعهم مواضعهم من رأيك، ومعك رجال من ثقات فرسانك ذوو سن وتجربة ونجدة على التعبئة التي أمير المؤمنين واصفها لك في آخر كتابك فافعل، إن شاء الله تعالى.

أيديك الله بالنصر، وغلب لك على القوة، وأعانك على الرشد، وعصمك من
الزيف، وأوجب لمن استشهد معك ثواب الشهداء ومنازل الأصفياء، والسلام
عليك ورحمة الله وبركاته.
وكتب سنة تسع وعشرين ومائة.

(٧) رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب:

ومن رسائل عبد الحميد الرسالة التي أوصى فيها الكتاب^(١٤٩):

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد؛ حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم؛ فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً، وإن كانوا في الحقيقة سواء؛ وصرفهم في صنوف الصناعات، وضروب المحاولات، إلى أسباب معاشهم، وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات، أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة؛ بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها؛ وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمر بلدانهم؛ لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم؛ فموقعكم من الملوك موقع أسماهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون؛ فأمتعكم الله بها خصكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم ما أضفاه^(١٥٠) من النعمة عليكم؛ وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمود، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم.

أيها الكتاب إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم، فإن الكاتب يحتاج في نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره، أن يكون حليماً في موضع الحلم، فهيماً في موضع الحكم، مقدماً في موضع الإقدام، محجماً في موضع الإحجام، مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف، كتوماً للأسرار، وفيّاً عند الشدائد، عالماً بما يأتي من النوازل؛ يضع الأمور مواضعها،

والطوارق في أماكنها؛ قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه، وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به؛ يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه، وفضل تجربته، ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره؛ فيعد لكل أمر عدته وعتاده، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته. فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب، وتفهموا في الدين، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية فإنها ثقاف ألتستكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها؛ فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم، ولا تضيعوا النظر في الحساب، فإنه قوام كتاب الخراج، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها، وسفساف الأمور ومحقرها؛ فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتاب، ونزهوا صناعتكم عن الدناءة، واربؤا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات.

وإياكم والكبر والسخف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة؛ وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم، وتواصوا عليها بالذي هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم؛ وإن نبا^(١٥١) الزمان برجل منكم، فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره، وإن أقعد أحداً منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه؛ واستظهروا بفضل تجربته، وقديم معرفته؛ وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحوط منه على ولده وأخيه، فإن عرضت في الشغل محمداً فلا يصرفها إلا إلى صاحبه، وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه؛ وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى الفراء، وهو لكم أفسد منه لها؛ فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه

من يبذل له من نفسه، ما يجب له عليه من حقه؛ فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره، واحتماله ونصيحته، وكتمان سره وتدبير أمره، ما هو جزاء لحقه، ويصدق ذلك فعله عند الحاجة إليه، والاضطرار إلى ما لديه؛ فاستشعروا ذلك - وفقكم الله - من أنفسكم في حالة الرخاء، والشدة والحرمان والمواساة والإحسان والسراء والضراء؛ فنعمت الشيمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة؛ وإذا ولى الرجل منكم أو صير إليه من أمر خلق الله وعياله أمر، فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته؛ وليكن على الضعيف رفيقاً، وللمظلوم منصفاً؛ فإن الخلق عيال الله، وأحبهم إليه أرفقهم بعياله؛ ثم ليكن بالعدل حاكماً، وللأشراف مكرماً، وللفيء موفراً، وللبلاد عامراً، وللرعية متألفاً، وعن أذاهم متخلفاً؛ وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً، وفي سجلات خراجهِ واستقضاء حقوقه دقيقاً؛ وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه، فإذا عرف حسننها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحسن، واحتال على صرفه عما يهواه من القبيح بالطف حيلة وأجمل وسيلة.

وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحاً لم يهجهأ إذا ركبها، وإن كانت شوباً اتقاها من بين يديها، وإن خاف منها شروداً توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حروناً قمع برفق هواها في طرقها، فإن استمرت عطفها يسيراً، فيسلس له قيادها، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم ودخلهم.

والكاتب لفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوله من الناس وينظره، ويفهم عنه أو يخاف سطوته، أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده، من سائس البهيمة التي لا تحير جواباً، ولا تعرف صواباً،

ولا تفهم خطاباً، إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها؛ ألا فارقوا رحمكم الله في النظر، واعملوا ما أمكنكم فيه من الروية والفكر، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستئصال والجفوة؛ ويصير منكم إلى الموافقة، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة، إن شاء الله؛ ولا يجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه، وملبسه ومركبه، ومطعمه ومشربه وخدمه، وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه؛ فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم، خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير، وحفظة لا تحتل منكم أفعال التضييع والتبذير؛ واستعينوا على أفعالكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم، وقصصته عليكم، واحذروا متالف السرف، وسوء عاقبة الترف؛ فإنها يعقبان الفقر، ويدلان الرقاب ويفضحان أهلها، ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب. وللأمر أشباه وبعضها دليل على بعض؛ فاستدلوا على مؤتلف أعمالكم، بما سبقت إليه تجربتكم؛ ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة، وأصدقها حجة، وأحمدتها عاقبة.

واعلموا أن للتدبير آفة متلفة، وهو الوصف الشاغل لصاحبه، عن إنفاذ علمه ورويته؛ فليقصد الرجل منكم في مجلسه، قصد الكافي في منطقته؛ وليوجز في ابتدائه وجوابه، وليأخذ بمجامع حججه؛ فإن ذلك مصلحة لفعله، ومدفعة للشاغل من إكثاره؛ وليضرع إلى الله في صلة توفيقه، وإمداده بتسديده؛ مخافة وقوعه في الغلط المضرب بدنه، وعقله وأدبه، فإنه إن ظن منكم ظان أو قال قائل: إن الذي برز من جميل صنعته وقوة حركته، إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره؛ فقد تعرض بحسن ظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كاف، وذلك على من تأمله غير خاف؛ ولا يقل أحد منكم إنه أبصر بالأمر، وأحمل لأعباء التدبير؛ من مرافقه في صناعته، ومصاحبه في خدمته؛

فإن أعقل الرجلين عند ذوي الأبواب من رَمَى بالعُجب وراء ظهره، ورأى أن أصحابه أعقل منه وأجمل في طريقته؛ وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه، ولا تزكية لنفسه؛ ولا يكاثر على أخيه أو نظيره، وصاحبه وعشيرته؛ وحمد الله واجب على الجميع.

وذلك بالتواضع لعظمته، والتذلل لغزته، والتحدث بنعمته؛ وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل: «من تلزمه النصيحة يلزمه العمل» وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه، بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل، فلذلك جعلته آخره وتممته به. تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده، فإن ذلك إليه ويده. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(٨) رسالة ثالثة لعبد الحميد الكاتب؛

ومن رسائل عبد الحميد رسالة في الشطرنج^(١٥٢):

أما بعد، فإن الله شرع دينه بإنهاج سبله، وإيضاح معالمه بإظهار فرائضه، وبعث رسله إلى خلقه دلالة لهم على ربوبيته، واحتجاجاً عليهم برسالاته، ومقدمًا إليهم بإنذاره ووعيده، ليهلك من هلك عن بينة؛ ويحيى من حي عن بينة؛ ثم ختم بنبيه ﷺ وحيه، وقفى به رسله، وابتعثه لإحياء دينه الدارس مرتضيًا له على حين انطمست الأعلام^(١٥٣) مخفية، وتشتت السبل متفرقة، وعفت آثار الدين دارسة، وسطع رهج الفتن، واعتلى قتام الظلم، واستشهد الشرك، وأسدف^(١٥٤) الكفر، وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام، ونطق زعيم الباطل بسكتة الحق، واستطرق الجور واستنكح الصدوف عن الحق، واقمطر^(١٥٥) سلهب الفتنة، واستضرم لقاحها، وطبقت الأرض ظلمة كفر وغياية^(١٥٦) فساد؛ فصعد بالحق مأمورًا، وأبلغ الرسالة معصومًا، ونصح

الإسلام وأهله، دالًّا لهم على المارشِد، وقائِدًا لهم إلى الهداية، ومنيرًا لهم أعلام الحق ضاحية، مرشدًا لهم إلى استفتاح باب الرحمة وإعلاق^(١٥٧) عروة النجاة؛ موضِّحًا لهم سبل الغواية، زاجرًا لهم عن طريق الضلالة، محذِّرًا لهم الهلكة، موعزًا إليهم في التقدمة، ضاربًا لهم الحدود على ما يتقون من الأمور ويخشون، وما إليه يسارعون ويطلبون؛ صابرًا نفسه على الأذى والتكذيب، داعيًا لهم بالترغيب والترهيب؛ حريصًا عليهم، متحننًا على كافتهم، عزيزًا عليه عتتهم، رءوفًا بهم رحيمًا، تقدمه شفقتهم وعنايته برشدهم إلى تجريد الطلب إلى ربه فيما فيه بقاء النعمة عليهم، وسلامة أديانهم، وتخفيف آصار^(١٥٨) الأوزار عنهم، حتى قبضه الله إليه ﷺ ناصحًا متنصِّحًا، أمينًا مأمونًا، قد بلغ الرسالة، وأدى النصيحة، وقام بالحق، وعدل عمود الدين، حتى اعتدل ميله، وأذل الشرك وأهله، وأنجز الله له وعده، وأراه صدق أنبائه^(١٥٩) في إكماله للمسلمين دينه، واستقامة سنته فيهم، وظهور شرائعه عليهم. قد أبان لهم موبقات الأعمال، ومفطحات الذنوب، ومهبطات الأوزار، وظلم الشبهات، وما يدعوا إليه نقصان الأديان، وتستهييهم به الغوايات؛ وأوضح لهم أعلام الحق، ومنازل المارشِد، وطرق الهدى، وأبواب النجاة، ومعالق العصمة، غير مدخر لهم نصحًا ولا مبتغى في إرشادهم غنمًا. فكان مما قدم إليهم فيه نهيه، وأعلمهم سوء عاقبته، وحذرهم إصره، وأوعز إليهم ناهيًا وواعظًا وزاجرًا، الاعتكاف على هذه التماثيل من الشطرنج والمواصلة عليها، لما في ذلك من عظم الإثم، وموبق الوزر، مع مشغلتها عن طلب المعاش، وإضرارها بالعقول، ومنعها من حضور الصلوات في مواقيتها مع جميع المسلمين.

وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناسًا، ممن قبلك من أهل الإسلام، قد ألهمهم الشيطان بها، وجمعهم عليها، وألف بينهم فيها، فهم معتكفون عليها

من لدن صبحهم إلى ممسأهم، ملهية لهم عن الصلوات، شاعلة لهم عما أمروا به من القيام بسنن دينهم، وافترض عليهم من شرائع أعمالهم، مع مداعتهم فيها، وسوء لفظهم عليها. وإن ذلك من فعلهم ظاهر في الأندية والمجالس، غير منكر ولا معيب ولا مستفزع عند أهل الفقه، وذوي الورع والأديان والأسنان منهم؛ فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه، وكرهه واستكبره، وعلم أن الشيطان عندما يؤس منه من بلوغ إرادته في معاصي الله عز وجل، بمصر المسلمين ومجمعهم صراحًا وجهارًا، أقدم بهم على شبهة مهلكة، وزين لهم ورطة موبقة، وغرهم بمكيدة حيله، إرادة لاستهوائهم بالخدع، واجتياهم^(١٦٠) بالشبه والمراصد الخفية المشكلة. وكل مقيم على معصية الله، صغرت أو كبرت، مستحلًا لها مشيدًا بها، مظهرًا لارتكابه إياها، غير حذر من عقاب الله عز وجل عليها، ولا خائف مكروهاً فيها، ولا راهب من حلول سطوته عليها، حتى تلحقه المنية، فتختلجه وهو مصر عليها، غير تائب إلى الله منها، ولا مستغفر من ارتكابه إياها؛ فكم من أقام على موبقات الآثام وكبائر الذنوب، حتى مدته ومحرم أيامه.

وقد أحب أمير المؤمنين أن يتقدم إليهم، فيما بلغه عنهم، وأن ينذرهم ويوعز إليهم، ويعلمهم ما في أعناقهم عليها، وما لهم في قبول ذلك من الحظ، وعليهم في تركه من الوزر، فأذن^(١٦١) بذلك فيهم، وأشدّه في أسواقهم وجميع أنديتهم، وأوعز إليهم فيه. وتقدم إلى عامل شرطتك في إنهاك العقوبة لمن رفع إليه: من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للعب بها، وإطالة حبسه في ضيق وضنك، وطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين. وافطمهم عما لهجوا به من ذلك. والتمس بشدتك عليهم فيه وإنهاكك بالعقوبة عليه، ثواب الله وجزاءه، واتباع أمير

المؤمنين ورأيه. ولا يجدن أحد عندك هودة في التقصير في حق الله عز وجل، والتعدي لأحكامه، فتحل بنفسك ما يسوءك عاقبة مغبته، وتعرض به لغير الله عز وجل ونكاله. واكتب إلى أمير المؤمنين ما يكون منك، إن شاء الله والسلام.

(٩) رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب:

ومن رسائل عبد الحميد هذه الرسالة التي وصف بها الصيد^(١٦٢):
أطال الله بقاء أمير المؤمنين مؤيداً بالعز، مخصوصاً بالكرامة، ممتعاً بالنعمة، إنه لم يلق^(١٦٣) أحد من المقتنصين، ولا منح متطرف من المتصيدين، إلا دون ما لقنا^(١٦٤) الله به من اليمن والبركة، ومنحنا من الظفر والسعادة في مسيرنا من كثرة الصيد، وحسن المقتنص، وتمكين الجاسة^(١٦٥)، وقرب الغاية، وسهولة المورد، وعموم القدورة^(١٦٦)، إلا ما كان من محاولة الطلب، وشدة النصب، لنافر الصيد، وقائد الطريدة التي أمعنا في الطلب لها، وأعجزنا البهر عن اللحاق بها، لتفاوت سبقها، ومنقطع هربها، ومتفرق سبلها، ثم آل بنا ذلك إلى حسن الظفر، وتناول الأرب، ونهاية الطرب.

وإني أخبر أمير المؤمنين أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأثقف الضواري؛ أكرمها أجناساً، وأعظمها أجساماً، وأحسنها ألواناً، وأحدها أطرافاً، وأطولها أعضاء، قد ثقت بحسن الأدب، وعودت شدة الطلب، وسبرت أعلام المواقع، وخبرت المجاثم، مجبولة على ما عودت، ومقصورة على ما أدبت. ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة^(١٦٧)، من الشهرية^(١٦٨) الموصوفة بالنجابة، والجري والصلابة. فلم نزل بأخفض سير، وأثقف طلب، وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً، فربت منه الأرض، وزهر البقل، وسكن القتام من مثار^(١٦٩) السنايك، ومتشعبات^(١٧٠) الأعاصير، مهلة أن سرنا غلوات،

ثم برزت الشمس طالعة، وانكشفت [من] السحاب مسفرة، فتلاأت الأشجار، وضحك النوار، وانجلت الأبصار، فلم نر منظراً أحسن حسناً، ولا مرموقاً أشبه شكلاً، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض. والخيال ترح بنا نشاطاً، وتجتنبنا أعنتها انبساطاً؛ ثم لم نلبث أن علتنا ضبابية تقصر^(١٧١) طرف الناظر، وتخفي^(١٧٢) سبل السلام، تغشانا تارة وتنكشف أخرى، ونحن بأرض دمثة التراب، أشبه^(١٧٣) الأطراف، مغدقة الفجاج، مملوءة صيداً من الظباء والثعالب والأرانب؛ فأدانا المسير إلى غاية دونها مألّف الصيد، ومجتمع الوحش، ونهاية الطلب، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب معنون، وبكل حرة^(١٧٤) جونة^(١٧٥) متفرقون، فرجع بنا العود على البدء، وقد انجلت الضبابية، وامتد البصر، وأمكن النظر، فإذا نحن برحلة^(١٧٦) من ظباء، وخلفة آرام يرتعن أنسات، قد أحالتهن الضبابية عن شخصنا، وأذهلهن أنيق الرياض عن استماع حسناً، فلم نعج^(١٧٧) إلا والضوراي لائحة لهن من بعد الغاية، ومنتهى نظر الشاخص؛ ثم مدت الجوارح أجنتها، واجتذبت الضوراي مقاودها، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها، وسرعة الجوارح في طلبها، فمرت تحف حفيف الريح عند هبوبها، تسف الأرض سقاً، كاشفة عن آثارها، طالبة لخيارها، حارشة بأظفارها، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد؛ فمن صائح بها وناعر، وهاتف بها وناعق، يدعو الكلب باسمه، ويفديه بأبيه وأمه؛ وراكض تحت مفره، وخافق يطلبه الرمح، وطامح يمنعه، وسانح قد عارضه بارح، قد حيرتنا الكثرة، وألهجتنا القدرة، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد، والله المنعم الوهاب.

ثم ملنا يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكمته التجارب، وخبر أعلام المذانب، إلى غدير أفيح، وروضة خضرة، مستأجمة بتلاوين الشجر، ملتفة

بصنوف الخمر^(١٧٨)، مملوءة من أنواع الطير، لم يذعرهن صائد، ولا اقتنصهن قانص، فخفق لها بطبول، وصفر بنفير الحتف، فثار منها ما ملأ الأفق كثرتها، وراعت الجوارح خفقات أجنحتها؛ ثم انبرت البزاة لها صائدة، والصقور كاسرة، والشواهين ضارية، يرفعن الطلب لها، ويخفضن الظفر بها، حتى سئما من الذبح، وامتلاأنا من النصيح^(١٧٩)؛ كانا كتيبة ظفرت ببغيتها، وسرية نصرت على عدوها، وألحقت ضعيفها بقويها، وغلبت^(١٨٠) محسنها بمسيئها؛ لا نملك أنفسنا مرحاً، ولا نستفيق من الجذل بها فرحاً، بقية يومنا، والله المنعم الوهاب. ثم غدونا يا أمير المؤمنين إلى أرض وصف لنا صيدها بالكثرة، ورياضها بالنزهة، فزل واصفها عن الطريقة، واعتمد بنا على غير الحقيقة؛ فأتيناها فلم نر صيداً ولا عشباً، ولا نزهة ولا حسناً، فجعلنا نسلك منها حزوناً ووعوراً، وجدوباً وققرأ، حتى قصر بنا اليأس عن الطلب، وقطع بنا عن الطمع النصب. فبينما نحن كذلك، إذ بدا لنا جأب^(١٨١) قد أوفى بنا على حائل دل على غابة من ورائها حمير وحش كثيرة، فأعмнаها، فلما تطرفنا مشياً^(١٨٢) وتقريباً^(١٨٣) إلى عاناته^(١٨٤)، توالى نهيقه، وكثر شهيقه، فالتفتن إليه، فرمقن بأعينهن منا ما استكثرن شخصه، واستهولن أمره، حتى إذا كنا بمرأى ومسمع انجذبنا موليات، وهربن مسيات، فأجهدنا الركض في طلبهن، نتبع آثارهن، ونستشف بلاء بين أحفار^(١٨٥) ودكادك^(١٨٦) وخناذيد^(١٨٧)، حتى أشفى بنا الطلب لها على واد هائل سائل، بجنبتيه غابة أشبه قد سبقن إليها، واستخفين فيها، فنظمناها بالخیل نظم الخرز، ثم أوغلت عدة فرسان في نقضها ومعرفة أحوالها، والطبول خافقة، والأصوات شاهقة، فكان وكان؛ والحمد لله على كل حال.

هوامش:

(١) انظر كتاب صبح الأعشى ص ٢٣٧ ج ١.

(٢) هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، صاحب رسول الله وأول خليفة له في الإسلام وخطيب يوم السقيفة. ويجمع نسبه مع نسب رسول الله ﷺ في مرة بن كعب. ولد بعد مولد رسول الله ﷺ بستين وبضعة أشهر. ونشأ من أكرم قريش خلقاً، وأرجحهم حلياً، وأسماهم يداً، وأشدهم عفة. وكان أعلمهم بالأنساب وأيام العرب ومفاخرها. صحب رسول الله قبل النبوة. وكان أول من آمن به من الرجال وصدقه في كل ما جاء به، ولذلك سمي الصديق، وأنفق أمواله في تأييد دعوته، وهاجر معه إلى المدينة مؤثراً صحبته على كل أهله وولده، وشهد معه أكثر الغزوات. وما زال ينفق ماله وقوته في معاضدة رسول الله حتى انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى. واختلفت العرب، وارتدت عن الإسلام، ومنعت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وثقيف بالطائف، فجرد عليهم الجيوش حتى قمعهم، وجمع العرب على الإسلام، وساقهم تواً إلى فتح ممالك كسرى وقيصر. وما مات إلا وجيوشه تهزم جيوش الفرس والروم وتستولي على مدائنهم وحصونهم. وكان رحمه الله فصيحاً بليغاً، خطيباً مفوهاً، حاضر البديهة، قوي الحجة، شديد التأثير، يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة، وذلك أنه لما مات رسول الله اختلقت الصحابة فيمن يبايعونه خليفة له عليهم؛ فأبت الأنصار إلا أن يكون الخليفة منهم، وأبى المهاجرون من قريش إلا أن يكون منهم. واشتد النزاع حتى كات تقع الفتنة، فخطبهم خطبة لم يلبث الجميع بعدها أن يبايعوه خليفة. وكانت وفاته سنة ١٣ هـ ومدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال.

(٣) الشماس: المعادة والمعاندة.

(٤) تهتم الشيء: طلبه وتحسسه.

(٥) نافس في الشيء منافسة: رغب فيه على وجه المباراة والمفاخرة.

(٦) تجب: تقطع.

(٧) تأتي فلان للأمر: تهيأ له وأتاه من وجهه.

(٨) الجو أكلف: أسود تعلوه حمرة.

(٩) الليل أغدق: مرخ سدوله مظلم.

(١٠) السماء جلواء: مصحية.

(١١) خالية لا شجر فيها.

(١٢) أي مستعد لأن يعمل عمله من الشر.

(١٣) أفاء: أرجع.

(١٤) يتخاوص: يغض من بصره.

(١٥) الضراء: الاستخفاء. والخمر: ما وارك من شجر، وهو مثل يضرب لمن يخدع صاحبه.

عصر المأمون - المجلد الثاني —

(١٦) الشنان جمع شن وهو القرية الخلق الصغيرة. والقعقة: الصوت، يريد أنه لا يخوف بمثل هذا.

(١٧) نشرح عياها: ننضدها ونضم بعضها إلى بعض. والعياب: جمع عيبة، وهي زنبيل من آدم تجعل فيه الثياب.

(١٨) جمع مرس ككتف وهو الجبل.

(١٩) السيد: الشعر. واللبد: الصوف.

(٢٠) يقال: جاءنا فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة أي لم يأتنا بشيء، فالهلة من الفرح والاستهلال، والبلبة من البلبل والخير.

(٢١) مشهوم (بالشين المعجمة): ذكي متوقد.

(٢٢) عطا: مد إليك عنقه وأقبل نحوك.

(٢٣) حلم الجلد (من باب فرح): فسد وتثقب.

(٢٤) أي يطلبه ويدافع عنه.

(٢٥) يتطلع إليه ويفتخر به.

(٢٦) أي ما كنت عرفته منك شيئاً.

(٢٧) سجرائه: أصدقائه.

(٢٨) عباهل مباحل (بالباء الموحدة في الكلمتين): مهملة.

(٢٩) الصوى: الأعلام.

(٣٠) المهايع: الطرق.

(٣١) البافوخ (يهمز ولا يهمز) جزء الرأس الذي يتحرك في الطفل.

(٣٢) في صبح الأعشى: «فهذه».

(٣٣) الرفغ: أصل الفخذ من باطن. والعجان: الاست. يريد أن منزلتهم بين الأحياء والعشائر

ليست حقيرة مهيئة.

(٣٤) الشئ بالكسر إتياع للعي.

(٣٥) الخنزوانة: الكبر.

(٣٦) الوحرة (بالتحريك): الحقد والعداوة. والشراسيف: جمع شرسوف، والشرسوف مقط

الضلع.

(٣٧) البازل: الجمل القوي الذي دخل في سنته التاسعة. والهبع: الفصيل الذي ينتج في الصيف

فيكون ضعيفاً.

(٣٨) يعض إهابك: يحرق جلدك.

(٣٩) يعرك: يدلك.

(٤٠) هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب. وابن عم رسول الله ﷺ. وزوج ابنته. ورابع

الخلفاء الراشدين. وإمام الخطباء من المسلمين. ولد رحمه الله بعد مولد النبي ﷺ باثنتين وثلاثين سنة.

وهو أول من آمن من الصبيان. وكان شجاعاً لا يشق له غبار. أيداً جليداً. شهد الغزوات كلها مع النبي إلا غزوة تبوك. وأبلى في نصرته رسول الله ﷺ ما لم يبلىه أحد. ولما قتل عثمان بايعه الناس بالحجاز وامتنع عن بيعته معاوية وأهل الشام شيعة بني أمية غضباً منهم لمقتل عثمان وقلة عنايته بالبحث عن القتلة على حسب اعتقادهم، فحدث من جراء ذلك الفتنة العظمى بين المسلمين وافتراقهم إلى طائفتين فتحاربوا مدة من غير أن يستتب الأمر لعلي أو معاوية حتى قتل أحد الخوارج علياً غيلة بمسجد الكوفة. وكان كرم الله وجهه أفصح الناس بعد رسول الله، وأكثرهم علماً وزهداً وشدة في الحق: وهو إمام الخطباء من العرب على الإطلاق بعد رسول الله ﷺ. وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر.

(٤١) معلومة: مقتحمة من غير روية.

(٤٢) مخروطة: مسرعة.

(٤٣) هيسي: سيري أي سير كان.

(٤٤) أي ينطوون على الضغن وهو الحقد.

(٤٥) جلجلان قلبي، أي حبته.

(٤٦) على غرة: أي كما هو وكما قص علي.

(٤٧) زميتاً: حليماً وقوراً.

(٤٨) يقال: أزم الفرس على فأس اللجام إذا عضها وقبض عليها. وفأس اللجام: الحديدية المعارضة منه في الحنك. يريد أنه ألجم نفسه ثقة إلخ.

(٤٩) لط: جحد.

(٥٠) يتوكف: ينتظر.

(٥١) الأنشودة: عقدة يسهل انحلالها، إذا أخذ بأحد طرفيها انفتحت.

(٥٢) الليطة قشرة القصبة التي تليط بها أي تلزق.

(٥٣) اللبان: الصدر.

(٥٤) هي عائشة بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة، عقد عليها رسول الله ﷺ بمكة وهي بنت ست سنين، ودخل بها في المدينة وهي بنت تسع، وكان مولدها سنة أربع من النبوة، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر، وكان صداقها أربعمئة درهم، وكانت أحب نسائه إليه، وكنيتها أم عبد الله، كنيتم بابن أختها أسماء، ولها خطب ووقائع. وكانت من أكبر العاملات في وقعة الجمل المشهورة في الإسلام صحبة الزبير وطلحة. وكانت أفصح أهل زمانها وأبينهم منطقاً وأحفظهم للحديث وأفقههم. توفيت سنة سبع وخمسين ودفنت ليلاً بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة رضي الله عنه. راجع ترجمتها في طبقات ابن سعد (ج ٨ ص ٣٩).

(٥٥) الأزفلة: الجماعة.

(٥٦) لا تعطوه: لا تناله.

(٥٧) على سياسائه: أي على دأبه وعادته.

(٥٨) فنج: غلب وقهر.

(٥٩) خبأها: ما عاب عنها.

(٦٠) منقولة عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨.

(٦١) زور الكلام في نفسه: هياه.

(٦٢) جمل أرمك: لونه لون الرماد.

(٦٣) المكن: الإجانة وهي إناء تغسل فيه الثياب. ويعرك: يحك. والرجيع المردود. أي لا تجعلني كالثوب المصبوغ يحك في الإناء مرة بعد أخرى لإخراج صبغه منه: تشبه محاورة معاوية إياها وسؤاله لها مرة بعد مرة لاستخراج ما في نفسها بما يغسل من الثياب المصبوغة لاستخراج صبغها منها.

(٦٤) هي الزرقاء بنت عدي بن غالب بن قيس الهمدانية، كانت من أهل الكوفة، وكانت ذات شجاعة فائقة، وبلاغة نادرة، شهدت مع قومها واقعة صفين، ولها عدة خطب تحرض الناس فيها على القتال ضد معاوية. وبعد أن تم لمعاوية ما أراد كتب إلى عامله بالكوفة باستدعائها، فأحضرت إليه، وبعد محاورة بينه وبينها سألها حاجتها، فقالت: «يا أمير المؤمنين، آليت على نفسي إلا أسأل أميرًا أعنت عليه أبدًا» ثم أنصرفت، وبعد ذلك أرسل لها معاوية جائزة.

(٦٥) خصيف: غليظ.

(٦٦) يقال: قصع البعير بجرتة قصعًا: مضغها.

(٦٧) هذه الرسالة منقولة عن صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٩٥.

(٦٨) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامري ولاء، الشامي دارا، شيخ الكتاب الأوائل، وأول من أطلال الرسائل. كان عبد الحميد من أهل الشام من موالي بني عامر، وتخرج في البلاغة والكتابة على ختنه أبي العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب دولته وأحد بلغاء العالم والنقلة من اليونانية. وكان عبد الحميد في أول أمره معلم صبيان يتنقل في البلدان حتى فطن له مروان بن محمد أيام توليته أرمينية وانتدابه لتسكين فتنتها، فكتب له مدة ولايته، حتى إذا بلغه مبايعة أهل الشام له بالخلافة سجد مروان لله شكرًا وسجد أصحابه إلا عبد الحميد، فقال له مروان لم لا تسجد؟ فقال: ولم أسجد؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنا! قال: إذا تطير معي؛ قال: الآن طاب لي السجود وسجد، فاتخذ مروان كاتب دولته، فصدر عنه من الرسائل ما صار نموذجًا يحاكيه من بعده من البلغاء. ولما دهم مروان جيوش خراسان أنصار الدعوة العباسية وتوالت عليه الهزائم كان عبد الحميد يلازمه في كل هذه الشدة؛ فقال له مروان: قد احتجت أن تصير مع عدوي وتظهر الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك، وحاجتهم إلى كتابتك، تحوهم إلى حسن الظن بك؛ فإن استطعت أن تنفعني في حياتي وإلا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي؛ فقال له: إن الذي أشرت به علي أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك. وأنشد:

أسر وفاء ثم أظهر غدرة

فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره

وبقي معه حتى قتل مروان سنة ١٣٢ هـ ففر واختبأ عند صديقه ابن المقفع ففاجأه الطلب وهو في بيته، فقال الذين دخلوا عليها: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل منهما: أنا، خوفاً على صاحبه، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال: ترفقوا بنا فإن كلاً منا له علامات، فوكلوا بنا بعضكم ويمضي بعض آخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم ففعلوا وأخذ عبد الحميد إلى السفاح فقتله سنة ١٣٢ هـ. انظر ترجمته في ابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٦).

(٦٩) هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي.

(٧٠) المصاص: خالص كل شيء.

(٧١) كذا في صبح الأعشى وفي مفتاح الأفكار (ص ٢٨٢) وغيره «وترزين».

(٧٢) الصعاصع: جمع صعصع وهو طائر يصيد الجنادب، شبه وسوسة الشيطان به. وفي بعض

المؤلفات «وسفاسفه».

(٧٣) لا ونية: لا تواني.

(٧٤) أي لا استثناء.

(٧٥) يقال: نافث فلان فلائناً بالكلام: آذاه.

(٧٦) الحويل: الحذق والقدرة على التصرف.

(٧٧) الفراسن: واحدها فرسن وهو طرف خف البعير.

(٧٨) الأغفال جمع غفل وهو الذي لم يجرب الأمور.

(٧٩) يقال: أبطره ذرعه إذا حمّله فوق ما يطيق. وفي صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٠١) «أبطال

الذرع». وقد توقف فيها مصححه.

(٨٠) أوتغ دينه بالإثم: أفسده.

(٨١) ألحمه عرض فلان: أمكنه منه يشتمه.

(٨٢) دخل الرجل (بالفتح والكسر): نيته ومذهبه.

(٨٣) لم يعصب أي لم يلحق.

(٨٤) أي لوضوح براءته، ففي حديث علي: فأصحر لعدوك، أي كن من أمره على أمر واضح.

(٨٥) صفحه عنها، ردّه عنها.

(٨٦) في صبح الأعشى: «وتستعصد في موهم النازل». وفي رسائل البلغاء: «وتستعده في مهم

نازل». واخترنا من العبارتين ما يناسب المقام.

(٨٧) كذا في صبح الأعشى والمفتاح ورسائل البلغاء، ولعله وإن ابتدرت ... إلخ.

(٨٨) يقال: أنقض أصابعه: صوت بها وليس في كتب اللغة نقض بالتضعيف.

(٨٩) الغمزية: المطعن.

(٩٠) تأثل: تثبت.

(٩١) اكتهف الكهف: دخله.

(٩٢) أهاب بك: دعاك.

- (٩٣) من قولهم كلب الدهر على أهله إذا اشتد وألح.
(٩٤) الكل: الثقل.
(٩٥) الأيد: القوة.
(٩٦) أي مدلهمة سوداء، من قولهم: أعشى الليل إذا أظلم.
(٩٧) المغاورة: المقاتلة.
(٩٨) كذا في صبح الأعشى ويظهر أن السياق يقتضي معمولاً لهذا الفعل أما ضميراً أو اسماً ظاهراً.
(٩٩) تشزن للأمر: استعد له.
(١٠٠) يفثأك (بالفاء والثاء المثلثة) أي يكسرك ويؤخره.
(١٠١) كذا في صبح الأعشى. ولعلها موقوم الحزم أي مقهورة أو لعلها محرفة عن كلمة أخرى بمعنى الضعف أو القلة.
(١٠٢) نضيض: قليل. والوفر: المال.
(١٠٣) المياحة: الإعطاء.
(١٠٤) في مفتاح الأفكار ورسائل البلغاء: «كامنة».
(١٠٥) في رسائل البلغاء: «وأن رأيه في مكيدتك مثل ما تكايد به».
(١٠٦) إصفاقهم: اجتماعهم.
(١٠٧) الصريمة: العزيمة.
(١٠٨) في مفتاح الأفكار وغيره: «أفئدة». وإياد كل شيء: ما يقوى به من جانبيه ومنه إيادا العسكر وهما ميمنته وميسرته.
(١٠٩) الصوت: كالصيت والصات: الذكر والشهرة.
(١١٠) الأزل: الضيق والشدة.
(١١١) المادة: كل مدد تستعين به في حرب أو غيره.
(١١٢) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٠ وغيره).
(١١٣) الطعمة بالضم والكسر وجه الكسب الطيب أو الخبيث.
(١١٤) في مفتاح الأفكار وغيره: «بحيث ولايتك وفي الموضع الجارية» إلخ.
(١١٥) المهلوبة: المتتوفة الهلب، وهو شعر الذنب أو الشعر كله.
(١١٦) أي خالصة وحيدته.
(١١٧) البلق: القباء المحشو.
(١١٨) التريك: بيضة النعام خاصة، ومنه قوله:
وتلقى بها بيض النعام ترائكاً
(١١٩) سيف شطب: ذو شطب وهي طرائقه التي في متنه.
(١٢٠) الأمت: العوج والاختلاف.

- (١٢١) الثعلب: طرف الرمح الداخِل في جِبة السنان.
- (١٢٢) في مفتاح الأفكار وغيره: «وشحذها متلهب» و«سنخ النصل: الحديدَة التي تدخل في رأس السهم.
- (١٢٣) المعاقص: السهام المعوجة.
- (١٢٤) الشوْحط: شجر تتخذ منه القسي.
- (١٢٥) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥١).
- (١٢٦) يقال: فلان ناصح الجيب يراد بذلك قلبه وصدره أي أمين.
- (١٢٧) النفل محرّكة: الغنيمَة والهبة.
- (١٢٨) الثقل: متاع المسافر.
- (١٢٩) الإدهان: المداھنة وهي أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن.
- (١٣٠) الترسَة موضونة، أي منسوجة حلقتين حلقتين.
- (١٣١) أي كتيبة كتيبة.
- (١٣٢) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٢).
- (١٣٣) أي يقعد بهم عن الجد إلخ.
- (١٣٤) كتب الجيش أو الخيل: جعلها كتائب.
- (١٣٥) في مفتاح الأفكار وغيره: «في الصيت».
- (١٣٦) الرجلَة بالضم: أن يشكو رجله وقد كفرح أصابه في رجله ما يكره.
- (١٣٧) لوأذاً: مراوغة أي مستحقين يستتر بعضهم ببعض.
- (١٣٨) العقوة: ما حول الدار أو ساحته.
- (١٣٩) سامطين: معلقين.
- (١٤٠) الزيادة عن مفتاح الأفكار وغيره.
- (١٤١) برذوناً وثيجاً: كثير اللحم.
- (١٤٢) كذا في صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٢٦) ولعل فيه تحريفاً صوابه: قوة تصلك ومدد يأتيك.
- (١٤٣) أي ذهب وغاب.
- (١٤٤) الحسك: أسلاك كالشوك تعمل من الحديد تلقى حول المعسكر لتتشب في رجل من يدوسها من الخيل والناس الطارقين له، وهي المعروفة الآن: «بالأسلاك الشائكة».
- (١٤٥) متشزناً: متجهزاً.
- (١٤٦) الأكساء: الآبار، واحدها كساء.
- (١٤٧) ترهق عدوك: تغشاه.
- (١٤٨) الشريان بفتح الشين وكسرها: شجر من عضاه الجبال تعمل منه القسي.
- (١٤٩) هذه الرسالة من مقدمة ابن خلدون (ص ٢٠٦ طبعة بلاق).

- (١٥٠) أضفاه: أتمه.
- (١٥١) نبا: تجافى وتباعد.
- (١٥٢) هذه الرسالة من كتاب «اختيار المنظوم والمنثور» لابن طيفور المحفوظ بدار الكتب المصرية بحث رقم (٥٨١ أدب) ومراجعة على نسخة أخرى منه محفوظة برقم (١٨٦٠ أدب).
- (١٥٣) وردت هذه الجملة في رسائل البلغاء هكذا: «على حين انطمست له الأعلام...» بزيادة «له» وليس لها محل من السياق فلعلها من زيادات النساخ.
- (١٥٤) أسدف الكفر: أظلم وعم النواحي والأرجاء كالليل.
- (١٥٥) اقمطر: اشتد.
- (١٥٦) الغياية، ما أظل الإنسان من فوق كالسحابة والغبرة ونحوهما.
- (١٥٧) في رسائل البلغاء وإعلان بالنون بدل القاف، وهو تحريف.
- (١٥٨) آصار: جمع إصر وهو الثقل. وفي رسائل البلغاء واختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور «أواصر» بدل آصار، وهو تحريف.
- (١٥٩) في رسائل البلغاء واختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور «أسبابه» وهو تحريف.
- (١٦٠) اجتاهم: حولهم عن طريق قصدهم ويحتمل أن يكون: واحتباهم، والاحتبال: الاصطياد.
- (١٦١) آذنه الأمر وبه: أعلمه.
- (١٦٢) هذه الرسالة من كتاب «اختيار المنظوم والمنثور» لابن طيفور.
- (١٦٣) في الأصل: «يلف».
- (١٦٤) في الأصل: «الفانا».
- (١٦٥) كذا في الأصل ولعلها محرفة عن الحباله.
- (١٦٦) القدورة: القدرة، وفي الأصل «المقدورة».
- (١٦٧) الفراهة: النشاط في السير.
- (١٦٨) الشهريه: البراذين.
- (١٦٩) في الأصل: هكذا «مسا».
- (١٧٠) في الأصل: «متسعات».
- (١٧١) في الأصل: «تقتصر».
- (١٧٢) في الأصل: «ويحيى».
- (١٧٣) الأشبة: الملتفة الشجر. وفي الأصل «آسنة».
- (١٧٤) الحرة: أرض ذات حجارة نخرة سود، وفي الأصل «حر».
- (١٧٥) الجونة: السوداء، وفي الأصل هكذا: «حومة».
- (١٧٦) رعلة: جماعة متفرقة.
- (١٧٧) في الأصل: «يفح».

-
- (١٧٨) الخمر: الشجر.
(١٧٩) النضيج: العرق.
(١٨٠) في الأصل: «قلب».
(١٨١) الجأب: الغليظ من حمر الوحش.
(١٨٢) في الأصل: «مسيسا».
(١٨٣) التقرب: ضرب من العدو.
(١٨٤) العانة: القطيع من حمر الوحش.
(١٨٥) الأحفار جمع حفر وهو التراب المخرج من المحفور.
(١٨٦) الدكادك: جمع دكدك ودكدك وهو أرض فيها غلظ.
(١٨٧) الخناذيد: جمع خنذيذ وهو رأس الجبل المشرف، والذي يتفق والسباق «أخاديد»، وهي جمع أخدود: الحفرة المستطيلة في الأرض.

باب المنظوم

(١) الغزل:

ذكرنا في المجلد الأول حالة الغزل في العصر الأموي، وكثرة ما نجد فيه من لوايع الحب ولفحاته، وشكايات الصب وأناته، وزفرات العاشق وعبراته، وبيننا أنواعه المتباينة التي قسمناها إلى أربعة أقسام:

(أ) غزل إباحي: ويصح لنا أن نتخذ من عمر بن أبي ربيعة زعيماً لهذا النوع الذي يجمع إلى وصف المرأة والتشبيب بها، معاني العبث والاستمتاع باللذة المادية مما ينفر منه الأدب الجاهلي، ومما حظره عليه الكثيرون من خلفاء الإسلام وأئمة. وقد كانت مكة والمدينة مسرحاً لهذا النوع في العصر الأموي. وقد شرحنا سبب ذلك في المجلد الأول فراجعه ثمة.

(ب) غزل عذري: وهو غزل الحب الصادق، والعواطف المتأججة، والنفس المتألمة المعناة، تلك النفس التي تجد لذتها في الكلف بمن تحب والتعلق بها والشعور بالسعادة في الفناء في حبها، حباً يملك عليه له ويعذب روحه ويفنى جسمه، كغزل جميل زعيم هذا النوع. وليس أدل على صدق حبه مما أثبتناه عن كتاب الأغاني إذ حاول أبوه أن يصرفه عن حبه وحاجه في ذلك أجمل حاجة، فكان من جميل ما كان مما تجده مفصلاً في هذا الباب.

(ج) غزل صناعي: بين هذا وذاك، همه الإجادة في الشعر من حيث هو شعر، لا في الحب من حيث هو حب، ولنا في كثير عزة زعيم لهذا النوع الثالث.

(د) غزل قصصي: خلقه الرواة لأنهم رأوا ميل الناس إلى الغزل وإلى حياة القصف وما يتبع حياة القصف، فنظموا قصائد نحلوها لشعراء لا نستطيع

أن نحتمل تبعة القول بوجودهم في الحياة، أو القول بأنهم أشخاص خياليون خلقهم الرواة، أو زادوا من عندهم مقطعات نسبوها لهم وأضافوها إلى شعرهم. وزعيمًا هذا النوع: قيس بن الملوح وليلاه، وقيس بن ذريح ولبناه. وإيفاء بما وعدناك به نذكر زعيم كل نوع من هذه الأنواع مع ذكر ترجمته والمختار من شعره.

(أ) الغزل الإباحي

عمر بن أبي ربيعة:

راق عمر بن أبي ربيعة^(١) الناس وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر وشدة الأسر، وحسن الوصف، ودقة المعنى، وصواب المصدر، والقصد للحاجة، واستنطاق الربع، وإنطاق القلب، وحسن العزاء، وخاطبة النساء، وعفة المقال، وقلة الانتقال، وإثبات المحجة، وترجيح الشك في موضع اليقين، وطلاوة الاعتذار، وفتح الغزل، ونهج العلل. وعطف المساءة على العذال، وحسن التفجع، وبخل المنازل، واختصار الخبر، وصدق الصفاء؛ إن قدح أورى، وإن اعتذر أبرأ، وإن تشكى أشجى، وأقدم عن خبرة، ولم يعتذر بغرة، وأسر النوم، وغم الطير، وأغد السير، وحير ماء الشباب، وسهل وقول، وقاس الهوى فأربى، وعصى وأخلى، وحالف بسمعه وطرفه، وأبرم نعت الرسل وحذر، وأعلن الحب وأسر، وبطن به وأظهر، وألح وأسف، وأنكح النوم، وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه، وأذل صعبه، وقنع بالرجاء من الوفاء، وأعلى قاتله، واستبكى عاذله، ونفض النوم، وأغلق رهن منى وأهدر قتلاه؛ وكان بعد هذا كله فصيحًا.

فمن سهولة شعره وشدة أسرهِ^(٢) قوله:

فلما تواقفنا وسلمت أشرقت وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تباهن بالعرفان لما رأيَني وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا^(٣)
ومن حسن وصفه قوله:

لها من الريم^(٤) عيناه ولفته ونخوة السابق المختال إذ صهلا
ومن دقة معناه وصواب مصدره قوله:

عوجا^(٥) نحى الطلل المحولا^(٦) والربع من أسماء والمنزلا
بسايف البوابة^(٧) لم يعده تقادم العهد بأن يؤهلا
ومن قصده للحاجة قوله:

أيها المنكح الثريا سهيلا^(٨) عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمان
ومن استنطاقه الربع قوله:

سائلا الربع بالبي^(٩) وقولا هجت شوقاً لي الغداة طويلا
أين حي حلوك إذ أنت محفو ف بهم أهل أراك جميلا
قال ساروا فأمعنوا واستقلوا^(١٠) وبرغمي ولو وجدت سيلا
سئموننا وما سئمنا جواراً وأحبوا دماءة^(١١) وسهولا

قال إسحاق: أنشد جرير هذه الأبيات فقال: إن هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه.

ومن إنطاقة القلب قوله:

قال لي فيها عتيق مقالا فجرت مما يقول الدموع
قال لي ودع سليمي ودعها فأجاب القلب: لا أستطيع

ومن حسن عزائه قوله:

أألحق إن دار الرباب تباعدت	أو انبت ^(١٢) حبل أن قلبك طائر
أفق قد أفاق العاشقون وفارقوا الـ	هوى واستمرت بالرجال ^(١٣) المرائر
زع ^(١٤) النفس واستبق الحياء فإنها	تباعد أو تدني الرباب المقادر
أمت حبها واجعل قديم وصاها	وعشرتها كمثل من لا تعاشر
وهبها كشيء لم يكن أو كنازح	به الدار أو من غيبته المقابر
وكان الناس علقته الرباب فلا تكن	أحاديث من يبدو ومن هو حاضر ^(١٥)

وهذه الأبيات يرويها بعض أهل الحجاز لكثير، ويرويها الكوفيون للكُميت بن معروف الأسدي، وذكر بعضها الزبير بن بكار عن ابن عبدة لكثير في أخباره. ومن حسن غزله في مخاطبة النساء - قال مصعب الزبيري: وقد أجمع أهل بلدنا ممن له علم بالشعر أن هذه الأبيات أغزل ما سمعوا - قوله:

تقول غداة التقينا الرباب	أيا ذا أفلت أفول السماك
وكفت سوابق من عبرة	كما ارفض نظم ضعيف السلاك
فقلت لها من يطع في الصيد	ق أعداءه يجتنبه كذاك
أغرك أني عصيت الملا	م فيك وأن هوانا هواك
وَألا أرى لذة في الحياة	تقر بها العين حتى أراك
فكان من الذنب لي عندكم	مكارمتي واتباعي رضاك
فليت الذي لام في حبكم	وفي أن تزارى بقرن ^(١٦) وقاك
هموم الحياة وأسقامها	وإن كان حتف جهيز ^(١٧) فداك

ومن عفة مقاله قوله:

طال ليلى واعتادني اليوم سقم	وأصابت مقاتل القلب نعم

حررة الوجه والشمائل والجو
وحديث بمثله تنزل العص^(١٨)
هكذا وصف ما بدا لي منها
إن تجودي أو تبخلي فبحمد
ومن قلة انتقاله قوله:

أيها القائل غير الصواب
واجتنبني واعلمن أن ستعصى
إن تقل نصحًا فعن ظهر غش
ليس بي عي بما قلت إني
إنما قرّة عيني هواها
لا تلمني في الرباب وأمست
هي والله الذي هو ربي
أكرم الأحياء طرًا علينا
خاطبتني ساعة وهي تبكي
وكفى بي مدرهًا لخصوم
ومن إثباته الحجة قوله:

خليلي بعض اللوم لا ترحلا^(٢٣) به
خليلي من يكلف بآخر كالذي
خليلي ما كانت تصاب مقاتلي
خليلي حتى لف حيلي^(٢٥) بخادع
خليلي لو يرقى خليل من الهوى

هر تكليمها لمن نال غنم
سم رخيم يشوب ذلك حلم
ليس لي بالذي تغيب علم
لست يا نعم فيها من يذم

أمسك النصح وأقلل عتابي
ولخير لك طول اجتنابي
دائم الغمر^(١٩) بعيد الذهاب
عالم أفقه رجع الجواب
فدع اللوم وكلني لما بي
عدلت^(٢٠) للنفس برد الشراب
صادقًا أحلف غير الكذاب
عند قرب منهم واجتناب
ثم عزت^(٢١) خلتي في الخطاب
لسواها عند حد تبابي^(٢٢)

رفيقتكما حتى تقولاً على علم
كلفت به يدمل^(٢٤) فؤاداً على سقم
ولا غرتي حتى وقعت على نعم
موقى إذا يرمي صيود إذا يرمي
رقيت بما يدني النوار^(٢٦) من العصم

خليلي إن باعدت لانت وإن ألن تباعد فلم أنبل^(٢٧) بحرب ولا سلم
ومن ترجيحه الشك في موضع اليقين قوله:

نظرت إليها بالمحصب من منى ولي نظر لولا التخرج عارم^(٢٨)
فقلت: أشمس أم مصابيح بيعة بدت لك خلف السجف^(٢٩) أم أنت حالم
بعيدة^(٣٠) مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم
ومد عليها السجف يوم لقيتها على عجل تباعها والخوادم
فلم أستطعها غير أن قد بدا لنا عشية راحت وجهها والمعاصم
معاصم لم تضرب على البهم^(٣١) بالضحى عصاها ووجه لم تلحه^(٣٢) السائم
نضار ترى فيه أساريع^(٣٣) مائه صبيح تغاديه الأكف النواعم
إذا ما دعت أترابها فاكتنفنها تمايلن أو مالت بهن المآكم^(٣٤)
طلبن الصبا حتى إذا ما أصبته نزعن وهن المسلمات الظوالم
ومن طلاوة اعتذاره قوله:

عاود القلب بعض ما قد شجاه من حبيب أمسى هوانا هواه
يا لقومي فكيف أصبر عمن لا ترى النفس طيب عيش سواه
أرسلت إذ رأت بعادي ألا يقبلن بي محرشاً^(٣٥) إن أتاه
دون أن يسمع المقالة منا وليطعني فإن عندي رضاه
لا تطع بي فدتك نفسي عدواً لحديث على هواه افتراه
لا تطع بي من لو رأي وإيا ك أسيري ضرورة ما عناه
ما ضراري نفسي بهجري من لي س مسيئاً ولا بعيداً ثراه^(٣٦)
واجتنابي بيت الحبيب وما الخلد سد بأشهى إلى من أن أراه
ومن نهجه العلل قوله:

وآية ذلك أن تسمعي
فرحنا سراعاً وراح الهوى
فلما دنونا لجرس^(٣٧) النبا
بعثنا لها باغياً ناشداً
ومن فتحه الغزل قوله:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
ومن عطفه المساءة على العذال قوله:
لا تلمني عتيق حسبي الذي بي
لا تلمني وأنت زينتها لي
ومن حسن تفجعه قوله:

هجرت الحبيب اليوم من غير ما اجترم
أطعت الوشاة الكاشحين ومن يطع
أتاني رسول كنت أحسب أنه
فلما تبأثنا^(٣٨) الحديث وصرحت
تبين لي أن المحرّش كاذب^(٣٩)
فملاّن لمت النفس بعد الذي مضى
ظلمت ولم تعتب وكان رسوها
ومن تخيله المنازل قوله:

ألم تسأل الأطلال والمتربعا
إلى السرح^(٤١) من وادي المغمس^(٤٢) بدلت
فبيخلن أو يخبرن بالعلم بعد ما
بيطن حليات^(٤٠) دوارس بلقعا
معالمها وبلا ونكباء^(٤٣) زعرعا^(٤٤)
نكأن^(٤٥) فؤاداً كان قدماً مفعجا

ومن اختصاره الخبر قوله:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر
بحاجة نفس لم تقل في جوابها
أشارت بمدراها^(٤٦) وقالت لتربها
لئن كان إياه لقد حال بعدنا
قال الزبير حدثني إسحاق الموصلي قال: قلت لأعرابي: ما معنى قول ابن
أبي ربيعة:

بحاجة نفس لم تقل في جوابها^(٤٧)
فقال: قام كما جلس.

ومن صدقه الصفاء قوله:

كل وصل أمسى لديك لأنثى
كل أنثى وإن دنت لوصال
وقوله:

أحب لحبك من لم يكن
وأبذل مالي لمرضاتكم
وأرغب في ود من لم أكن
ولو سلك الناس في جانب
ليمت طيتها^(٤٩) إنني
ومما قدح فيه فأورى قوله:

طال ليلي وتعناني^(٥٠) الطرب^(٥١)
أرسلت أسماء في معتبة
واعتراني طول هم ووصب^(٥٢)
عتبتها وهي أحلى من عتب

أن أتى منها رسول موهناً
ضرب الباب فلم يشعر به
قال: أيقاظ، ولكن حاجة
ولعمداً ردني، فاجتهدت
يشهد الرحمن لا يجمعنا
قلت حلاً فاقبلي معذرتي
إن كفي لك رهن بالرضا
وقالوا: ومن شعره الذي اعتذر فيه فأبرأ قوله:

فالتقينا فرحبت حين سلم
ثم قالت عن العتاب رأينا
قلت كلالاً^(٥٥) ابن عمك بل خف
فجعلنا الصدود لما خشينا
ليس كالعهد إذ عهدت^(٥٧) ولكن
فلذاك الإعراض عنك وما آ
ما أبالي إذا النوى قربتكم
فالليالي إذا نأيت طوال
ومن تشكيه الذي أشجى فيه قوله:

لعمرك ما جاورت غمدان^(٥٨) طائعا
ولكن حمى أضرتني^(٦٠) ثلاثة
وحتى لو ان الخلد يعرض إن مشيت
فإنك لو أبصرت يوم سويقة^(٦٤)
وقصر شعوب^(٥٩) أن أكون به صبا
مجرمة^(٦١) ثم استمرت بنا غبا^(٦٢)
إلى الباب رجلي ما نقلت لها إربا^(٦٣)
مناخي وحسبي العيس دامية حديبا^(٦٥)

ومصرع إخوان كأن أنينهم أنين مكافي^(٦٦) فارقت بلدًا خصبا
إذن لا تشعر الجلد منك صباة ولا ستفرغت عيناك من عبدة سكبها
ومن إقدامه عن خبرة ولم يعتذر بغرة قوله:

صرمت وواصلت حتى عرفت أين المصادر والمورد
وجربت من ذاك حتى عرفت ما أتوقى وما أعمد
ومن أسره النوم قوله:

نام صحبي وبات نومي أسيرا أرقب النجم موهنا أن يغورا
ومن غمه الطير قوله:

فرحنا وقلنا للغلام اقض حاجة لنا ثم أدركنا ولا تتغير
سراعاً نغم^(٦٧) الطير إن سنحت لنا وإن تلقنا الركبان لا نتخير^(٦٨)
تتغير من قولهم: غبر فلان، أي لبث.
ومن إغذاذه^(٦٩) السير قوله:

قلت سيرا ولا تقيما ببصرى^(٧٠) وحفير^(٧١) فما أحب حفيرا
وإذا ما مررتما بمعان^(٧٢) فأقلا به الشواء وسيرا
إنما قصرنا^(٧٣) إذا حسر^(٧٤) السيد
ومن تحيره ماء الشباب قوله:

أبرزوها مثل المهاة تهادى بين خمس كواعب أتراب
ثم قالوا تحبها قلت بهراً عدد القطر والحصى والتراب
وهي مكنونة تحير منها في أديم الخدين ماء الشباب
ومن تقويله وتسهيله قوله:

قالت على رقبة يوماً لجارتها ما تأمرين فإن القلب قد تبلا^(٧٥)

وهل لي اليوم من أخت مواخية
فراجعتها حصان^(٧٦) غير فاحشة
لا تذكرني حبه حتى أراجعه
فاقني^(٧٨) حياءك في ستروفي كرم
وأما ما قاس فيه الهوى فقله:
وقربن أسباب الهوى لمتميم
ومن عصيانه وإخلائه قوله:
وأنص^(٧٩) المطي يتبعن بالرك
فنصيد الغرير^(٨٠) من بقر الوح
في زمان لو كنت فيه ضجيعي
وتقلبت في الفراش ولا تد
ومن محالفته بسمعه وطرفه قوله:
سمعي وطرفي حليفاها على جسدي
لو طاوعاني على ألا أكلمها
ومن إبرامه نعت الرسل قوله:
فبعثت كاتمة الحديد
وحشية إنسية
فرقت فسهلت المعاء
ومن تحذيره قوله:
لقد أرسلت جاريتي
وقولي في ملاطفة
منكن أشكو إليها بعض ما فعلا
برجع قول ولب لم يكن خطلا^(٧٧)
إني سأكفيكه إن لم أمت عجلا
فلست أول أثنى علقت رجلا
يقيس ذراعاً كلما قسن إصبعا
ب سراعاً نواعم الأظعان
ش ونلهو بلذة الفتيان
غير شك عرفت لي عصياني
رين إلا الظنون أين مكاني
فكيف أصبر عن سمعي وعن بصري
إذن لقضيت من أوطارها وطري
ث رفيقة بجوابها
خراجة من بابها
رض من سبيل نقابها
وقلت لها خذي حذرك
لزينب نولي عمرك

فإن داويت ذا سقم
فهزت رأسها عجباً
أهذا سحرك النسوا
وقلن إذا قضى وطراً
ومن إعلانه الحب وإسراره قوله:
شكوت إليها الحب أعلن بعضه
ومما أبطن فيه وأظهر قوله:

حبكم يا آل ليلى قاتلي
ليس حب فوق ما أحببتكم
ومما ألح فيه وأسف قوله:

ليت حظي كطرفة العين منها
أو حديث على خلاء يسلي
كبرت رب نعمة منك يوماً
ومن إنكاحه النوم قوله:

حتى إذا ما الليل جن ظلامه
واستنكح النوم الذين نخافهم
خرجت تأطر في الثياب كأنها
ومن جنيته الحديث قوله:

و جوار مساعفات على اللهـ
صيد للرجال يرشقن بالطر
قد دعاني وقد دعاهن للهـ

فأخزي الله من كفرك
وقالت من بذا أمرك
ن، قد خبرنني خبرك
وأدرك حاجة هجرك
وأخفيت منه في الفؤاد عليلاً

ظهر الحب بجسمي وبطن
غير أن أقتل نفسي أو أجن
وكثير منها القليل المهنا
ما يجن الفؤاد منها ومنا
أن أراها قبل المات ومنا

ونظرت غفلة كاشح أن يعقلا
وسقى الكرى بوابهم فاستثقلا^(٨١)
أيم يسيب على كتيب أهيل^(٨٢)

و مسرات باطن الأضغان
ف حسان كخذل^(٨٣) الغزلان
و شجون مهمة^(٨٤) الأشجان

فاجتني من الحديث ثماراً ما جنى مثلها لعمر كجاني
ومن ضربه الحديث ظهره لبطنه قوله:

في خلاء من الأنيس وأمن فبثنا غليلنا واشتفينا
وضربنا الحديث ظهرًا لبطن وأتينا من أمرنا ما اشتفينا
فمكثنا بذاك عشر ليال فقضينا ديوننا واقتضينا
ومن إذلاله صعب الحديث قوله:

فلما أفضنا في الهوى نستبينه وعاد لنا صعب الحديث ذلولاً
شكوت إليها الحب أظهر بعضه وأخفيت منه في الفؤاد غليلاً
ومن قناعته بالرجاء من الوفاء قوله:

فعدي نائلاً وإن لم تنيلي إنه ينفع المحب الرجاء
قال الزبير: هذا أحسن من قول كثير:

ولست براض من خليل بنائل قليل ولا أرضى له بقليل
ومن إعلاؤه قاتله قوله:

فبعثت جاريتي وقلت لها اذهبي فاشكي إليها ما علمت وسلمي
قولي يقول تحرجي^(٨٥) في عاشق كلف بكم حتى الممات متم
ويقول إنك قد علمت بأنكم أصبحتم يا بشر أوجه^(٨٦) ذى دم
فكي رهيته فإن لم تفعلي فاعلي على قتل ابن عمك واسلمي
فتضاحكت عجباً وقالت حقه ألا يعلمنا بما لم نعلم
علمي به والله يغفر ذنبه فيما بدا لي ذو هوى متقسم
طرف^(٨٧) ينازعه إلى الأدنى الهوى وبيت خلة ذى الوصال الأقدم
ومن تنفيذه النوم قوله:

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت مصابيح شبت بالعشاء وأنور
 وغاب قمير كنت أرجو غيوبه وروح رعيان ونوم سمر^(٨٨)
 ونفضت عني النوم أقبلت مشية الـ حجاب وركني خشية القوم أزور^(٨٩)
 ومن إغلاقه رهن منى وإهداره قتلاه قوله:

فكم من قتيل ما يباء^(٩٠) به دم ومن غلق^(٩١) رهناً إذا لقه منى
 ومن مالى عينيه من شيء غيره إذا راحنحو الجمرة البيض كالدمى^(٩٢)
 وكان بعد هذا كله فصيحاً شاعراً مقولاً^(٩٣):

ومن شعره المشهور قوله:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجـر
 لحاجة نفس لم تقل في جوابها فتبلغ عذراً والمقالة تعذر
 أشارت بمدراها وقالت لأختها أهذا المغيري الذي كان يذكر
 فقلت نعم لا شك غير لونه سرى الليل يطوي نصه^(٩٤) والتهجر
 رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيخصر
 أخا سفر جواب أرض تقاذفت به فلوأت فهو أشعث أغبر
 قليلاً على ظهر المطية ظله سوى ما نفى عنه الرداء المحبر^(٩٥)
 وأعجبها من عيشها ظل غرفة وريان ملتف الحقائق أخضر
 ووال كفاهها كل شيء يهمها فليست لشيء آخر الليل تسهر
 وليلة ذي دوران^(٩٦) جشميني السرى^(٩٧) وقد يحشم الهول المحب المغرر

ومن شعره قوله في فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية:

تشط^(٩٨) غداً دار جيراننا وللدار بعد غد أبعد
 إذا سلكت غمر^(٩٩) ذي كندة مع الركب^(١٠٠) قصد لها الفرق^(١٠١)

وحث الحداة بها غيرها
هنالك إما تعزى الفؤاد
وليست بدع إذا دارها
صرمت وواصلت حتى علم
وجربت من ذاك حتى عرف
فلما دنونا لجرس^(١٠٣) النبا
نأينا عن الحي حتى إذا
وناموا بعثنا لها ناشدًا
أتتنا^(١٠٥) تهادى على رقبة^(١٠٦)
تقول وتظهر وجدًا^(١٠٧) بنا
لمما شقائي تعلقتم
وكفت سوابق من عبدة
فإن التي شيعتنا الغداة
وشب عمر بن أبي ربيعة بزنب بنت موسى الجمحية في قصيدته التي يقول
فيها:

يا خليلي من ملام دعاني
لا تلوما في آل زينب إن الـ
ما أرى ما بقيت أن أذكر المو
لم تدع للنساء عندي حظا
هي أهل الصفاء والودمني
حين قالت لأختها ولأخرى
وأما الغداة بالأظعان
قلب رهن بآل زينب عانى
قف منها بالخيف^(١١١) إلا شجاني
غير ما قلت مازحًا بلساني
وإليها الهوى فلا تعذلاني
من قطين^(١١٢) مولد: حدثاني

كيف لي اليوم أن أرى عمر المرسل سرًّا في القول أن يلقياني
 قالتا: نبتغي رسولاً إليه ونميت الحديث بالكتمان
 إن قلبي بعد الذي نلت منها كالمعمى^(١١٣) عن سائر النسوان
 وكان سبب ذكره لها أن ابن أبي عتيق ذكرها عنده يوماً فأطراها ووصف من
 عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلب عمر وأماله إليها، فقال فيها الشعر وشبب
 بها، فبلغ ذلك ابن أبي عتيق، فلامه فيه وقال له: أتتطق الشعر في ابنة عمي؟
 فقال عمر:

لا تلمني عتيق حسبي الذي بي إن بي يا عتيق ما قد كفاني
 لا تلمني وأنت زيتتها لي أنت مثل الشيطان للإنسان
 إن بي داخلاً من الحب قد أبلى عظامي مكنونه وبراني
 لو بعينيك يا عتيق نظرنا ليلة السفح قرّت العينان
 إذ بدا الكشح والوشاح من الدر وفصل فيه من المرجان^(١١٤)
 وقل قلبي النساء سواها بعد ما كان مغرمًا بالغواني
 لم تدع للنساء عندي نصيبًا غير ما قلت مازحًا بلساني
 وأنشد ابن أبي عتيق قول عمر:

من^(١١٥) لسقيم يكتم الناس ما به لزنب نجوى صدره والوساوس
 أقول لمن يبغي الشفاء متى تحيى بزنب تدرك بعض ما أنت لأمس
 فإنك إن لم تشف من سقمي بها فإني من طلب الأطباء آيس
 ولست بناس ليلة الدار مجلسًا لزنب حتى يعلو الرأس رامس^(١١٦)
 خلاء بدت قمرأوه وتكشفت دجنته وغاب من هو حارس
 وما نلت منها محرماً غير أننا كلاتنا من الثوب المورد^(١١٧) لابس

نجين نقضي اللهو في غير مأثم وإن رغمت الكاشحين المعاطس
قال: فقال ابن أبي عتيق: أئنا يسخر ابن أبي ربيعة؟ فأبي محرم بقى! ثم
أتى عمر فقال له: يا عمر، ألم تخبرني أنك ما أتيت حراماً قط؟ قال: بلى، قال:
فأخبرني عن قولك:

كلانا من الثوب المورد لابس

ما معناه؟ قال: والله لأخبرنك: خرجت أريد المسجد وخرجت زينب
تريده، فالتقينا فاتعدنا لبعض الشعاب، فلما توسطنا الشعب أخذتنا السماء،
فكرهت أن يرى بشابها بلل المطر، فيقال لها: ألا استترت بسقائف المسجد إن
كنت فيه! فأمرت غلماني فسترونا بكساء خز كان علي، فذلك حين أقول:

كلانا من أثواب المطارف لابس

فقال له: ابن أبي عتيق: يا عاهر! هذا البيت يحتاج إلى حاضنة!

ومن جيد شعره قوله في زينب بنت موسى:

يا من لقلب مقيم كلف	يهذي بخود ^(١١٨) مريضة النظر
تمشي الهوينا إذا مشت فضلاً ^(١١٩)	وهي كمثل العسلوج ^(١٢٠) في الشجر
ما زال طرفي يحار إذ برزت	حتى رأيت النقصان في بصري
أبصرتها ليلة ونسوتها	يمشين بين المقام والحجر
ما إن طمعنا بها ولا طمعت	حتى التقينا ليلاً على قدر ^(١٢١)
بيضاً حسناً خرائداً قطعاً ^(١٢٢)	يمشين هوناً كمشية البقر
قد فزن بالحسن والجمال معاً	وفزن رسلاً ^(١٢٣) بالدل والخفر
ينصتن يوماً لها إذا نطقت	كيما يشرفنها على البشر
قالت لترب لها تحدثها	لنفسدن الطواف في عمر

قومي تصدي له ليعرفنا
قالت لها قد غمزته فأبى
من يسق بعد المنام ريقتها
وقوله فيها أيضاً:

ألم بزینب إن البین قد أفدا^(١٢٦)
قد حلفت ليلة الصورین^(١٢٧) جاهدة
لأختها ولا أخرى من مناصفها^(١٢٨)
لو جمع الناس ثم اختير صفوهم
ومن شعر عمر في تشوقه إلى مكة بعد أن خرج منها إلى اليمن قوله:

هیهات من أمة الوهاب منزلنا
واحتل أهلك أجياداً^(١٣٠) وليس لنا
لو أنها أبصرت بالجزع عبرته
إذن رأت غير ما ظنت بصاحبها
مأنس لا أنس يوم الخيف^(١٣١) موقفها
وقولها للثريا وهي باكية
بالله قولي له في غير معتبة
إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها
وقال أيضاً:

خليلي ما بال المطايا كأنها
وقد قطعت أعناقهن صباة
وقد أتعب الحادي سراهن وانتحي
نراها على الأدبار بالقوم تنكص^(١٣٣)
فأنفسنا مما يلاقين شخص
بهن فما يألو عجول مقلص^(١٣٤)

يزدن بنا قرباً فيزداد شوقنا
ومن شعره قوله:

جرى ناصح بيني وبينها
فطارت بحد من فؤادي وقارنت
فلما تواقفنا عرفت الذي بها
فقلن لها هذا عشاء وأهلنا
فقالت فما شئت قلن لها انزلي
نجوم دراري^(١٣٦) تكنفن صورة
فسلمت واستأنست خيفة أن يرى
فقالت وأرخت جانب الستر إنما
فقلت لها ما بي لهم من ترقب
فلما اقتصرنا دونهن حديثنا
عرفن الذي تهوى فقلن ائذني لنا
فقالت فلا تلبثن قلن تحدثي
فقممن وقد أفهمن ذا اللب أنها

فقربني يوم الحصاب^(١٣٥) إلى قتلي
قريبتها جبل الصفاء إلى حبلي
كمثل الذي بي حذوك النعل بالنعل
قريب ألما تسأمي مركب البغل
فلأرض خير من وقوف على رحل
من البدر وافت غير هوج^(١٣٧) ولا عجل
عدو مقامي أو يرى كاشح فعلي
معي فتكلم غير ذي رقبة أهلي
ولكن سري ليس يحمله مثلي
وهن طبيبات بحاجة ذي الشكل
نطف ساعة في برد ليل وفي سهل
أتيناك، وانسبن انسياب مها الرمل
أتين الذي يأتين من ذاك من أجلي

وقد كان عمر حين أسن حلف ألا يقول بيت شعر إلا أعتق رقبة، فانصرف
عمر إلى منزله يحدث نفسه، فجعلت جارية له تكلمه فلا يرد عليها جواباً،
فقالت له: إن لك لأمرًا، وأراك تريد أن تقول شعراً، فقال:

تقول وليدتي لما رأتنني
أراك اليوم قد أحدثت شوقاً
وكنت زعمت أنك ذو عزاء

طربت وكنت قد أقصرت حيناً
وهاج لك الهوى داء دفينا
إذا ما شئت فارقت القرينا

بربك هل أتاك لها رسول
فقلت شكا إلي أخ محب
فقص علي ما يلقي بهند
وذو الشوق القديم وإن تعزى
وكم من خلة^(١٣٩) أعرضت عنها
أردت بعادها فصددت عنها
ثم دعا تسعة من رقيقه فأعتقهم بكل بيت واحداً.
وله:

يقولون: إني لست أصدقك الهوى
فما بال طرفي عف عما تساقطت
عشية لا يستنكف القوم أن يروا
ولا فتنة من ناسك أو مضت^(١٤٠) له
تروح يرجو أن تحط ذنوبه
وما النسك أسلاني ولكن للهوى
وله:

ألم تسأل المنزل المقفرا
ذكرت به بعض ما قد شجأك
مبيت الحبيين قد ظاهرا^(١٤١)
وممشى الثلاث به موهناً
إلى مجلس من وراء القبا
غفلن عن الليل حتى بدت
بياناً فيكتنم أو يخبرا
وحق لذي الشجو أن يذكر
كساء وبردين أن يمطرا
خرجن إلى زائر زورا
ب سهل الربى طيب أعفرا^(١٤٢)
تباشير من واضح أسفرا

فقمين يعفين آثارنا
مهاتان شيعتا جوذراً^(١٤٤)
وقمن وقلن لو ان النها
قضيها به بعض أشجاننا
وله:

أفي رسم دار دمعك المترق^(١٤٦)
بحيث التقى جمع^(١٤٧) وأقصى محسر^(١٤٨)
ذكرت به ما قد مضى من زماننا
ليالي من دهر إذ الحي جيرة
مقاماً لنا عند العشاء ومجلساً
وممشى فتاة بالكساء تكننا
يبل أعالي الثوب قطر وتحت
فأحسن شيء بدء أول ليلنا
وآخره حزن إذا نتفرق

وروي أن ليلي كانت جالسة في المسجد الحرام، فرأت عمر بن أبي ربيعة فوجهت إليه مولى لها فجاء به، فقالت له: يابن ربيعة، حتى متى لا تزال سادراً^(١٥١) في حرم الله تشبب بالنساء وتشيد بذكرهن! أما تخاف الله! قال: دعيني من ذاك واسمعي ما قلت، قالت: وما قلت؟ فأنشدها الأبيات المذكورة، فقالت له القول الذي تقدم أنها أجابته به. قال: وقال: لها: اسمعي أيضاً ما قلت فيك، ثم أنشدها قوله:

أمن الرسم وأطلال الدمن
إن حبي آل ليلي قاتلي
عادي وجدي وعادوت الحزن
ظهر الحب بجسمي وبطن

يا أبا الحارث قلبي طائر
التمس للقلب وصلاً عندها
علق القلب، وقد كان صحا
أحور المقلة كالبدر، إذا
ليس حب فوق ما أحببتكم
خلقت للقلب مني فتنة
وفيها يقول:

إن ليلي وقد بلغت المشيبا
هاجر بيتها لأنفي عنها
وله في النوار وقد شغلت قلبه:

علق النوار فؤاده جهلا
وتعرضت لي في المسير فما
ما نعمة من وحش ذي بقر^(١٥٥)
بألد منها إذ تقول لنا
دعنا فإنك لا مكارمة
وعليك من تبل الفؤاد وإن
فأجبتها إن المحب مكلف^(١٥٧)
وصبا فلم تترك له عقلا
أمسى الفؤاد يرى لها مثلا
تغذو بسقط صريمة^(١٥٦) طفلا
وأردت كشف قناعها مهلا
تجزى ولست بواصل حبلا
أمسى لقلبك ذكره شغلا
فدعي العتاب وأحدثي بذلا

اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة
وشعره وظرفه وحسن حديثه فتشوقن إليه وتمنيته، فقالت سكينه بنت الحسين
عليهما السلام: أنا لكن به، فأرسلت إليه رسولا وواعدته الصورين، وسمت
له الليلة والوقت وواعدت صواحباتها، فوافاهن عمر على راحلته، فحدثهن

حتى أضاء الفجر وحن انصرافهن، فقال لهن: والله إني لمحتاج إلى زيارة قبر رسول الله ﷺ والصلاة في مسجده ولكن لا أخلط بزيارتكن شيئاً، ثم انصرف إلى مكة وقال:

قالت سكينه والدموع ذوارف ليت المغيري الذي لم أجزه كانت ترد لنا المنى أيامنا خبرت ما قالت فبت كأنها أسكين ما ماء الفرات وطيبه بالذ منك وإن نأيت وقلما وقال فيها:

منها على الخدين والجلباب^(١٥٨) فيما أطال تصيدي وطلابي إذ لا نلام على هوى وتصابي رمي الحشا بنوافذ الشباب^(١٥٩) مني على ظمأ وفقد شراب ترعى النساء أمانة الغياب

أحب لحبك من لم يكن وأبذل نفسي لمرضاتكم وأرغب في ود من لم أكن ولو سلك الناس في جانب ليممت طيتها، إنني فما ظبية من ظباء الأرا بأحسن منها غداة الغميم^(١٦٣) غداة تقول على رقبة فقالت لها: فيم هذا الكلام فقالت كريم أتى زائراً شريف أتى ربنا زائراً

صفا لنفسي ولا صاحباً وأعتب^(١٦٠) من جاءكم عاتبا إلى وده قبلكم راغبا من الأرض واعتزلت جانبا أرى قربها العجب العاجبا ك تقرو^(١٦١) دمي^(١٦٢) الربى عاشبا وقد أبدت الخد والحاجبا لخادمها: ^(١٦٤) يا احبسي الراكبا وأبدت لها عابساً قاطبا^(١٦٥) يمر بكم هكذا جانبا فأكره رجعتَه خائبا

وقال في جاريته بغوم:

صرمت جبلك البغوم وصدت
والغواني إذا رأيـنك كهـلا
حبذا أنت يا بغوم وأسمـا
ولقد قلت ليلة الجزل لما
ليت شعري - وهل يردن ليت -
كل وصل أمسى لدي لأثنى
كل خلق وإن دنا لوصال
فعدي نائلا وإن لم تنيلي
وكان يهوى حميدة جارية ابن تفاحة؛ وفيها يقول:

حمل القلب من حميدة ثقلا
إن فعلت الذي سألت فقولي
وصليني وأشهد الله أني
وفيها يقول:

يا قلب هل لك عن حميدة زاجر
فالقلب من ذكرى حميدة موجد
قد كنت أحسب أنني قبل الذي
حتى بدا لي من حميدة خلتي
وله في هند:

أربت^(١٦٧) إلى هند وترين مرة
لتعريـج يوم أو لتعريس^(١٦٨) ليلة
لها إذ تواقفنا بفرع المقطع
علينا بجمع الشمل قبل التصدع

فقلن لها لولا ارتقاب صحابة
فقال فتاة كنت أحسب أنها
لهن - وما شاورنها - ليس ما أرى
فقلن لها لا شبَّ^(١٧٠) قرنك فافتحي
وله:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد
واستبدت مرة واحدة
ولقد قالت لجاراتها
أكما ينعتني تبصرني
فتهانفن^(١٧٤) وقد قلن لها
حسداً حمله من أجلها
وله:

يا من لقلب دنف مغرم
هام إلى ريم^(١٧٦) هضيم الحشى
لم أحسب الشمس بليل بدت
قالت ألا إنك ذو ملة
قلت لها بل أنت معتلة
هام^(١٧٥) إلى هند ولم يظلم
عذب الثنايا طيب المسم
قبلي لذي لحم ولا ذي دم^(١٧٧)
يصرفك الأدنى عن الأقدم
في الوصل يا هند لكي تصرمي

بينما عمر بن أبي ربيعة يطوف بالبيت إذ رأى عائشة بنت طلحة بن عبيد الله،
وكانت من أجمل أهل دهرها، وهي تريد الركن تستلمه، فبهت لما رآها ورأته،
وعلمت أنها قد وقعت في نفسه، فبعثت إليه بجارية لها وقالت: قولي له: اتق الله
ولا تقل هُجراً، فإن هذا مقام لا بد فيه مما رأيت؛ فقال للجارية: أقرئها السلام

وقولي لها: ابن عمك لا يقول إلا خيراً؛ وقال فيها:

لعائشة ابنة التيمي عندي	حمى في القلب، لا يرعى حماها
يذكرني ابنة التيمي ظبي	يرود بروضة سهل رباها
فقلت له وكان يراع قلبي	فلم أر قط كاليوم اشتباها
سوى حمش ^(١٧٨) بساقل مستبين	وأن شواك ^(١٧٩) لم يشبه شواها
وأنت عاطل عار وليست	بعارية ولا عطل يداها
وأنت غير أفرع ^(١٨٠) وهي تدلي	على المتنين أسحم ^(١٨١) قد كساها
ولو قعدت ولم تكلف بود	سوى ما قد كلفت به كفاها
أظل إذا أكلمها كأي	أكلم حية غلبت رقاها
تبيت إلى بعد النوم تسري	وقد أمسيت لا أخشى سراها

وله:

إني وأول ما كلفت بحبها	عجب وهل في الحب من متعجب
نعت النساء فقلت لست بمبصر	شبهاً لها أبداً ولا بمقرب
فمكثن حيناً ثم قلن توجهت	للحج، موعدها لقاء الأخشب ^(١٨٢)
أقبلت أنظر ما زعمن وقلن لي	والقلب بين مصدق ومكذب
فلقيتها تمشي بها بغلاتها	ترمي الجمار عشية في موكب
غراء يعشى الناظرين بياضها	حوراء في غلواء ^(١٨٣) عيش معجب
إن التي من أرضها وسماؤها	جلبت لحينك ليها لم تجلب

وكان عمر بن أبي ربيعة يهوى كلثم بنت سعد المخزومية، فأرسل إليها رسولاً فضربتها وحلقها وأحلفها ألا تعاود؛ ثم أعادها ثانية ففعلت بها مثل ذلك، فتحامها رسله؛ فابتاع أمة سوداء لطيفة رقيقة وأتى بها منزله فأحسن

إليها وكساها وأنسها. وعرفها خبره وقال لها: إن أوصلت لي رقعة إلى كلثم فقرأتها فأنت حرة ولك معيشتك ما بقيت؛ فقالت: اكتب لي مكاتبة^(١٨٤) و اكتب حاجتك في آخرها، ففعل ذلك، فأخذتها ومضت بها إلى باب كلثم فاستأذنت فخرجت إليها أمة لها فسألتها عن أمرها؛ فقالت: مكاتبة لبعض أهل مولاتك جئت أستعينها في مكاتبتي، وحادثتها وناشدتها حتى ملأت قلبها، فدخلت إلى كلثم وقالت: إن بالباب مكاتبة لم أر قط أجمل منها ولا أكمل ولا آدب؛ فقالت: ائذني لها، فدخلت، فقالت: من كاتبك؟ قالت: عمر بن أبي ربيعة الفاسق! فاقرئي مكاتبتي، فمدت يدها لتأخذها فقالت لها: لي عليك عهد الله أن تقرئها، فإن كان منك إلي شيء مما أحبه وإلا لم يلحقني منك مكروه؛ فعاهدتها وفطنت وأعطتها الكتاب، فإذا أوله:

من عاشق صب يسر الهوى	قد شفه الوجد إلى كلثم
رأئك عيني فدعاني الهوى	إليك للحين ولم أعلم
قتلتنا، يا حبذا أنتم	في غير ما جرم ولا مآثم
والله قد أنزل في وحيه	مبيناً في آيه المحكم
من يقتل النفس كذا ظالماً	ولم يقدها نفسه يظلم
وأنت ثأري فتلافي دمي	ثم اجعليه نعمة تنعمي
وحكمي عدلاً يكن بيننا	أو أنت فيما بيننا فاحكمي
وجالسيني مجلساً واحداً	من غير ما عار ولا محرم
وخبريني ما الذي عندكم	بالله في قتل امرئ مسلم

فلما قرأت الشعر قالت لها: إنه خداع ملق وليس لما شكاه أصل؛ قالت: يا مولاتي، فما عليك من امتحانه؟ قالت: قد أذنت له وما زال حتى ظفر ببيغيته!

فقلولي له: إذا كان المساء فليجلس في موضع كذا وكذا حتى يأتيه رسولي؛
فانصرفت الجارية فأخبرته فتأهب لها، فلما جاءه رسولها مضى معه حتى دخل
إليها وقد تهيأت أجمل هيئة، وزينت نفسها ومجلسها وجلست له من وراء ستر،
فسلم وجلس، فتركته حتى سكن ثم قالت له: أخبرني عنك يا فاسق! أأنت
القائل:

هلا ارعويت فترحمي صبا	صديان لم تدعي له قلبا
جشم الزيارة في مودتكم	وأراد ألا ترهقي دنبا
ورجا مصالحة فكان لكم	سلماً وكنت ترينه حربا
يا أيها المصفي مودته	من لا يراك مسامياً خطبا ^(١٨٥)
لا تجعلن أحداً عليك إذا	أحبيته وهويته ربا
وصل الحبيب إذا شغفت به	واطو الزيارة دونه غبا
فلذاك أحسن من مواظبة	ليست تزيدك عنده قربا
لا بل يملك عند دعوته	فيقول هاه ^(١٨٦) وطالما لبي

ورأى عمر لبابة بنت عبد الله بن العباس امرأة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان
تطوف بالبيت فرأى أحسن خلق الله، فكاد عقله يذهب، فسأل عنها فأخبر
بنسبها، فنسب بها وقال فيها:

ودع لبابة أن تترحلا	واسأل فإن قلالة ^(١٨٧) أن تسألا
البث بعمر ك ساعة وتأنها	فلعل ما بخلت به أن يبذلا
قال ائتمر ^(١٨٨) ماشئت غير مخالف	فيما هويت فإننا لن نعجلا
لسنا نبالي حين تقضى حاجة	ما بات أو ظل المطي معقلا
حتى إذا ما الليل جن ظلامه	ورقبت غفلة كاشح أن يمحلا

خرجت تأطر^(١٨٩) في الثياب كأنها
رحبت حين رأيته فتبسمت
وجلا القناع سحابة مشهورة
فلبثت أرقىها بما لو عاقل^(١٩١)
أيم^(١٩٠) يسب على كتيب أهىلا
لتحيتي لما رأتني مقبلا
غراء تعشي الطرف أن يتأملا
يرقى به ما اسطاع ألا ينزلا

وحجت رملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية فقال فيها:

أصبح القلب في الحبال رهينا
عجلت حمة الفراق علينا
لم يرعني إلا الفتاة وإلا
ولقد قلت يوم مكة سرًّا
أنت أهوى العباد قربًا ودلا
قاده الطرف يوم مر إلى الحيد
فإذا نعجة تراعي نعاجا
قلت من أنتم فصدت وقالت
قلت بالله ذي الجلالة لما
أي من تجمع المواسم قولي
نحن من ساكني العراق وكنا
قد صدقناك إذ سألت فمن أذ
ونرى أننا عرفناك بالنعـ
بسواد الثنيتين ونعت
وقال في الثريا وقد صرمته:

من رسولي إلى الثريا فيني
ضقت ذرعًا بهجرها والكتاب

سلبتني مجاجة^(١٩٣)، المسك عقلي
وهي مكنونة تحير منها
أبرزوها مثل المهاة تهادي^(١٩٤)
ثم قالوا تجبها قلت بهراً
أزهقت أم نوفل إذ دعته
حين قالت لها أجبي فقالت
فاستجابت عند الدعاء كما لب
ومن شعره:

كتبت إليك من بلدي كتاب موله كمد
كئيب واكف^(١٩٦) العين ن بالحسرات منفرد
يؤرقه لهيب الشو ق بين السحر^(١٩٧) والكبد
فيمسك قلبه بيد ويمسح عينه بيد

لما تزوج سهيل بن عبد العزيز الثريا ونقلها إلى الشام، بلغ عمر بن أبي ربيعة الخبر، فأتى المنزل الذي كانت الثريا تنزله، فوجدها قد رحلت منه يومئذ، فخرج في أثرها فلحقها على مرحلتين، وكانت قبل ذلك مهاجرة لأمر أنكرته عليه، فلما أدركهم نزل عن فرسه ودفعه إلى غلامه ومشى متنكراً حتى مر بالخيمة، فعرفته الثريا وأثبتت^(١٩٨) حركته ومشيته، فقالت لحاضنتها^(١٩٩): كلميه، فسلمت عليه وسألته عن حاله وعاتبته على ما بلغ الثريا عنه، فاعتذر وبكى، فبكت الثريا، فقالت: ليس هذا وقت العتاب مع وشك الرحيل، فحادثها إلى وقت طلوع الفجر ثم ودعها وبكى طويلاً، وقام فركب فرسه ووقف ينظر إليهم وهم يرحلون^(٢٠٠)، ثم أتبعهم بصره حتى غابوا، وأنشأ يقول:

يا صاحبي قفنا نستخبر الطللا
فقال لي الربع لما أن وقفت به
وخادعتك النوى حتى رأيتهم
لما وقفنا نحييهم وقد صرخت
صدت بعاداً وقالت للتي معها
وحدثيه بما حدثت واستمعي
حتى يرى أن ما قال الوشاة له
وعرفيه به كالهزل واحتفظي
فإن عهدي به والله يحفظه
لو عندنا اغتیب أو نيلت نقيصته
قلت اسمعي فلقد أبلغت في لطف^(٢٠٦)
هذا أرادت به بخلا لأعذرهما
ما سمي القلب إلا من قلبه
أما الحديث الذي قالت أتيت به
ما إن أطعت بها بالغيب قد علمت
إني لأرجعه فيها بسخطه
وهي قصيدة طويلة مذكورة في شعره.
وله:

هل تعرف الدار والأطلال والدمنا
دار لأسماء قد كانت تحل بها
لم يحبب القلب شيئاً مثل حبكم
زدن الفؤاد على علاته^(٢٠٨) حزنا
وأنت إذ ذالك قد كانت لكم وطنا
ولم تر العين شيئاً بعدكم حسنا

من كان شط من الأحياء أو طعنا
وإن دنت داركم كنتم لنا سكنا
وإن تجودي فقد عنيتني زمنا
وأنت كنت الهوى والهمل والوسنا
ومقلتي جوذر لم يعد أن شدنا

ما إن أبالي أدام الله قربكم
فإن نأيتم أصاب القلب نأيتكم
إن تبخلي لا يسيل القلب بخلكم
أمسى الفؤاد بكم يا هند مرتهنا
إذ تستبيك بمصقول عوارضه
وقال:

ولا هو يسليه رخاء ولا كرب
ولا بعد دار إن نأيت ولا قرب
ولكن حبًا ما يقاربه حب
يتب ثم لا يوجد له أبدًا ذنب
وإني إذا ما رامني غيركم صعب
ويأصرنى قلب بكم كلف صعب
ولكنه لا صبر عندي ولا لب
منعمة تصبي الحليم وما تصبو
متى تمش قيس الباع من بهر هاتربو
نواعم غر كلهن لها ترب
أعلق أخرى! أم علي به عتب

أعبدة ما ينسى مودتك القلب
ولا قول واش كاشح ذي عداوة
وما ذاك من نعمى لديك أصابها
فإن تقبلي يا عبد توبة تائب
أذل لكم يا عبد فيما هويتم
وأعذل نفسي في الهوى فتعوقني
وفي الصبر عمن لا يؤاتيك راحة
وعبدة بيضاء المحاجر طفلة
قطوف من الحور الأوانس بالضحي
فلمست بناس يوم قالت لأربع
ألا ليت شعري فيم كان صدوده
وقال:

هاج لي ذكره وأحدث هما
لمحب رحيله قد أحما
أن يردوا جمالهم فتزما

إن طيف الخيال حين ألما
جددي الوصل ياسكين وجودي
ليس بين الحياة والموت إلا

ولقد قلت مخيفًا لغريض
هل ترى فوقه من الناس شخصًا
هل ترى فوقه من الناس شخصًا
إن تنيلي أعش بخير وإن لم
وله أيضًا:

أيا من كان لي بصرا وسمعا
وعمن حين يذكره فؤادي
يقول العاذلون نأت فدعها
أأهجرها فأقعد لا أراها
وأصرم حبلها لمقال واش
وأقسم لو خلوت بهجر هند
وهو القائل:

ما كنت أشعر إلا مذعرفتكم
لقد شقيت وكان الحين^(٢٠٩)، لي سببا
قد لمت قلبي فأعياي بواحدة
إن أكره الطرف يحسد دون غيركم
قالوا صبوت فلم أكذب مقالتهم
وقال أيضًا:

ألا ليت قبري يوم تقضي منيتي
وليت طهوري كان ريقك كله
ألا ليت أم الفضل كانت قريتي

نظر عمر بن أبي ربيعة في الطواف إلى امرأة شريفة فرأى أحسن خلق الله

صورة، فذهب عقله عليها وكلمها فلم تجبه؛ فقال فيها:

الريح تسحب أذيالها وتنشرها يا ليتني كنت ممن تسحب الريح
كيما تجربنا^(٢١٠) ذيلًا فتطرحنا على التي دونها مغبرة^(٢١١) سوح^(٢١٢)
أني بقر بكم أم كيف لي بكم هيهات ذلك ما أمست لنا روح
فليت ضعف الذي ألقى يكون بها بل ليت ضعف الذي ألقى تباريح^(٢١٣)
إحدى بنيات عمي دون منزلها أرض بقيعاتها القيصوم^(٢١٤) والشيخ

فبلغها شعره فجزعت منه، فقليل لها: اذكره لزوجك، فإنه سينكر عليه قوله،
فقال: كلا والله لا أشكوه إلا إلى الله، ثم قالت: اللهم إن كان نوه باسمي ظالمًا
فاجعله طعامًا للريح، فضرب الدهر من ضربه؛ ثم إنه غدا يومًا على فرس
فهبت ريح فنزل فاستتر بسلمة، فعصفت الريح فخدشه غصن منها، فدمي
وورم به ومات من ذلك.

(ب) الغزل العذري

جميل^(٢١٥)؛

قال نصيب مولى عبد العزيز بن مروان: قدمت المدينة فسألت عن أعلم
أهلها بالشعر، فقليل لي: الوليد بن سعيد الأشجعي، فوجدته بشعب سلع مع
عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن أزر، فإنا لجلوس إذ طلع علينا رجل
طويل بين المنكين يقود راحلة عليها بزة حسنة، فقال عبد الرحمن بن حسان
لعبد الرحمن بن أزر: يا أبا حبتر، هذا جميل فادعه لعله ينشدنا؛ فصاح به عبد
الرحمن: هيا جميل؛ فالتفت فقال: من هذا؟ فقال: أنا عبد الرحمن بن أزر؛
فقال: قد علمت أنه لا يجترئ علي إلا مثلك، فأتاه، فقال له: أنشدنا؛ فأنشدهم:

ونحن منعنا يوم أول نساءنا
يحب الغواني البيض ظل لوائنا
نسير أمام الناس والناس خلفنا
فأي معد كان فيء رماحه
وكنا إذا ما معشر نصبوا لنا
وضعناهم صاع القصاص رهينة
إذا استبق الأقوام مجداً وجدتنا
ثم قال له: أنشدنا هزجاً؛ قال: وما الهزج؟ لعله القصير! قال: نعم، فأنشده:

رسم دار وقفت في طلله
موحشاً ما ترى به أحداً
وصريعاً بين الثمام ترقى
بين علياء رائش فُبلي
واقفاً في ديار أم جسير
يا خليلي إن أم جسير
روضة ذات حنوة وخزامى
بينما نحن بالأراك معاً
فتأطرت^(٢٢٢) ثم قلت لها
فظللنا بنعمة واتكأنا
قد أصون الحديث دون أخ
غير بغض له ولا ملق
وخليل صافيت مرتضيا

ويوم أُفِّي والأسنة ترعف^(٢١٦)
إذا ما أتانا الصارخ المتلهف
فإن نحن أو ماناً إلى الناس وقفوا
كما قد أفأنا والمفاخر ينصف
ومرت جوارى طيرهمو تعيفوا^(٢١٧)
بما سوف نوفيها إذا الناس طففوا^(٢١٨)
لنا معرفاً مجد وللناس معرف
كدت أقضي الحياة من جلله^(٢١٩)
تنسج الريح ترب معتدله
عازفات المدب في أسله
فالغميم الذي إلى جبله
من ضحى يومه إلى أصله
حين يدنو الضجيع من غلله^(٢٢٠)
جاد فيها الربيع من سبله^(٢٢١)
إذ بدا راكب على جملة
أكرميهِ حيت في نزله
وشربنا الحلال من قلله
لا أخاف الأداة من قبله
غير أني أشحت^(٢٢٣) من وجله
وخليل فارقت من ملله

ثم اقتاد راحته مولياً؛ فقال ابن الأزهري: هذا أشعر أهل الإسلام؛ فقال ابن حسان: نعم والله وأشعر أهل الجاهلية، والله ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسييه؛ فقال عبد الرحمن ابن الأزهري: صدقت.

قال محمد بن سلام: كان لكثير في النسيب حظ وافر، وجميل مقدم عليه وعلى أصحاب النسيب في النسيب، وكان جميل صادق الصبابة والعشق، ولم يكن كثير بعاشق ولكنه كان يتقول، وكان الناس يستحسنون بين كثير في النسيب، وهو:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثلي لي ليلى بكل سبيل
ورأيت من يفضل عليه بيت جميل:

خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي
قيل إن بثينة واعدت جميلاً أن يلتقيا في بعض المواضع، فأتى لوعدها، وجاء أعرابي يستضيف القوم، فأنزلوه وقروه، فقال لهم: قد رأيت في بطن هذا الوادي ثلاثة نفر متفرقين متوارين في الشجر وأنا خائف عليكم أن يسلبوا بعض إبلكم، فعرفوا أنه جميل وصاحبه، فحرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده، فلما أسفر له الصبح انصرف كثيراً سيء الظن بها ورجع إلى أهله؛ فجعل نساء الحي يقرعنه بذلك ويقلن له: إنما حصلت منها على الباطل والكذب والغدر، وغيرها أولى بوصلك منها، كما أن غيرك يحظى بها؛ فقال في ذلك:

فأجبتها بالقول بعد تستر حبي بثينة عن وصالك شاغلي
أبئين إنك قد ملكت فأسجحي^(٢٢٤) وخذي بحظك من كريم واصل
فلرب عارضة علينا وصلها بالجد تخلطه بقول الهازل
لو كان في صدري كقدر قلامه فضلاً وصلتك أو أتتك رسائي

ويقلن إنك قد رضيت بباطل
ليزلن عنك هواي ثم يصلنني
صادت فؤادي يا بشين حبالكم
منيتني فلويت ما منيتني
وثاقلت لما رأت كلفي بها
وأطعت في عواذلاً فهجرتني
حاولنني لأبت حبل وصالكم
فرددتهن وقد سعين بهجركم
يعضضن من غيظ علي أناملا
ويقلن إنك يا بشين بخيلة
وقال جميل في وعد بشينة بالتلاقي وتأخرها قصيدة أولها:

يا صاح عن بعض الملامة أقصر
إن المنى للقاء أم المسور
ومنها:

وكان طارقها على علل الكرى
يستاف^(٢٢٦) ريح مدامة معجونة
ومنها:

إني لأحفظ غيبكم ويسرني
ويكون يوم لا أرى لك مرسلا
يا ليتني ألقى المنية بغتة
أو أستطيع تجلداً عن ذكركم
وفيه يقول:

لعذرت أو لظلمت إن لم تعذر
غير الظنون وغير قول المخبر
حدث لعمر كرائع أن تهجري
يومًا بسرك معلنا لم أعذر
يتبع صداي صداك بين الأقبر
نظر الفقير إلى الغنى المكثر
هذا الغريم لنا وليس بمعسر
إلا كبرق سحابة لم تمطر
فمتى هجريته فمنه تكثري

ودهرًا تولى يا بئين يعود
قريب وإذ ما تبذلين زهيد
وقد قربت نضوي^(٢٢٧) أمصر تريد
أنتيك فاعذريني فدتك جدود
ودمعي بما قلت الغداة شهيد
إذا الدار شطت بيننا ستزيد
من الحب قالت ثابت ويزيد
مع الناس قالت ذاك منك بعيد
ولا حبها فيما يبيد يبيد
إذا ما خليل بان وهو حميد
من الله ميثاق له وعهود

لو قد تجن كما أجن من الهوى
والله ما للقلب من علم بها
لا تحسبي أني هجرتك طائعا
فلتبكين الباقيات وإن أبح
يهواك ما عشت الفؤاد فإن أمت
إني إليك بما وعدت لناظر
يعد الديون وليس ينجز موعدا
ما أنت والوعد الذي تعدينني
قلبي نصحت له فرد نصيحتي
وقال في إخلافها إياه هذا الموعد:

ألا ليت ريعان الشباب جديد
فنگنى كما كنا نكون وأنتم
وما أنس ملاءشياء لا أنس قولها
ولا قولها لولا العيون التي ترى
خليلي ما أخفي من الوجد ظاهر
ألا قد أرى والله أن رب عبرة
إذا قلت ما بي يا بئينة قاتلي
وإن قلت ردي بعض عقلي أعش به
فلا أنا مردود بما جئت طالبا
جزتك الجوازي يا بئين ملامه
وقلت لها بيني وبينك فاعلمي

وقد كان حبيكم طريفاً وتالداً
وإن عروض^(٢٢٨) الوصل بيني وبينها
فأفئيت عيشي بانتظاري نواها
فليت وشاة الناس بيني وبينها
وليت لهم في كل ممسى وشارق
ويحسب نسوان من الجهل أنني
فأقسم طرفي بينهن فيستوي
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
وهل أهبطن أرضاً تظل رياحها
وهل ألقين سعدى من الدهر مرة
وقد تلتقي الأهواء من بعد يأسه
وهل أزجرن حرفاً علاه شِمْلَةٌ
على ظهر مرهوب كأن نشوزه
سبتني بعيني جؤذر وسط ربرب
تزيف^(٢٣٥) كما زافت إلى سلفاتها
إذا جئتها يوماً من الدهر زائراً
يصد ويغضي عن هواي ويحتني
فأصرمها خوفاً كأني بجانب
فمن يعط في الدنيا قريباً كمثلاً
يموت الهوى مني إذا ما لقيتها
يقولون جاهديا جميل بغزوة

وما الحب إلا طارف وتليد
وإن سهلته بالمنى لصعود
وأبليت ذاك الدهر وهو جديد
يدوف لهم سما طماطم سود^(٢٢٩)
تضاعف أكبال لهم وقيود
إذا جئت إياهن كنت أريد
وفي الصدر بون بينهن بعيد
بوادي القرى إني إذا لسعيد
لها بالثنايا القاويات^(٢٣٠) وئيد^(٢٣١)
وما رث من حبل الصفاء جديد
وقد تطلب الحاجات وهي بعيد
بخرق تباريها سواهم قود^(٢٣٢)
إذا جاز هلاك الطريق رقود
وصدر كفأثور^(٢٣٣) اللجين وجيد^(٢٣٤)
مباهية طيا الوشاح ميود
تعرض منقوض اليدين صدود
ذنوباً عليها إنه لعنود
ويغفل عنا مرة فنعود
فذلك في عيش الحياة رشيد
ويحيا إذا فارقتها فيعود
وأي جهاد غيرهن أريد

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيد
ومن كان في حبي بثينة يمترى فبرقاء ذي ضال علي شهيد
ألم تعلمي يا أم ذي الودع أنني أضاحك ذكراكم وأنت صلود
بعثت أمة لبثينة إلى أبيها وأخيها وقالت لهما: إن جميلاً عندها الليلة، فأتياها
مشمولين على سيفين، فرأياه جالساً منها حَجْرَة^(٢٣٦) يحدثها ويشكو لها بثه، ثم
قال لها: يا بثينة، رأيت ودي إياك وشغفي بك ألا تجزينيني؟ قالت: بماذا؟ قال:
بما يكون من المتحابين، فقالت له: يا جميل؟ أهذا تبغي! والله لقد كنت عندي
بعيداً منه؛ ولئن عاودت تعريضاً بريية لا رأيت وجهي أبداً! فضحك وقال:
والله ما قلت هذا إلا لأعلم ما عندك فيه، ولو علمت أنك تجيئيني لعلمت
أنك تجيئين غيري، ولو رأيت منك مساعدة لضربتك بسيفي هذا ما استمسك
في يدي، ولو أطاعتني نفسي لهجرتك هجرة الأبد، أو ما سمعت قولي:
وإن لأرضى من بثينة بالذي لو ابصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظر العجلى وبالحول ينقضي وأواخره لا نلتقي وأوائله
فقال أبوها لأخيها: قم بنا، فما ينبغي لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من
لقائها، فانصرفا وتركاها.

ومن قول جميل:

إن المنازل هيجت أطرابي واستعجمت آياتها بجوابي
قفزاً تلوح بذئ اللجين كأنها أنضاء رسم أو سطور كتاب
لما وقفت بها القلوص تبادرت مني الدموع لفرقة الأحباب
وذكرت عصراً يا بثينة شاقني وذكرت أيامي وشرخ شبابي

لما نذر أهل بئينة دم جميل وأهدره لهم السلطان ضاقت الدنيا بجميل، فكان يصعد بالليل على قوز^(٢٣٧) رمل يتنسم الريح من نحو حي بئينة ويقول:

أيا ريح الشمال أما تريني أهيم وأئنني بادي النحول
هبي لي نسمة من ريح بثن ومني بالهبوب إلى جميل
وقولي يا بئينة حسب نفسي قليلك أو أقل من القليل
ومن قوله:

يقيقك جميل كل سوء أما له لديك حديث أو إليك رسول
وقد قلت في حبي لكم وصابتي محاسن شعر ذكرهن يطول
فإن لم يكن قولي رضاك فعلمي هبوب الصبا يا بثن كيف أقول
فما غاب عن عيني خيالك لحظة ولا زال عنها والخيال يزول
ومنه:

خليلي عوجا اليوم حتى تسلمنا على عذبة الأنياب طيبة النشر
أما بها ثم اشفعا لي وسلمنا عليها سقاها الله من سائغ القطر
إذا ما دنت زدت اشتياقا وإن نأت جزعت لنأي الدار منها وللبعد
أبى القلب إلا حب بئنة لم يرد سواها وحب القلب بئنة لا يجدي
وفيهما يقول:

سلي الركب هل عجننا لمغناك مرة صدور المطايا وهي موقرة تخدي^(٢٣٨)
وهل فاضت العين الشروق بمائها من اجلك حتى اخضل من دمعها بردي
وإني لأستجري لك الطير جاهداً لتجري بيمن من لقائك أو سعد
وإني لأستبكي إذا الركب غردوا بذكراك أن يحيا بك الركب إذ يخدي
فهل تجزيني أم عمرو بودها فإن الذي أخفى بها فوق ما أبدي

وكل محب لم يزد فوق عهده
ومن قوله فيها:

لها في سواد القلب حب ومنعة
وما ذكرتك النفس يا بثن مرة
وإلا اعترني زفرة واستكانة
وما استطرفت نفسي حديثاً لخلّة
وأول هذه القصيدة:

أمن منزل ففزعفت رسومه
فأصبح فقراً بعد ما كان أهلاً
ظلمت ومستن من الدمع هامل
أمنصفتي جمل فتعدل بيننا
تعلقتها والجسم مني مصحح
إلى اليوم حتى سل جسمي وشفني
قناة من المران ما فوق حقوها^(٢٤٠)
لها مقلتا ريم وجيد جداية^(٢٤٢)
ولست بناس أهلها حين أقبلوا
وقالوا جميل بات في الحي عندها
وفي البيت ليث الغاب لولا مخافة
هممت وقد كادت مراراً تطلعت
وما سرني غير الذي كان منهم
فكم مرتج أمراً أتيح له الردى

وقد زدتها في الحب مني على العهد

هيالموت أو كادت على الموتشرف
من الدهر إلا كادت النفس تتلف
وجاد لها سجل من العين يذرف
أسر به إلا حديثك أطرف

شمال تغاديه ونكباء حرجف^(٢٣٩)
وجمل المنى تشتوبه وتصيف
من العين لما عجت بالدار ينزف
إذا حكمت والحاكم العدل ينصف
فما زال ينمي حب جمل وأضعف
وأنكرت من نفسي الذي كنت أعرف
وما تحته منها نقاً يتقصف^(٢٤١)
وكشح كطي السابرية أهيف
وجالوا علينا بالسيوف وطوفوا
وقد جردوا أسيافهم ثم وقفوا
على نفس جمل والإله لأرعفوا
إلى حربهم نفسي وفي الكف مرهف
ومني وقد جاءوا إلي وأوجفوا
ومن خائف لم ينتقصه التخوف

ومنها:

أأن هتفت ورقاء ظلت سفاهة تبكي على جمل لورقاء تهتف
فلو كان لي بالصرم يا صاح طاقة صرمت ولكنني عن الصرم أضعف
قيل: إن مروان طلب إلى جميل أن ينزل فيرجز^(٢٤٣) به، وهو يريد أن يمدحه،
فنزل جميل فقال:

أنا جميل في السنام الأعظم الفارع الناس الأعز الأكرم
أحمي ذماري ووجدت أقرمي^(٢٤٤) كانوا على غارب طود خضرم^(٢٤٥)
أعيا على الناس فلم يهدم
فقال: عد عن هذا؛ فقال جميل:

لهفا على البيت المعدي لهفا من بعد ما كان قد استكفا
ولو دعا الله ومد الكفا لرجفت منه البلاد رجفا
وطلب ذلك إليه الوليد فقال:

أنا جميل في السنام من معد في الذروة العليا والركن الأشد
والبيت من سعد بن زيد والعدد ما يبتغي الأعداء مني، ولقد
أضري بالشم لساني ومرد أقود من شئت وصعب لم أقد
فقال له الوليد: اركب لا حملك الله! وما مدح جميل أحدا قط.

ومن قول جميل في مراجعة جواس بن قطبة، وكان ذلك بوادي القرى:
يا أم عبد الملك اصرميني فبيني صرمي أو صليني
أبكي وما يدريك ما يبكيني أبكي حذار أن تفارقيني
وتجعلي أبعد مني دوني إن بني عمك أوعدونني
أن يقطعوا رأسي إذا لقوني ويقتلونني ثم لا يدوني^(٢٤٦)

كلا ورب البيت لو لقوني
 قد علم الأعداء أن دوني
 ألا أسب القوم إذ سبوني
 وسابحات بلوى الحجون
 حتى إذا شابوا وشيوني
 أشباه أعيار على معين
 فهن يضطرن من اليقين
 وما تقنعت فتكروني
 أنمي إلى عادية طحون
 غمر يزف^(٢٤٩) ربح السفين
 ذو حذب^(٢٥٠) إذا يريحجون^(٢٥١)

تنحل أحقاد الرجال دوني

ومن قوله يمدح أخواله من جذام:

جذام سيوف الله في كل موطن
 هم منعوا ما بين مصر فذي القرى
 بضرب يزيل الهام عن سكناته
 إذا قصرت يوماً أكف قبيلة
 إذا أزمت^(٢٥٢) يوم اللقاء أزام
 إلى الشام من حل به وحرام
 وطعن كإيزاغ المخاض تؤام
 عن المجد نالته أكف جذام

اجتمع جميل وعمر بن أبي ربيعة بالأبطح، فأنشده جميل قصيدته:

لقد فرح الواشون أن صرمت حيلي
 يقولون مهلاً يا جميل وإنني
 أحلماً فقبل اليوم كان أوانه
 لقد أنكحوا حربي نبيها طعينة
 بثينة أو أبدت لنا جانب البخل
 لأقسم ما بي عن بثينة من مهل
 أم أخشى فقبل اليوم أوعدت بالقتل
 لطيفة طي البطن ذات شوى جزل

وكم قد رأينا ساعياً بنميمة
إذا ما تراجعنا الذي كان بيننا
كلانا بكى أو كاد يبكي صباة
فلو تركت عقلي معي ما طلبتها
فيا ويح نفسي حسب نفسي الذي بها
وقالت لأتراب لها لا زعانف
إذا حميت شمس النهار اتقيتها
تداعين فاستعجمن مشياً بذى الغضى
إذا ارتعن أو فرعن قمن حوالها
أجدك لا ألقى بشينة مرة
خليلي فيما عشتما هل رأيتما
أبيت مع الهلاك^(٢٥٦) ضيفاً لأهلها
ألا أيها البيت الذي حيل دونه
ثلاثة أبيات فبيت أحبه
وقال في هجرة هجرته إياها بشينة:
ألم تسأل الربع القواء فينطق
وقفت بها حتى تجلت عمايتي
تعز وإن كانت عليك كريمة
لعمركم إن البعاد لشائقي
لعلك محزون ومبد صباة
وبيض غريرات تشنى خصوصها
لآخر لم يعمد بكف ولا رجل
جرى الدمع من عيني بشينة بالكحل
إلى إلفه واستعجلت عبرة قبلي
ولكن طلايبها لما فات من عقلي
ويا ويح أهلي ما أصيب به أهلي
قصار ولا كس الشنايا ولا تُثعل^(٢٥٣)
بأكسية الديباج والخز ذي الخمل
ديب القطا الكدري في الدمث السهل
قيام بنات الماء^(٢٥٤) في جانب الضحل^(٢٥٥)
من الدهر إلا خائفاً أو على رجل
قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي
وأهلي قريب موسعون ذوو فضل
بنا أنت من بيتي وأهلك من أهلي
وبيتان ليسا من هواي ولا شكلي
وهل تخبرنك اليوم ببداء سملق^(٢٥٧)
ومل الوقوف الأرحبي^(٢٥٨) المنوق
لعلك من رق لبنة تعثق
وبعض بعاد البين والنأي أشوق
ومظهر شكوى من أناس تفرقوا
إذا قمن أعجاز ثقال وأسوَّق

عزائز لم يلقين بؤس معيشة
وغلغلت من وجد إليهن بعد ما
معني صارم قد أخلص القين صقله
فلولا احتيالي ضغن ذرعاً بزائر
تسوك بقضبان الأراك مفلجاً
أبنة للوصل الذي كان بيننا
أبنة ما تنأين إلا كأنني
قال الرشيد لإسحاق الموصلي: أنشدني أحسن ما تحب في عتاب محب وهو
ظالم متعتب، فأنشده قول جميل:

رد الماء ما جادت بصفو ذنائبه
اعتاب من يحلو لدي عتابه
ومن لذة الدنيا وإن كنت ظالماً
ومن قوله في زيارة له:

زورا بثينة فالحبيب مزور
إن الترحل أن تلبس أمرنا
إني عشية رحت وهي حزينة
وتقول بت عندي فديتك ليلة
غراء مبسام كأن حديثها
مخطوطة^(٢٦١) المتنين مضمرة الحشى
لا حسنهما حسن ولا كدلالها
إن اللسان بذكرها لموكل

إن الزيادة للمحب يسير
واعتاقتنا قدر أحم بكور
تشكو إلي صباية لصبور
أشكو إليك فإن ذاك يسير
در تحدر نظمه منشور
ريا الروادف خلفها ممكور
دل ولا كوقارها توقير
والقلب صاد والخواطر صور

ولئن جزيت الود مني مثله
وعذله فيها ابن عمه روق، فقال:
لقد لامني فيها أخ ذو قرابة
وقال أفق حتى متى أنت هائم
فقلت له فيها قضى الله ما ترى
فإن يك رشداً جها أو غواية
لقد لج ميثاق من الله بيننا
فلا وأبيها الخير ما خنت عهدا
وما زادها الواشون إلا كرامة
أفي الناس أمثالي أحب فحالمهم
وهل هكذا يلقي المحبون مثل ما
وقال فيها:

خليلي عوجا اليوم حتى تسلم
ألمأ بها ثم اشفعالي وسلم
وبوحا بذكري عند بثنة وانظرا
فإن تك لم تقطع قوى الود بيننا
فكيف^(٢٦٢) يرى منها اشتياق ولوعة
وإن تك قد حالت عن العهد بعدنا
فسوف يرى منها صدود ولم تكن
أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى
وجاور إذا ما مت بيني وبينها

على عذبة الأنياب طيبة النشر
عليها سقاها الله من سائغ القطر
أترتاح يوماً أم تمش إلى ذكري
ولم تنس ما أسلفت في سالف الدهر
بين وغرب من مدامعها يجري
وأصغت إلى القول المؤنب والمزري
- بنفسي - من أهل الخيانة والغدر
ببثنة في أدنى حياتي ولا حشري
فيا حبذا موتي إذا جاورت قبري

عدمك من حب أما منك راحة
ألا أيها الحب المبرح هل ترى
أجدك لا يبلى وقد بلى الهوى
ومن قوله فيها:

وما بك عني من توان ولا فتر
أخا كلف يغري بحب كما أغري
ولا ينتهي حتى بشينة للزجر

قفي تسل عنك النفس بالخطبة التي
فقد طالما من غير شكوى قبيحة
ومنه:

تطيلين تخويفي بها ووعيدي
رضينا بحكم منك غير سديد

بشين سأليني بعض مالي فإنما
فإني وتكرار الزيارة نحوكم
فيا ليت شعري هل تقولين بعدنا
ألا ليت أياماً مضين رواجع
ومنه:

يبين عند المال كل بخيل
لبين يدى هجر بشين طويل
إذا نحن أزمعنا غداً لرحيل
وليت النوى قد ساعدت بجميل

أتعجب أن طربت لصوت حاد
فلا تعجب فإن الحب أمسى
ومنه:

حدا بزلًا يسرن ببطن واد
لبشة في السواد من الفؤاد

خليلي عوجا بالمحلة من جمل
نقف بمغان قد محاً رسمها البلى
فلو درج النمل الصغار بجلدها
وأحسن خلق الله جيداً ومقلة
ومن قوله:

وأترابها بين الأصيفر والخبل
تعاقبها الأيام بالريح والوبل
لأنذب أعلى جلدها مدرج النمل
تشبه في النسوان بالشادن الطفل^(٢٦٣)

أمنك سري يا بشن طيف تأوبا
هدوا فهاج القلب شوقاً وأنصبا

عجبت له أن زار في النوم مضجعي ولو زارني مستيقظاً كان أعجبا
لما قدم جميل من الشام بلغ بثينة خبره، فراسلته مع بعض نساء الحي تذكر
شوقها إليه ووجدها به، وطلبها للحيلة في لقاءه، وواعدته لموضع يلتقيان فيه،
فسار إليها وحدثها طويلاً وأخبرها خبره بعدها، وقد كان أهلها رصدوها، فلما
فقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما، فوثب جميل فانتضى سيفه وشد
عليهما، فاتقياه بالحرب، وناشدته بثينة الله إلا انصرف، وقالت له: إن أقمت
فضحتني، ولعل الحي يلحقونك، فأبى وقال: أنا مقيم وامضي أنت وليصنعوا
ما أحبوا، فلم تزل تناشده حتى انصرف وقال في ذلك، وقد هجرته وانقطع
التلاقي بينهما مدة:

هي البدر حسناً والنساء كواكب وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلت حسناً على الناس مثل ما على ألف شهر فضلت ليلة القدر
وقال:

لقد خفت أن يغتالني الموت عنوة وفي النفس حاجات إليك كما هيا
وإني لتثيني الحفيظة كلما لقيتك يوماً أن أبثك ما بيا
ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني أظل إذا لم أسق ريقك صاديًا
ورحل إلى مصر فأدركته بها منيته، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاة:
صدع النعي وما كنى بجميل وثوى بمصر ثواء غير قفول
ولقد أجز الذيل في وادي القرى نشوان بين مزارع ونخيل
قومي بثينة فاندبى بعويل وابكي خليلك دون كل خليل
ولما أنشدت بثينة قول جميل قالت:
وإن سلوى عن جميل لساعة من الدهر ما حانت ولا حان حينها

سواء علينا يا جميل بن معمر
وقال:

رحل الخليط جماهم بسواد
ما إن شعرت ولا سمعت بينهم
لما رأيت البين قلت لصاحبي
بانوا وغودر في الديار مقيم
وقال أيضاً:

خليلي هل في نظرة بعد توبة
إلى رجح الأكفال هيف خصورها
تذكرت من أضحت قرى اللد^(٢٦٤) دونه
فظلت لعينيك اللجوجين عبرة
على أنني بالبرق من نحو أرضها
وإني إذا ما الريح يوماً تنسمت
ألا يا غراب البين لونك شاحب
فإن كان حقاً ما تقول فأصبحت
ودرت بأعداء حبيبك فيهم
وكيف بأعداء كأن عيونهم
فإني وإن أصبحت بالحب عالماً
وله أيضاً:

فلو أرسلت يوماً بثينة تبغي
لأعطيتها ما جاء يبغي رسوها
يميني ولو عزت علي يميني
وقلت لها بعد اليمين سليني

سليني ما لي يابشين فإنما
فما لك لما خبر الناس أنني
فأبلي عذراً أو أجيء بشاهد
ولست وإن عزت علي بقائل
ونبتت قوماً فيك قد نذروا دمي
إذا ما رأوني مقبلاً عن جنابة
وله أيضاً:

يبين عند المال كل ضنين
أسأت بظهر الغيب لم تسليني
من الناس عدل أنهم ظلموني
لها بعد صرم يا بئين صليني
فليت الرجال الموعدين لقوني
يقولون من هذا وقد عرفوني

تنادي آل بثنة بالرواح
فيالك منظرًا ومسير ركب
ويا لك خلة ظفرت بعقلي
أريد صلاحها وتريد قتلي
لعمر أبيك لا تجدين عهدي
ولو أرسلت تستهدين نفسي
وله أيضاً:

وقد تركوا فؤادك غير صاح
شجاني حين أمعن في الفياح
كما ظفر المقامر بالقдах
فشتي بين قتلي والصلاح
كعهدك في المودة والسماح
أتاك بها رسولك في سراح

فإن يك جثماني بأرض سواكم
إذا قلت هذا حين أسلو وأجتري
وإن رمت نفسي كيف آتي لصرمها
وله أيضاً:

فإن فؤادي عندك الدهر أجمع
على صرمها ظلت لها النفس تشفع
ورمت صدوداً ظلت العين تدمع

ألم تعلمي يا عذبة الماء أنني
وما زلت بي يا بئن حتى لو انني
وددت على حب الحياة لو انها

أظل إذا لم أسق ماءك صاديا
من الوجد أستبكي الحمام بكى ليا
يزاد لها في عمرها من حياتيا

وله أيضًا:

وقلت لها اعتلت بغير ذنب
ففاتيني إلى حكم من اهلي
فقلت أبتغي حكمًا من اهلي
فولينا الحكومة ذا سجوف
فقلنا ما قضيت به رضينا
قضاؤك نافذ فاحكم علينا
فقلت له قُلت بغير جرم
فسل هذي متى تقضي ديوني
فقلت إن ذا كذب وبطل
أأقتله ومالي من سلاح
ولم آخذ له مالاً فيلفي
وعند أميرنا حكم وعدل
فقال أميرنا هاتوا شهودا
فقال يمينها وبذاك أقضي
فبت حلفة ما لي لديها
فقلت لها وقد غلب التعزي
فقلت ثم زجت حاجبيها
فلا يجدنك الأعداء عندي

وشر الناس ذو العلل البخيل
وأهلك لا يحيف ولا يميل
ولا يدري بنا الواشي المحول
أخا دنيا له طرف كليل
وأنت بما قضيت به كفيل
بما تهوى ورأيك لا يفيل
وغب الظلم مرتعه وييل
وهل يقضيك ذو العلل المطول
وشر من خصومته طويل
وما بي لو أقاتله حويل^(٢٦٥)
له دين علي كما يقول
ورأي بعد ذلكم أصيل
فقلت شهيدنا الملك الجليل
وكل قضائه حسن جميل
نقير أدعيه ولا فتيل
أما يقضى لنا يا بثن سول
أطلت ولست في شيء تطيل
فتكلمي وإياك الثكول

وله أيضًا:

حلفت يمينًا يا بشينة صادقًا
إذا كان جلد غير جلدك مسني
ولو أن راقي الموت يرقى جنازتي
وقال أيضًا:

فقد لان أيام الصبا ثم لم يكد
ظعائن ما في قريهن لذي هوى
وواكلنه والههم ثم تركنه
فواحسرتا إن حيل بيني وبينها
فشيب روعات الفراق مفارقي
شهدت بأني لم تغير مودتي
وأن فؤادي لا يلين إلى هوى
وإني لأستغشي وما بي نعسة
ولما علوت اللابتين تشوقت
كأن دموع العين يوم تحملت
ورحن وقد ودعن عندي لبانة
كسرّ الثرى لم يعلم الناس أنه
فإن دام هذا الصرم منك فإنني
لكيما يقول الناس مات ولم أهن

من الدهر شيء بعدهن يلين
من الناس إلا شقوة وفتون
وفي القلب من وجد بهن رهين
ويا حين نفسي كيف فيك تحين
وأنشزن نفسي فوق حيث تكون
وأني بكم حتى الممات ضنين
سواك وإن قالوا بلى سسيلين
لعل لقاء في المنام يكون
قلوب إلى وادي القرى وعيون
بشينة يسقيها الرشاش معين
لبشنة سر في الفؤاد كمين
ثوى في قرار الأرض وهو دفين
لأغبر هاري الجانبين رهين
عليك ولم تنبت منك قرون

(ج) الغزل الصناعي

كثير^(٢٦٧)؛

قال أبو الفرج قال محمد بن عبد العزيز: ما قصّد القصيد ولا نعت الملوكة مثل كثير وقال إبراهيم بن سعد: إني لأروي لكثير ثلاثين قصيدة لو رقي بها مجنون لأفاق، وكان بعض أصحاب الحديث يأتونه، وهو خبيث النفس، فيسألونه عن شعر كثير فتطيب نفسه ويحدثهم. وقال عبد الله بن أبي عبيدة: من لم يجمع من شعر كثير ثلاثين لامية فلم يجمع شعره. وكان ابن أبي عبيدة يملئ شعره بثلاثين ديناراً. وسئل مصعب: من أشعر الناس؟ فقال: كثير بن أبي جمعة، وقال: هو أشعر من جرير والفرزدق والراعي وعامتهم، يعني الشعراء. ولم يدرك أحد في مديح الملوكة ما أدرك كثير. وقال محمد بن سلام: كان كثير شاعر أهل الحجاز، وهو شاعر فحل ولكنه منقوص حظه بالعراق. وقال يونس النحوي: كثير أشعر أهل الإسلام، وكان ابن أبي حفصة يعجبه مذهبه في المديح جداً، ويقول: كان يستقصي المديح، وكان فيه مع جودة شعره خلل وعجب. وقال المسور بن عبد الملك: ما ضر من يروي شعر كثير وجهيل ألا تكون عنده مغنيتان مطربتان.

وكان قصيراً، قال الواقسي: رأيت كثيراً يطوف بالبيت، فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذبه. وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروان يقول: طأطئ رأسك لا يصبه السقف. وقال كثير: في أي شيء أعطى هؤلاء الأحرار عشرة آلاف دينار؟ قالوا: في قوله فيهم:

وما كان مالي طارفاً من تجارة وما كان ميراثاً من المال متلدا
ولكن عطايا من إمام مبارك ملا الأرض معروفًا وجوداً وسوددا

فقال كثير: إنه لضرع قبحه الله! ألا قال كما قلت:

دع عنك سلمى إذ فات مطلبها واذكر خليليك من بني الحكم
وما أعطيناني ولا سألتها ألا وإني لحاجزي كرمي
إني متى لا يكن نوالهما عندي بما قد فعلت أحشمت
مبدي الرضا عنهما ومنصرف عن بعض ما لو فعلت لم ألم
لا أنزر^(٢٦٨) النائل الخليل إذا ما اعتل نزر الظئور لم ترم
وطلب من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أرضاً له يقال لها: غُرب،
وقدم بين يدي طلبه تلك الأبيات:

جزتك الجوازي عن صديقك نضرة وأدناك ربي في الرفيق المقرب
فإنك لا يعطى عليك ظلامة عدو ولا تنأى عن المتقرب
وإنك ما تمنع فإنك مانع بحق وما أعطيت لم تتعقب
فقال له: أترغب غرباً؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: اكتبوها له، ففعلوا.
ونسب كثير لكثرة نسبه بعزة الضمرية إليها، وعرف بها فقيل: كثير عزة،
وهي عزة ابنة حميد بن وقاص. وكان ابتداء عشقه إياها أنه مر بنسوة من بني
ضمرة ومعه جلب غنم، فأرسلن إليه عزة وهي صغيرة، فقالت: يقلن لك
النسوة: بعنا كبشاً من هذه الغنم وأنسنا بثمره إلى أن ترجع، فأعطاها كبشاً،
وأعجبته، فلما رجع جاءت امرأة منهن بدارهمه؛ فقال: وأين الصبية التي أخذت
مني الكبش؟ قالت: وما تصنع بها وهذه دراهمك؟ قال: لا آخذ دارهمي إلا
من دفعت الكبش إليها، وخرج وهو يقول:

قضى كل ذي دين فوفي غريمه وعزة مطول معنى غريمها
فكان أول لقائه إياها. ثم قال فيها:

نظرت إليها نظرة وهي عاتق على حين أن شبت وبان نهودها
وقد درعوها وهي ذات مؤصد^(٢٦٩) مجوب ولما يلبس الدرع ريدها
من الخفرات البيض ود جلسها إذا ما انقضت أحدى لو تعيدها
نظرت إليها نظرة ما يسرني بها حمر أنعام البلاد وسودها
وكنت إذا ما جئت سعدى بأرضها أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
ثم أحبته بعد ذلك عزة أشد من حبة إياها.

قال محمد بن صالح الأسلمي: دخلت عزة على عبد الملك بن مروان وقد عجزت؛ فقال لها: أأنت عزة كثير؟ فقالت: أنا عزة بنت حميد؛ قال: أنت التي يقول لك كثير:

لعزة نار ما تبوخ^(٢٧٠)، كأنها إذا ما رمقناها من البعد كوكب
فما الذي أعجبه منك؟ قالت: كلا يا أمير المؤمنين، لقد كنت في عهده أحسن
من النار في الليلة القرة. ويروى أنها قالت له: أعجبه مني ما أعجب المسلمين
منك حين صيروك خليفة، وكانت له سن سوداء يخفيها، فضحك حتى بدت،
فقالت له: هذا الذي أردت أن أبديه؛ فقال لها: هل تروين قوله:

وقد زعمت أني تغيرت بعدها ومن ذا الذي يا عز لا يتغير
تغير جسمي والخلقة كالتي عهدت ولم يخبر بسرك مخبر
قالت: لا أروي هذا، ولكني أروي قوله:

كأنني أنا دي صخرة حين أعرضت من الصم لو تمشي بها العصم زلت
صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت
فأمر بها، فأدخلت على عاتكة بنت يزيد؛ فقالت لها: رأيت قول كثير:
قضى كل ذي دين فوفي غريمه وعزة مطول معني غريمها

ما هذا الذي ذكره؟ قالت: قبلة وعدته إياها؛ قالت: أنجزها وعلي إثمها.
ومما قال فيها:

خليلي هذا رسم عزة فاعقلا
وما كنت أدري قبل عزة ما البكا
فقد حلفت جهداً بما نحررت له
أناديك ما حج ليحج وكبرت
وكانت لقطع الحب بيني وبينها
فقلت لها يا عز كل مصيبة
ولم يلق إنسان من الحب ميعه
كأنني أنادي صخرة حين أعرضت
صفوحاً^(٢٧٣) فما تلقاك إلا بخيلة
أباحث حمى لم يرعه الناس قبلها
فليت قلوصي عند عزة قيدت
وغودر في الحي المقيمين رحلها
وكنت كذي رجلين رجل صحيحة
وكنت كذات الظلع لما تحاملت
أريد الثواء عندها وأظنها
فما انصفت، أما النساء فبغضت
يكلفها الغيران شتمى وما بها
هنيئاً مريئاً غير داء مخامر
فوالله ما قاربت إلا تباعدت

قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت
ولا موجعات القلب حتى تولت
قريش غداة المأزمين^(٢٧١) وصلت
بفيفا^(٢٧٢) غزال رفقة وأهلت
كناذرة نذراً وفت فأحلت
إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت
تعم ولا غمء إلا تجلت
من الصم لو تمشي بها العصم زلت
فمن مل منها ذلك الوصل ملت
وحلت تلاعاً لم تكن قبل حلت
بحبل ضعيف عز منها فضلت
وكان لها باغ سواي فبلت^(٢٧٤)
ورجل رمى فيها الزمان فشلت
على ظلعها بعد العثار استقلت
إذا ما أطلنا عندها المكث ملت
إلي وأما بالنوال فضنت
هواني ولكن للميك استذلت
لعزة من أعراضنا ما استحلت
بصرم ولا أكثرت إلا أقلت

فإن تكن العتبي^(٢٧٥) فأهلاً ومرحباً
وإن تكن الأخرى فإن وراءنا
خليلي إن الحاجبية طلحت^(٢٧٧)
فلا يبعدن وصل لعزة أصبحت
أسيئي بنا أو أحسنني لا ملومة
ولكن أنيلي واذكري من مودة
فإني وإن صدت لمثن وصادق
فما أنا بالداعي لعزة بالجوى
فلا يحسب الواشون أن صبابتي
فأصبحت قد أبلت^(٢٨٠) من دنف بها
فوالله ثم الله ما حل قبلها
وما مر من يوم علي كيومها
وأضحت بأعلى شاهق من فؤاده
فيا عجباً للقلب كيف اعترافه^(٢٨١)
وإني وتهيامي بعزة بعد ما
لكا المرتجي ظل الغمامة كلما
كأني وإياها سحابة محل
فإن سأل الواشون فيم هجرتها
وحق لها العتبي لدنيا وقلت
مناوح^(٢٧٦) لو سارت بها العيس كلت
قلوصيكما وناقتي قد أكلت
بعاقبة أسبابه قد تولت
لدنيا ولا مقلية إن تقلت
لنا خلة كانت لديكم فطلت^(٢٧٨)
عليها بما كانت إلينا أزلت^(٢٧٩)
ولا شامت إن نعل عزة زلت
بعزة كانت غمرة فتجلت
كما أدنفت هيماء ثم استبلت
ولا بعدها من خلة حيث حلت
وإن عظمت أيام أخرى وجلت
فلا القلب يسلاها ولا العين ملت
وللنفس لما وطنت كيف ذلت
تخلت مما بيننا وتخلت
تبوأ منها للمقبل اضمحلت
رجاها فلما جاوزته استهلّت
فقل نفس حر سليت فتسلت

قال ابن سلام: كان كثير مدعيًا ولم يكن عاشقًا، وكان جميل صادق الصبابة والعشق. واختبرته عزة ذات مرة فوجدت علامة ذلك، وكانت منتقبة فأسفرت، فأبلس^(٢٨٢) ولم ينطق وبهت، فلما مضت أنشأ يقول:

ألا ليتني قبل الذي قلت شيب لي
فمت ولم تعلم علي خيانة
أبوء بذنبي، إنني قد ظلمتها
ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف
وقلت فصدقت الذي قلت بالذي
ألا إنما يكفي الفتى بعد زيغه
لقد لبست لبس الهلوك ببابها
وتومض أحياناً بعين مريضة
فأعرضت عنها مشمئزاً كأنها
وقد كنت من أحبالها في ممنع
وما زلت سباقاً إلى كل غاية
فلما أتاك الملك عفواً ولم يكن
تركت الذي يفنى وإن كان موقناً
فأضررت بالفاني وشمرت للذي
وما لك أن كنت الخليفة مانع
سما لك هم في الفؤاد مؤرق
فما بين شرق الأرض والغرب كلها
يقول أمير المؤمنين ظلمتني
ولا بسط كف لأمري ظالم له
فلو يستطيع المسلمون تقسموا

من السم خضخاض بهاء الذراريح^(٢٨٣)
وكم طالب للربح ليس براح
وإني بباقي سرها غير بائح

برياً ولم تتبع مقالة مجرم
فعلت فأضحى راضياً كل مسلم
من الأود الباقي ثقاف المقوم
ترأى لك الدنيا بكف ومعصم
وتبسم عن مثل الجمان المنظم
سقتك مدوفاً^(٢٨٤) من سهام وعلقم
ومن بحرهما من مزبد الجود مفعم
صعدت بها أعلى البناء المقدم
لطالب دنيا بعده من تكلم
وآثرت ما يبقى برأي مصمم
أمامك في يوم من الهول مظلم
سوى الله من مال رغب ولادم
صعدت به أعلى المعالي بسلم
مناد ينادي من فصيح وأعجم
بأخذ لدينار وأخذ لدرهم
ولا السفك منه ظالماً ملء محجم
لك الشطر من أعمارهم غير ندم

فعثت به ما حج لله راكب
فأربح بها من صفقة لمبايع
ومن نسيبه بعزة لما أخرجت إلى مصر:

لعزة من أيام ذي الغصن شاقني
هي الدار وحشاً غير أن قد يحلها
فما برسوم الدار لو كنت عالماً
سألت حكيماً^(٢٨٧) أين شطت بها النوى
أجدوا فأما آل عزة غدوة
لعمري لئن كان الفؤاد من الهوى
ومنها:

ولست براء نحو مصر سحابة
فقد يقعد النكس الدني عن الهوى
وقال خليلي ما لها إذ لقيتها
فقلت له إن المودة بيننا
وإني وإن أعرضت عنها تجلداً
وإن زمانا فرق الدهر بيننا
أفي الحق هذا أن قلبك سالم
وأن بجسمي منك داء مخامراً
لعمرك ما أنصفتني في مودتي
فإما تريني اليوم أبدي جلادة
ولست ابنة الضمري منك بناقم

وإن بعدت إلا قعدت أشيم
عزوفاً ويصبو المرء وهو كريم
غداة السنا فيها عليك وجوم^(٢٨٨)
على غير فحش والصفاء قديم
على العهد فيما بيننا لمقيم
وبينكم في صرفه لمشوم
صحيح وقلبي في هواك سقيم
وجسمك موفور عليك سليم
ولكنني يا عز عنك حليم
فإني لعمري تحت ذاك كليم
ذنوب العدى إني إذن لظلوم

وإني لذو وجد إذا عاد وصلها
ومن نسيه بها:

لعزة أطلال أبت أن تكلمها
وكنّت إذا ما جئت أجللن مجلسي
تهيج مغانيها الفؤاد المكلمها
وأظهرن مني هية لا تجهما
يحاذرن مني غيرة قد عرفتها
وقدماً فما يضحكن إلا تبسما
ومنه:

خليلي عوجا منكما ساعة معي
ولا تعجلاني أن ألم بدمنة
لعزة لاحت لي ببيداء بلقع
وقولا لقلب قد سلا راجع الهوى
وللعين أذري من دموعك أودعي
فلا عيش إلا مثل عيش مضى لنا
ومنه:

بليلى وجارات لليلي كأنها
أمنقطع يا عز ما كان بيننا
نعاج الفلا تحدى بهن الأباعر
إذا قيل هذا بيت عزة قادني
وشاجرني يا عز فيك الشواجر
أصدوبي مثل الجنون لكي يرى
إليه الهوى واستعجلتني البوادر
ألا ليت حظي منك يا عز أنني
رواة الخنا أني لبيتك هاجر
إذا بنت باع الصبر لي عنك تاجر
ومنه:

وما زلت من ليلي لدن طر شاري
وأحمل في ليلي ضغائن معشر
إلى اليوم أخفي حبها وأدجن
وتحمل في ليلي علي الضغائن

ومنه:

وإني لأرعى قومها من جلالها
ولو حاربوا قومي لكنت لقومها

ومنه:

هلا سألت معالم الأطلال
سقيًا لعزة خلة سقيًا لها
إذ لا تكلمنا وكان كلامها

ومنه:

ألا حييا ليلى أجد رحيلي
تبدت له ليلى لتذهب عقله
أريد لأنسى ذكرها فكأنها
إذا ذكرت ليلى تغشتك عبرة
وكم من خليل قال لي هل سألتها
وأبعده نيلاً وأوشكه^(٢٩٢) قلى
حلفت برب الراقصات^(٢٩٣) إلى منى
تراها رفاقاً بينهن تفاوت
تواهن^(٢٩٥) بالحجاج من بطن نخلة
بكل حرام خاشع متوجه
على كل مذعان^(٢٩٧) الرواح معيدة
شوامذ^(٢٩٨) قد أرتجن دون أجنة
يمين امرئ مستغلظ من ألية^(٢٩٩)

وإن أظهروا غشاً نصحت لهم جهدي
صديقاً ولم أحمل على حربها حقدي

بالجزع من حرص^(٢٨٩) وهن بوال
إذ نحن بالهضبات من أملال^(٢٩٠)
نفلاً نؤمله من الأنفال

وآذن أصحابي غداً بققول^(٢٩١)
وشاقتك أم الصلت بعد ذهول
تمثل لي ليلى بكل سبيل
تعل بها العينان بعد نهول
فقلت له ليلى أضن خليل
وإن سئلت عرفاً فشر مسول
خلال الملا يمددن كل جديل
ويمددن بالإهلال كل أصيل^(٢٩٤)
ومن عزور والخبث خبت طفيل
إلى الله يدعوه بكل نقيـل^(٢٩٦)
ومخشية ألا تعيد هزيل
وهوج تبارى في الأزيمة حول
ليكذب قيلا قد ألح بـقيل

بليلى ولا أرسلتهم برسول
فروها ولم يأتوا لها بحويل^(٣٠٠)
بنصح أتى الواشون أم بحبول^(٣٠١)
وخير العطا ياليل كل جزيل
أحب من الأخلاق كل جميل
فقدما تحذت القرض عند بذول
توكلني نفسي بكل بخيل
قليل ولا راض له بقليل
إذا غبت عنه باعني بخليل
ويحفظ سرى عند كل دخيل^(٣٠٢)
ألا ربما طالبت غير منيل
رجال ولم تذهب لهم بعقول
بقاطعة الأقران ذات حليل
ولا عجت من أقوالهم بفтил
حبين بليط ناعم وقبول
مخالطة عقلي سلاف شمول
رجاء الأمانى أن يقلن مقيلي
وأخلفن ظني إذ ظننت وقيلي
من الدار واستقللن بعد طويل
دعا دعوة يا حبر بن سلول
وكنت امرأ أعتش كل عدول

لقد كذب الواشون ما بحث عندهم
فإن جاءك الواشون عني بكذبة
فلا تعجلي ياليل أن تتفهمني
فإن طبت نفسًا بالعطاء فأجزلي
وإلا فإجمال إلي فإنني
وإن تبذلي لي منك يومًا مودة
وإن تبخلي ياليل عني فإنني
ولست براض من خليل بنائل
وليس خليلي بالملول ولا الذي
ولكن خليلي من يديم وصاله
ولم أر من ليلى نوالًا أعده
يلومك في ليلى وعقلك عندها
يقولون ودع عنك ليلى ولا تم
فما نعتت^(٣٠٣) نفسي بما أمروا به
تذكرت أترابًا^(٣٠٤) لعزة كالمها
وكنت إذا لا قيتهن كأنني
تأطرن^(٣٠٥) حتى قلت لسن بوارحًا
فأبدين لي من بينهن تجهما
فلايًّا^(٣٠٦) بلائي ما قضين لبانة
فلما رأى واستيقن البين صاحبي
فقلت وأسررت الندامة ليتني

سلكت سبيل الرائحات عشية
فأسعدت نفساً بالهوى قبل أن أرى
ندمت على ما فاتني يوم بنتم
كأن دموع العين واهية الكلى^(٣٠٩)
تكنفها خرق تواكلن خرزها
أقيمي فإن الغور يا عز بعدكم
كفى حزناً للعين أن رد طرفها
وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا
توليت محزوناً وقلت لصاحبي
لعزة إذ يحتل بالخيف أهلها
وبدل منها بعد طول إقامة
لقد أكثر الواشون فينا وفيكم
وما زلت من ليلٍ لدن طر^(٣١٢) شاري
وله:

إذا ما أراد الغزو لم تثن همه
نهته فلما لم تر النهي عاقه
ولم يشنه يوم الصبابة بثها
ولكن مضى ذو مرة مثبت
وله في مدح عبد الملك بن مروان:
أحاطت يده بالخلافة بعد ما
فما أسلموها عنوة عن مودة

مخارم^(٣٠٧) نصع أو سلكن سبيل
عوادي^(٣٠٨) نأي بيننا وشغول
فيا حسرتاً ألا يرين عويلي
وعت ماء غرب يوم ذاك سجيل
فأبجلنه والسير غير بجيل^(٣١٠)
إلي إذا ما بنت غير جميل
لعزة عير آذنت برحيل
فقلت البكا أشفى إذن لغليلي
أقاتلتي ليلي بغير قتيل
فأوحش منها الخيف بعد حلول
تبعث نكباء^(٣١١) العشي جفول
ومال بنا الواشون كل مميل
إلى اليوم كالمقصى بكل سبيل

حصان عليها نظم در يزينا
بكت فبكى مما شجها قطينها^(٣١٣)
غداة استهلكت بالدموع شئونها
بسنة حق واضح مستبينها
أراد رجال آخرون اغتيالها
ولكن بحد المشرفي استقلها

وكنت إذا نابتك يوماً ملمة
سموت فأدركت العلاء وإنما
وصلت فنالت كفك المجد كله
وله أيضاً:

نبلت^(٣١٤) لها أبا الوليد نباها
يلقى عليات العلاء من سماها
ولم تبلغ الأيدي السوامي مصاها

أهاجك برق آخر الليل واصب
يجر ويستأني نشاصاً^(٣١٥) كأنه
تألق واحمومى وخيم بالربا
إذا حرّكه الريح أرزم^(٣١٦) جانب
كما أومضت بالعين ثم تبسمت
يمج الندى لا يذكر السير أهله
وله أيضاً:

تضمنه فرش الجبا فالمسارب
بغيقة حادجلجل الصوت جالب
أحم الذرى ذو هيدب متراكب
بلا هزق^(٣١٧) منه وأومض جانب
خرع^(٣١٨) بدا منها جبين وحاجب
ولا يرجع الماشي به وهو جادب

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم
ويخفي لكم حباً شديداً ورهبة
وحبك ينسيني من الشيء في يدي
كريم يमित السر حتى كأنه
يود بأن يمسي سقيماً لعلها
ويرتاح للمعروف في طلب العلا
فلو كنت في كبل^(٣١٩) وبحت بلوعتي
وله أيضاً:

إذا غاله من حادث الدهر غائله
وللناس أشغال وحبك شاغله
ويذهلني عن كل شيء أزاوله
إذا استبحثوه عن حديثك جاهله
إذا سمعت عنه بشكوى ترأسله
لتحمد يوماً عند ليل شأله
إليه لأنّ رحمة لي سلاسله

بما لا يرى من غائب الوجد يشهد
غداة الشبا من لاعج الوجد تجمد

أقول لماء العين أمعن لعله
فلم أدر أن العين قبل فراقها

ولم أر مثل العين ضلت بمائها علي ولا مثلي على الدمع يحسد
وله أيضاً:

تسمع الرعد في المخيلة منها مثل هزم الفروم^(٣٢٠) في الأشوال^(٣٢١)
وترى البرق عارضاً مستطيراً مرح البلق جلن في الأجلال
أو مصابيح راهب في يفاع سغم الزيت ساطعات الذبال
وله أيضاً:

فيا عز إن واش وشى بي عندكم فلا تكرميه أن تقولي له أهلا
كما لو وشى واش بعزة عندنا لقلنا تزحزح لا قريباً ولا سهلا

(د) الغزل القصصي

١ - أخبار قيس بن الملوح (المجنون)^(٣٢٢)

قال الأصفهاني عن حديثه عن ابن دأب قال: قلت لرجل من بني عامر:
أتعرف المجنون وتروي من شعره شيئاً؟ قال: أوقد فرغنا من شعر العقلاء
حتى نروي أشعار المجانين! إنهم لكثير! فقلت: ليس هؤلاء أعني، إنما أعني
مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشق، فقال: هيهات! بنو عامر أغلظ
أكباداً من ذاك، إنما يكون هذا في هذه اليمانية الضعاف قلوبها، السخيفة عقولها،
الصعلة^(٣٢٣) رءوسها، فأما نزار فلا.

وقال الرياشي سمعت الأصمعي يقول: رجلا ن ما عرفا في الدنيا قط إلا
بالاسم: مجنون بني عامر، وابن القرية^(٣٢٤)، وإنما وضعهما الرواة.
وقال المدائني: المجنون المشهور بالشعر عند الناس صاحب ليلي قيس بن
معاذ من بني عامر، ثم من بني عقيل، أحد بني نمير بن عامر بن عقيل، قال:

ومنهم رجل آخر يقال له: مهدي بن الملوح من بني جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

وقال ابن الكلبي: حدثت أن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بني أمية كان يهوى ابنة عم له، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يروها الناس للمجنون ونسبها إليه.

وعن حماد بن طالوت بن عباد: أنه سأل الأصمعي عنه، فقال: لم يكن مجنوناً، بل كانت به لوثة أحدثها العشق فيه، كان يهوى امرأة من قومه يقال لها ليلى، واسمه قيس ابن معاذ.

وذكر عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه أن اسمه قيس بن معاذ. وذكر شعيب بن السكن عن يونس النحوي أن اسمه قيس بن الملوح، قال أبو عمرو الشيباني: وحدثني رجل من أهل اليمن أنه رآه ولقيه وسأله عن اسمه ونسبه، فذكر أنه قيس بن الملوح.

وذكر هشام بن محمد الكلبي أنه قيس بن الملوح، وحدث أن أباه مات قبل اختلاطه^(٣٢٥)، فعقر على قبره ناقته وقال في ذلك:

عقرت على قبر الملوح ناقتي بذى السرح^(٣٢٦) لما أن جفاه الأقارب
وقلت لها كوني عقيراً^(٣٢٧) فإنني غداً راجل أمشي وبالأمس راکب
فلا يبعدنك الله يابن مزاحم فكل بكأس الموت لاشك شارب

وقال الأصمعي: سألت أعرابياً من بني عامر بن صعصعة عن المجنون العامري فقال: عن أيهم تسألني؟ فقد كان فينا جماعة رموا بالجنون، فعن أيهم تسأل؟ فقلت: عن الذي كان يشبب بليلى، فقال: كلهم كان يشبب بليلى، قلت: فأنشدني لبعضهم، فأنشدني لمزاحم بن الحارث المجنون:

ألا أيها القلب الذي لج هائما بليلي وليدًا لم تقطع تئامه
أفق قد أفاق العاشقون وقد أنى^(٣٢٨) لك اليوم أن تلقى طبيبًا تلائمه
أجدك لا تنسيك ليلي ملمة تلم ولا عهد يطول تقادمه
قلت: فأنشدني لغيره منهم، فأنشدني لمعاذ بن كليب المجنون:

ألا طالما لاعت ليلي وقادني إلى اللهو قلب للحسان تبوع
وطال امتراء^(٣٢٩) الشوق عيني كلما نزفت دموعًا تستجد دموع
فقد طال إمساكي على الكبد التي بها من هوى ليلي الغداة صدوع
قلت: فأنشدني لغير هذين ممن ذكرت، فأنشدني لمهدي بن الملوح:

لو أن لك الدنيا وما عدلت به سواها وليلي بائن عنك بينها^(٣٣٠)
لكنت إلى ليلي فقيرًا وإنما يقود إليها ود نفسك حينها
قلت له: فأنشدني لمن بقي من هؤلاء، فقال: حسبك! فوالله إن في واحد من
هؤلاء لمن يوزن بعقلائكم اليوم.

وقال الجاحظ: ما ترك الناس شعراً مجهول القائل قيل في ليلي إلا نسبوه إلى
المجنون، ولا شعراً هذه سبيله قيل في لبنى إلا نسبوه إلى قيس بن ذريح.
قال أبو الفرج: وأنا أذكر مما وقع إلي من أخباره جملاً مستحسنة، متبرئاً من
العهد فيها، فإن أكثر أشعاره المذكورة في أخباره ينسبها بعض الرواة إلى غيره
وينسبها من حكيته عنه إليه، وإذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعن
ومتتبع للعيوب.

أخبرني بخبره في شغفه بليلي جماعة من الرواة، ونسخت ما لم أسمعته من
الروايات وجمعت ذلك في سياقة خبره ما اتسق ولم يختلف، فإذا اختلف نسبت
كل رواية إلى راويها.

فمن أخبرني بخبره أحمد بن عبد العزيز الجوهري وحبيب بن نصر المهلبى، قالوا: حدثنا عمر بن شبة عن رجاله وإبراهيم بن أيوب عن ابن قتيبة، ونسخت أخباره من رواية خالد بن كلثوم وأبي عمرو الشيباني وابن دأب وهشام بن محمد الكلبي وإسحاق بن الجصاص وغيرهم من الرواة.

قال أبو عمرو الشيباني وأبو عبيدة: كان المجنون يهوى ليلي بنت مهدي بن سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتكنى أم مالك، وهما حينئذ صبيان، فعلق كل واحد منهما صاحبه وهما يرعيان مواشي أهلها، فلم يزالا كذلك حتى كبرا فحجبت عنه، قال: ويدل على ذلك قوله:

تعلقت ليلي وهي ذات ذؤابة^(٣٣١) ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

وقال ابن الكلبي: كان سبب عشق المجنون ليلي، أنه أقبل ذات يوم على ناقة له كريمة وعليه حلتان من حلل الملوك، فمر بامرأة من قومه يقال لها: كريمة، وعندها جماعة نسوة يتحدثن، فيهن ليلي، فأعجبهن جماله وكماله، فدعونه إلى النزول والحديث، فنزل وجعل يحدثهن وأمر عبداً له كان معه فعقر لهن ناقته، وظل يحدثهن بقية يومه، فيبينا هو كذلك، إذ طلع عليهم فتى عليه بردة من برد الأعراب يقال له: «منازل» يسوق معزى له، فلما رأيته أقبلن عليه وتركن المجنون، فغضب وخرج من عندهن وأنشأ يقول:

أعقر من جرا^(٣٣٢) كريمة ناقتي ووصلي مفروش لوصل منازل

إذا جاء قعقعن الحلي ولم أكن إذا جئت أرضى صوت تلك الخلاخل

متى ما انتضلنا^(٣٣٣) بالسهام نضلته وإن نرم رشقاً^(٣٣٤) عندها فهو ناضلي

قال: فلما أصبح لبس حلتة وركب ناقة له أخرى ومضى متعرضاً لهن، فألفى ليل قاعدة بفناء بيتها وقد علق حبه بقلبها وهويته، وعندها جويريات يتحدثن معها، فوقف بهن وسلم، فدعونه إلى النزول وقلن له: هل لك في محادثة من لا يشغله عنك منازل ولا غيره؟ فقال:

إي لعمرى، فنزل وفعل مثل ما فعله بالأمس، فأرادت أن تعلم، هل لها عنده مثل ما له عندها، فجعلت تعرض عن حديثه ساعة بعد ساعة وتحديث غيره، وقد كان علق بقلبه مثل حبها إياه وشغفته واستملحها، فبينا هي تحدثه، إذ أقبل فتى من الحي فدعته وسارته سراً طويلاً، ثم قالت له: انصرف، ونظرت إلى وجه المجنون قد تغير وانتقع لونه وشق عليه فعلها، فأنشأت تقول:

كلانا مظهر للناس بغضاً وكل عند صاحبه مكين

تبلغنا العيون بما أردنا وفي القلبين ثم هوى دفين

فلما سمع البيتين شهق شهقة شديدة وأغمي عليه، فمكث على ذلك ساعة، ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق وتمكن حب كل واحد منهما في قلب صاحبه حتى بلغ منه كل مبلغ.

وعن أبي الهيثم العقيلي قال: لما شهر أمر المجنون ولىلى وتناشد الناس شعره فيها، خطبها وبذل لها خمسين ناقة حمراء، وخطبها ورد بن محمد العقيلي وبذل لها عشرًا من الإبل وراعيها، فقال أهلها: نحن نخيروها بينكما، فمن اختارت تزوجته، ودخلوا إليها فقالوا: والله لئن لم تختاري وردًا لنمثلن بك، فقال المجنون:

ألا يا ليل إن ملكت فينا خيارك فانظري لمن الخيار

ولا تستبدلي مني دنيًا ولا برماً^(٣٣٥) إذا حث القطار^(٣٣٦)

يهول في الصغير إذا رآه وتعجزه ملمات كبار
فمثل تأيم منه نكاح ومثل تمول منه افتقار
فاختارت وردًا فتزوجته على كره منها.
وقال:

أيا ويح من أمسى تخلص^(٣٣٧) عقله
خليًا من الخلان إلا معذرا^(٣٣٨)
إذا ذكرت ليلي عقلت وراجعت
وقالوا صحيح ما به طيف جنة
وشاهد وجدي دمع عيني وحبها
تجنبت ليلي أن يلج بك الهوى
ألا إنما غادرت يا أم مالك
فلم أر ليلي بعد موقف ساعة
ويدي الحصى منها إذا قذفت به
فأصبحت من ليلي الغداة كناظر
قال أبو الفرج: أنشدني الأخفش عن أبي سعيد السكري عن محمد بن حبيب
للمجنون:

فوالله ثم الله إني لدائب
ووالله ما أدري علام قتلتنني
أأقطع جبل الوصل فالموت دونه
أم اهرب حتى لا أرى لي مجاورًا
فأيهما يا ليل ما ترتضينه
أفكر ما ذنبي إليها وأعجب
وأي أموري فيك ياليل أركب
أم اشرب رنقا منكم ليس يشرب
أم اصنع ماذا أم أبوح فأغلب
فإني لمظلوم وإني لمعتب

وقال:

عرضت على قلبي العزاء فقال لي
إذا بان من تهوى وأصبح نائياً
وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى
دعا باسم ليلي غيرها فكأنما
دعا باسم ليلي ضلل الله سعيه

وقال:

أيا جبلي نعمان بالله خليا
أجد بردها أو تشف مني حرارة
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت

وقال:

أيا حرجات^(٣٤٤) الحى حيث تحملوا
وخيماتك اللاتي بمنعرج اللوى
ندمت على ما كان مني ندامة
فقدتكم من نفس شعاع^(٣٤٦) فإنني
فقرت لي غير القريب وأشرفت^(٣٤٨)

وله:

يا صاحبي ألما بي بمنزلة
إني أرى رجعات الحب تقتلني
لا خير في الحب ليست فيه قارعة
إن قال عداله مهلاً فلان لهم
قد مر حين عليها أيما حين
وكان في بدئها ما كان يكفيني
كأن صاحبها في نزع موتون^(٣٥٠)
قال الهوى غير هذا القول يعنيني

ألقى من اليأس تارات فتقتلني وللرجاء بشاشات فتحيني
وله:

أمستقبلي نفح الصبا ثم شائقي كأن على أنيابها الخمر شجها^(٣٥١)
ببرد ثنايا أم حسان شائق بماء الندى من آخر الليل عاتق^(٣٥٢)
وما شتمته إلا بعيني تفرسًا كما شيم في أعلى السحابة بارق
وروى الأصمعي له قوله:

أخذت محاسن كل ما كاد الغزال يكونها
ضنت محاسنه بحسنه لولا الشوى ونشوز قرنه
قال: وهو القائل:

ولم أر ليلي بعد موقف ساعة ويدي الحصى منها إذا قذفت به
بخيف منى ترمي جمار المحصب فأصبحت من ليلي الغداة كناظر
من البرد أطراف البنان المخضب ألا إنما غادرت يا أم مالك
مع الصبح في أعقاب نجم مغرب صدى أينما تذهب به الريح يذهب
وقال:

يقول أناس علّ مجنون عامر وقد لامني في حب ليلي أقاربي
يروم سلوًا قلت أنى لما بيا يقولون ليلي أهل بيت عداوة
أخي وابن عمي وابن خالي وخاليا ولو كان في ليلي شذاً من خصومة
بنفسي ليلي من عدو وماليا
للويت أعناق المطي الملاويا^(٣٥٣)
وقال:

ألا ما لليلي لا ترى عند مضجعي بليلى وإن عجم الطير تجري إذا جرت
بليلى ولا يجري بذلك طائر بليلى ولكن ليس للطير زاجر

أزالت عن العهد الذي كان بيننا
فوالله ما في القرب لي منك راحة
ووالله ما أدري بأية حيلة
وتالله إن الدهر في ذات بيننا
فلو كنت إذ أزمعت هجري تركنني
ولكن أيامي بحقل^(٣٥٦) عنيزة
وقد أصبح الود الذي كان بيننا
لعمرى لقد رنقت^(٣٥٧) يا أم مالك
وقال:

يا للرجال لهم بات يعرفوني
على غريم مليء^(٣٥٨) غير ذي عدم^(٣٥٩)
لا يذكر البعض من ديني فينكره
وما كشكري شكر لو يوافقني
أطعته وعصيت الناس كلهم
خيري لمن يتبغي خيري ويأمله
وما أشارك في رأيي أخا ضعف^(٣٦١)
وله:

ألا أيها البيت الذي لا أزوره
هجرتك إشفافاً وزرتك خائفاً
سأستعب الأيام فيك لعلها
وإن حله شخص إليّ حبيب
وفيك عليّ الدهر منك رقيب
بيوم سرور في الزمان تتوب
وبلغ المجنون أن أهل ليلي يريدون نقلها إلى الثقيفي فقال:

كأن القلب ليلة قيل يغدى
 قطاة عزها شرك فباتت
 فلما نقلت ليل إلى الثقيفي قال:
 طربت وشاقتك الحمول^(٣٦٣) الدوافع
 شحا^(٣٦٥) فاه نعباً^(٣٦٦) بالفراق كأنه
 فقلت ألا قدين^(٣٦٨) الأمر فانصرف
 سقيت سموما من غراب فإنني
 ألم تر أني لا محب ألومه
 ألم تر دار الحي في رونق الضحى
 وقد يتناهى الإلف من بعد ألفه
 وكم من هوى^(٣٧٠) أو جيرة قد ألفتهم
 كأني غداة البين ميت جوبة^(٣٧١)
 تحلس^(٣٧٢) من أو شال^(٣٧٣) ماء صباية
 ويبض تطلّى بالعبير كأنها
 تحملن من وادي^(٣٧٧) الأراك فأومضت
 فما^(٣٧٨) رمن ربع الدار حتى تشابهت
 وحتى حملن الحور^(٣٨١) من كل جانب
 فلما استوت تحت الخدور وقد جرى
 أشرن بأن حثوا الجمال فقد بدا
 فلما لحقنا بالحمول تباشرت
 يعرضن بالدل المليح وإن يرد
 بليلى العامرية أو يراح
 تجاذبه وقد علق الجناح
 غداة دعا بالبين أسفع^(٣٦٤) نازع
 حريب^(٣٦٧) سليب نازح الدار جازع
 فقد راعنا بالبين قبلك رائع
 تبينت ما خبرت مذ أنت واقع
 ولا يبدل بعدهم أنا قانع
 بحيث انحنت للهضبتي^(٣٦٩) الأجارع
 ويصدع ما بين الخليطين صادع
 زماناً فلم يمنعهم البين مانع
 أخو ظمأ سدت عليه المشارع
 فلا الشرب مبذول ولا هو نافع^(٣٧٤)
 نعاج الملا^(٣٧٥) جيبت^(٣٧٦) عليها البراقع
 لهن بأطراف العيون المدامع
 هجائنها^(٣٧٩) والجون منها الخواضع^(٣٨٠)
 وخاضت سدول^(٣٨٢) الرقم منها الأكارع^(٣٨٣)
 عبير ومسك بالعرانين رادع^(٣٨٤)
 من الصيف يوم لافح الحر ماتع^(٣٨٥)
 بنا مقصرات^(٣٨٦) غاب عنها المطامع
 جناهن مشغوف فهن موانع

فقلت لأصحابي ودمعي مسبل وقد صدع الشمل المشتت صادع

أليلى بأبواب الخدور تعرضت لعيني أم قرن من الشمس طالع

وروي أن أبا المجنون حج به ليدعو الله عز وجل في الموقف أن يعافيه، فسار
ومعه ابن عمه زياد بن كعب بن مزاحم، فمر بحمامة تدعو^(٣٨٧) على أيكّة فوقف
يبكي، فقال له زياد: أي شيء هذا؟ ما يبكيك أيضًا؟ سر بنا لنحق الرفقة، فقال:

أأن هتفت يومًا بواد حمامة بكيت ولم يعذر بك بالجهل عاذر

دعت ساق^(٣٨٨)، حر بعد ما علت الضحى فهاج لك الأحزان أن ناح طائر

تغني الضحى والصبح في مرجحة^(٣٨٩) كثاف الأعالى تحتها الماء حائر^(٣٩٠)

كأن لم يكن بالغيل^(٣٩١)، أو بطن أيكّة^(٣٩٢) أو الجزع^(٣٩٣) من تول الأشياء^(٣٩٤) حاضر

يقول زياد إذ رأى الحي هجروا^(٣٩٥) أرى الحي قد ساروا فهل أنت سائر

وإني وإن غال^(٣٩٦) التقادم حاجتي ملّم على أوطان ليلى فناظر

كان المجنون وليلى وهما صبيان يرعيان غنماً لأهلها عند جبل في بلادهما
يقال له التوباد^(٣٩٧)، فلما ذهب عقله وتوحش، كان يجيء إلى ذلك الجبل فيقيم
به، فإذا تذكر أيام كان يطيف هو وليلى به جزع جزعاً شديداً واستوحش فهام
على وجهه حتى يأتي نواحي الشام، فإذا ثاب إليه عقله رأى بلداً لا يعرفه فيقول
للناس الذين يلقاهم: بأبي أنتم، أين التوباد من أرض بني عامر؟ فيقال له:
وأين أنت من أرض بني عامر! أنت بالشام عليك بنجم كذا فأمه، فيمضي على
وجهه نحو ذلك النجم حتى يقع بأرض اليمن، فيرى بلداً ينكرها وقومًا لا
يعرفهم فيسألهم عن التوباد وأرض بني عامر، فيقولون: وأين أنت من أرض
بني عامر! عليك بنجم كذا وكذا، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوباد، فإذا
رآه قال في ذلك:

وأجهشت^(٣٩٨) للتوبادحين رأيته وكبر للرحمن حين رأيته
وأذريت دمع العين لما عرفته ونادى بأعلى صوته فدعاني
فقلت له قد كان حولك جيرة وعهدي بذاك الصرم منذ زمان
فقال مضوا واستودعوني بلادهم ومن ذا الذي يبقى على الحدثان
وإني لأبكي اليوم من حذري غداً فراقك والحيان مجتمعان
سجالاً وتهتأناً^(٣٩٩) ووبلاً وديمة وسحاً وتسجماً^(٤٠٠) إلى هملان^(٤٠١)

وكان المجنون يسير مع أصحابه فسمع صائحاً يصيح: يا ليلي في ليلة ظلماء
أو توهم ذلك، فقال لبعض من معه: أما تسمع هذا الصوت؟ فقال: ما سمعت
شيئاً، قال: بلى، والله هاتف يهتف بليلى، ثم أنشأ يقول:

أقول لأذنى صاحبي كليمه أسرت من الأقصى أجب ذا المناديا
إذا سرت في الأرض الفضاء رأيتني أصانع رحلي^(٤٠٢) أن يملي حيايالا
يميناً إذا كانت يميناً وإن تكن شمالاً ينازعني الهوى عن شماليها

خطب ليلي صاحبة المجنون جماعة من قومها فكرهتهم، فخطبها رجل من
ثقيف موسر فرضيته، وكان جميلاً فتزوجها وخرج بها، فقال المجنون في ذلك:

ألا إن ليلي كالمنيحة^(٤٠٣) أصبحت تقطع إلا من ثقيف حباليها
فقد حبسوها محبس البدن وابتغى بها الربح أقوام تساحت^(٤٠٤) مالها
خليلي هل من حيلة تعلمانها يدني لنا تكليم ليلي احتيالها
فإن أنتم لم تعلمانها فلستما بأول باغ حاجة لا ينالها
كأن مع الركب الذين اغتدوا بها غمامة صيف زعزعتها شماليها
نظرت بمفضي سيل جوشن^(٤٠٥) إذ غدوا تحب بأطراف المخارم^(٤٠٦) آلهها
بشافية الأحزان هيح شوقها مجامعة الآلاف ثم زيالها

إذا التفتت من خلفها وهي تعتلي بها العيس جلى عبرة العين حالها
وله:

وأحبس عنك النفس والنفس صبة بذكراك والممشى إليك قريب
مخافة أن تسعى الوشاة بظنة وأحرسكم أن يستريب مريب
فقد جعلت نفسي - وأنت اجترمت وكنت أعز الناس - عنك تطيب
فلو شئت لم أغضب عليك ولم يزل لك الدهر مني ما حييت نصيب
أما والذي يبلو السرائر كلها ويعلم ما تبدي به وتغيب
لقد كنت ممن تصطفي النفس خلة لها دون خلان الصفاء حجب
قيس بن ذريح^(٤٠٧)

من شعر قيس:

يقولون لبنى فتنة كنت قبلها بخير فلا تندم عليها وطلق
فظاوت أعدائي وعاصيت ناصحي وأقررت عين الشامت المتخلق
وددت وبيت الله أني عصيتهم وحملت في رضوانها كل موبق
وكلفت خوض البحر والبحر زاهر أبيت على أثباج موج مغرق
كأنى أرى الناس المحبين بعدها عصارة ماء الحنظل المتفلق
فتنكر عيني بعدها كل منظر ويكره سمعي بعدها كل منطق
وخرج قيس في فتية من قومه واعتل على أبيه بالصيد، فأتى بلاد لبنى، فجعل
يتوقع أن يراها أو يرى من يرسل إليها، فاشتغل الفتيان بالصيد، فلما قضوا
وطرهم منه رجعوا إليه وهو واقف، فقالوا له: قد عرفنا ما أردت بإخراجنا
معك وأنك لم ترد الصيد وإنما أردت لقاء لبنى وقد تعذر عليك، فانصرف
الآن؛ فقال:

وما حائمت حمن يومًا وليلة
عوافي لا يصدرن عنه لوجهة
يرين حباب الماء والموت دونه
بأجهد مني حر شوق ولوعة
خليلي إني ميت أو مكلم
أنل حاجتي وحدي ويارب حاجة
فلإني أحق الناس ألا تحاورا
ومن قاذني للموت حتى إذا صفت
فأقاموا معه حتى لقيها.

لما ألح ذريح على ابنه قيس في طلاق لبني فأبى ذلك قيس، طرح ذريح نفسه في الرمضاء وقال: لا والله لا أريم هذا الموضع حتى أموت أو يخليها، فجاءه قومه من كل ناحية فعظموا عليه الأمر وذكروه بالله وقالوا: أتفعل هذا بأبيك وأملك! إن مات شيخك على هذه الحال كنت معينًا عليه وشريكًا في قتله، ففارق لبني على رغم أنفه وقلة صبره وبكاء منه حتى بكى لهما من حضرهما؛ وأنشأ يقول:

أقول لخلتي في غير جرم
فوالله العظيم لنزع نفسي
أحب إليّ يا لبني فراقًا
ظلمتك بالطلاق بغير جرم
ألا بيني، بنفسي أنت، بيني
وقطع الرجل مني واليمين
فبكي للفراق وأسعديني
فقد أذهبت آخرتي وديني
قال: فلما سمعت بذلك لبني بكت بكاء شديدًا، وأنشأت تقول:
رحلت إليه من بلدي وأهلي فجازاني جزاء الخائنين

فمن راني فلا يغتر بعدي بحلو القول أو يبلو الدفينا
فلما انقضت عدتها وأرادت الشخوص إلى أهلها أتيت براحلة لتحمل
عليها، فلما رأى ذلك قيس داخله أمر عظيم واشتد لهفه، وأنشأ يقول:

بانث لبني فأنت اليوم متبول	وإنك اليوم بعد الحزم مخبول
فأصبحت عنك لبني اليوم نازحة	ودل لبني - لها الخيرات معسول
هل ترجعن نوى لبني بعاقبة	كما عهدت ليالي العشق مقبول
وقد أراني بلبني حق مقتنع	والشمل مجتمع والحبل موصول
فصرت من حب لبني حين أذكرها	القلب مرتهن والعقل مدخول
أصبحت من حب لبني بل تذكرها	في كربة فقوادي اليوم مشغول
والجسم مني منهوك لفرقتها	يريه طول سقام فهو منحول
كأنني يوم ولت ما تكلمني	أخو هيام مصاب القلب مسلول
أستودع الله لبني إذ تفارقني	عن غير طوع وأمر الشيخ مفعول

ثم ارتحلت لبني، فجعل قيس يقبل موضع رجليها من الأرض وحول
خبائها، فلما رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعدل واللوم، فقال ذريح لما رأى
حاله تلك: قد جنيت عليك يا بني؛ فقال له قيس: قد كنت أخبرك أني مجنون بها
فلم ترض إلا بقتلي، فالله حسبك وحسب أمي. وأقبل قومه يعذلونه في تقبيل
التراب، فأنشأ يقول:

فما حبي لطيب تراب أرض ولكن حب من وطئ الترابا
فهذا فعل شيخينا جميعاً أرادا لي البلية والعذابا
وله قصيدة طويلة في تطليقه لبني يقول فيها:
فواكبدي وعاولدني رداعي^(٤٠٨) وكان فراق لبني كالجداع^(٤٠٩)

تكنفني الوشاة فأزعجونني فيا لله للواشي المطاع
فأصبحت الغداة ألوم نفسي على شيء وليس بمستطاع
كمغبون يعرض على يديه تبين غبنه بعد البيع
بدار مضیعة تركتك لبنی كذاك الحين يهدي للمضاع
وقد عشنا نلذ العيش حيناً لو ان الدهر للإنسان واعی
ولكن الجميع إلى افتراق وأسباب الختوف لها دواعي
واجتمع إليه نسوة فأطلن الجلوس عنده وحادثنه وهو ساه عنهن، ثم نادى:
يا لبنی، فقلن له: ما لك ويحك؟ فقال: خدرت رجلی ويقال: إن دعاء الإنسان
باسم أحب الناس إليه يذهب خدر الرجل، فناديتها لذلك. وقال:

إذا خدرت رجلی تذكرت من لها فناديت لبنی باسمها ودعوت
دعوت التي لو أن نفسي تطيعني لفارقتها من حبها وقضيت
برت نبلها للصيد لبنی وريشت وريشت أخرى مثلها وبريت
فلما رمتني أقصدتني بسهمها وأخطأتها بالسهم حين رميت
وفارقت لبنی ضلة فكأنني قربت إلى العیوق^(١٠) ثم هويت
فيا ليت أني مت قبل فراقها وهل ترجعن فوت القضية ليت
فصرت وشيخي كالذي عثرت به غداة الوغی بين العداة كमित
فقامت ولم تضرر هزلاً سوىة وفارسها تحت السنابك ميت
فإن يك تهيامي بلبنی غواية فقد يا ذريح بن الحباب غويت
فلا أنت ما أملت في رأيته ولا أنا لبنی والحياة حويت
فوطن لهلكي منك نفساً فإنني كأنك بي قد يا ذريح قضيت
ومرض قيس، فسأل أبوه فتيات الحي أن يعدنه ويحدثنه أو يعلق بعضهن،

ففعّل ذلك، ودخل إليه طبيب ليداويه والفتيات معه، فلما اجتمعن عنده جعلن يحادثنه وأطلن السؤال عن سبب علته، فقال:

تعلق روحي روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافاً وفي المهد
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً وليس إذا متنا بمنصرم العهد
ولكنه باق على كل حادث وزائرنا في ظلمة القبر واللحد
فقال له الطبيب: إن مما يسليك عنها أن تتذكر ما فيها من المساوئ والمعائب،
فإن النفس تنبو حينئذ وتسلو ويخف ما بها.

فلما طال على قيس ما به أشار قومه على أبيه بأن يزوجه امرأة جميلة فلعله
يسلو بها عن لبنى، فدعاه إلى ذلك فأباه وقال:

لقد خفت ألا تقنع النفس بعدها بشيء من الدنيا وإن كان مقنعاً
وأزجر عنها النفس إذ حيل دونها وتأبى إليها النفس إلا تطلعاً
ولما تزوجت لبنى بآخر أتى موضع خبائها فنزل عن راحلته وجعل
يتمعك^(٤١١) موضعها ويمرغ خده على تراها ويبيكي أحر بكاء ثم قال:

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا إلى الله فقد الوالدين يтим
يقيم جفاه الأقربون فجسمه نحيل وعهد الوالدين قديم
بكت دارهم من نأيمهم فتهللت دموعي فأبي الجازعين ألوم
أستعبر بيكي من الشوق والهوى أم آخر بيكي شجوه ويهيم
تهبطني من حب لبنى علائق وأصناف حب هولهن عظيم
ومن يتعلق حب لبنى فؤاده يمت أو يعيش ما عاش وهو كليم
فإني وإن أجمعت عنك تجلداً على العهد فيما بيننا لمقيم
وإن زماناً شئت الشمل بيننا وبينكم فيه العدا لمشوم

أفي الحق هذا أن قلبك فارح صحيح وقلبي في هواك سقيم
وقال في رحيل لبني عن وطنها وانتقالها إلى زوجها بالمدينة وهو مقيم في
حيها:

بانت لبيني فهاج القلب من بانا وكان ما وعدت مطلا وليانا^(٤١٢)
وأخلفتك منى قد كنت تأملها فأصبح القلب بعد البين حيرانا
الله يدري وما يدري به أحد ماذا أجمجم من ذكراك أحيانا
يا أكمل الناس من قرن إلى قدم وأحسن الناس ذا ثوب وعريانا
نعم الضجيع بعيد النوم تجلبه إليك ممتلئاً نوماً ويقظانا
لا بارك الله فيمن كان يحسبكم إلا على العهد حتى كان ما كانا
حتى استفتت أخيراً بعد ما نكحت فبت للشوق أذري الدمع تهتانا
إن تصرمي الحبل أو تسمي مفارقة فالدهر يحدث للإنسان ألوانا
وما أرى مثلكم في الناس من بشر فقد رأيت به حياء ونسوانا
وشكا أبو لبني لمعاوية تعرض قيس لابتته بعد طلاقها، فكتب معاوية إلى
الأمير يهدر دمه إن ألم بها، وأن يشتد في ذلك؛ فكتب مروان في ذلك إلى صاحب
الماء الذي ينزله أبو لبني كتاباً وكيداً، ووجهت لبني رسولا إلى قيس تعلمه ما
جرى وتحذره؛ وبلغ أباه الخبر، فعاتبه وتجهمه، وقال له: انتهى بك الأمر إلى أن
يهدر السلطان دمك؛ فقال:

فإن يحجوها أو يحل دون وصلها مقالة واش أو وعيد أمير
فلن يمنعوا عيني من دائم البكا ولن يذهبوا ما قد أجن ضميري
إلى الله أشكو من ألاقي من الهوى ومن حرق تعتادني وزفير
ومن حرق للحب في باطن الحشى وليل طويل الحزن غير قصير

سأبكي على نفسي بعين غزيرة بكاء حزين في الوثاق أسير
وكنا جميعاً قبل أن يظهر الهوى بأنعم حالي غبطة وسرور
فما برح الواشون حتى بدت لهم بطون الهوى مقلوبة لظهور
لقد كنت حسب النفس لودام وصلنا ولكنما الدنيا متاع غرور
وقال في إهدار معاوية دمه إن هو زارها:

إن تك لبنى قد أتى دون قربها حجاب منيع ما إليه سبيل
فإن نسيم الجو يجمع بيننا ونبصر قرن الشمس حين تزول
وأرواحنا بالليل في الحي تلتقي ونعلم أيًا بالنهار نقيـل
وتجمعنا الأرض القرار وفوقنا سماء نرى فيها النجوم تجول
إلى أن يعود الدهر سلمًا وتنقضي ترات بغاها عندنا وذحول^(٤١٣)
ولما انصرف الناس من الحج مرض قيس مرضًا شديدًا فلم يأته رسولها
عائدًا، فقال:

ألبنى لقد حلت عليك مصيبي غداة غد إذ حل ما أتوقع
تمنيني نيلًا وتلويني قلى فنفسي شوقًا كل يوم تقطع
وقلبك قط لا يلين لما يرى فوا كبدي قد طال هذا التضرع
ألومك في شأني وأنت مليمة لعمرى وأجفى للمحب وأقطع
أخبرت أني فيك ميت حسرتي فما فاض من عينيك للوجد مدمع
ولكن لعمرى قد بكيتك جاهدًا وإن كان دائي كله منك أجمع
صبيحة جاء العائدات يعدني فظلت علي العائدات تفجع
فقائلة جننا إليه وقد قضى وقائلة لا بل تركناه ينزع
فما غشيت عينيك من ذاك عبرة وعيني على ما بي بذكراك تدمع

إذا أنت لم تبكي علي جنازة
ومن شعره قوله:

أتبكي علي لبني وأنت تركتها
فإن تكن الدنيا بلبني تقلبت
لقد كان فيها للأمانة موضع
وللحائم العطشان ري بريقها
كأنني لها أرجوحة بين أحبل
وقوله:

لقد عذبتني يا حب لبني
فإن الموت أروح من حياة
وقال الأقربون تعز عنها
وقالت له لبني: أنشدني ما قلت في علتك، فأنشدها قوله:

أعالج من نفسي بقايا حشاشة
فإن ذكرت لبني هششت لذكرها
أجيب بلبني من دعائي تجلداً
تعيد إلى روحي الحياة وإنني
وفيها يقول:

ألا ليت أياماً مضين تعود
سقى دار لبني حيث حلت وخيمت
على كل حال إن دنت أو تباعدت
فلا اليأس يسليني ولا القرب نافعي
فإن عدن يوماً إنني لسعيد
من الأرض منهل الغمام رعيد
فإن تدن منا فالدنو مزيد
ولبني منوع ما تكاد تجود

كأني من لبنى سليم مسهد يظل على أيدي الرجال يמיד
رمتني لبنى في الفؤاد بسهمها وسهم لبنى للفؤاد صيود
سلا كل ذي شجو علمت مكانه وقلبي للبنى ما حييت ودود
وقائلة قد مات أو هو ميت وللنفس مني أن تفيض رصيد
وعاتبته على تزوجه، فحلف أنه لم ينظر إليها ملء عينيه، ثم قال:

ولقد أردت الصبر عنك فعاقني علق بقلبي من هواك قديم
يبقى على حدث الزمان وريبه وعلى جفائك إنه لكريم
فصرته وصححت وهو بدائه شتان بين مصحح وسقيم
وأريته زمناً فعاذ بحلمه إن المحب عن الحبيب حليم
فلم يزل معها يحدثها ويشكو إليها حتى أمسى، فانصرفت ووعدته الرجوع
إليه من غد فلم ترجع، وشاع خبره، فلم ترسل إليه رسولاً، فكتب هذين
البيتين:

بنفسي من قلبي له الدهر ذاكر ومن هو عني معرض القلب صابر
ومن حبه يزداد عندي جدة وحبى لديه مخلق العهد دائر
وقال ابن أبي عتيق لقيس يوماً: أنشدني أحر ما قلت في لبنى؛ فأنشده:
وإني لأهوى النوم في غير حينه لعل لقاء في المنام يكون
تحدثني الأحلام أني أراكم فيا ليت أحلام المنام يقين
شهدت بأنني لم أحل عن مودة وأني بكم لو تعلمين ضنين
وأن فؤادي لا يلين إلى هوى سواك وإن قالوا بلى سيلين
وقال عبد الملك بن عبد العزيز: أنشدت أبا السائب المخزومي قول قيس:
أحبك أصنافاً من الحب لم أجد لها مثلاً في سائر الناس يوصف

فمنهن حب للحبيب ورحمة
ومنهن ألا يعرض الدهر ذكرها
وحب بدا بالجسم والله ظاهر
وقصيدة^(٤١٥) قيس العينية من جيد شعره وهي:

عفا سرف من أهله فسراوع
فغيقة فالأخفاف أخفاف ظبية
لعل لبني أن يحم لقاءها
بجزع^(٤١٩) من الوادي خلاء أنيسه
ولما بدا منها الفراق كما بدا
تمنيت أن تلقى لبناك، والمنى
وما من حبيب وامق لحبيه
وطار غراب البين وانشقت العصا^(٤٢١)
ألا يا غراب البين قد طرت بالذي
وإنك لو أبلغتها قيلك اسملي
أتبكي على لبني وأنت تركتها
فلا تبكين في إثر شيء ندامة
فليس لأمر حاول الله جمعه
كأنك لم تغنه إذا لم تلاقها
فيا قلب خبرني، إذا شطت^(٤٢٤) النوى
أتصبر للبين المشت مع الجوى
فما أنا إن بانت لبيني بهاجع

فجنبنا أريك فالتلاع الدوافع^(٤١٦)
بها من لبني مخرف ومرايع^(٤١٧)
يبعض البلاد إن ما حم^(٤١٨) واقع
عفا وتخطته العيون الخوادم
بظهر الصفا الصلد الشقوق الشوائع^(٤٢٠)
تعاصيك أحياناً وحيناً تطاوع
ولا ذي هوى إلا له الدهر فاجع
يبين كما شق الأديم الصوانع
أحاذر من لبني فهل أنت واقع
طوت حزناً وارفض^(٤٢٢) منها المدامع
وكنت كآت غيه وهو طائع
إذا نزعته من يديك النوازع
مشت^(٤٢٣) ولا ما فرق الله جامع
وإن تلقها فالقلب راض وقانع
بلبني وصدت عنك، ما أنت صانع
أم أنت امرؤ ناسي الحياء فجازع
إذا ما استقلت بالنيام المضامع

وكيف ينام المرء مستشعر الجوى
فلا خير في الدنيا إذا لم تواتنا
أليست لبني تحت سقف يكنها
ويلبسنا الليل البهيم إذا دجا^(٤٢٦)
تطأ تحت رجليها بساطاً^(٤٢٧) وبعضه
وأفرح إن تسي بخير وإن يكن
كأنك بدع لم تر الناس قبلها
فقد كنت أبكي والنوى مطمئنة
وأهجر كم هجر البغيض وحبكم
وأعجل للإشفاق حتى يشفني
وأعمد للأرض التي من ورائكم
فيا قلب صبراً واعتراً^(٤٢٩) لما ترى
لعمري لمن أمسى وأنت ضجيعه
ألا تلك لبني قد تراخى مزارها
إذا لم يكن إلا الجوى فكفى به
أبائنة لبني ولم تقطع المدى
يظل نهار الواهين نهاره
سواي فليلي من نهاري وإنما
ولولا رجاء القلب أن تعطف النوى
له وجبات^(٤٣١) إثر لبني كأنها
نهاري نهار الناس حتى إذا دجا

ضجيع الأسى فيه نكاس روادع^(٤٢٥)
لبيني ولم يجمع لنا الشمل جامع
وإياي هذا إن نأت لي نافع
ونبصر ضوء الصبح والفجر ساطع
أطاه برجلي ليس يطويه مانع
بها الحدث الغادي ترعني الروائع^(٤٢٨)
ولم يطلعك الدهر فيمن يطالع
بنا وبكم من علم ما بين صانع
على كبدي منه كلوم صوادع
مخافة شحط الدار والشمل جامع
ليرجعني يوماً عليك الروائع
ويا حبها قع بالذي أنت واقع
من الناس ما اختيرت عليه المضاجع
وللبين غم ما يزال ينازع
جوى حرق قد ضمنتها الأضالع
بوصل ولا صرم فيأس طامع
وتهدنه^(٤٣٠) في النائمين المضاجع
تقسم بين الهالكين المصارع
لما حملته بينهن الأضالع
شقائق برق في السحاب لوامع
لي الليل هزنتي إليك المضاجع

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى
وقد نشأت في القلب منك مودة
أبى الله أن يلقي الرشاد متيم
هما برحا بي معولين كلاهما
إذا نحن أنفدنا البكاء عشية
وللحب آيات تبين بالفتى
وما كل ما منتك نفسك خاليًا
تداعت له الأحزان من كل وجهة
وجانب قرب الناس يخلو بهم
أراك اجتنبت الحي من غير بغضة
كأن بلاد الله ما لم تكن بها
ألا إنما أبكي لما هو واقع
أحال علي الدهر من كل جانب
فمن كان محزونًا غدًا لفراقنا

ويجمعني بالليل والهـم جامع
كما نشأت في الراحتين الأصابع
ألا كل أمر حم لا بد واقع
فؤاد وعين ما قها^(٤٣٢) الدهر داعم
فم وعدنا قرن من الشمس طالع
شحب وتعرى من يديه الأشجاع^(٤٣٣)
تلاقي ولا كل الهوى أنت تابع
فحن كما حن الظؤار السواجع^(٤٣٤)
وعاوده فيها هيام مراجع
ولو شئت لم تنجح إليك الأصابع
وإن كان فيها الخلق قفر بلاقع
وهل جزع من وشك بينك نافع
ودامت ولم تقلع علي الفواجع
فمِلَّآن فليبكي لما هو واقع

(٢) الشعر السياسي

أوضحنا لك في المجلد الأول ما لاستعمال الشعر من أثر في كثير من الحركات السياسية واستحداث العزمات وإنهاض الهمم في الانقلابات الاجتماعية، وبيننا ميزة استعمال الشعر في الأغراض السياسية في عصر الدولة الأموية، وذكرنا عدة أمثلة تبين ما وصل إليه هذا النوع الطريف، ووعدناك بذكر قصيدة النعمان بن بشير في هذا الباب. وها هي ذي:

النعمان بن بشير^(٤٣٥)

قال أبو الفرج الأصفهاني:

لما كثر الهجاء بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاصي وتفاحشا، كتب معاوية إلى سعيد بن العاصي، وهو عامله على المدينة، أن يجلد كل واحد منهما مائة سوط، وكان ابن حسان صديقاً لسعيد وما مدح أحداً غيره قط، فكره أن يضربه أو يضرب ابن عمه، فأمسك عنهما؛ ثم ولي مروان، فلما قدم أخذ ابن حسان فضربه مائة سوط ولم يضرب أخاه، فكتب ابن حسان إلى النعمان بن بشير وهو بالشأم، وكان كبيراً أثيراً^(٤٣٦) مكيئاً عند معاوية، قال:

ليت شعري أغائب أنت بالشا	م خليلي أم راقد نعمان
أية ما يكن فقد يرجع الغا	ئب يوماً ويوقظ الوسنان
إن عمراً وعامراً أبونا	وحراماً قدماً على العهد كانوا
أفهم مانعوك أم قلة الكت	اب أم أنت عاتب غضبان

أم جفاء أم أعوزتك القراط
يوم أنبت أن ساقى رضى
ثم قالوا إن ابن عمك في بلد
فنسيت الأرحام والود والصحة
إنما الرمح فاعلمن قناة
قال أبو الفرج الأصبهاني:

دخل النعمان بن بشير على معاوية لما هجا الأخطل الأنصار، فلما مثل بين يديه أنشأ يقول:

معاوي إلا تعطنا الحق تعترف
أيشتمنا عبد الأراقم^(٤٣٧) ضلة
فما لي ثار دون قطع لسانه
وراع رويداً لا تسمنا دنية
متى تلق منا عصبه خزرجية
وتلقاك خيل كالقطا مستطيرة
يسومها العمران: عمرو بن عامر
ويبدو من الخود العزيزة حجلها
فتطلب شعب الصدع بعد التثامه
وإلا فثوبي لأمة تبعية
وأسمر خطي كأن كعوبه
فإن كنت لم تشهد بيدر وقية
فسائل بنا حيي لؤي بن غالب

لحى الأزد مشدوداً عليها العمائم
وماذا الذي تجدي عليك الأراقم
فدونك من يرضيه عنك الدراهم
لعلك في غب الحوادث نادم
أو الأوس يوماً تحترمك المخارم
شماطيط^(٤٣٨) أرسل عليها الشكائم^(٤٣٩)
وعمران حتى تستباح المحارم
وتبيض من هول السيوف المقادم
فتغريه فالآن والأمر سالم
تواريث آبائي وأبيض صارم
نوى القسب فيها لهزمي خثارم
أذلت قريشاً والأنوف رواعم
وأنت بما يخفى من الأمر عالم

ألم تبدر يوم بدر سيوفنا
ضربناكم حتى تفرق جمعكم
وعاذت على البيت الحرام عرائس
وعضت قريش بالأنامل بغضة
فكنا لها في كل أمر نكيده
فما إن رمى رام فأوهى صفاتنا
وإني لأغضي عن أمور كثيرة
أصانع فيها عبد شمس وإنني
فما أنت والأمر الذي لست أهله
إليهم يصير الأمر بعد شتاته
بهم شرع الله الهدى فاهتدى بهم
فلما بلغت القصيدة معاوية أمر بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانه، فاستجار
ببزييد بن معاوية، فمنعه منه، وأرضى النعمان حتى كف عنه.

وقال عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه: لما ضرب مروان بن الحكم
عبد الرحمن بن حسان الحد، ولم يضرب أخاه حين تهاجيا وتقاذفا، كتب عبد
الرحمن إلى النعمان بن بشير يشكو إليه، فدخل إلى معاوية، وأنشأ يقول:

يابن أبي سفيان ما مثلنا
أذكر بنا مقدم أفراسنا
واذكر غداة الساعدي الذي
فاحذر عليهم مثل بدر وقد
إن ابن حسان له ثائر
فأعطه الحق تصح الصدور

ومثل أيام لنا شتت	ملكاً لكم أمرك فيها صغير
أما ترى الأزد وأشياعها	تجول خزرًا كاظمات تزيّر
يصول حولي منهم معشر	إن صلت صالوا وهم لي نصير
يأبى لنا الضيم فلا يعتلي	عز منيع وعديد كثير
وعنصر في عز جرثومة	عادية تنقل عنها الصخور

هوامش:

(١) هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي المخزومي، أشعر قريش وأرق أصحاب الغزل، وأوصف الشعراء لأحوال النساء.

ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب رضوان الله عليه، وكانت أمه نصرانية، وكان أبوه تاجرًا موسرًا، وعاملاً لرسول الله ﷺ وللخلفاء الثلاثة من بعده، فشب في نعيم وترف، وقال الشعر صغيرًا، وسلك فيه طريق الغزل، ووصف أحوال النساء وتزاورهن ومداعبة بعضهن البعض، وما يعتدن قوله من الكلام، مما يتوقر الشعراء الفحول عن الخوض فيه، ولذلك لم يخفلوا بشعره وعدوه من هذيان خلعاء المدينة، فما زال يعالج الشعر والشعر ينقاد له، حتى ملك ناصيته، وقبض على زمامه، وبز الشعراء، وقال رائيته المشهورة على طريقته المبتكرة وهي التي أولها:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر

غداة غد أم رائح فمهجر

والتي قال فيها جرير حين سمعها: ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر. ثم استطار شره في التشبيب بالنساء: من يعرفها ومن لا يعرفها، وتعرض للمحصنات المتعفات من نساء قومه ومن غيرهن، فوقعن منه في بلاء عظيم وصرن يخفن الخروج إلى الحج لأنه كان يتلقاهن بمكة، ويتربح خروجهن للطواف والسعي ويصفهن وهن محرمات. وحلمت عليه رجالات قريش لمكانة نسبه منهم ولترقب توبته وإقلاعه، فلما تمادى في أمره وشب بينات السادات والخلفاء، غضب عليه عمر بن عبد العزيز ونفاه إلى دهلك: (وهي جزيرة أمام مدينة مصوع)، ثم رأى ابن أبي ربيعة أن يكفر عن سيئاته بالتوبة والجهاد فعزا في البحر فاحترقت السفينة التي كان فيها واحترق هو أيضًا سنة ٩٣هـ، وقد اقتبسنا تصدير بحثنا عنه عن أبي الفرج الأصفهاني، وتجد ترجمته مطولة في الأغاني ج ١ ص ٦١-٢٤٨ (طبعة دار الكتب المصرية) والشعر والشعراء ص ٣٤٨ وابن خلكان (ج ١ ص ٧٨٣) والدميري (ج ١ ص ٣٢٦) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١٣٢) وله ديوان مطبوع في لبيز سنة ١٨٩٣ وفي مصر سنة ١٣١١ ومنه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية.

(٢) المراد من شدة الأسر هنا إحكام النسج ومثانة التركيب.

(٣) أكل: أعياء، وأوضع: أسرع في السير.

(٤) الرئم: الظبي.

(٥) عوجا: قفا.

(٦) المحول والمحيل: الذي أتت عليه أحوال كثيرة فغيرته.

(٧) البوابة: الفلاة واسم لصحراء بأرض تهامة إذا خرجت من أعالي وادي النخلة اليمانية وهي بلاد بني سعد بن بكر بن هوازن. (معجم البلدان لياقوت).

(٨) هي الثريا ابنة عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس بن عبد مناف الأموية.

تزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري رضي الله عنه ونقلها إلى مصر فقال عمر هذا الشعر.

(٩) البلي - بضم وفتح وياء مشددة: تل قصير أسفل حاذة بينها وبين ذات عرق (ياقوت).

(١٠) استقلوا: واصلوا السير وجدوا في الارتحال.

(١١) يقال: دمثت الأرض دماثة: سهلت ولانت.

(١٢) انبت: انقطع.

(١٣) المراد أن الرجال قد أفاقوا واستحكمت عزائمهم وهو يريد أن يسلو سلوكهم.

(١٤) زع النفس، أي ازجرها وكفها عن هواها.

(١٥) أي من يقيم في البدو والحضر.

(١٦) المراد به قرن المنازل، وكثيرًا ما يذكره في شعره.

(١٧) جهيز: سريع.

(١٨) العصم: جمع أعصم وهو من الظباء والوعول ما في ذراعيه بياض، وهي تعتصم غالبًا

بقنن الجبال.

(١٩) الغمر (بكسر الغين): الحقد والغل. والغمر (بفتح الغين): الماء الكثير، وكلا المعنيين

يحتمله البيت.

(٢٠) عدلت: ساوت.

(٢١) أي غلبتني صديقتي في الخطاب، قال تعالى: وَعَزَّيْ فِي الْخُطَابِ.

(٢٢) يريد: حسبي غالبًا لكل خصم سواها إلى حد هلاكي.

(٢٣) يقال: رحل فلان فلانًا بما يكره، والمراد أنه يثقله بإسماعه إياه.

(٢٤) يدمل: يطوي. قال في اللسان: ويقال: ادمل القوم، أي اطوهم على ما فيهم.

(٢٥) يكني بهذا عن الوقوع في شركها.

(٢٦) النوار: النافرة من الظباء.

(٢٧) لم أنبل: لم أصب، أو لم أحسن الرمي.

(٢٨) عارم: حاد.

(٢٩) السجف: الستر.

(٣٠) كناية عن طول العنق، وبه فسر في المثل السائر (طبعة بولاق ص ٣٨).

(٣١) البهم: جمع بهمة، وهي الصغير من أولاد الضأن والمعز والبقر.

(٣٢) لم تلحه: لم تغيره.

(٣٣) أساريع الماء: طرائقه. والمراد أنه يترقق فيه ماء الشباب.

(٣٤) المأكم: جمع مأكمة وهي العجيزة.

(٣٥) المحرش: المغربي، من التحريش وهو الإغراء والإفساد.

(٣٦) الثرى: الخير.

- (٣٧) الجرس: الصوت.
- (٣٨) بث الحديث: إفشاؤه.
- (٣٩) المحرش: المغربي، يقال: حرش بين القوم: أفسد بينهم.
- (٤٠) حليات (بضم الحاء المهملة وفتح اللام وتشديد الياء): اسم موضع ذكره البكري وياقوت ولم يبيناه، ولعله موضع قرب مكة بقرينة ذكره مع المغس الوارد في البيت بعده.
- (٤١) السرح: موضع.
- (٤٢) المغس (بتشديد الميم وفتحها كما في ياقوت، وضبطه البكري في معجمه بكسر الميم وتشديدها): موضع قرب مكة في طريق الطائف، مات فيه أبو رغال وقبره يرجم لأنه كان دليل أبرهة صاحب الفيل.
- (٤٣) النكباء: الريح التي تنكب عن مهاب الرياح.
- (٤٤) يقال: ريح زعرع، أي شديدة، وكذلك زعزاع وزعزوع.
- (٤٥) يقال: نكأ الجرح: قشره قبل أن يلتئم.
- (٤٦) المدري والمدارة: حديدة يحك بها الرأس.
- (٤٧) أي هي في غاية من السر لا يجاب عليها إذا سئل عنها، والإعذار: نفي العذر.
- (٤٨) يقال: أعتبه إذا أعطاه العتبي وأرضاه.
- (٤٩) طيتها: ناحيتها وقصدها.
- (٥٠) تعناني: أوقعني في العناء.
- (٥١) الطرب: خفة تعتري الإنسان عند شدة الفرح أو الحزن والهم.
- (٥٢) الموهن: نحو من نصف الليل.
- (٥٣) مار: جرى وسال.
- (٥٤) الإزورار: الإعراض.
- (٥٥) لاه بمعنى لله.
- (٥٦) الغمر (بضم الغين وفتحها مع سكون الميم، وفتحتين، وفتح فكسر): الغر الجاهل الذي لم يجرب الأمور.
- (٥٧) أي ليس الأمر كما تعهدين من قبل.
- (٥٨) غمدان: قصر باليمن بناه «بشرخ بن محصب».
- (٥٩) قصر شعوب: قصر عال مرتفع باليمن.
- (٦٠) أضرعتني: أضعفتني وأذلتنني.
- (٦١) مجرمة كمعظمة: تامة، يريد ثلاثة أحوال كاملة.
- (٦٢) الغب من الحمى: ما تأخذ يوماً وتدع يوماً.
- (٦٣) أي ما حركت له عضواً.
- (٦٤) سويقة: موضع.

- (٦٥) حدبا جمع حدباء، وأصل الحدب: ما ارتفع من الأرض، يريد أنه أعيها السير فهي دامية متقوسة الظهر هزالا.
- (٦٦) المكاكي: جمع مكاء، وهو طير يشبه القبرة إلا أن في جناحيه بلقا، وهو حسن الصوت في تغريده.
- (٦٧) لعله يريد: نحزنها بالسبق، أو نبهرها ونغلبها، من قولهم: غم القمر النجوم: بهرها وكاد يستر ضوءها.
- (٦٨) التخبر: السؤال عن الخبر.
- (٦٩) أغذ السير وأغذ فيه: أسرع.
- (٧٠) بصرى: بلد بالشأم.
- (٧١) حفير: نهر بالأردن ببلاد الشأم.
- (٧٢) معان: مدينة في طرف بادية الشأم تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء.
- (٧٣) قصرنا، أي قصارنا وغايتنا.
- (٧٤) حسر السير بغيراً: أجهده وأعياه.
- (٧٥) المتبول: من أسقمه الهوى وغلبه الحب على أمره.
- (٧٦) حصان: عفيفة.
- (٧٧) الخطل: الفاسد المضطرب.
- (٧٨) اقني حياءك: الزميه.
- (٧٩) نص المطي: استخراج أقصى ما عندها من السير.
- (٨٠) الغرير: الغافل.
- (٨١) يقال: أثقله النوم فهو مستثقل بصيغة المفعول.
- (٨٢) تأطر أصله تتأطر فحذفت إحدى تاءيه ومعناه تشنى. والأيم: الأفعى. ويسيب: يمشي. والكتيب الأهيل: الرمل المنهال.
- (٨٣) الخذل: جمع خاذل وهي الظبية تتخلف عن صواحباتها أو أولادها.
- (٨٤) أي مثيرة الأشجان.
- (٨٥) أي كفي عن الحرج والإثم.
- (٨٦) أي أحق إنسان أخذ منه بدمي.
- (٨٧) الطرف: من لا يثبت على امرأة ولا صاحب.
- (٨٨) روح من الرواح وهو وقت العشي. والريعان: جمع راع كالرعاة والرعاء والرعاء. ونوم الرجل تنويماً: مبالغاً في نام.
- (٨٩) الحباب: الحية. وأزور كأحسن: مائل من زور يزور إذا مال.
- (٩٠) يقال: أباء القاتل بالقتيل: قتله به، والمراد هنا: فكم من قتيل يطل دمه ولا يؤخذ له بثأر.
- (٩١) يقال: غلق الرهن في يد المرتين يغلق علقاً: لم يقدر الراهن على افتكاكه في الوقت

- المشروط. يريد: وكم من قلوب أسيرة لا يقدر أصحابها على افتكاكها.
 (٩٢) الدمى: جمع دمية وهي الصورة المنقشة من العاج ونحوه.
 (٩٣) المقول: الحسن القول المفصح المبين.
 (٩٤) نص السرى: إسرعه، وأصله حث الدابة واستخراج أقصى ما عندها من السير.
 (٩٥) المحبر: المزين المحسن.
 (٩٦) ذو دوران - بفتح أوله وبعد الواو راء مهملة وآخره نون: موضع بين قديد والجحفة (ياقوت).
 (٩٧) أي كلفتنى السير ليلاً.
 (٩٨) تشط: تبعد.
 (٩٩) غمر ذي كندة: موضع وراء واحة بينه وبين مكة مسيرة يومين.
 (١٠٠) كذا في ديوانه، وفي الأغاني «الصبح».
 (١٠١) الفرقد: نجمان في السماء من نجوم الدب الأصغر وهي في الشمال، ويقال لهما: الفرقد بالإفراد، والفرقدان بالثنية. ولعله يريد أنها تسير جهته، لأن العراق التي تقصده في الشمال الشرقي من مكة.
 (١٠٢) الحداة: جمع حاد وأصله المغني للأبل لتتشط في السير، وقد يراد به الزاجر والسائق. والعرير: الإبل، ولا واحد له من لفظه. وونت: ضعفت وتباطأت. وتطرد: تساق.
 (١٠٣) الجرس: الصوت.
 (١٠٤) تودع: سكنت ناره وانطفأت.
 (١٠٥) تنهادى: تمشي في تمايل وسكون.
 (١٠٦) الرقبة: التحفظ والفرق.
 (١٠٧) الوجد: الشغف والشوق الشديد.
 (١٠٨) المراد: قد كان لي غنى عن حبكم.
 (١٠٩) الإثم: حجر للكحل وأجوده بأصبهان.
 (١١٠) أقصده: رماه بسهم فقتله.
 (١١١) الخيف: ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل. قال ابن سيدة: وخيف مكة موضع فيها عند منى، سمي بذلك لانحداره عن الغلظ وارتفاعه عن السيل.
 (١١٢) القطين: الخدم والأتباع والحشم، والمولد من العبيد والإماء: من ولد بين العرب ونشأ مع أولادهم.
 (١١٣) كذا في الأغاني. وفي ديوانه «كالمعنى» أي المأسور المحبوس عن غيرها.
 (١١٤) الكشح: ما بين الحجة - وهي رأس الورك الذي يشرف على الخاصرة - إلى الإبط. والوشاح: شبه قلادة ينسج من أديم عريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقيها.
 (١١٥) هذا البيت دخل عليه الحرم وهو حذف الفاء من فعولن.

- (١١٦) الرامس: الدافن في الرمس وهو القبر.
- (١١٧) المورد: الذي صبغ على لون الورد.
- (١١٨) الخود: الفتاة الحسنة الخلق الشابة ما لم تصر نصفًا، والنصف: المرأة بين الحادثة والمسنة.
- (١١٩) الفضل بضمين: المختالة التي تفضل من ذيلها. ويروى: «قطفًا» والمراد به تقارب الخطو.
- (١٢٠) العسلوج: الغصن اللين الأخضر.
- (١٢١) على قدر: على غير موعد. والوجه فيه أن التقاءهما كأنه مقدر في الأزل لا علم له به ولا سعى إليه، كما قيل:
- جاء الخلافة أو كانت له قدرًا
كما أتى ربه موسى على قدر
- (١٢٢) جمع قطوف وهي البطيئة في السير.
- (١٢٣) الرسل بالكسر: الرفق والتؤدة. والخفر: شدة الاستحياء.
- (١٢٤) اسبطرت: أسرعت.
- (١٢٥) الخصر: البارد.
- (١٢٦) أفد كفرح: عجل وأسرع.
- (١٢٧) الصوران: موضع بالمدينة بالقيع، وقد ذكره ياقوت واستشهد بالبيت.
- (١٢٨) المنصف كمنبر ومقعد: الخادم، والأنثى بالهاء، جمعه مناصف.
- (١٢٩) سيف البحر: ساحله.
- (١٣٠) أجياد: موضع بمكة، سمي بذلك لأن تبعًا لما قدم مكة ربط خيله فيه فسمي بذلك، وهما موضعان: أجياد الكبير وأجياد الصغير.
- (١٣١) الخيف: موضع بمنى وبه سمي مسجد الخيف.
- (١٣٢) ذو سنن: ذو طرائق.
- (١٣٣) تنكص: ترجع وتولى وتحجم.
- (١٣٤) مقلص: مشمر جاد في السير.
- (١٣٥) الحصاب كالمحصب: موضع رمي الجمار.
- (١٣٦) دراري ممنوعة من الصرف وتؤنث لضرورة الشعر.
- (١٣٧) هوج: جمع هوجاء وهي المتعجلة في السير كأن بها هوجًا وحمقًا.
- (١٣٨) الخدين: الصديق الذي يخادتك فيكون معك في كل أمر ظاهر وباطن، ومنه خدن الجارية: محدثها، وكان العرب في الجاهلية لا يمتنعون من خدن يحدث الجارية فجاء الإسلام بهدمه. وفي التنزيل العزيز: الْيَوْمَ أَحْلَلْ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ إِلَى قَوْلِهِ: وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ الْآيَةَ.

- (١٣٩) الخلة: الخليفة.
- (١٤٠) أومضت له: سارقتة النظر.
- (١٤١) يقال: ظاهر بين الثوبين إذا لبس أحدهما على الآخر.
- (١٤٢) أعفر: ذي رمل أحمر.
- (١٤٣) يقال: قفر الأثر قفراً: اقتفاره وتبعه.
- (١٤٤) الجؤذر (بضم أوله وضم الذال وفتحها): ولد البقرة. والربرب القطيع من بقر الوحش وقيل من الظباء، ولا واحد له من لفظه.
- (١٤٥) المقلد: موضع القلادة، ويراد به الجيد.
- (١٤٦) ترقق الدمع: سال.
- (١٤٧) جمع، هي المزدلفة.
- (١٤٨) محسر: موضع بين منى والمزدلفة.
- (١٤٩) معوق: عائق ومانع.
- (١٥٠) العين: السحاب.
- (١٥١) السادر: الذي لا يهتم ولا يبالي ما صنع.
- (١٥٢) كذا في الديوان، ومعناه ما ليس يقطع، ومنه قوله تعالى: وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ.
- (١٥٣) شدن: شب وترعرع.
- (١٥٤) ممتحن: واقع في محنة.
- (١٥٥) ذو بقر: موضع.
- (١٥٦) سقط الصريمة: منتهأها. والصريمة: الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر.
- (١٥٧) مكلف: لهج بالحلب، يقال: كلف بالشيء كلفاً، أي لهج به فهو كلف ومكلف، والأبيات من الكامل الأخذ، وهو ما حذف من عروضه وضربه الوند المجمع «علن» من «متفاععلن». وقد جاء عروض هذا البيت تاماً على خلاف بقية الأبيات، وظاهر أن حذف الوند في اصطلاح علماء العروض علة، والعلة إذا لحقت بعروض أو ضرب لزم استعمالها في سائر الأبيات ولو قال: (فأجبتها إني بكم كلف) خللت القصيدة من هذا العيب.
- (١٥٨) الجلباب: القميص أو هو الخمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها.
- (١٥٩) الشاب: النبل.
- (١٦٠) أعتب: أزال سبب العتب، فالهمزة للسلب. والمعنى أعذر.
- (١٦١) قراه يقروه: تتبعه.
- (١٦٢) دميث الربى: سهلها ولينها.
- (١٦٣) الغميم كأمير: موضع بين مكة والمدينة.
- (١٦٤) الخادم: واحد الخدم غلاماً كان أو جارية.
- (١٦٥) قاطباً من القطوب: وهو تزوي ما بين العينين من العبوس.

(١٦٦) الجزل: موضع قرب مكة. وأخضل: بل. والريطة: ملاءة كلها نسج واحدة وقطعة واحدة.

(١٦٧) يقال: أرب بكذا: كلف به، وأرب إلى كذا: احتاج إليه. ولعل المراد: دعاني الشوق إليهن.

(١٦٨) التعريس: قيل هو نزول القوم في السفر آخر الليل يستريحون قليلاً ثم يرحلون مع الصبح. وقيل: هو النزول أول الليل. وقيل: النزول في أي وقت كان من ليل أو نهار. والمراد هنا: لإقامة يوم أو لإقامة ليلة.

(١٦٩) لم تدرع: لم تلبس الدرع، يقال: درعت الصبية إذا ألبست الدرع، والدرع: جبة مشقوقة المقدم.

(١٧٠) قال الأصمعي: يقال أشبه الله وأشبه الله قرنه بمعنى واحد (وهو الدعاء له بأن يشب ويكبر)، والقرن زيادة في الكلام اه. والقرن: الضفيرة. والمراد التعجب من حديثها كما يقال في هذا المقام: قاتلك الله.

(١٧١) البابة: الوجه والطريق، قال: تميم بن مقبل:

بني عامر ما تأمرون بشاعر

تخير بابات الكتاب هجائيا

أي تخير هجائي من وجوه الكتاب، كما فسرهُ صاحب اللسان وللبابة معان أخرى لا بأس من إيرادها وهي: القبيل والنوع كما قال الجاحظ في «كتاب الحيوان» ج ٢ ص ٤٥: «فليس الديك من بابة الكلب لأنه إن ساوره قتله قتلاً ذريعاً» وقال أيضاً في ج ٧ ص ٤٣: «وقد أيقنا أنها ليسا من بابته». وقال في كتاب البخلاء ص ٤٥، ١٤٣: «أنت من ذي البابة... وأما سائر حديث هذا الرجل فهو من هذه البابة». ومثل ذلك في نفح الطيب ج ١ ص ٥٥٩ طبع ليدن، ج ١ ص ٣٩٨ طبع بولاق سنة ١٢٧٩ هـ قول القاضي محمد بن بشير الأندلسي:

إنما أزرى بقدري أنني

لست من بابة أهل البلد

وإذا قال الناس: «من بابتي» فمعناه من الوجه الذي أريده ويصلح لي. والشرط ومثله ما في «تاج العروس»: هذا بابته أي شرطه. والغاية ويستعمل ذلك في الحساب والحدود. وفي «شفاء الغليل» أنهم يقولون للعب خيال الظل بابة فيقولون: بابات خيال الظل، وعلى ذلك قول ابن عباس المؤرخ المصري: فكانوا مثل بابات خيال الظل فشيء يجيء وشيء يروح (بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ص ٣٤٧. ويجوز أن يسمى به كل فصل من فصول التمثيل المسماة الآن فصول الرواية. انظر كتاب التاج للجاحظ ص ٣٨ و ٣٩).

(١٧٢) وجد به يجد وجداً: أحبه حباً شديداً، ووجد عليه يوجد وجداً: حزن.

(١٧٣) تبترد: تغتسل بالماء البارد.

(١٧٤) كذا في الكامل للمبرد طبعة ليبزج ص ٥٩٤ وهي رواية جيدة. والتهانف كالا هناف

والمهانة: ضحك فيه فتور كضحك المستهزئ. وفي الأغاني والديوان: «فتضاحكن». وقد رجحنا الرواية الأولى لأنها تؤدي تمام المعنى المراد.

(١٧٥) هام تتعدى بالباء وقد ضمنت هنا معنى صبا ولهذا تعدت يلى.

(١٧٦) كذا في الأغاني، وفي ديوانه: «رثم» بالهمز. والرثم: الطيبي الأبيض الخالص البياض، وقيل ولد الطيبي، يهمز ولا يهمز.

(١٧٧) كذا في الأغاني، وبين هذا البيت والذي قبله في ديوانه:

كالشمس بالأسعد إذ أشرقت

في يوم دجن بارد مقتم

يريد بالأسعد هنا سعد النجوم، وهي عشرة: أربعة منها في برج الجدي والدلو ينزلها القمر وهي سعد الذابح وسعد بلع وسعد الأخبية وسعد السعود وهو كوكب منفرد نير. وأما الستة التي ليست من المنازل فسعد ناشرة وسعد الملك وسعد البهام وسعد الهام وسعد البارع وسعد مطر. وكل سعد من هذه الستة كوكبان بين كل كوكبين في رأى العين قدر ذراع وهي متناسقة. وأما سعد الأخبية فثلاثة أنجم كأنها أثافي ورابع تحت واحد منهن. انظر المرتضى والمقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية للإمام العيني المطبوع بهامش الخزانة ج ١ ص ٥٨ في الكلام على البيت:

إذا دبران منك يوماً لقيته

أؤمل أن ألقاك غدواً بأسعد

وقال في اللسان في مادة «سعد» بعد أن ذكر هذه السعود: فأحسن ما تكون الشمس والقمر والنجوم في أيامها لأنك لا ترى فيها غبرة، وقد ذكرها النابعة الذبياني فقال:

قامت تراءى بين سجفي كلة

كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

وقد ضبط خطأ في اللسان بفتح العين. وقال:

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها

لم تؤذ أهلاً ولم تفحش على جار

(١٧٨) الحمش: دقة الساقين.

(١٧٩) الشوى: الأطراف.

(١٨٠) الأفرع: طويل شعر الرأس.

(١٨١) الأسحيم: الأسود، يريد به الشعر.

(١٨٢) الأخشب: مفرد الأخشبين وهما جبالان بمكة أحدهما أبو قيس والآخر قعيقعان، ويقال: هما أبو قيس والجبل الأحمر المشرف هنالك، وقد تفرد هذه التنية فيقال لكل واحد منهما: الأخشب، قال ساعدة بن جؤية:

ومقامهن إذا حبسن بمأزم

ضيق ألف وصدهن الأخشب

- (١٨٣) في غلواء عيش: في أنضره وأرغده.
- (١٨٤) المكاتب: أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه منجماً (مستقلاً) فإذا أداه صار حراً، وسميت كذلك لأنه يكتب على نفسه لمولاه ثمنه، ومولاه يكتب له عليه عتقه.
- (١٨٥) الخطب: الخطب.
- (١٨٦) وهاء: كلمة وعيد، وحرك لضرورة الشعر، وقد روي البيت في ديوانه:
لا بل يملك ثم تدعو باسمه
فيقول هاه وطالما لبي
- (١٨٧) القلال كغراب وسحاب: القليل.
- (١٨٨) اتتمر ما شئت: افعل ما شئت فإننا لا نعصي لك أمراً.
- (١٨٩) تأطر: محذوفة إحدى تاءيه، أي تتشنى.
- (١٩٠) الأيم: الحية.
- (١٩١) يقال: عقل الوعل يعقل عقولاً: امتنع في الجبل، وبه سمي الوعل عاقلاً على حد التسمية بالصفة، ومنه المثل: «إنما هو كبارح الأروى قليلاً ما يرى». والأروى: جمع أروية وهي تيوس الجبل البرية.
- (١٩٢) قال في اللسان مادة بدد بعد أن أورد هذا الشطر: «معناه أمقسم أنت سؤالك على الناس واحداً واحداً حتى تعمهم». من البداد وهو أن يبد المال القوم فيقسم بينهم، وأبدهم المال والعطاء: فرقه فيهم، والمراد: لماذا تسألنا! ألك حق السؤال على جميع الناس! أو معناه: «أنت ملزم سؤالك الناس، من قولهم: ما لك منه بد؟» والمراد: أنت ملزمنا الإجابة عن سؤالك! إنا لا نجيبك.
- (١٩٣) مجاجة المسك، يريد بذلك وصفها بطيب ريقها وبأنه كالمسك.
- (١٩٤) تهادى، يريد يهدي بعضها بعضاً في مشيتها (الكامل للمبرد طبع لبيزج ص ٣٧٩).
- (١٩٥) في الكامل للمبرد طبع لبيزج ص ٣٧٩: أزهقت: أبطلت وأذهبت قال الله عز وجل: فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ أ.هـ. يريد: أذهبت أم نوفل نفسي إذ دعت الثريا لوصالي فلم تجبها.
- (١٩٦) يقال: وكفت العين: سالت دموعها.
- (١٩٧) السحر: الرثة.
- (١٩٨) أي عرفت بها حق المعرفة.
- (١٩٩) لحاضنتها: لمربيته.
- (٢٠٠) يرحلون يشدون على إبلهم الرحال.
- (٢٠١) أجد البين: اعترمه.
- (٢٠٢) احتمل: ارتحل.
- (٢٠٣) النوى: الفراق والبعد. ويحتث: يسوق. وزجلاً: رافعاً صوته في حذاء الإبل لتسرع في السير، وأصل الزجل الجلبة ورفع الصوت وخص به التطريب، وأنشد سيبويه في وصف حمار وحش:

له زجل كأنه صوت حاد
إذا طلب الموسيقى أو زمير
وذكره في باب ما يحتمل الشعر من استباحة الضرورة، وهي هنا حذف الواو المبينة لحركة الهاء
في قوله: كأنه. والموسيقى: أنثاء التي يضمها ويجمعها، من وسقت الشيء: جمعته.
(٢٠٤) في ديوانه:

لما وقفنا نحبيهم وقد شحطت
نعامة البين فاستولت بهم أصلا
وشطحت نعامة البين: ارتحلوا وفرقهم البين، وفي اللسان مادة نعم وشال: يقال للقوم إذا
ارتحلوا عن منزلهم أو تفرقوا: قد خفت نعماتهم وشالت نعماتهم، والأصل: جمع أصيل وهو العشي
وقيل هو مفرد، أنشد ثعلب:
وتمدرت نفسي لذاك ولم أزل
بدلا نهاري كله حتى الأصل
فقوله: بدلا نهاري كله، يدل على أن الأصل ها هنا واحد.
(٢٠٥) لا تعني به جدلا: لا تعجزني في مجادلته.
(٢٠٦) اللطف لغة في اللطف.

(٢٠٧) قال في اللسان: والتفؤد: التوقد، والفؤاد: القلب لتفؤده وتوقده. وقال في القاموس
وشرحه: والتفؤد: التحرق والتوقد، ومنه الفؤاد للقلب، لأن عقل الفؤاد للمعلومات نتيجة
اشتغاله وتوقده وتحركه وجولته فيها حتى يمحصها، ويميز الصحيح من الفاسد والحق من الباطل.
(٢٠٨) كذا في ديوانه وفي الأغاني ج ١ ص ٢٧٩ «على ما عنده».
(٢٠٩) الحين: المحنة.

(٢١٠) هذا أحد الوجهين في الفعل الواقع بعد كيا: الرفع على أن ما كافة لها عن العمل،
والنصب على أن ما زائدة وكى عاملة فيها بعدها، وقد روي بالوجهين:
إذا أنت لم تنفع فضر فإنما

يرجى الفتى كيا يضر وينفع
(٢١١) مغبرة، يريد بها الفلاة المجدبة.
(٢١٢) سوح: جمع ساحة وهي الفضاء.

(٢١٣) تباريح الشوق: توهجه، قال السيد محمد مرتضى: قال شيخنا وهو من الجموع التي لا
مفرد لها وقيل: مفردة تبريح واستعمله المحدثون وليس يثبت.

(٢١٤) قال في اللسان: القيصوم: ما طال من العشب، ثم قال: والقيصوم من نبات السهل قال
أبو حنيفة: القيصوم من الذكور ومن الأمرار وهو طيب الرائحة من رياحين البر وورقه هذب وله
نورة صفراء وهي تنهض على ساق وتطول.

(٢١٥) هو جميل بن عبد الله بن معمر من عذرة، وكان شاعرا فصيحاً مقدماً جامعاً للشعر

والرواية. اشتهر بحبه بثينة ابنة عمه، ولذلك عرف بجميل بثينة، وكانا يقيان في وادي القرى، وكان أول عهده بها وهي صغيرة. ومن أوائل نظمها فيها قوله:

وأول ما قاد المودة بيننا

بوادي بغيض يا بثين سباب

وقلت لها قولاً فجاءت بمثله

لكل كلام يا بثين جواب

ولم يكن يراها حتى صارت شابة، فأخذ ينظم القصائد فيها حتى اشتهر أمره. واتفق مرة أن توبة بن الحمير صاحب ليلي مر ببني عذرة فرأته بثينة فجعلت تنظر إليه وجميل حاضر فثارت الغيرة في قلب جميل، فقال لتوبة: من أنت؟ قال: أنا توبة بن الحمير، قال: هل لك في الصراع؟ قال: ذلك إليك؛ فأعطته بثينة ملاء حمراء فأنزر بها، ثم صارعه فصّره جميل. ثم قال: هل لك في النضال؟ قال: نعم، فناضله فنضله جميل. ثم قال: هل لك في السباق؟ قال: نعم. فسابقه فسبقه جميل. فقال له توبة: يا هذا، إنما تفعل ذلك بريح الجالسة، ولكن اهبط بنا الوادي، فهبط، فصّره توبة ونضله وسبقه. وكان عند بثينة ما عند جميل، ولما رأت مناضلته عنها زادت شغفاً به، ولكنها لم يكونا يجتمعان إلا خلسة على موعد، ولم يكن جميل يخلو من الرقباء، لكنهم لم يستطيعوا رميه بريية. وأخبره معها كثيرة لا يسعها هذا المقام. ولم يزل يجتمع بها سرّاً عن أهلها، فألحوا بالشكوى منه إلى العامل، ففر إلى اليمن حتى عزل العامل، وانتجع أهل بثينة الشام، فرحل جميل إليهم، فترصدوه وشكوه إلى عشيرته، فعنفه أهله وهددوه، فانقطع عنها، وأخيراً لجأ إلى مصر، وعاملها عبد العزيز بن مروان، فأحسن وفادته، ومرض هناك ومات. وكان طويل القامة عريض بين المنكبين جميل الخلقة حسن البزة، توفي سنة ٨٢هـ وجميل ديوان شعر كبير كان مشهوراً في أيام ابن خلكان ولم نقف على خبره، ولكن منه أشعاراً مجموعة في كتاب منه نسخة خطية في مكتبة براين. انظر الكلام على جميل في الأغاني ج ٧ ص ٧٧ وج ١ ص ٨٠ وابن خلكان ج ١ ص ١١٥ وخزانة الأدب ج ١ ص ١٩١ والشعر والشعراء ص ٢٦٠.

(٢١٦) ترعف: تقطر دماً.

(٢١٧) تعيفوا: من العيافة، وهي زجر الطير والاعتبار بأسائها ومساقطها وأصواتها، فيتسعد أو يتشاءم.

(٢١٨) التطفف: نقص الكيل.

(٢١٩) من أجله.

(٢٢٠) الغلل: جمع غلة، وهي ما يتوارى فيه أو شعار تحت الثوب.

(٢٢١) السبل: المطر.

(٢٢٢) تأطرت: ملّت.

(٢٢٣) أشاح: حذر وخاف.

(٢٢٤) أسجحي: أحسنني العفو.

- (٢٢٥) الأفوق: السهم الذي كسر فوقه، وهو مشق رأس السهم حيث يقع الوتر، وناصل: لا نصل فيه.
- (٢٢٦) يستاف: يشم.
- (٢٢٧) النضو: المهزول من الإبل وغيرها.
- (٢٢٨) العروض: الطريق في عرض الجبل في مضيق، يريد الطريف إلى وصلها.
- (٢٢٩) يدوف: يخلط. وطماطم: جمع طمطم وهو من في لسانه عجمة، وأراد بالطماطم هنا: الموالي.
- (٢٣٠) القاويات: الخاليات.
- (٢٣١) الوئيد: الصوت العالي الشديد.
- (٢٣٢) الحرف: الناقة الضامرة الصلبة. والعلاة: المشرفة الصلبة. والشملة: السريعة. والخرق: الأرض الواسعة. والساهمة: الناقة الضامرة.
- (٢٣٣) الفائور: الخوان من رخام أو فضة أو ذهب.
- (٢٣٤) في البيت إقواء، وهو اختلاف حركة الروي بالرفع والكسر.
- (٢٣٥) زاف: تبختر.
- (٢٣٦) أي ناحية.
- (٢٣٧) القوز: المستدير من الرمل، وقال الأزهري: إنه الكثيب المشرف.
- (٢٣٨) موقرة: محملة الوقر وهو الحمل. وخدى البعير يخدي: أسرع وزج بقوائمه.
- (٢٣٩) الحرجف: الريح الباردة الشديدة الهبوب.
- (٢٤٠) الحقو: الخصر.
- (٢٤١) يتقصف: يتهيل ويتقطع بعضه عن بعض.
- (٢٤٢) الجداية: الغزالة، والسابري: ثوب من أجود الثياب منسوب إلى سابور على غير قياس.
- (٢٤٣) يرجز به: ينشده أرجوزة.
- (٢٤٤) أقرم: جمع قرم (بالفتح) وهو السيد العظيم.
- (٢٤٥) خضرم: عظيم.
- (٢٤٦) يدوني: من الدية وهي ما يعطى لولي القتل من المال بدل النفس.
- (٢٤٧) تواكلوني: تركوني.
- (٢٤٨) أوزغت الناقة ببوها: رمت به دفعة دفعة. ومنه الطعنة توزغ بالدم أي ترمي به كذلك.
- (٢٤٩) يزف: يجعلها تسرع.
- (٢٥٠) ذو حذب: ذو موج.
- (٢٥١) حجون: معوج.
- (٢٥٢) أزمت: اشتدت.
- (٢٥٣) الكسس محركة: قصر الأسنان أو صغرها أو لصوقها بسنوخها، وثعلت سنه ولثته فهي

ثعلاء: تراكبت أسنانها.

(٢٥٤) بنات الماء: ما يألف الماء من السمك والطير والضفادع (انظر المضاف والمضاف إليه).

(٢٥٥) الضحل: الماء القليل على الأرض لا عمق له.

(٢٥٦) الهلاك: الصعاليك.

(٢٥٧) السملق: القاع الصفصف.

(٢٥٨) الأرحبي: الفحل النجيب نسبة إلى أرحب وهي قبيلة من همدان تنسب إليها النجائب

الأرحبية. والمنوق: المحسن المزين.

(٢٥٩) أولق: جنون.

(٢٦٠) الطرق: الماء الذي خوضته الإبل وبولت فيه وبعرت.

(٢٦١) مخطوطة المتنن: ممدودتها. والمكورة: المطوية الخلق.

(٢٦٢) هكذا وردت «فكيف» ولعلها فسوف ليستقيم بها السياق.

(٢٦٣) الطفل: الرخص الناعم من كل شيء.

(٢٦٤) اللد بالضم والتشديد: قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين.

(٢٦٥) الحويل: القوة والحذق والقدرة على التصرف.

(٢٦٦) يقال: شرى جلده: خرج عليه الشرى، وهو بثور صغار حمر حكاكة مكربة تحدث دفعة

واحدة غالباً وتشتد ليلاً لبخار حار يثور في البدن دفعة.

(٢٦٧) هو كثير بن عبد الرحمن بن خزاعة، ويعرف بكثير عزة، نسبة إلى عشيقته التي كان

يشبب بها. وكان يدخل على عبد الملك وينشده، وكان رافضياً شديداً التعصب لآل أبي طالب، وكان

عبد الملك يعرف ذلك فيه فلا ينكره، فإذا أراد أن يصدقه بشيء حلفه بعلي. وكان له صديق اسمه

خندق الأسدي، شديد التشيع مثله، وبلغ من جرأة خندق هذا أنه وقف مرة في الموسم والناس

مزدحمون وقال: «أيها الناس، إنكم على غير حق، قد تركتم بيت نبيكم والحق لهم وهم الأئمة»

فوثب عليه الناس، فضربوه ورموه حتى قتلوه، ودفن خندق بقنونا، فقال إذ ذاك كثير يرثيه:

أصادرة حجاج كعب ومالك

على كل عجلي ضامر البطن محنق

بمرثية فيها ثناء محبر

لأزهر من أولاد معرق

والقصيدة طويلة. أما معشوقته عزة فهي بنت حميد بن وقاص من ضمرة، وكانت من أجل النساء

وآدبهن وأعقلهن. ويقال إنه لم ير لها وجهاً إلا أنه استهيم بها قلبه لما ذكر له عنها. وعاتبه بعض أهلها

فقالوا: «قد شهرت نفسك وشهرت صاحبتنا فاكفف نفسك» فقال: «إني لا أذكرها بما تكرهون».

واتفق خروجهم إلى مصر في عام الجلاء، فتبعهم على راحلته فزجروه فأبى إلا أن يلحقهم، فتربص

له بعضهم في بعض الطريق وقبضوا عليه وجعلوه في جيفة حمار وربطوها عليه فمر به صديقه

خندق فأطلقه وألحقه ببلاده. وكان كثير دميماً قليلاً أحمر أقيشر عظيم الهامة قبيحاً. وأكثر أشعاره في

عزة هذه. توفي سنة ١٠٥هـ، وأخباره كثيرة تجدها في الأغاني (ج ١١ ص ٤٦) و(ج ٨ ص ٢٧) و(ج ٧ ص ٧٨) والشعر والشعراء (ص ٣١٦) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٣) والعقد الفريد (ج ١ ص ١١٥ و ٢٠٣) وخزانة الأدب (ج ٢ ص ٣٨١) وله ديوان شرحه أبو عبد الله الرشيدى منه نسخة خطية في الاسكوريال.

(٢٦٨) يقول: لا ألح عليه بالمسألة، يقال: نزرته أنزره إذا ألحت عليه. والظنور: العاطفة على أولاد غيرها. ولم ترم: لم ترأى.

(٢٦٩) مؤصد: ألبس الأصددة (بالضم) وهي قميص صغير يلبس تحت الثوب. والمجوب: القميص ذو الجيب. والرئد (يهمز ولا يهمز): الترب.

(٢٧٠) تبوخ: تحمد.

(٢٧١) المأزمان: بين عرفة والمزدلفة.

(٢٧٢) فيفا غزال: بمكة حيث ينزل الناس فيها إلى الأبطح. وأناديك: أجالسك، مأخوذ من الندى والنادي جميعاً وهما المجلس.

(٢٧٣) الصفوح: المعرصة.

(٢٧٤) بلت: ذهب.

(٢٧٥) العتبي: الإعتاب، يقال: عاتبني فلان فأعتبته إذا نزعت عما عاتبك عليه، والعتبي الاسم والإعتاب المصدر.

(٢٧٦) المناوح: المفاوز.

(٢٧٧) الطليح: المعنى الذي سقط من الأعياء.

(٢٧٨) طلت: هدرت.

(٢٧٩) أزلت: اصطنعت.

(٢٨٠) يقال: بل من مرضه وأبل واستبل إذا برأ. والهياء: التي أصابها داء الهيام، وهو داء يصيب الإبل من ماء تشربه مستنقعا فتهم في الأرض لا ترعى.

(٢٨١) اعترافه: اصطباره، يقال: نزلت به مصيبة فوجد عروفاً، أي صبوراً.

(٢٨٢) أبلس: انكسر وحزن.

(٢٨٣) الذراح: دويبة حمراء منقطة بسواد تطير، وهي من السموم القاتلة، والذراح جمعه. والخضخاض: نفض أسود لا خثورة فيه تهنأ به الإبل الجرب.

(٢٨٤) مدوفاً: مخلوطاً، داف الدواء والزعفران يدوفه: خلطه.

(٢٨٥) مغذ: مسرع.

(٢٨٦) أقوت الدار: خلت من ساكنها.

(٢٨٧) هو أبو السائب بن حكيم.

(٢٨٨) وجم: سكت على غيظ.

(٢٨٩) حرض: واد من وادي قناة، من المدينة على ميلين.

- (٢٩٠) أراد ملل، وهو منزل على طريق المدينة من مكة.
- (٢٩١) قفول: رجوع.
- (٢٩٢) أوشكه: أسرعه. والقل: البغض.
- (٢٩٣) الراقصات: الإبل، والملا: الفضاء، والجديل: زمام مجدول أي مضفور.
- (٢٩٤) الأصيل: العشي.
- (٢٩٥) تواهقن: تبارين، وبطن نخلة: بستان بني عامر، وعزور: ثنية الجحفة. والخبت، المظمن من الأرض. وطفيل: موضع.
- (٢٩٦) النقيط: الطريق.
- (٢٩٧) المذعان: المذلة. ومعيدة: قد عاودت السفر.
- (٢٩٨) الشوامذ: الشائلات الأذنان، وأرتجن: أغلقن أرحامهن على أولادهن. والحول: جمع حائل وهي التي لا تلقح.
- (٢٩٩) الألية: اليمين.
- (٣٠٠) فروها من الفرية، يقال فرى يفري. والحوال: المحاولة.
- (٣٠١) الجبول: الدواهي.
- (٣٠٢) الدخيل: الذي ينسب إلى قوم وليس منهم.
- (٣٠٣) أي ما رويت.
- (٣٠٤) الأتراب: الأقران. والليط: اللون وهو الجلد أيضًا.
- (٣٠٥) تاطر: تلبث، وأصل التاطر: التعطف.
- (٣٠٦) الألي: البطء. واللبانة: الحاجة.
- (٣٠٧) المخارم: جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل. ونصع: جبل أسود بين الصفراء وينبع.
- (٣٠٨) العوادي: الصوارف.
- (٣٠٩) الكلي: جمع كلية وهي الرقعة تكون في أصل عروة المزاد. والغرب: الدلو العظيمة وسجيل: ضخم.
- (٣١٠) خرق: جمع خرقاء وهي التي لا تحسن العمل. وأبجلته: أوسعته. والبجيل الغليظ، يريد أنهن أغلظن الإشفى وأدققن السير.
- (٣١١) النكباء: الريح التي تهب بين مهبي ريحين، والجفول: التي تذهب التراب.
- (٣١٢) طرور الشارب: نباته.
- (٣١٣) القطين: الخدم.
- (٣١٤) نبلت: أعددت.
- (٣١٥) الشخاص: السحاب المرتفع بعضه فوق بعض.
- (٣١٦) أرزم: صوّت.
- (٣١٧) الهزق: شدة صوت الرعد.

(٣١٨) خريع: امرأة حسناء.

(٣١٩) كبل: قيد شديد.

(٣٢٠) القروم: الفحول التي أعفيت من الحمل عليها وتركت للفحلة.

(٣٢١) الأشوال: الإبل التي مضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فارتفع ضرعها وجف لبنها.

(٣٢٢) هو قيس بن الملوح، ويقال: ابن معاذ بن مزاحم من بني عامر بن صعصعة، ويعرف بمجنون ليلى، نسبة إلى ليلى التي كان يتعشقها وهو مشهور، ولكن بعض أهل النقد من علماء الشعر يرون أن قصته موضوعة، وضعها رجل من بني أمية كان يحب ابنة عم له ويكره أن يظهر ما بينه وبينها، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يظنها الناس للمجنون، وقد زاد الناس فيه بعدئذ. ويؤيد ذلك كثيرًا مما ينسب إليه من الأشعار رويت لغيره، فقصته إذا من قبيل الشعر التمثيلي (درام) الذي يراد به تمثيل بعض الفضائل. وهي تمثيل العشق مع التعفف، أو لعل لها أصلًا قليلًا وزاد فيه الرواة كما فعلوا بقصة عنتر التي تمثل الشجاعة والعشق، وعلى كل حال فإن بين الأشعار المنسوبة إلى المجنون طائفة تمثل شعائر المحبين كما هي على طبيعتها. وأخبار المجنون في الأغاني (ج ١ ص ١٦٧) والشعر والشعراء (ص ٣٥٥) وخزانة الأدب (ج ٢ ص ١٧٠).

(٣٢٣) الصعلة: صغر الرأس.

(٣٢٤) هو أيوب ابن زيد بن قيس القرية أمه قتله الحجاج لاتهامه بالميل لابن الأشعث.

(٣٢٥) يقال: اختلط عقله إذا تغير وفسد.

(٣٢٦) ذو السرح: واد بأرض نجد.

(٣٢٧) عقيراً، أي معقورة، وأصل العقر: قطع القوائم ثم أطلق بمعنى النحر. قال ابن الأثير: كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى أي ينحرونها ويقولون: إن صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته فنكافته بمثل صنيعه بعد وفاته. وإنما أطلق العقر على النحر لأنهم كانوا إذا أرادوا نحر البعير عقروه لثلا يشرد عند النحر. ا.هـ. من اللسان مادة عقر.

(٣٢٨) أنى: حان وقرب.

(٣٢٩) الامتراء: الاستدراء.

(٣٣٠) بينها هنا معناه وصلها لأنه من أسماء الأضداد، يطلق على الوصل والفراق.

(٣٣١) الذؤابة: شعر الناصية.

(٣٣٢) أي من أجل، يقال: فعلت ذلك من جراك أي من أجلك وما أنشد على هذا:

أمن جرا بني أسد عضبتهم

ولو شتتم لكان لكم جوار

(٣٣٣) أي ترامينا بالسهم، ونضلت: غلبته.

(٣٣٤) الرشق: رمي أهل النضال ما معهم من السهام في جهة واحدة.

(٣٣٥) البرم: الثقيل.

- (٣٣٦) القطار: ريح اللحم المشوي.
- (٣٣٧) تخلص: سلب.
- (٣٣٨) هو المقصر الذي لا عذر له ولكنه يتكلف العذر، ومنه قوله تعالى: وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ.
- (٣٣٩) الروائع: جمع رائعة، أي مرتاعة.
- (٣٤٠) الأحناء: جمع حنو وهو كل شيء فيه اعوجاج كعظم الحجاج (العظم الذي ينبت عليه الحاجب) واللحي والضلع.
- (٣٤١) الصدى: الجسد من الآدمي بعد موته، ويطلق على الرجل النحيف الجسد، كما أنه يطلق على الصوت الذي يسمعه المصوت عقب صياحه راجعاً إليه من نحو الجبل والبناء المرتفع.
- (٣٤٢) الأطراب: جمع طرب وهو خفة تعتري الشخص من شدة الفرح أو الحزن.
- (٣٤٣) صميمها: أصلها.
- (٣٤٤) الحرجات: جمع حرجة وهي الغيضة، وسميت بذلك لضيقها، وقيل: الشجر الملتف، وهي أيضاً الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها الآكلة وهي ما رعي من المال.
- (٣٤٥) ذو سلم: موضع بالحجاز.
- (٣٤٦) يقال: نفس شعاع إذا انتشر رأيها فلم تتجه لأمر جزم.
- (٣٤٧) الجميع: ضد المتفرق.
- (٣٤٨) أشرفت: ظهرت وارتفعت.
- (٣٤٩) الثنايا: جمع ثنية، وهي الطريقة في الجبل، وقيل: هي العقبة، وقيل: هي الطريق العالي فيه، يريد أن الوصول إلى ليل صعب لا يستطيعه.
- (٣٥٠) الموتون: المضروب على الوتين، وهو عرق معلق بنياط القلب.
- (٣٥١) شجها: مزجها.
- (٣٥٢) العاتق: البكر التي لم تبين عن أهلها، والظاهر أنها ليست مرادة هنا وأن كلمة «عاتق» محرفة عن «غابق» وهو الساق في الغبوق أي العشي.
- (٣٥٣) الملاوي: جمع ملوي وهو مصدر ميمي من لوى بمعنى خلف.
- (٣٥٤) الخطار: مصدر من خاطر بمعنى راهن.
- (٣٥٥) جميع: مجتمع.
- (٣٥٦) الحقل: المزرعة ويطلق على الموضع البكر الذي لم يزرع فيه قط. وعنيزة: موضع بين البصرة ومكة. والرضم: موضع على ستة أميال من زباله، وزباله: منزل معروف بطريق مكة من الكوفة.
- (٣٥٧) رنقت: كدرت، والترنيق كما يطلق على التكدير يطلق على ضده الذي هو التصفية.
- (٣٥٨) مليء بالهمز أي ثقة غني. قال صاحب اللسان: وقد ألع فيه الناس بترك الهمز وتشديد الياء.

- (٣٥٩) عدم أي فقر ومثله العدم بضم العين وسكون الدال. قال صاحب اللسان: إذا ضمنت أوله خفت فقلت: العدم وإذا فتحت أوله ثقلت فقلت: العدم.
- (٣٦٠) يلويني: يمطلني، يقال: لواه دينه وبدينه: مطله.
- (٣٦١) الضعف هكذا بالتحريك: لغة في الضعف بالفتح والسكون. ويستعمل في ضعف الرأي والعقل، وأنشد عليه ابن الأعرابي هذا البيت. ويستعمل في ضعف الجسم وأنشد عليه:
- ومن يلقي خيرًا يغمز الدهر عظمه
على ضعف من حاله وفتور
(٣٦٢) يواتيني: يساعدي.
- (٣٦٣) الحمول في الأصل: الهوادج واحدها حمل ثم اتسع فيها وصارت تستعمل في الإبل التي عليها الهوادج. والدوافع: المندفعة في السير.
- (٣٦٤) كذا في أغلب النسخ وتزيين الأسواق. وفي ب، س: «أسحم» والأسفع والأسحم معناه واحد وهو الأسود. والنازع: المسرع. والمراد بالأسفع النازع «الغراب».
- (٣٦٥) شحا فاه يشحوه ويشحاه: فتحه.
- (٣٦٦) نعبًا: صياحًا وتصويتًا.
- (٣٦٧) الحريب: من سلب حريته وهي ماله الذي يقوم به أمره.
- (٣٦٨) بين بمنعى تبين، ومنه المثل: «قد بين الصبح لذي عينين».
- (٣٦٩) الهضبتان: منى هضبة وهي الرابية أو الجبل المنسط على الأرض أو الجبل المخلوق من صخرة واحدة، والأجارع: جمع أجرع، والأجرع كالجرعاء: الأرض ذات الخزونة تشاكل الرمل أو الرملة السهلة المستوية أو القطعة من الرمل لا تنبت شيئًا (انظر اللسان في مادتي هضب وجرع).
- (٣٧٠) الهوى بمعنى المهوي وهو المحبوب، ومنه قول الشاعر:
- هوأي مع الركب اليانين مصعد
جنيب وجثماني بمكة موثق
(٣٧١) الجوبة: فضاء أملس سهل بين أرضين.
- (٣٧٢) تخلص الشيء: انتهبه وأخذه خلسة.
- (٣٧٣) الأوشال: جمع وشل وهو الماء القليل. والصبابة: بقية الماء تبقى في الإناء والسقاء.
- (٣٧٤) هو من تقع بمعنى روى.
- (٣٧٥) الملا: الصحراء.
- (٣٧٦) أي قطعت.
- (٣٧٧) هو واد قرب مكة.
- (٣٧٨) معناه ما برحن. يقال: ما رام المكان أي ما برحه.
- (٣٧٩) الهجائن: الإبل البيضاء الكريمة واحدها هجان. والجون: جمع جون بفتح الجيم وهو الأسود المشرب بحمرة، ويطلق على الأسود اليمحومي وعلى الأبيض فهو من أسماء الأضداد.

- (٣٨٠) الخواضع: الإبل وإنما يقال لها خواضع لأنها تخضع أعناقها حين يجد بها السير، قال جرير: ولقد ذكرتكَ والمطي خواضع وكأنهن قفا فلاة مجهل.
- (٣٨١) الحور: جمع حواراء وهي البيضاء أو من في عينها حور وهو شدة سواد المقلة في شدة بياضها.
- (٣٨٢) السدول: جمع سدبل وهو ما يجلل به الهودج من الثياب.
- (٣٨٣) الأكارع: جمع أكرع والأكرع جمع كراع، أو الأكارع كما يقول سيبويه جمع كراع على غير قياس. والكراع من الإنسان: ما دون الركبة إلى الكعب، ومن الدابة قوامها مطلقاً.
- (٣٨٤) المراد بالراوع هنا المردوع به الجسد أو الثوب وهو العبير والمسك. وأصل الردع اللطخ بالطيب والزعفران، يقال: قميص رادع ومردوع أي فيه أثر الطيب والزعفران، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «لم ينه عن شيء من الأدوية إلا عن المزعفرة التي تردع الجلد» أي تنفض صبغها عليها.
- (٣٨٥) المانع: الطويل.
- (٣٨٦) مقصرات: جمع مقصرة أي داخلية في القصر وهو العشي، يقال: أتيته قصرًا أي عشيًا، وأقصرنا أي دخلنا في قصر العشي، كما تقول أمسينا من المساء من أعصرت الجارية إذا بلغت عصر شبابه، أو من أعصرت أي دخلت في العصر (انظر لسان العرب مادة قصر).
- (٣٨٧) تدعو: تصوت وتنوح.
- (٣٨٨) ساق حر: أصله صوت القماري ويطلق على الذكر من القماري تسمية له باسم صوته وهو المراد هنا (انظر اللسان مادتي سوق وحر).
- (٣٨٩) المرجحنة: المهترئة المتمايلة.
- (٣٩٠) حائر: متردد.
- (٣٩١) الغيل: اسم لعدة مواضع والظاهر أن المراد هنا واد لبني جعدة وهم قوم المجنون.
- (٣٩٢) الأيكة الغبيضة الملتفة بالأشجار ولم نجد في الكتب التي بأيدينا «أيكة» ولا «بطن أيكة» اسماً لموضع خاص كما هو المناسب للسياق.
- (٣٩٣) الجزع: منعطف الوادي، ولعله هنا اسم لموضع خاص وقد يكون جزع بني جهمز وهو واد باليامة.
- (٣٩٤) الأشاءة: موضع باليامة فيه نخيل، ولعل كلمة «تول» محرفة عن «تال» والتال: صغار النخل واحده تالة.
- (٣٩٥) هجروا: ساروا في وقت الهاجرة.
- (٣٩٦) غال الشيء: ذهب به.
- (٣٩٧) التوباد (بالدال المهملة) وهو الموافق لما في معجم ما استعجم للبكري إذ قال في ضبطه: هو بفتح أوله وباء معجمة بواحدة ودال مهملة وأنشد عليه:
- وأجهشت للتوباد حين رأيته

وضبطه ياقوت بالذال المعجمة فقال في معجمه: «توباذا» بالفتح ثم السكون والباء موحدة وآخره ذال معجمة: جبل بنجد.

(٣٩٨) أجهشت: تهيأت للبكاء.

(٣٩٩) يقال: هتنت السماء تهتن هتناً وتهتناً أي صبت.

(٤٠٠) يقال: سجمت السحابة مطرها تسجيماً وتسجماً إذا صبت.

(٤٠١) الهملان: فيض العين بالدموع.

(٤٠٢) الرحل: ما يوضع على البعير للركوب ثم يعبر به عن البعير.

(٤٠٣) المنيحة في الأصل: الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلاً يشرب لبنها ثم يردها إذا

انقطع اللبن، ثم كثر استعمالها في كل موهوب.

(٤٠٤) يقال أسحت ماله: استأصله وأفسده، ومال مسحوت ومسحت أي مذهب. وأسحت

تجارته: خبثت وحرمت، ولم نجد في كتب اللغة «تساحت» على وزن تفاعل من هذه المادة.

(٤٠٥) لم نجد في بلاد العرب ما يسمى جوشن إلا جبلاً في غربي حلب.

(٤٠٦) المخارم (بالراء المهملة): جمع مخرم وهو الطريق في الجبل أو الرمل.

(٤٠٧) هو قيس بن ذريح الكناني من ليث بن بكر، كان منزل قومه بظاهر المدينة. مر لبعض

حاجته بخيام بني كعب بن خزاعة فرأى لبنى بنت الحباب الكعبية، وكانت فتاة جميلة، فعلقها،

فطلبها من أبيه فمنعه إياها لمكانه من الثروة، وكان يريد أن يزوجه من بنات عمومته حتى يحفظ

تراثه في أهله، فطار لب قيس وتقسمت نفسه وذهب، فاستشفع بأخيه من الرضاع، الحسين بن علي،

فوجد ما أحب وتزوجها ومكثا زمناً ولم يعقبا، وشغل قيساً حب لبنى عن مواساة أمه فاضطغت

على زوجها وسعت بها عند أبيه متخذة عدم الولد سلماً ترقى به إلى شرها، فطلب إليه أبوه أن يطلقها

فأبى، فما زال به بالوعد والوعيد حتى أجابه إلى طلبته، وكان في ذلك القضاء الأخير على ما لقيس

من حظ وعقل في هذه الحياة ولم ينتفع بتزويجه غيرها، وطارت نفسه شعاعاً وذهب على وجهه

يتنسم أخبار لبنى ويمرغ خده في آثارها، وبقي طول حياته يساقط من نفسه على شعره غير عابئ

بشقاء بدنه وإهدار دمه حتى لفظ النفس الأخير. وأخبار قيس كثيرة في الأغاني (ج ٨ ص ١١٢)

والشعر والشعراء (ص ٣٩٩) وله ديوان مشروح، ومنه نسخة في مكتبة الإسكوريال وغيرها في

برلين.

(٤٠٨) الرادع: النكس، وهو رجوع المرض.

(٤٠٩) الجداع: الموت.

(٤١٠) هو نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتلو الشريا لا يتقدمها.

(٤١١) يتمعك: يتمرغ في التراب.

(٤١٢) الليان: اللي والمطل، قال أبو الهيثم: لم يجئ من المصادر على إعلان إلا ليان.

(٤١٣) ذحول: جمع ذحل وهو الثأر.

(٤١٤) الملا: موضع.

- (٤١٥) وردت هذه القصيدة برمتها في كتاب الأملالي لأبي علي القالي (ج ٢ ص ٣١٤-٣١٨ طبعة دار الكتب المصرية).
- (٤١٦) سرف وسراوع وأريك: مواضع، والتلاع واحدها تلعة وهي مسيل ما ارتفع من الأرض إلى بطن الوادي. والدوافع: جمع دافعة وهي التي تدفع الماء.
- (٤١٧) أخياف ظبية: موضع. والمخوف: المنزل الذي يقام فيه في الخريف. والمربع: جمع مربع وهو الموضع الذي يقام فيه في الربيع.
- (٤١٨) حم: قدر.
- (٤١٩) جزع الوادي: منعطفه. وعفا: درس. والخوادم واحدها خادعة وهي التي لا تنام، يقال: خدعت عينه تخدع إذا لم تنم، وأتيناهم بعد ما خدعت العين.
- (٤٢٠) الصفا: الصخر. والصلد: الصلب الذي إذا أصابه شيء صلد أي صوت. والشوائع: جمع شائعة وهي الظاهرة.
- (٤٢١) أي تفرقت الجماعة.
- (٤٢٢) ارفض: سال ولا يكون إلا سيالاً مع تفرق.
- (٤٢٣) مشت: مفرق.
- (٤٢٤) شطت: بعدت.
- (٤٢٥) المستشعر: الذي لبس الشعر وهو الثوب الذي يلي الجسد. والجوى: الهوى الباطن، والأسى: الحزن. ونكاس: جمع نكس بالضم. وروادع، جمع رادعة وهي التي تردعه عن الحركة والتصرف.
- (٤٢٦) دجا: ألبس بظلمته كل شيء.
- (٤٢٧) البساط: ما بسط من الفرش.
- (٤٢٨) ترعني: تفرعني.
- (٤٢٩) اعترف: ذل وانقاد.
- (٤٣٠) تهدنه: تسكنه.
- (٤٣١) وجبات: خفقات.
- (٤٣٢) المأق من العين: الجانب الذي يلي الأنف.
- (٤٣٣) الأشاجع: عروق ظاهر الكف.
- (٤٣٤) الظؤار: جمع ظئر وهي التي عطف على ولد غيرها، والسواجع: جمع ساجعة وهي التي تمد حنينها على جهة واحدة.
- (٤٣٥) هو النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري، من الخزرج أهل يثرب، لكنه ساير معاوية، فكان معه في واقعة صفين، ولم يكن مع معاوية في تلك الواقعة من الأنصار سواه. وقد اجتنبه بسخائه ودهائه وكان يراعي جانبه، وكثيراً ما سمع توسطه للأنصار عنده. وعاش النعمان المذكور إلى خلافة مروان بن الحكم، وكان يتولى حمص، فلما أفضت الخلافة إلى مروان دعا إلى ابن الزبير

وخالف على مروان بعد قتل الضحاك، فلم يجبه أهل حمص إلى ذلك، فهرب منهم فتبعوه وأدركوه وقتلوه. وكان على مسائرتة بني أمية شديد التعصب للأنصار، ولذلك عندما علم بقصيدة الأخطل في الطعن عليهم رد عليه. والنعمان بن بشير من العريقين في الشعر خلفاً عن سلف فإن جده وأباه وعمه وأولاده وأحفاده كلهم شعراء. وهو أول مولود ولد في الإسلام من الأنصار، وآخر من ولي الكوفة لمعاوية بن أبي سفيان. وله ديوان مطبوع في الهند. توفي سنة ٦٥هـ. وترى أخبار النعمان بن بشير في الأغاني (ج ١٤ ص ١١٩) وأمالى القالي (ج ٣ ص ٨) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١١٢ طبع مصر سنة ١٣٠٥هـ) وفي سيرة ابن هشام وابن خلكان وابن الأثير وغيرها.

(٤٣٦) أثيراً: مكرماً.

(٤٣٧) الأرقام: حي من بني تغلب.

(٤٣٨) شاطئ: متفرقة.

(٤٣٩) الشكائم: جمع شكيمة وهي الحديدية المعترضة في فم الفرس.

(ملحق الكتاب الثاني)

باب المنتور

شرحنا لك في المجلد الأول ما كانت عليه الكتابة في عصر العباسيين من جودة اللفظ، ومتانة الأسلوب، وجللاء المعنى، ووضوح القصد وبساطته. ووعدناك بذكر طرف من رسائل القوم في ذلك العصر الزاهي الزاهر؛ وإليك ما وعدناك به:

(١) مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان:

قال ابن عبد ربه في العقد الفريد:

هذا ما تراجع فيه المهدي ووزراؤه وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان أيام تحاملت عليهم العمال وأعنف، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة على أن نكثوا بيعتهم، ونقضوا موثقهم، وطرّدوا العمال، والتّووا بما عليهم من الخراج؛ وحمل المهدي ما يجب من مصلحتهم ويكره من عنتهم على أن أقال عشرتهم، واغتفر زلتهم، واحتمل دالتهم، تطولا بالفضل واتساعاً بالعفو، وأخذاً بالحجة ورفقاً بالسياسة؛ ولذلك لم يزل مذّحلمه الله أعباء الخلافة وقلده أمور الرعية رفيقاً بمدار سلطانه، بصيراً بأهل زمانه، باسطاً للمعدلة في رعيته، تسكن إلى كنفه وتأنس بعفوه وتثق بحلمه؛ فإذا وقعت الأفضية اللازمة والحقوق الواجبة، فليس عنده هوادة ولا إغضاء ولا مدهانة، أثره للحق وقياماً بالعدل وأخذاً بالحزم؛ فدعا أهل خراسان الاغترار بحلمه والثقة بعفوه أن كسروا^(١) الخراج وطرّدوا العمال وسألوا ما ليس لهم من الحق،

ثم خلطوا احتجاجاً باعتذار، وخصومة بإقرار، وتنصلاً باعتلال؛ فلما انتهى ذلك إلى المهدي خرج إلى مجلس خلائه وبعث إلى نفر من لحمته ووزرائه، فأعلمهم الحال واستنصحهم للرعية، ثم أمر الموالي بالابتداء، وقال للعباس بن محمد: أي عم! تعقب قولنا وكن حكماً بيننا؛ وأرسل إلى ولديه موسى وهارون، فأحضرهما الأمر وشاركهما في الرأي، وأمر محمد بن^(٢) الليث بحفظ مراجعتهم، وإثبات مقالتهن في كتاب.

فقال سلام^(٣) صاحب المظالم: أيها المهدي، إن في كل أمر غاية، ولكل قوم صناعة؛ استفرغت رأيهم، واستغرقت أشغالهم، واستنفدت أعمارهم، وذهبوا بها وذهبت بهم، وعرفوا بها وعرفت بهم؛ ولهذه الأمور التي جعلتنا فيها غاية، وطلبت معونتنا عليها أقوام من أبناء الحرب وساسة الأمور وقادة الجنود وفرسان الهزاهز^(٤) وإخوان التجارب، وأبطال الوقائع؛ الذين رشحتهم سجالها، وفيأتهم ظلالها، وعضتهم شدائدُها، وقرمتهم نواجزها؛ فلو عجمت ما قبلهم، وكشفت ما عندهم؛ لوجدت نظائر تؤيد أمرك، وتجارب توافق نظرك، وأحاديث تقوي قلبك؛ فأما نحن معاشر عمالك، وأصحاب دواوينك، فحسن بنا وكثير منا أن نقوم بثقل ما حملتنا من عملك، واستودعتنا من أمانتك، وشغلتنا به من إمضاء عدلك، وإنفاذ حكمك، وإظهار حقك.

فأجابه المهدي: إن في كل قوم حكمة، ولكل زمان سياسة، وفي كل حال تدبيراً يبطل الآخر الأول، ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطاننا.

قال: نعم أيها المهدي، أنت متبع الرأي، وثيق العقدة، قوي المنة^(٥)، بليغ الفطنة، معصوم النية، محضور الروية، مؤيد البديهة، موفق العزيمة، معان بالظفر، مهدي إلى الخير؛ إن هممت نفى عزمك مواقع الظن، وإن اجتمعت

صدع فعلك ملتبس الشك؛ فاعزم يهد الله إلى الصواب قلبك، وقل ينطق الله بالحق لسانك؛ فإن جنودك جمّة، وخزائنك عامرة، ونفسك سخية، وأمرك نافذ. فأجابه المهدي: إن المشاورة والمناظرة بابا رحمة، ومفتاحا بركة؛ لا يهلك عليهما رأي، ولا يتغيّل^(٦) معهما حزم، فأشيروا برأيكم، وقولوا بما يحضركم؛ فإنني من ورائكم، وتوفيق الله من وراء ذلك.

قال الربيع: أيها المهدي، إن تصاريّف وجوه الرأي كثيرة، وإن الإشارة ببعض معاريف^(٧) القول يسيرة؛ ولكن خراسان أرض بعيدة المسافة، متراخية الشقة، متفاوتة السيل؛ فإذا ارتأيت من محكم التدبير، ومبرم التقدير، ولباب الصواب، رأياً قد أحكمه نظرك، وقلبه تدبيرك، فليس وراءه مذهب طاعن، ولا دونه معلق لخصومة عائب؛ ثم أجبت البرد به، وانطوت الرسل عليه، كان بالحرى ألا يصل إليهم محكمه إلا وقد حدث منهم ما ينقضه؛ فما أيسر أن ترجع إليك الرسل، وترد عليك الكتب بحقائق أخبارهم، وشوارد آثارهم، ومصادر أمورهم؛ فتحدث رأياً غيره وتبتدع تدبيراً سواه؛ وقد انفرجت الحلقة، وتحللت العقد، واسترخى الحجاب^(٨)، وامتد الزمان، ثم لعلنا موقع الآخرة كمصدر الأولى؛ ولكن الرأي لك أيها المهدي - وفقك الله - أن تصرف إجمالة النظر، وتقليب الفكر، فيما جمعنا له، واستشرتنا فيه من التدبير لحربهم، والحيل في أمرهم، إلى الطلب لرجل ذي دين فاضل، وعقل كامل، وورع واسع، ليس موصوفاً بهوى في سواك، ولا متهماً في أثره عليك، ولا ظنياً^(٩) على دخلة مكروهة، ولا منسوباً إلى بدعة محذورة؛ فيقدح في ملكك، ويربض^(١٠) الأمور لغيرك؛ ثم تسند إليه أمورهم، وتفوض إليه حربهم، وتأمّره في عهدك ووصيتك إياه بلزوم أمرك ما لزمه الحزم، وخلاف نهيك إذا خالفه الرأي عند استحالة الأمور، واشتداد الأحوال التي ينقض أمر الغائب عنها، ويثبت رأي الشاهد

لها؛ فإنه إذا فعل ذلك فوائب أمرهم من قريب، وسقط عنه ما يأتي من بعيد، تمت الحيلة وقويت المكيدة، ونفذ العمل وأحد النظر، إن شاء الله.

قال الفضل بن العباس: أيها المهدي، إن ولي الأمور وسائس الحروب ربما نحى جنوده، وفرق أمواله في غير ما ضيق أمر حزبه، ولا ضغطة حال اضطرتة؛ فيقعد عند الحاجة إليها، وبعد التفرقة لها عديماً منها فاقداً لها، لا يثق بقوة، ولا يصول بعدة، ولا يفزع إلى ثقة؛ فالرأي لك أيها المهدي - وفقك الله - أن تعفي خزائنك من الإنفاق للأموال، وجنودك من مكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار، وتغريز القتال، ولا تسرع للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون، والعطاء لما يسألون؛ فيفسد عليك أديهم، وتجري من رعتك غيرهم؛ ولكن اغزهم بالحيلة، وقاتلهم بالمكيدة، وصارعهم باللين، وختلهم بالرفق، وأبرق^(١١) لهم بالقول، وأرعد نحوهم بالفعل؛ وابعث البعوث^(١٢)، وجند الجنود، وكتب الكتائب، واعقد الألوية، وانصب الرايات، وأظهر أنك موجه إليهم الجيوش مع أحقنق قوادك عليهم، وأسوئهم أثراً فيهم؛ ثم ادسس الرسل، وابثث الكتب، وضع بعضهم على طمع من وعدك، وبعضاً على خوف من وعيدك؛ وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم، واغرس أشجار التنافس بينهم، حتى تملأ القلوب من الوحشة، وتنطوي الصدور على البغضة، ويدخل كلاً من كل الحذر والهيبه؛ فإن مرام الظفر بالغيلة، والقتال بالحيلة، والمناصبة بالكتب، والمكايدة بالرسل، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب، القوي الموقع من النفوس، المعقود بالحجج، الموصول بالحيل، المبني على اللين الذي يستميل القلوب؛ ويسترق العقول والآراء، ويستميل الأهواء، ويستدعي المواتاة، أنفذ من القتال بطبات السيوف وأسنة الرماح؛ كما أن الوالي الذي يستنزل طاعة رعيته بالحيل، ويفرق كلمة عدوه بالمكايدة، أحكم عملاً

وألطف منظراً وأحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك إلا بالقتال، والإتلاف للأموال والتغدير والخطار^(١٣).

وليعلم المهدي أنه إن وجه لقتالهم رجلاً لم يسر لقتالهم إلا بجنود كثيفة، تخرج عن حال شديدة، وتقدم على أسفار ضيقة، وأموال متفرقة، وقواد غششة؛ إن أئتمنهم استنفدوا ماله، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له.

قال المهدي: هذا رأي قد أسفر نوره، وأبرق ضوؤه، وتمثل صوابه للعيون، ومجد حقه في القلوب، ولكن فوق كل ذي علم عليم؛ ثم نظر إلى ابنه علي فقال: ما تقول؟

قال علي: أيها المهدي، إن أهل خراسان لم يخلعوا عن طاعتك، ولم ينصبوا من دونك أحداً يقدر في تغيير ملكك، ويربض الأمور لفساد دولتك؛ ولو فعلوا لكان الخطب أيسر، والشأن أصغر والحال أدل، لأن الله مع حقه الذي لا يخذله، وعند مواعده الذي لا يخلفه، ولكنهم قوم من رعيتك، وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم والياً، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً، طلبوا حقاً، وسألوا إنصافاً، فإن أجبت إلى دعوتهم ونفست^(١٤) عنهم قبل أن يتلاحم منهم حال، أو يحدث من عندهم فتق، أطعت أمر الرب، وأطفأت نائرة^(١٥) الحرب، ووفرت خزائن المال، وطرحت تغدير القتال، وحمل الناس محمل ذلك على طبيعة جودك، وسجية حلمك، وإسجاح^(١٦) خليقتك، ومعدلة نظرك، فأمنت أن تنسب إلى ضعف، وأن يكون ذلك فيما بقي دربة؛ وإن منعتهم ما طلبوا ولم تجبههم إلى ما سألوا، اعتدلت بك وبهم الحال، وساويتهم في ميدان الخطاب؛ فما أرب المهدي أن يعتمد إلى طائفة من رعيته، مقرين بمملكته، مدعين لطاعته، لا يخرجون أنفسهم عن قدرته، ولا يبرئونها من عبوديته، فيملكهم أنفسهم

ويخلع نفسه عنهم، ويقف على الخيل معهم، ثم يجازيهم السوء في حد المنازعة ومضمار المخاطرة؛ أيريد المهدي - وفقه الله - الأموال؟ فلعمري لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإتفاق أكثر منها، مما يطلب منهم وأضعاف ما يدعي قبلهم، ولو نالها فحملت إليه، أو وضعت بخرائطها^(١٧) بين يديه، ثم تجافى لهم عنها وطال عليهم بها، لكان مما إليه ينسب وبه يعرف من الجود الذي طبعه الله عليه، وجعل قرة عينه ونهمة نفسه فيه.

فإن قال المهدي: هذا رأي مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا، وتحامل ولاتنا؛ فأما الجنود الذين نقضوا موافق العهود، وأنطقوا لسان الإرجاف^(١٨) وفتحوا باب المعصية، وكسروا قيد الفتنة، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم وعظة لسواهم؛ فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد، مقرنين في الأصفاة؛ ثم اتسع لحقن دمائهم عفوه، ولإقالة عثرتهم صفحه؛ واستبقاهم لما هم فيه من حربه، أو لمن بإزائهم من عدوه، لما كان بدعا من رأيه، ولا مستنكرا من نظره، لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً، وأشدّها وقعاً، وأصدقها صولة؛ وأنه لا يتعاضمه عفوه، ولا يتكأده^(١٩) صفح، وإن عظم الذنب وجل الخطب، فالرأي للمهدي - وفقه الله تعالى - أن يحل عقدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم، وأن يذكر أولى حالاتهم وضيعة عيالاتهم، برّا بهم وتوسعا لهم؛ فإنهم إخوان دولته، وأركان دعوته، وأساس حقه الذين بعزتهم يصول، وبحجتهم يقول، وإنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مساخطه، وتعرضوا له من معاصيه، وانطوا فيه عن إجابته، ومثله في قلة ما غير ذلك من رأيه فيهم، أو نقل من حاله لهم، أو تغير من نعمته بهم، كمثّل رجلين أخوين متناصرين متآزرين، أصاب أحدهما خبل عارض، وهو حادث، فنهض إلى أخيه بالأذى، وتحامل عليه بالمكروه،

فلم يزدد أخوه إلا رقة له ولطفًا به، واحتيالاً لمداواة مرضه ومراجعة حاله؛ عطفًا عليه وبرًا به ومرحمة له.

فقال المهدي: أما علي فقد كوى سمّت اللبان، وفض القلوب في أهل خراسان، ولكل نبأ مستقر، ثم قال: ما ترى يا أبا محمد؟ يعني موسى ابنه.

فقال موسى: أيها المهدي، لا تسكن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم، وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم؛ الحال من القوم ينادي بمضمرة شر، وخفية حقد؛ قد جعلوا المعاذير عليها سترًا، واتخذوا العلل من دونها حجابًا؛ رجاء أن يدفعوا الأيام بالتأخير، والأُمور بالتطويل؛ فيكسروا حيل المهدي فيهم، ويفنوا جنوده عنهم حتى يتلاحم أمرهم، وتتلاحق مادتهم، وتستفحل حربهم، وتستمر الأمور بهم؛ والمهدي من قولهم في حال غرة ولباس أمانة، قد فتر لها وأنس بها وسكن إليها؛ ولولا ما اجتمعت به قلوبهم، وبردت عليه جلودهم من المناصب بالقتال، والإضرار للقراع عن داعية ضلال، أو شيطان فساد، لرهبوا عواقب أخبار الولاة، وغب سكون الأمور؛ فليشدد المهدي - وفقه الله - أزره لهم ويكتب كتائبه نحوهم، وليضع الأمر على أشد ما يحضره فيهم، وليوقن أنه لا يعطيهم خطة يريد بها صلاحهم إلا كانت دربة إلى فسادهم، وقوة على معصيتهم، وداعية إلى عودتهم؛ وسببًا لفساد من بحضرته من الجنود، ومن ببابه من الوفود، الذين إن أقرهم وتلك العادة، وأجراهم على ذلك الأرب، ولم يبرح في فتق حادث وخلاف حاضر؛ لا يصلح عليه دين، ولا تستقيم به دنيا؛ وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة، واستمرار الدربة، لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة، والمثوثة الشديدة، والرأي للمهدي - وفقه الله - ألا يقلل عثرتهم، ولا يقبل معذرتهم، حتى تطأهم الجيوش، وتأخذهم

السيوف، ويستحر^(٢٠) بهم القتل، ويحرق بهم الموت، ويحيط بهم البلاء، ويطبق عليهم الذل؛ فإن فعل المهدي بهم ذلك، كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم، وهزيمة لكل بادرة شر منهم، واحتمال المهدي مئونة غزوتهم هذه يضع عنه غزوات كثيرة، ونفقات عظيمة.

قال المهدي: قد قال القوم فاحكم يا أبا الفضل.

فقال العباس بن محمد:

أيها المهدي: أما الموالي فأخذوا بفروع الرأي، وسلخوا جنابات الصواب، وتعدوا أموراً قصر بنظرهم عنها أنه لم تأت تجاربهم عليها.

وأما الفضل فأشار بالأموال ألا تنفق، والجنود ألا تفرق، وبألا يعطي القوم ما طلبوا، ولا يبذل لهم ما سألوا، وجاء بأمر بين ذلك استصغاراً لأمرهم واستهانة بحربهم؛ وإنما يهيج جسيات الأمور صغارها.

وأما علي فأشار باللين وإفراط الرفق، وإذا جرد الوالي لمن غمط^(٢١) أمره وسفه حقه، اللين بحثاً والخير محضاً، لم يخلطهما بشدة تعطف القلوب عن لينة، ولا بشر يحبسهم إلى خيره، فقد ملكهم الخلع لعذرهم^(٢٢) ووسع لهم الفرجة لثنى أعناقهم؛ فإن أجابوا دعوته وقبلوا لينة من غير خوف اضطهرهم ولا شدة، فنزوة^(٢٣) في رءوسهم يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم، ويستصرخون بها رأي المهدي فيهم؛ وإن لم يقبلوا دعوته ويسرعوا لإجابته باللين المحض والخير الصراح، فذلك ما عليه الظن بهم والرأي فيهم، وما قد يشبه أن يكون من مثلهم، لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم والملك الكبير ما لا يخطر على قلب بشر ولا تدركه الفكر ولا تعلمه نفس؛ ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها، فلو لا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة، لما أجابوا لا قبلوا.

وأما موسى فأشار بأن يعصبوا^(٢٤) بشدة لا لين فيها، وأن يرموا بشر لا خير معه، وإذا أضمر الوالي لمن فارق طاعته، وخالف جماعته، الخوف مفردًا، والشر مجردًا، ليس معهما طمع ولا لين يشينهم، اشتدت الأمور بهم، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين: إما أن تدخلهم الحمية من الشدة، والأنفة من الذلة، والامتعاض من القهر؛ فيدعهم ذلك إلى التماذي في الخلاف، والاستبسال في القتال، والاستسلام للموت؛ وإما أن ينقادوا بالكره، ويدعنوا بالقهر على بغضة لازمة، وعدواة باقية، تورث النفاق وتعقب الشقاق؛ فإذا أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قويت لهم حال؛ عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشد مما كان.

وقال في قول الفضل: أيها المهدي، أكفى دليل، وأوضح برهان، وأبين خبر بان؛ قد أجمع رأيه وحزم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم، وتوجيه البعوث نحوهم، مع إعطائهم ما سألوا من الحق، وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل. قال المهدي: ذلك رأيي.

قال هارون: ما خلطت الشدة أيها المهدي باللين، وانتظم أمر الدنيا بالدين، فصارت الشدة أمر فطام^(٢٥) لما تكرهه، وعاد اللين أهدى قائد إلى ما تحب؛ ولكن أرى غير ذلك.

قال المهدي: لقد قلت قولاً بديعاً، خالفت فيه أهل بيتك جميعاً؛ والمرء مؤتمن بما قال، وظنين^(٢٦) بما ادعى حتى يأتي ببينة عادلة، وحجة ظاهرة، فاخرج عما قلت.

قال هارون: أيها المهدي، إن الحرب خدعة، والأعاجم قوم مكرة؛ وربما اعتدلت الحال بهم، واتفقت الأهواء منهم؛ فكان باطن ما يسرون على ظاهر

ما يعلنون، وربما افترقت الحالان، وخالف القلب اللسان، فانطوى القلب على محجوبة تبطن، واستسر بمدخولة لا تعلن؛ والطبيب الرفيق بطبه، البصير بأمره، العالم بمقدم يده وموضع ميسمه^(٢٧)؛ لا يتعجل بالدواء، حتى يقع على معرفة الداء، فالرأي للمهدي - وفقه الله - أن يفر باطن أمرهم فر^(٢٨) المسنة، ويمخض ظاهر حالهم مخض السقاء بمتابعة الكتب، ومظاهرة الرسل، وموالاته العيون، حتى تهتك حجب عيونهم، وتكشف أغطية أمورهم؛ فإن انفرجت الحال، وأفضت الأمور به إلى تغيير حال أو داعية ضلال، اشتملت الأهواء عليه، وانقاد الرجال إليه، وامتدت الأعناق نحوه بدين يعتقدونه، وإثم يستحلونه، عصبهم بشدة لا لين فيها، ورماهم بعقوبة لا عفو معها، وإن انفرجت العيون، واهتصرت الستور، ورفعت الحجب، والحال فيهم مريعة، والأمور بهم معتدلة في أرزاق يطلبونها، وأعمال ينكرونها، وظلامات يدعونها، وحقوق يسألونها، بimate^(٢٩) سابقتهم، ودالة مناصحتهم؛ فالرأي للمهدي - وفقه الله - أن يتسع لهم بما طلبوا، ويتجلى لهم عما كرهوا، ويشعب من أمرهم ما صدعوا، ويرتق من فتقهم ما قطعوا، ويولي عليهم من أحبوا؛ ويداوي بذلك مرض قلوبهم، وفساد أمورهم؛ فإنما المهدي وأمته، وسواد أهل مملكته، بمنزلة الطبيب الرفيق، والوالد الشفيق، والراعي المجرب الذي يحتال لمرايض غنمه، وضوال رعيته، حتى يبرئ المريضة من داء علتها ويرد الصحيحة إلى أنس جماعتها؛ ثم إن خرسان بخاصة الدين لهم دالة محمولة، ومائة مقبولة، ووسيلة معروفة، وحقوق واجبة؛ لأنهم أيدي دولته، وسيوف دعوته، وأنصار حقه، وأعوان عدله؛ فليس من شأن المهدي الاضطغان عليهم، ولا المؤاخذه لهم، ولا التوغير^(٣٠) بهم، ولا المكافأة بإساءتهم، لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفة

قبل أن تقوى، ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلظ، أحزم في الرأي، وأصح في التدبير من التأخير لها والتهاون بها، حتى يلتئم قليلها بكثيرها، وتجتمع أطرافها إلى جمهورها.

قال المهدي: ما زال هارون يقع وقع الحيا حتى خرج خروج القدح من الماء، وانسل انسلال السيف فيما ادعى، فدعوا ما سبق موسى فيه أنه هو الرأي، وثنى بعده هارون، ولكن من لأعنة الخيل وسياسة الحرب وقادة الناس إن أمعن بهم اللجاج، وأفرط بهم الدالة؟

قال صالح: لسنا نبليغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فراسة رأيك، وبعض لحظات نظرك؛ وليس ينفض عنك من بيوتات العرب ورجال العجم ذو دين فاضل، ورأى كامل، وتدبير قوي؛ تقلده حربك، وتستودعه جندك، ممن يحتمل الأمانة العظيمة، ويضطلع بالأعباء الثقيلة؛ وأنت بحمد الله ميمون النقية،^(٣١) مبارك العزيمة، مخبور التجارب، محمود العواقب، معصوم العزم؛ فليس يقع اختيارك، ولا يقف نظرك على أحد توليه أمرك، وتسند إليه ثغرك، إلا أراك الله ما تحب، وجمع لك منه ما تريد.

قال المهدي: إني لأرجو ذلك لقديم عادة الله فيه، وحسن معونته عليه؛ ولكن أحب الموافقة على الرأي، والاعتبار للمشاورة في الأمر المهم.

قال محمد بن الليث: أهل خراسان أيها المهدي، قوم ذوو عزة ومنعة، وشياطين خدعة؛ زروع الحمية فيهم ثابتة، وملابس الأنفة عليهم ظاهرة؛ فالروية عنهم عازبة^(٣٢)، والعجلة فيهم حاضرة؛ تسبق سيولهم مطرهم، وسيوفهم عذهم^(٣٣)، لأنهم بين سفلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم، وبين رؤساء لا يلجمون إلا بشدة، ولا يفطمون إلا بالمر؛ وإن ولي المهدي عليهم

وضيعة لم تنقد له العظاء، وإن ولي أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء؛ وإن آخر المهدي أمرهم، ودافع حربهم، حتى يصيب لنفسه من حشمة ومواليه، أو بني عمه أو بني أبيه؛ ناصحاً يتفق عليه أمرهم، وثقة تجتمع له أملاؤهم بلا أنفة تلزمهم، ولا حمية تدخلهم، ولا مصيبة تنفرهم؛ تنفست الأيام بهم، وتراخت الحال بأمرهم؛ فدخل بذلك من الفساد الكبير، والضياع العظيم، ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جد، ولا يستصلحه وإن جهد، إلا بعد دهر طويل وشر كبير؛ وليس المهدي - وفقه الله - فاطماً عاداتهم، ولا قارعاً صفاتهم، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما، ولا عدل في ذلك بهما:

أحدهما لسان ناطق موصول بسمعك، ويد ممثلة لعينك، وصخرة لا تزعزع، وبهمة لا يثنى؛ وبازل لا يفزعه صوت الجلجل، نقي العرض، نزيه النفس، جليل الخطر، قد اتضعت الدنيا عن قدره، وسما نحو الآخرة بهمته، فجعل الغرض الأقصى لعينه نصباً، والغرض الأدنى لقدمه موطئاً؛ فليس يقبل عملاً، ولا يتعدى أملاً؛ وهو رأس مواليك، وأنصح بني أبيك؛ رجل قد غذي بلطيف كرامتك، ونبت في ظل دولتك، ونشأ على قوائم أدبك؛ فإن قلدته أمرهم، وحملته ثقلهم، وأسندت إليه ثغرهم؛ كان قفلاً فتحه أمرك، وباباً أغلقه نهيك؛ فجعل العدل عليه وعليهم أميراً، والإنصاف بينه وبينهم حاكماً؛ وإذا حكم النصفة وسلك المعدلة، فأعطاهم ما لهم وأخذ منهم ما عليهم، غرس في الذي لك بين صدورهم، وأسكن لك في السويداء داخل قلوبهم، طاعة راسخة، باسقة الفروع، متماثلة في حواشي عوامهم، متمكنة من قلوب خواصهم؛ فلا يبقى فيهم ريب إلا نفوه، ولا يلزمهم حق إلا أدوه؛ وهذا أحدهما.

والآخر عود من غيظتك؛ ونبعة من أرومتك، فتي السن كهل الحلم راجح العقل محمود الصرامة مأمون الخلاف؛ مجرد فيهم سيفه، ويبسط عليهم خيره بقدر ما يستحقون، وعلى حسب ما يستوجبون؛ وهو فلان أيها المهدي؛ فسلطه - أعزك الله - عليهم، ووجهه بالجيوش إليهم، ولا تمنعك ضراعة^(٣٤) سنه، وحدثة مولده؛ فإن الحلم والثقة مع الحداثة، خير من الشك والجهل مع الكهولة؛ وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه، واختصكم به من مكارم الأخلاق، ومحامد الفعال، ومحاسن الأمور، وصواب التدبير، وصرامة الأنفس؛ كفراخ عتاق^(٣٥) الطير المحكمة لأخذ الصيد بلا تدريب، والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب؛ فالحلم والعلم والعزم والحزم والجود والتؤدة والرفق ثابت في صدوركم، مزروع في قلوبكم، مستحكم لكم، متكامل عندكم، بطبائع لازمة، وغرائز ثابتة.

قال معاوية بن عبد الله: إفتاء أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر. وأهل خراسان في حال عز على ما وصف، ولكن إن ولى المهدي عليهم رجلاً ليس بقديم الذكر في الجنود، ولا بنبية الصوت في الحروب، ولا بطويل التجربة للأمر، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة في الأعداء؛ دخل ذلك أمران عظيمان وخطران مهولان، أحدهما: أن الأعداء يغمزونهم ويحتقرونها فيه، ويحترون بها عليه في النهوض به والمقارعة له، والخلاف عليه، قبل الاختبار لأمره، والتكشف لحاله والعلم بطباعه. والأمر الآخر: أن الجنود التي يقود والجيوش التي يسوس إذا لم يختبروا منه البأس والنجدة، ولم يعرفوه بالصيت والهيبة، انكسرت شجاعتهم، وماتت نجاتهم، واستأخرت طاعتهم إلى حين اختبارهم، ووقوع معرفتهم؛ وربما وقع البوار قبل الاختبار؛ وبباب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب نبية حنيك صيت؛ له نسب زاك وصوت عال،

قد قاد الجيوش وساس الحروب، وتألف أهل خراسان، واجتمعوا عليه بالمقة، ووثقوا به كل الثقة؛ فلو ولاه المهدي أمرهم، لكفاه الله شرهم.

قال المهدي: جانبت قصد الرمية، وأبيت إلا عصبية؛ إذ رأي الحدث من أهل بيتنا، كرأي عشرة حلماء من غيرنا؛ ولكن أين تركتم ولي العهد.

قالوا: لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جده، ونسيج وحده؛ ومن الدين وأهله، بحيث يقصر القول عن أدنى فضله؛ ولكن وجدنا الله عز وجل حجب عن خلقه، وستر من دون عباده علم ما تختلف به الأيام، ومعرفة ما تجري عليه المقادير، من حوادث الأمور وريب المنون المخترمة لخوالي القرون ومواضي الملوك، فكرهنا شسوعه^(٣٦) عن محلة الملك ودار السلطان ومقر الإمامة والولاية وموضع المدائن والخزائن، ومستقر الجنود ومعدن الجود؛ ومجمع الأموال التي جعلها الله قطباً لدار الملك ومصيدة لقلوب الناس ومثابة لإخوان الطمع وثوار الفتن، ودواعي البدع وفرسان الضلال وأبناء الموت. وقلنا: إن وجه المهدي ولي عهده فحدث في جيوشه وجنوده ما قد حدث بجنود الرسل من قبله، لم يستطع المهدي أن يعقبهم بغيره إلا أن ينهد إليهم بنفسه؛ وهذا خطر عظيم وهول شديد، إن تنفست الأيام بمقامه، واستدارت الحال بإمامه، حتى يقع عوض لا يستغنى عنه، أو يحدث أمر لا بد منه، صار ما بعده مما هو أعظم هولاً وأجل خطراً له تبعاً وبه متصلاً.

قال المهدي: الخطب أيسر مما تذهبون إليه، وعلى غير ما تصفون الأمر عليه؛ نحن أهل البيت نجري من أسباب القضايا ومواقع الأمور، على سابق من العلم ومحتوم من الأمر؛ قد أنبأت به الكتب، ونبأت عليه الرسل؛ وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا؛ وتكامل بحذافيره عندنا؛ فبه ندبر وعلى الله نتوكل. إنه لا بد

لولي عهدي وولي عهد عقبي بعدي أن يقود إلى خراسان البعوث، ويتوجه نحوها بالجنود.

أما الأول فإنه يقدم إليهم رسله، ويعمل فيهم حيله؛ ثم يخرج نشطاً إليهم حنقاً عليهم، يريد ألا يدع أحداً من إخوان الفتن ودواعي البدع وفرسان الضلال، إلا توطأه بحر القتل، وألبسه قناع القهر، وقلده طوق الذل؛ ولا أحداً من الذين عملوا في قص جناح الفتنة، وإخماد نار البدعة، ونصرة ولاية الحق، إلا أجرى عليهم ديم فضله، وجداول نهله؛ فإذا خرج مزمعاً به مجمعاً عليه، لم يسر إلا قليلاً حتى تأتبه أن قد عملت حيله، وكدحت^(٣٧) كتبه ونفذت مكائده؛ فهدأت نافرة القلوب، ووقعت^(٣٨) طائرة الأهواء، واجتمع عليه المختلفون بالرضا؛ فيميل نظراً لهم، وبراً بهم، وتعطفاً عليهم، إلى عدو قد أخاف سبيلهم، وقطع طريقهم، ومنع حجاجهم بيت الله الحرام، وسلب تجارهم رزق الله الحلال.

وأما الآخر فإنه يوجه إليهم، ثم تعتقد له الحجة عليهم، بإعطاء ما يطلبون، وبذل ما يسألون؛ فإذا سمحت الفرق بقراباتها له، وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه؛ فأصغت إليه الأفئدة، واجتمعت له الكلمة؛ وقدمت عليه الوفود قصد لأول ناحية نجعت بطاعتها وألقت بأزماتها؛ فألبسها جناح نعمته، وأنزلها ظل كرامته، وخصها بعظيم حباه؛ ثم عم الجماعة بالمعدلة، وتعطف عليهم بالرحمة؛ فلا تبقى فيهم ناحية دانية ولا فرقة قاصية، إلا دخلت عليها بركته، ووصلت إليها منفعته؛ فأغنى فقيرها، وجبر كسيرها، ورفع وضعيها، وزاد رفيعها ما خلا ناحيتين؛ ناحية يغلب عليها الشقاء، وتستميلهم الأهواء، فتستخف بدعوته، وتبطئ عن إجابته، وتتأقل عن حقه، فتكون آخر

من يبعث وأبطأ من يوجه؛ فيصطلي عليها موجدة ويبتغي لها علة، لا يلبث أن يجد بحق يلزمهم وأمر يجب عليهم، فتستلحمهم الجيوش، وتأكلهم السيوف، ويستحر بهم القتل، ويحيط بهم الأسر، ويفنيهم التتبع؛ حتى يخرب البلاد، ويوتم الأولاد؛ وناحية لا يبسط لهم أماناً، ولا يقبل لهم عهداً ولا يجعل لهم ذمة؛ لأنهم أول من فتح باب الفرقة، وتدرع جلباب الفتنة، وربض في شق العصا؛ ولكنه يقتل أعلامهم، ويأسر قوادهم؛ ويطلب هراهم في لجج البحار، وقلل الجبال، وخمل الأودية، وبطون الأرض، تقتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً؛ حتى يدع الديار خراباً، والنساء أيامى؛ وهذا أمر لا نعرف له في كتبنا وقتاً، ولا نصح منه غير ما قلنا تفسيراً.

وأما موسى ولي عهدي فهذا أوان توجهه إلى خراسان، وحلوله بجرجان؛ وما قضى الله له من الشخوص إليها، والمقام فيها، خير للمسلمين مغبة، وله بإذن الله عاقبة من المقام، بحيث يغمر في لجج بحورنا، ومدافع سيولنا، ومجامع أمواجنا؛ فيتصاغر عظيم فضله، ويتذاب^(٣٩)، مشرق نوره، وتقلل كثير ما هو كائن منه؛ فمن يصحبه من الوزراء ويختار له من الناس.

قال محمد بن الليث: أيها المهدي: إن ولي عهدك أصبح لأمتك وأهل ملتك علماً، قد تثنت نحوه أعناقها، ومدت سمته أبصارها؛ وقد كان لقرب داره منك، ومحل جواره لك، عطل الحال غفل الأمر واسع العذر؛ فأما إذا انفرد بنفسه وخلا بنظره وصار إلى تدبيره، فإن من شأن العامة أن تتفقد^(٤٠) مخارج رأيه، وتستنصت لمواقع آثاره، وتسأل عن حوادث أحواله في بره ومرحمته وإقساطه ومعدلته وتدبيره وسياسته ووزرائه وأصحابه؛ ثم يكون ما سيق إليهم أغلب الأشياء عليهم وأملك^(٤١) الأمور بهم وألزمها لقلوبهم، وأشدّها استمالة لرأيهم

وعطفاً لأهوائهم؛ فلا يفتأ المهدي - وفقه الله - ناظرًا له فيما يقوي عمد مملكته، ويسدد أركان ولايته، ويستجمع رضا أمته بأمر هو أزين لحاله وأظهر لجماله، وأفضل مغبة لأمره؛ وأجل موقعًا في قلوب رعيته، وأحمد حالًا في نفوس أهل ملته؛ ولا أدفع مع ذلك باستجماع الأهواء له، وأبلغ في استعطاف القلوب عليه، من مرحلة تظهر من فعله، ومعدلة تنتشر عن أثره ومحبة للخير وأهله، وأن يختار المهدي - وفقه الله - من خيار أهل كل بلدة، وفقهاء أهل كل مصر؛ أقوامًا تسكن إليهم العامة إذا ذكروا، وتأنس الرعية بهم إذا وصفوا؛ ثم تسهل لهم عمارة سبل الإحسان وفتح باب المعروف، كما قد كان فتح له وسهل عليه. قال المهدي: صدقت ونصحت، ثم بعث في ابنه موسى فقال: أي بني، إنك قد أصبحت لسمت^(٤٢) وجوه العامة نصبًا، ولمثنى أعطاف^(٤٣) الرعية غاية؛ فحسنتك شاملة، وإساءتك نائية، وأمرك ظاهر؛ فعليك بتقوى الله وطاعته، فاحتمل سخط الناس فيها، ولا تطلب رضاهم بخلافها؛ فإن الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إثارك رضاه، وليس بكافيك من يسخطه عليك إثارك رضا من سواه. ثم اعلم أن الله تعالى في كل زمان فترة من رسله، وبقاي من صفوة خلقه وخبايا لنصرة حقه، يجدد حبل الإسلام بدعواهم، ويشيد أركان الدين بنصرتهم؛ ويتخذ لأولياء دينه أنصارا، وعلى إقامة عدله أعوانا؛ يسدون الخلل ويقيمون الميل، ويدفعون عن الأرض الفساد؛ وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا، وسيوف دعوتنا الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونستصرف نزول العظائم بمناصحتهم؛ وندافع ريب الزمان بعزائمهم، ونزاحم ركن الدهر ببصائرهم؛ فهم عماد الأرض إذا أرجفت كنفها^(٤٤)، وخوف الأعداء إذا برزت صفحتها، وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها؛ قد مضت لهم

وقائع صادقات، ومواطن صالحات؛ أخذت نيران الفتن، وقسمت دواعي البدع، وأذلت رقاب الجبارين ولم ينفكوا كذلك ما جروا مع ريح دولتنا، وأقاموا في ظل دعوتنا، واعتصموا بحبل طاعتنا؛ التي أعز الله بها ذلتهم ورفع بها ضعتهم؛ وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرض، وملوكاً على رقاب العالمين بعد لباس الذل، وقناع الخوف، وإطباق البلاء ومحالفة الأسي، وجهد البأس والضر؛ فظاهر عليهم لباس كرامتك، وأنزلهم في حدائق نعمتك؛ ثم اعرف له حق طاعتهم، ووسيلة دالتهم، ومائة سابقتهم، وحرمة مناصحتهم؛ بالإحسان إليهم، والتوسعة عليهم، والإثابة لمحسنهم، والإقالة لمسيئهم.

أي بني، ثم عليك العامة فاستدع رضاها بالعدل عليها، واستجلب مودتها بالإنصاف لها؛ وتحسن بذلك لربك، وتوثق به في عين رعيتك، واجعل عمال العذر وولاية الحجج مقدمة بين عملك، ونصفه منك لرعيتك، وذلك أن تأمر قاضي كل بلد، وخيار أهل كل مصر، أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه أمرهم، وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم؛ فإن أحسن حمدت، وإن أساء عذرت. هؤلاء عمال العذر وولاية الحجج، فلا يسقطن عليك ما في ذلك إذا انتشر في الآفاق، وسبق إلى الأسماع، من انعقاد السنة المرجفين، وكبت قلوب الحاسدين، وإطفاء نيران الحروب، وسلامة عواقب الأمور؛ ولا ينفكن في ظل كرامتك نازلاً، وبعراً حبلك متعلقاً رجلاًن: أحدهما كريمة^(٤٥) من كرائم رجالات العرب، وأعلام بيوتات الشرف؛ له أدب فاضل، وحلم راجح، ودين صحيح. والآخر له دين غير مغموز^(٤٦)، وموضع غير مدخول، بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأي وإنحاء العرب ووضع الكتب، عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب؛ يضع آداباً نافعة وآثاراً باقية، من محاسنك وتحسين أمرك

وتحلية ذكرك؛ فتستشيره في حربك، وتدخله في أمرك؛ فرجل أصبته كذلك فهو يأوي إلى محلتي، ويرعى في خصرة جناني؛ ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان، وخيار الأمصار، أقوامًا يكونون جيرانك وسمارك، وأهل مشاورتك فيما تورّد، وأصحاب مناظرتك فيما تصدر. فسر على بركة الله، أصبحك الله من عونه وتوفيقه دليلًا يهدي إلى الصواب قلبك، وهاديًا ينطق بالخير لسانك. وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد.

(٢) رسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي كتبها للرشيد إلى قسطنطين ملك الروم:

من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى قسطنطين عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، فإنني أحمد الله الذي لا شريك معه، ولا ولد له، ولا إله غيره، الذي تعالى عن شبه المحدودين بعظمته، واحتجب دون المخلوقين بعزته، فليست الأبصار بمدركة له، ولا الأوهام بواقعة عليه، انفرادًا عن الأشياء أن يشبهها، وتعالى أن يشبهه شيء منها، وهو الواحد القهار، الذي ارتفع عن مبالغ صفات القائلين، ومذاهب لغات العالمين، وفكر الملائكة المقربين، فليس كمثل شيء، وله كل شيء، وهو على كل شيء قدير.

أما بعد، فإن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه، قال لنبيه ﷺ فيما أنزل من آيات الوحي إليه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ يَأْتِيهِمْ أَحْسَنُ مِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. فرأى أمير المؤمنين من أحسن قوله وأفضل فعله، أن يكون إلى سبيل ربه داعيًا، وبرسوله ﷺ متأسيًا، ولقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ موافقًا. وكنت من كتب الله المنزلة، وآياته المفسرة،

وخلقه الكثير بحيث رجا أمير المؤمنين استماعك لموعظته؛ وانتفاعك بمجادلته انتفاع بشر كثير وخلق عظيم قد بؤت بأوزارهم مع وزرك، واحتملت من آثامهم إلى إثمك، فأحب أن يدعوك ومن رجا أن ينتفع بدعوته معك، إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله؛ فإن توليتم عن ذلك رغبة عنه، أو تركتموه زهادة فيه، فاشهدوا بأنا مسلمون. واستمعوا ما أمير المؤمنين واصف لكم، ومحتج به إن شاء الله عليكم، بقلوب شاهدة وآذان واعية، ثم اتبعوا أحسن ما تسمعون. ولا قوة إلا بالله.

فإن الله عز وجل يقول فيما أنزل من كتابه واقتصص على عباده: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. إن الله تبارك اسمه وتعالى جده، وصف فيما أنزل من آياته، وشرح من بيناته، الأمم الماضية، والقرون الخالية، والملل المتفرقة، الذين يجعلون مع الله آله أخرى لا برهان لهم بها، ولا حجة لهم فيها، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْأَكْتَابِ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ.

قالت العرب الذين يعبدون الملائكة وأهل الكتاب الذين يقولون ثالث ثلاثة بأيتهما آية يا محمد تزعم أن الله إله واحد؛ فأنزل الله عز وجل في ذلك آية تشهد لها العقول، وتؤمن بها القلوب، وتعرفها الألباب، فلا تستطيع لها رداً،

ولا تطيق لها جحداً، ذكر فيها اتصال خلقه واتفاق صنعه، ليقن الجاهلون من العرب والضالون من أهل الكتاب، أن إله السماء والأرض، وما بينهما من الهواء والخلق، واحد لا شريك له، خالق لا شيء معه، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ فتفكر في تفسير هذه الآية من كلام الرب عز وجل، وما أوضح فيها من بيان الخلق، فإنه ما من مفكر ينظر فيما ذكر الله فيها مما بين السماء والأرض، إلا رأى من اتصال بعض ذلك ببعض، مثل ما رأى في تدبيره نفسه، وعرف من اتصال خلقه، فيما بين ذوائب شئون رأسه إلى أطراف أنامل قدمه. وفي ذلك أوضح آية وأبين دلالة، على أن الذي خلقه وصنعه إله واحد لا إله معه، ولا من شيء ابتدعه، ولا على مثال صنعه. قد ترون بعيونكم وتعلمون بعقولكم، أن الله عز وجل خلق للأنام الأرض، وجعلها موصولة بالخلق، فليس يدحوها إلا لهم، ولا يديمها إلا معهم، وجعل ذلك الخلق متصلاً بالنبت، لا يقوم إلا به، ولا يصلح إلا عليه. وجعل ذلك النبت الذي جعله متاعاً لكم ومعاشاً لأنعامكم، متصلاً بالماء الذي ينزل من السماء بقدر معلوم، لمعاش مقسوم؛ فليس ينجم النبت إلا به ولا يحيا إلا عنه. وجعل السحاب الذي يسطه كيف يشاء متصلاً بالرياح المسخرة في جو السماء تثيره من حيث لا تعلمون، وتسوقه وأنتم تنظرون؛ كما قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْشُّورُ﴾ ووصل الرياح التي يصرفها في جو السماء بما يؤثر في خلق الهواء من الأزمنة التي لا تثبت الهواجر إلا بثباتها، ولا يزول عنه برد إلا بزوالها؛ ولولا ذلك لظل راكداً بالحر المميت، أو ماثلاً^(٤٧) بالبرد القاتل. ووصل الأزمنة التي جعلها متصرفة متلوثة بمسير

الشمس والقمر الدائنين لكم المختلفين بالليل والنهار عليكم. وجعل مسيرهما الذي لا تعرفون عدد السنين إلا به، ولا مواقع الحساب إلا من قبله، متصلًا بدوران الفلك الذي فيه يسبحان، وبه يافلان؛ ووصل مسير الفلك بالسماء للناظرين سواء. فهذا خلق الله عز وجل، ما فيه تباين ولا تزايل ولا تفاوت؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ ﴿١٠﴾. ولو كان الله شريكًا أو معه ظهير عليه، يمسك منه ما يرسل، ويرسل منه ما يمسك، أو يؤخر شيئًا من ذلك عن وقت زمانه، أو يعجله قبل محيء إبانته، لتفاوت الخلق، ولتباين الصنع، ولفسدت السموات والأرض، وذهب كل إله بما خلق، كما قال عز وجل - وكذب المبطلين: ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿١٠﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِّنْ إِلَٰهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١١﴾

والعجب: كيف يصف مخلوق ربه، أو يجعل معه إلها غيره، وهو يرى فيما ذكر الله من هذه الأشياء صنعة ظاهرة، وحكمة بالغة، وتأليفًا متفققًا، وتدبيرًا متصلًا، من السماء والأرض، لا يقوم بعضه إلا ببعض، متجليًا بين يديه، ماثلاً نصب عينيه، يناديه إلى صانعه، ويدله على خالقه، ويشهد له على وحدانيته، ويهديه إلى ربوبيته، ﴿فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١١﴾ أَيْشُرْكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٢﴾. حقًا ما كرر هؤلاء الجاهلون برههم الضالون عن أنفسهم، في خلق الله النظر، ولا رجعوا كما قال الله عز وجل الفكر. ولو أعملوا فكرهم وأجهدوا نظرهم، فيما تسمع آذانهم وترى أبصارهم، من حوادث حالات الخلق، وعجائب طبقات الصنع، لوجدوا في أقرب ما يرون بأعينهم: من التأليف لترتيب خلقهم، والأثر في التدبير بصنعهم، ما يدلهم على توحيد ربهم، ويقف

بهم على انفراده بخلقهم. فإنهم يرون في أنفسهم بأعينهم ويجدون بقلوبهم، أنها مخلوقة صنعة بعد صنعة، ومحولة طبقة عن طبقة، ومنقولة حالاً إلى حال: سلالة من طين، ثم نطفة من ماء مهين، ثم علقه، ثم مضغة، ثم عظمًا، كساه الله عز وجل لحماً، ونفخ فيه روحاً، فإذا هو خلق آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين، الذي خلق في قرار مكين، من ماء قليل ضعيف ذليل، خلقاً صورته بتخطيط، وقدره بتركيب، وألفه بأجزاء متفقة، وأعضاء متصلة، من قدم إلى ساق إلى فخذ إلى ما فوق ذلك: من مفاصل ما يعلن أو عجائب ما يبطن، ليعلم الجاهلون ويوقن الجاحدون، أن الذي صنع ذلك وخلقه ودبره وقدره وهياً ظاهره وباطنه إله واحد لا شريك معه. فلا يذهبن ذكر هذا صفحاً عنكم، ولا تسقط حكمته جهلاً عليكم؛ وفكروا في آيات الرسل وبينات النذر، فإن في ذلك فكراً للمبصرين، وبصراً للمعتبرين، وذكرى للعابدين، والحمد لله رب العالمين. وأمير المؤمنين واصف لكم، ومقتص من ذلك إن شاء الله عليكم، ما فيه شهادات واضحات، وعلامات بينات؛ ومبتدئ بذكر آيات نبينا ﷺ فيما أنزل الله منها في الوحي إليه، فإنه ما أحد يقرع بآيات النبوة قلبه، ويحصن ببينات الهدى عقله، إلا قادته حتى يؤمن بمحمد ﷺ، لا يجد إلى إنكار ما جاء به من الحق سبيلاً. فأردت أن تكونوا على علم ومعرفة ويقين وثقة من أمر محمد ﷺ وحقه، وما أنزل إليه من ربه عز وجل. فأحضر كتاب أمير المؤمنين فهمك، وألق إلى ما هو واصف إن شاء الله سمعتك. إن الله عز وجل اصطفى الإسلام لنفسه، واختار له رسلاً من خلقه، وابتعث كل رسول بلسان قومه، ليبين لهم ما يتبعون، ويعلمهم ما يجهلون: من توحيد الرب وشرائع الحق: ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. فلم تزل

رسل الله قائمة بأمره، متوالية على حقه، في مواضي الدهور، وخوالي القرون، وطبقات الزمان، يصدق آخرهم بنبوة أولهم، ويصدق أولهم قول آخرهم؛ ومفاتيح دعوتهم واحدة لا تختلف، ومجامع ملتهم ملتئمة لا تفرق، حتى تناهت الولاية والوراثة التي بنى عيسى عليه السلام عليها وبشر بها، إلى النبي الأُمِّي الذي انتخبه الله لوحيه، واختاره بعلمه؛ فلم يزل ينقله بالآباء الأخايير، والأمهات الطواهر، أمة فامة، وقرناً فقرناً، حتى استخرجه الله في خير أوان، وأفضل زمان من أثبت محائد^(٤٨) أرومات^(٤٩) البرية أصلاً، وأعلى ذوائب نبعات^(٥٠) العرب فرعاً، وأطيب منابت أعياض^(٥١) قريش مغرساً، وأرفع ذرى مجد بني هاشم سمكاً: محمد ﷺ خيرها عند الله وخلقها نفساً، على حين أوحشت الأرض من أهل الإسلام والإيمان، وامتلات الآفاق من عبدة الأصنام والأوثان، واشتغلت البدع في الدين وأطبقت الظلم على الناس أجمعين؛ وصار الحق رسماً عافياً، خلقاً بالياً، ميتاً وسط أموات، ما إن يحسون للهدى صوتاً يسمعون، ولا للدين أثراً يتبعونه. فلم يزل ﷺ قائماً بأمر الله الذي أنزل إليه، يدعوهم إلى توحيد الرب عز وجل، ويحذرهم عقوبات الشرك، ويجادلهم بنور البرهان، وآيات القرآن، وعلامات الإسلام، صابراً على الأذى، محتماً للمكروه.

قد ألهمه الله عز وجل أنه مظهر دينه، ومعز تمكينه، وعاصمه ومستخلفه في الأرض، فليس يثنيه ريب، ولا يلويه هيب، ولا يعنيه أذى؛ حتى إذا قهرت البيئات ألبابهم، وبهرت الآيات أبصارهم، وخصم نور الحق حجتهم، فلم^(٥٢) تمتنع القلوب من المعرفة بدون صدقه، ولم تجد العقول سبيلاً إلى دفع حقه. وهم على ذلك مكذبون بأفواههم، وجاحدون بأقوالهم؛ كما قال الله عز وجل

العليم بما يسرون، الخابر بما يعلنون: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وعداوة، وحسداً ولجاجة، افترض الله عليه قتالهم، وأمره أن يجرد السيف لهم، وهم في عصابة يسيرة، وعدة قليلة، مستضعفين مستذلين، يخافون أن يتخطفهم العرب، وتداعى^(٥٣) عليهم الأمم، وتستحملهم^(٥٤) الحروب، فأواهم في كنفه، وأيدهم بنصره، وأنذرهم بمقدمة من الرعب، ومشغلة من الحق، وجنود من الملائكة، حتى هزم كثيراً من المشركين بقلتهم، وغلب قوة الجنود بضعفهم، إنجازاً لوعده، وتصديقاً لقوله: ﴿وَإِن جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فأحسن النظر وقلب الفكر في حالات النبي ﷺ من الوحي قائماً لله، لتجد لمذاهب فكره وتصاريف نظرك، مضطرباً واسعاً، ومعتمداً نافعاً، وشعوباً جمّة، كلها خير يدعوك إلى نفسه، وبيان ينكشف لك عن محضه. وأخبر أمير المؤمنين ما كنت قائلاً لو لم تكن البعثة للنبي ﷺ بلغتك، ولم تكن الأنبياء بأموره تقرر قبلك؛ ثم قامت الحجة بالاجتماع عندك، وقالت الجماعة المختلفة لك: إنه نجم بين ظهري مثل هذه الضلالات المستأصلة، والجماعات المستأسدة^(٥٥)، التي ذكر أمير المؤمنين: من قبائل العرب، وجماهير الأمم، وصناديد الملوك، ناجم قد نصب لها وغرى بها، يجهل أحلامها، ويكفر أسلافها، ويفرق ألافها، ويلعن آباءها، ويضلل أديانها، وينادي بشهاب الحق بينها، ويجهز بكلمة الإخلاص إلى من تراخى عنها، حتى حميت العرب، وأنفت العجم، وغضبت الملوك، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه إليه، وحيداً فريداً، لا يحفل بهم غضباً، ولا يرهب عنتاً، يقول الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أكنت تقول فيما تجري الأقاويل به وتقع الآراء عليه، إلا أنه أحد رجلين: إما كاذب يجهل ما يفعل ويعمى

عما يقول، وقد دعا الحتف إلى نفسه، وأذن الله لقومه في قتله، فليست الأيام بمادة ولا الحال بثابتة له إلا ريثما تستلحمه^(٥٦) أسبابهم، وينهض به حلماءهم، غضباً لربهم، وأنفة لدينهم، وحمية لأصنامهم، وحسداً من عند أنفسهم. وإما صادق بصير بموضع قدمه ومرمى نبله، قد تكفل الله عز وجل بحفظه، وصحبه بعزه، وجعله في حرزه، وعصمه من الخلق، فليست الوحشة بواصلة مع صحبة الله إليه، ولا الهيبة بداخلة مع عصمة الله عليه، ولا سيوف الأعداء بمأذون لها فيه. ثم إن^(٥٧) آيتكم يا أهل الكتاب لو قيل لكم: إن الرجل الذي يدعي العصمة ويتحل المنعة، قد نجمت الأمور به على ما قال، وسلمت الحال له فيما ادعى، حتى نصب لعمارات^(٥٨) العرب، وجماعات الأمم، يقاتل بمن طاوعه من خالفه، وبمن تابعه من عانده، جاداً مشمراً، محتسباً واثقاً بموعد الله ونصره، لا تأخذه لومة لائم في ربه، ولا يوجد لديه غميمة^(٥٩) في دينه، ولا يلفته خذلان خاذل عن حقه، حتى أعز الله دينه، وأظهر تمكينه، وانقادت الأهواء له، واجتمعت الفرق عليه، ألم يكن ذلك حقه يقيناً عندكم، ودعوته ثبوتاً فيكم، حتى تقول الجماعة من حلمائكم وأهل الحنكة من ذوي آرائكم: ما كان الرجل، إذا كان وحيداً فريداً قليلاً ضعيفاً ذليلاً معروفاً بالعقل منسوباً إلى الفضل، ليجتري أن يقول: إن الله عز وجل أوحى إليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يعصمه من العرب جميعاً ويمنعه من الأمم طراً، حتى يبلغ رسالات ربه، ويظهره على الدين كله، ويدخل الناس أفواجا في دينه، إلا وهو على ثقة من أمره، ويقين من حاله.

فسبحان الله! يا أهل الكتاب ما أبين حق النبي ﷺ لمن طلبه، وأسهله لمن قصده له. واستعملوا في طلبه ألبابكم، وارفعوا^(٦٠)... أبصاركم، تنظروا بعون

الله إليه، وتقفوا إن شاء الله عليه؛ فإن علامات نبوته وآيات رسالته، ظاهرة لا تخفى على من طلبها، حجة لا يحصى عددها، منها خواص تعرفها العرب، وعوام لا تدفعها الأمم؛ فأما الخواص المعروفة لدينا، المعلومة عندنا، التي أخذتها الأبناء عن الآباء، وقبلها الأتباع عن الأسلاف، فأمر قد كثرت البينات فيها، وتداولت الشهادات عليها، وثبتت الحجج بها، وتراخت الأيام ببعضها، حتى رأيناها عياناً، وقبلناه إيقاناً؛ فهي أظهر فينا من الشمس، وأبين لدينا من النهار؛ ولكن غيب الأزمان عنكم أمرها، ولم ينقل الآباء إليكم علمها، وما لا يدرك إلا بالسمع موضوع الحجة عن العقل، فليس أمر المؤمنين بمجاجة لكم، ولا قاصد إليكم من قبلها. وأما الآيات العوام والدلالات الظاهرة في آفاق الأرضين، القاطعة لحجج المبطلين، التي لا تنكر عقول الأمم وجوب حقها، ولا تدفع ألباب الأعداء صحة أمرها، فسيولجها أمير المؤمنين مسالك أسماعكم، ويعيد بها حجة الله في أعناقكم، من وجوه حجة وأبواب كثيرة، إن شاء الله: منها أنه لم تزل الشياطين، فيما خلا من فترات الرسل وندرات النذر، تصعد إلى سماء الدنيا، وتنصت للملأ الأعلى فتسترق السمع وتحفظ العلم، وتنزل به إلى كل أفاك أثيم، يبنون أكاذيبهم على واضح صدقه، وينفقون أباطيلهم بحسب حقه، خلطاً للباطل فيه، وثبوتها^(٦١) للعباد عليه. فلما بعث الله محمدًا ﷺ وأنزل آيات القرآن عليه، حرست السماء بالنجوم، ورميت الشياطين بالشهب، وانقطعت الأباطيل، واضمحلت الأكاذيب، وخلص الوحي، فبطلت الكهان، وضلت السحار، وكذبت الأحلام، وتحيرت الشياطين، فكانت آية بينة، وعلامة واضحة، وحجة بالغة، تبهر قرائح العقول، وتخرق حجب الغيوب، فلا يقوم مع ضيائها ظلمة، ولا يثبت عند محكمها شبهة، ولا يقيم معها في محمد ﷺ شك،

لا من أصحابه خاصة ولا من جاء بعده عامة. وإنما جعلها الله عز وجل آية باقية في الغابرين، وحراسة ثابتة من الشياطين، لأن الله جل وعلا جعل نبينا ﷺ آخر النبيين؛ فليس باعثاً بعده نبياً يكذب أقاويل الكهنة، ويقطع أخبار الجنة.

وستقول، فيما يذهب إليه الظن ويقع عليه الرأي، أنت ومن عقل من أمتك وأهل ملتك: هذه آية حاسمة وحجة قاطعة بينة قائمة، مستعلية لأمرها، مستغنية بنفسها، لا تحتاج إلى ما قبلها، ولا يتكل على ما بعدها، إن أقرت العقول بما تقول، أو قامت البينة على ما تدعي، بلى؛ ثم تقول: وأنى لك بالبينة، ولسنا نقر بكتابك، ولا نؤمن برسولك، ولا نقبل قولك فيما قد سبقنا وإياك زمانه، وحجبت الغيوب عنا وعنك علمه؛ فأرجع إليكم إن قلتم ذلك؛ فإن وجدان القضاة قبل طلب البيّنات.

وليس يجعل أمير المؤمنين فيما ينازعك ويحاجك فيه حاكماً غير عقلك، ولا قاضياً سوى نفسك؛ ولكنه يذكرك الله الذي إليه معادك وعليه حسابك، لما جعلت التفهم لمسألته من بالك، وركبت حدودها في جوابك، عادلاً بالقسط، قاضياً بالحق، قائلاً بالصدق ولو على نفسك، ناظراً بالأثرة لدينك؛ فلقد وفق الله لك آية، وأهدى إليك بينة، لا تستطيع دفعها لحجبها من عقلك، ولا حجاباً لنورها دون بصرك، فلا تدفع الآية بقولك، والبينة بلسانك، جحداً بقطع وصول الحجج إليك، ويد^(٦٢) تغلق أبواب الفهم عنك؛ فإن اللسان لك مداول حيث شئت، ومنقاد تصرفه فيما هويت؛ ولكن انصب نفسك للفهم وأنت شهيد، وأرد الحق وقبوله فيما تريد. فإذا تصورت البيّنات مجسدة في قلبك، وتبينت الحجج ممثلة لنظرك، قد أضاء صوابها لك وقرع حقها قلبك، فاجعل القول بها شعاراً للسان به متصلاً. وافهم المسألة فهمك الله الحق،

وجنبك الجحد، ما تقول أنت ومن قبلك في رجل كان يتيمًا ضعيفًا أجيرًا ساهيًا
لاهيًا عائلًا خاملاً، لم^(٦٣) يتل كتابًا، ولم يتعلم خطًا، ولم يك في محلة علم، ولا
إرث ملك، ولا معدن أدب، ولا بيت نبوة، فترأقت الأيام به، واتصلت الحال
بأمره، حتى خرج إلى العرب عامة والقبائل كافة، وحيدًا طريدًا شريدًا، مخذولًا
مجهولًا، مجفواً مرميًا بالعقوق لأهتهم، مقدوفًا بالكذب على أصنامهم، منسوبًا
إلى الهجر لأديانهم، وهم مجمعون على دعوة العصبية، وحمية الجاهلية، متعادون
متباغون، مختلفة أهواؤهم، متفرقة أملاؤهم، يتسافكون الدماء، ويتناوحن
النساء، ويستحلون الحرم، لا تمنعهم ألفة، ولا تعصمهم دعوة، [ولا] يحجزهم
بر، فألف قلوبهم، وجمع شتيتها، حتى تناصرت القلوب، وتواصلت النفوس،
وترافدت الأيدي؛ ثم اجتمعت الكلمة، واتفقت الأفئدة، حتى صار غاية للملقى
رحالهم، ونهاية لمنتجع أسفارهم، وصاروا له حزبًا متفقين، وجندًا مطيعين، بلا
دنيا بسطها لهم، ولا أموال أفاضها بينهم، ولا سلطان له عليهم، ولا ملك
سلف لأبائهم فيهم، ولا نباهة كانت له بين ظهرانيهم.

أقول إنه [ما] قال ذلك كله إلا بوحي عظيم، وتنزيل كريم، وحكمة بالغة!
فإن قلت ذلك فقد أقررت أن محمدًا ﷺ رسول، وتركت ما كنت تقول إنه لم
يدركه ولم يبلغه إلا بعقل سديد، ونظر بعيد، ورفق لطيف، ورأي وثيق، استبى
به عقول الرجال، واستمال عليه أفئدة العوام. فإن قلت فأننا سائلكم بإلهكم
الذي تعبدون، ودينكم الذي تتحلون، لما صدقتم أنفسكم وتجنبتم الهوى
عنكم: أتؤمن قلوبكم، وتقر عقولكم، ويحتمل نظركم، أن محمدًا ﷺ الذي
وصفتموه بكمال العقل، وبيان الفضل، ورفق التدبير، كان يقول لرجالات
العرب، وجماعات الأمم، [و] دهاة قريش: إن من آيات نبوتي، ودلالات

رسالتي، وعلامات زماني، أن الشياطين ترمى بنجوم السماء، ولم تك ترمى بها فيما خلا؛ ثم يجعل ذلك كتاباً يقرأ، وقرأناً يتلى، وهو كاذب فيما تلا، ومبطل فيما ادعى، إبطالاً تدركه عيون الناظرين، وكذباً يظهر لجميع العالمين! سبحان الله! أرأيتم أن لو كان فيما قال من الكاذبين، وعلى ما ادعى من الآثمين، ثم حاول إبعاد القلوب، وإنغال الصدور، وإنفار النفوس، وتفريق الجموع، أكان يزيد على ذلك!

فيا أهل الكتاب لا يحملنكم الإلف لدينكم على اللعب بتوحيدكم! فلعمري الله لئن تداركتم أنفسكم وناصحتم نظركم لتعلمن أن محمداً ﷺ لو حاول الكذب أو رام الإفك، لما كان يترك جميع الأرض، وما يغيب عن بعض الخلق ويظهر لبعض، ويقصد للسماء المتصلة بالبصر، البارزة للنظر، التي لا تخفى على بشر، ولا تغيب عن أحد، فيدعي فيها كذباً ظاهراً، وإفكاً بارزاً مكشوفاً، لا يبقى صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى، إلا عرف أنه إفك وزور، وكذب وغرور، ولا سيما إذا كان يلقي ذلك إلى أقوام أكثرهم أعراب، ليس بينهم وبين السماء حجاب؛ إنما يراعون الكواكب ويتفقدون الغيوم، فأبعد عهد آخرهم بها تفقده لها ونظره إليها، ساعة أو ساعتين، أو ليلة أو ليلتين. لعمر الله لو عثرت العرب من أمر النبي ﷺ على كذب لكان أول من يواثبه به ويجادل فيه أعداؤه من قريش عامة، وحساده من جيرته خاصة، ونظراؤه من أهل بيته دنية الذين كانوا يستعيرونه^(٦٤) لكل طريق، ويقعدون له على كل سبيل، ويتساءلون من أمره عن كل ذي حادث، فيتعلقون بالحروف المشكلة، والآيات المشتبهة، جدلاً وخصومة بها، وطعنًا وإلحادًا ومنازعة فيها، حتى لقد وصفهم الله بفعلهم، وأخبر عن ذلك من أمرهم، فقال عز وجل: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾

وما كان الله عز وجل ليقول ذلك ولا لأحد أن يقوله على الله في أمرهم إلا عن خصومة شديدة، ومنازعة بليغة، ومجادلة معروفة. فأحسن النظر لنفسك، ولا تهلكن شفقة على ملكك؛ فإيم الله لئن قلت إن النجوم شيء كانت العرب تراه بعيونها وتعرفه بقلوبها، فما كان محمد ﷺ، وهو عارف بها غير جاهل لها، ليقول فيها إلا حقًا، ويتحل فيها إلا صدقًا، لقد ثبتت فروع كلامك فيها على أسه، ووصلت آخر قولك له بأوله، ثبوتًا على ما ذكرت من عقده، ولزومًا لما فرطت من نظره، ولكنك لا تجد مع الإقرار بذلك بدءًا من التصديق برسالته، ولا مذهبًا عن الإيمان بنبوته.

ولئن زعمت أنه ادعى أمر النجوم كذبًا وانتحلها باطلاً، عارفًا كان بها أم جاهلاً، لقد نسبته من الخطأ الذي لا يعمى عن بصره إلى ما يخطئ فيه بشر، فأكذبت نفسك، وتركت قولك: إنه لم يكن التأليف لقلوب العرب والجمع لشتيت القبائل، إلا برأي سديد، وعقل أصيل، ورفق بالغ، إلى أحد أمرين لا تجد لكلامك وجهًا تذهب إليه غيرهما، ولا محملاً تضعه عليه سواهما: إما أن تقول: إنه أَلَف قلوب العرب، وفرق جموع الأمم بتنزيل الوحي، فتؤمن أنه نبي؛ وإما أن تقول: فعل ذلك بجهل؛ وهذا قول لا يقبل. كيف يصفه أحد من الجاحدين به المكذبين له بغباوة، أو يرمونه بجهالة، وهم يجوزون به حدود الأنبياء، ويرفعونه فوق أمور العلماء، ويتخطون به مراتب الحكماء، ومنازل الناس تكثيرًا لعلمه، وتسديدًا لعقله، وتثبيتًا لفضله، فيما لا يقدر الخلق عليه ولا تهتدي الألسن إليه؛ حتى لقد نحلوه فعل الرب الذي لا يقدر عليه الخلق في وجوه كثيرة وأنحاء جمة: من ذلك أنه إذا قالت البقيا من أمتنا: كان محمد ﷺ يخبرنا بالغيوب قبل ظهورها، ويصف الأمور قبل حلولها،

ويتجاوز [ما يكون] في زمانه من ذلك إلى ما يكون في زماننا غيباً أطلعه الله عز وجل عليه، أضافوا ذلك علماً إليه، فقالوا: كان أعلم الناس بمواقع النجوم، وأبصرهم بمنازل البروج، وأنظرهم في دقائق الحساب. كيف ولم يكن الحجاز دار نجوم ولا محل حساب ولا معدن أدب! بل كيف والمنجم يقيس ويخطئ، ويشك فيما يدعي، وهو أخو صواب لا شك فيه، وفارس صدق لا قياس معه. ومن ذلك أنه إذا قالت العلماء من المسلمين: كان نبينا ﷺ [عليه] باطن أخبار النبیین، وخفي قصص القرون الأولین، قالوا: كان أحيا الناس قلباً، وأوسعهم سرباً، وأسرعهم أخذاً، يتتبع ذلك ويحبه، وقد رواه وعلمه. سبحان الله! ألا يعلمون أن المتعلم معروف المعلم، متفاوت الحالات، متنقل الطبقات، وأنه ما أحد يؤدب صغيراً أو يطلب العلم كبيراً، إلا وله درجات في علمه، وتارات في أخذه، ومنازل في تعلمه، تارة تلميذ، وتارة مقارب، وأخرى حاذق؛ وبكل ذلك موصوف من أهله، معروف عند قومه، ظاهر لجيرته، مستفيض في عشيرته، لا يجهل أمره، ولا يخفى ذكره، ولا ينسى عند مواضع الحاجة إليه، وتارات الاحتجاج به عليه. ولو كان ذلك معروفاً فيهم، أو موجوداً لديهم، أو ظاهراً عندهم، لما أمره الله عز وجل أن يحتج عليهم ويقول في ذلك لهم: لقد لبثت فيكم عمراً من قبله، لا أتلو قرآنًا، ولا أدعي وحيًا، أفلا تعقلون!

وايم الله! لو كانوا يعقلون أو ينظرون، لعلموا أن معلمه على غير الملة التي يعرفون، لأنه لهم من المخالفين، وعليهم من الطاعنين، يذكر فضائح قولهم، ومعائب أمرهم، ومخازي أسلافهم، وعوائل أديانهم؛ وإنه لو كان معلمه نصرانياً لدعاه إلى النصرانية، أو يهودياً لدعاه إلى اليهودية، أو مجوسياً لدعاه إلى المجوسية. ولو لم يكن له معلم لما وقع على الحقيقة هداية من تلقاء نفسه

ومعرفة بقوة عقله. ولو كان معلمه الشيطان لما دعاه إلى عبادة الرحمن، ولا أمره بهجر الأوثان، وكسر الأصنام، وصلة الأرحام، والإصلاح في الأرض؛ كيف [و] كان الشيطان يصد الناس عن سبيله، ويزهدهم في دينه، وينهاهم عن طاعته، ويخرجهم من عبادته، ويدخلهم في مساخطه، ويحملهم على معاصيه! إنه إذن لرحيم بهم، ناظر لهم، شفيق عليهم، كأنه هو المبعوث إليهم؛ كلا! ما كان لنقذهم من حباله، ويخلصهم من مصايده، ويخرجهم من ولايته وطاعته وسلطانه وخدعه وفتنته وحزبه، إلى غير ذلك من أمره. وما كان لينهي العرب أن يقتلوا أنفسهم، ويتناوحوا حرمهم، ويؤذوا ذريتهم، ولا ليقول لهم: لم تعبدون نحيت الحجارة التي جعلها الله لكم عارا، وتذرون عبادة الرب الذي خلقكم أطوارا! هيهات! لقد ذهبت بالشیطان الرجيم إلى صراط العزيز الحكيم، فقلتم قولاً تنكره العقول، وتدفعه القلوب، وتستوحش منه النفوس. ألا تسمعون إلى قول الله عز وجل: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾. فما كان الشيطان ليرضى للعرب باللعنة والبكم والعمى والصمم؛ فاتق الله ولا تكن من الجاحدين.

ومنها أنه إذا قالت الفقهاء والحكماء: أأنا محمد ﷺ بكلام لم تسمع الأذان بمثله، ولم تقع القلوب على لغته، له رونق كحباب الماء، وزبرج يعلو ولا يعلم عجائب لا تبلى ولا تفنى، وجدة لا تتغير، (قالوا): كان محمد ﷺ أبلغهم قولاً، وأحسنهم وصفاً. فيا سبحان الله! ألا يعلمون أن لو كان القرآن كلاماً للعباد لما أقرت الأعداء من^(٦٥)... بفضلته، ولا عجزت القبائل طراً من مثله، وهو يناديهم في الكتاب ويتحداهم في الوحي، بصوت رفيع، ونداء سميع، فيقول: هاتوا سورة من مثله إن كنتم صادقين، وهم فرسان الكلام،

وإخوان البلاغة، وأبناء الخطب، وأهل عداوة له وبغي عليه، فتستحسر الأبصار، وتثقل الأسماع، وتنعقد الألسن، وتخرس الخطباء، وتعجز البلغاء، وتحار الشعراء، وتستسلم الكهان. ثم لقد قايس البصراء بالكلام والعلماء بالمنطق، بين ما بأيدينا من كلام النبي ﷺ وما جاء به من كلام الوحي، فإذا بينهما بون بعيد وتفاوت شديد، ليس بشبه له ولا مدان ولا قريب. وكذلك ينبغي لكلام الرب عز وجل أن يعلو كلام الخلق، وألا يشبه قول العباد في تأليفه وأحاديثه ومعانيه وجميع ما فيه؛ لأن الله عز وجل لا يشبهه شيء، من ذلك أنه إذا قال المسلمون: كان محمد ﷺ يرى ماضي أسلافنا وصلح آبائنا من العجائب العظام، والآيات الكبار، ما هو جديد عندنا، بين قبلنا فلم يعف أثره، ولم يدرس خبره، ولم يتقادم عهده: من شجرة ناداها فأقبلت ثم أمرها فرجعت، ومن نحو بعير تظلم، وذئب تكلم، وأشباه لذلك كثيرة، ونظائر له عجيبة، قالوا: كان محمد ﷺ كاهنًا حاذقًا، وساحرًا ماهرًا، يشبه بالخيال، ويأخذ بالأبصار. كيف والجموع الكثيرة تصدر عن الأطعمة اليسيرة والمياه القليلة، شباعًا رواء، أيكون ذلك والسحر سواء! والأخذ بالعيون لا يجري في البطون! ولو كانوا ينظرون لدينهم وينصفون من أنفسهم، لعلموا أن أمر الساحر يدور على إفك وغرور، وأن لمحمد ﷺ آثارًا قائمة، ومنافع دائمة. ثم لو كانت الكهانة والسحر يبلغان مثل هذا من الأمر، لبطلت آيات الكتب، وعلامات الرسل، ولعلت الشبهة، وسقطت الحجة، وكذبت النبوة، ولبطل ما كان [يفعله] ^(٦٦) عيسى عليه السلام: من إبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى. فلا يكونن التقليد للرجال مبلغ علمك، ولا القبول لدعواهم بلا بينة. ومن ذلك [أنه] إذا قالت البصراء من أمتنا والعلماء بملتنا: كان النبي ﷺ أميًا لا يحسن الكتاب وحافظًا لا ينسى القرآن، وقلما يجتمع العقل السديد والحفظ

السريع والنسيان البطيء، قالوا: كان أخط الناس يداً، وأذكاهم حفظاً، كان يكتب بالنهار، ويدرس بالليل.

ولعمر الله أن لو كانت الحال كما يقولون والأمر كما يصفون، لما خفيت الصحف له، ولا اكتمت الدارسة عليه، ولما كان يطيق سترها عن أهله، ولا حجابها دون قومه. وكيف تؤمن القلوب وتقر العقول أن رجلاً كبيراً حمل علماً كثيراً وحكماً جماء: من آيات متشابهة، وسور متوالية، وهو صاحب أسفار مترامية^(٦٧)، وأخو حرب دائمة، لا يبطئ لفظه، ولا يسقط حفظه! لولا^(٦٨) أن الله عز وجل كفاه أن يحرك به لسانه، وضمن له جمعه وقرآنه، فقال عز وجل: ﴿سُنْفِرُكَ فَلَا تَنسَى﴾ فلم يكن يسقط واوًا ولا ألفاً، ولا ينسى كلمة ولا حرفاً. ما أبين هذا وأعجبه! وأعجب منه المنكر له.

وأما قولهم في الخط وإكثارهم في الكتاب، فإن الله عز وجل جعله أمياً ليشب حجته، ويصدق مقالته، ولئلا يشك المبطلون في أمره، ويقولون: تعلمه من غيره؛ فإنه قد قال ذلك بطائن من منافقة العرب وطوائف من كفره العجم، فنطقت [به] الأعداء من جيرته، والحسدة من عشيرته، الذين بلغوا [ما بلغوا]^(٦٩) من مجادلة حقه، ومخاصمة ربه، كفا لمن قرب، ووكلاء لمن بعد، فيما لم تكن العرب واقعة عليه، ولا الأمم مهتدية إليه؛ لأنهم^(٧٠) قد أحاطوا من علم خبره، وخفي أثره، بما كان عن غيرهم محتجباً، ومن سواهم مكتئباً. وقالوا: لو كان محمد ﷺ يتعلم من بشر أو يختلف إلى أحد، لما خفي عنا ولسقط^(٧١) علينا. وحقاً لو كان محمد ﷺ يختلف إلى أحد صغيراً، أو يتعلم من بشر كبيراً، لعرف ذلك أترابه المختلفون معه ورفقاؤه والمقتدون، ولما جهل ذلك من حوله من جيرته نصره، ولا من معه من أهل بيته دنية، الذين عليهم

يورد ومن قبلهم يصدر، وكان شائعاً عند حشم معلمه وجيرة موضعه الذين كان يختلف إليهم، ويتأدب بين ظهرائهم. ولو كانوا بذلك عالمين، أو فيه من أمره شاكين، ثم بلغهم وتقرر قبلهم أنه يقول: إن الله عز وجل أوحى إليه، فيما أنزل من الكتاب عليه: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآزْتَابَ الْمُبِطُونَ﴾ لخاصمه منهم من كفر، ولكفر به منهم من آمن. ثم يدعي ذلك قرآناً، ويتحلله وحياً؟ أما كان يرهب أن ينتشر في الأقربين، ويخرج إلى الأبعدين، فتبطل حجته، وتنقض دعوته، وتسقط نبوته، وينفر أصحابه الذين لم يصبروا^(٧٢) معه في المجاهدة أنفسهم، ويبدلوا عند الشدائد مهجهم، وينفقوا فيه على الحاجة أموالهم، مناصبين لأهل الشرق والغرب والعجم وكل الأمم، وهم قليلون مستضعفون عائلون جائعون، لا طلباً لدنيا ولا طعماً في منال، إلا لما تعقبوا من قوله، وعرفوا من صدقه. ولولا أنه أخبرهم ووعدهم أن يغلب كسرى وقيصر لهم، فصدقوا بقوله، وآمنوا بوعدته، حتى قويت البصائر، وصرمت العزائم، وقويت النيات، فنشطت النفوس، وشجعت القلوب، وحملت الأبدان، لما وقع لهم طمع فيه، ولا ذهب لهم وهل^(٧٣) إليه. فكن من ذلك على يقين لا يخلجه شك، ومعرفة لا يخلطها ريب، إن شاء الله.

ومن ذلك أنه إذا قال المسلمون: ما من فعال محمود، ولا مقال معروف، ولا خلق كريم، ولا أدب فاضل، إلا وقد أدب الله عز وجل به محمداً ﷺ وأنزله في الكتاب إليه، فكان يأمر بالمكارم، ويحض على المحامد، ويعمل بالمحاسن التي ليس فيها مدخل لشبهة طاعن، ولا معلق لحجة قائل، ولا مغمز لبصيرة عائب، ولا موضع لخصومة بشر، في وعد أو عهد، أو حل أو عقد، أو مقال أو فعال، أو غير ذلك من الأمور - قالوا: أمور حمل عليها نفسه، ودعاه إليه

عقله، وصبر عليها، لما أمل ورجا فيها. سبحان الله! وما أمل بها وارتجى منها؟ إن قالوا: الدنيا، فلقد أكذبهم إدباره عنها، حيث أمكنته القدرة منها، وأعثرته الحال عليها. وإن قالوا: حب الأثرة، فقد جعل نفسه للمسلمين أسوة: في سهامهم وقصاصهم، وحدودهم وحقوقهم، وغير ذلك من أمورهم. وإن قالوا: الملك، فلقد كان أشد الناس لربه تواضعًا، وأعظمهم في جنبه تصاغيرًا، ما إن أكل متكئًا قط إلا مرة، ثم قعد كهيئة الفرع لها النادم عليها، فقال: «اللهم إني عبدك ورسولك.» وإن قالوا: النعيم، فمن كان أيس منه معاشًا، وأخشن رياشًا، وأغلظ مأكلاً! وكيف يذوق العيش أو يجد لذيق النعيم، من حرم السكر والخمر، ونهى عن الديباج والقز، وكان أكثر دهره صائمًا، وأطول ليله قائمًا! فإن قالوا: طلب الصوت^(٧٤) ورغب في الدين، فذلك ما لم يطلبه أحد في حب الصوت والتماس الحمد لما صبر مغاضب قومه، وملاوم أهله، وشتائم العرب وتوعد العجم، واستهزاء قريش؛ يرمونه بالعقوق، ويقذفونه بالجنون، وييهتونه بالسحر، وليس يدري ما يهجم به الأمر^(٧٥).

أم يقولون طلب تأثيل الملك لقومه، وأراد توطئة الولاية لأقاربه فيكيف يطلب لقومه ما قد زهد فيه لنفسه! أم كيف يطلب لهم عز الملك وقد أوطأهم الذل ثم القتل. لعمر الله أن لو أراد الملك لأقاربه، وأراد طلب السلطان لذوي رحمه، لوكد لهم عقدًا لا يحل، ولأبرم لهم أمرًا لا ينقض، ولأثل لهم في عنفوان أمره ملكًا لا يخرج من أيديهم، ولا يبرح^(٧٦) أبدًا فيهم، امتثالًا لصنيعكم واحتذاء على مثالكُم؛ مع أقاويل جمّة ونظائر كثيرة، لا يستقيم لهم معها أن يقولوا إن محمدًا ﷺ غلب العرب وقهر العجم؛ أو قال في أمر السلطان والنجوم بكذب.

فإن قلت إن محمداً ﷺ كان في قوة عقله وبيان فضله، على ما قلنا وقتلتم وصدقنا به نحن وأنتم، ولكن هفت العلماء وزلت الحكماء وأخطأت القلوب؛ فقد يعلم أمير المؤمنين - وأنتم بذلك من العالمين - أن خطأ قلوب العلماء كخطأ دائرة الرحا، ليست العلماء بمخطئة إلا المرة والثنتين، كما لا تخطئ الرحا إلا الحبة والحبتين. ومثل الذي نسبتم إلى النبي ﷺ من الخطأ عندكم والجهل في أنفسكم، كثير لا يحصيه أحد، ولا يبلغه عدد. وأمير المؤمنين واصف بعضه لكم، ومورد ما حضر كتابه إن شاء الله لكم. وإيم الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين هبوا محمداً ﷺ كان في أمر النجوم من المخطئين، فكيف أخطأت العرب وهفت الأمم في ترك مجادلته ورفض منازعته، وكيف لم تقل العلماء من إفتائه^(٧٧) والحكماء من حكمائهم، توبيخاً منهم له، وتعييراً لمن آمن معه: هذا أمر واضح الأكاذيب وأبطل الأباطيل؛ فلا يثبت مع قولهم إيمان، ولا يقيم على شرحهم إنسان. فإن قلت: فلعل ذلك قد كان، ولكنه درج على طول الأزمان، فكيف إذن صدقت العرب بنبوته، ولم تكفر القبائل برسالته، وهم يسمعون كذباً لا ينفع معه صدق كان قبله، وباطلاً لا يعصم معه حق حدث بعده، وإن قلت: أدخلهم بالقهر وضبطهم بالقتل وأكرههم بالسيف، فما بال القليل من المسلمين الذين قهرهم الكثير من المشركين، ما بالهم آمنوا وصدقوا، وصبروا وصابروا، وجدوا وجاهدوا، كيف لم تنكسر عزائمهم، وتهن بصائرهم، ويرجعوا إلى دينهم، ويهربوا عن توحيدهم! كلا! لو كان الأمر على ما تقول، لارفض القوم عن الرسول، ولكان ﷺ أول مقتول أو مخذول. فأحسن النظر فيما تذهب الأهواء برأيك إليه من آيات النبي ﷺ. وإن جمحت الدعوى بكم، فقائل: قد مالت به الأهواء في الباطل، فقال: إنه إلا يكن الأنبياء ذكرت النجوم في صحفها بينت الحكماء منها ذكراً في كتبها، فجعلت المنقضى من الكواكب بين الأعوام، دليلاً على أمر يحدث تلك الأيام، ولا ما هذا الاختلاق يلط به

الجاهل للفساق^(٧٨). ما إن وضعت الحكماء ذلك في الكتب، إلا ليالي ملئت السماء من الشهب. وبالله لو ادعيتهم غير ذلك فكان حقاً، وكانت القالة منكم صدقاً، لما كانت الدعوى بناقضة لآية النجوم حجة، ولا مدخلة على أحد فيها شبهة؛ لأن رمياً يقع فرط السنين من الكواكب، لا يبطل رجماً قد ملأ السماء من كل جانب. ثم لو لم تكن النجوم آية دامغة^(٧٩)، وحجة بالغة، ودلالة قاهرة، وعلامة باهرة، وأمانة ظاهرة، وشهادة قاطعة، وبينة عادلة، وداعية قائمة، تبطل أظانين المشركين، وتردع أقاويل المنافقين، لما كان النبي ﷺ ليعظم أمرها، ولا ليكرر في أي القرآن ذكرها، رهبة لمناهضة أحياء العرب، ومعرفة بمجادلة إخوان الكتب، الذين لو وجدوا فيما كتب به إليه أمير المؤمنين من أمر النجوم واحتج [به] عليك من ذكر الرجوم، موقعاً لظن أو معلماً بطعن أو مغمراً لقول، لناصبوه إذن بالمجادلة، وكاشفوه بالمنازعة، وجاهروه بالقول الذي لا يستطيع له ردّاً، ولا يطيق له جحداً، ولكنها آية ملأت الأقطار كثرة، وحسرت الأبصار قوة، قد وجلت العقول، وولحت القلوب، وملأت النفوس جزعاً ووجعاً، وفزعاً شغلهم عن الأولاد، وأذهلهم عن البلاد، حتى بلغ المؤمنين وتقرر عند فقهاء المسلمين أن الله عز وجل، لما ملأ السماء حرساً، وأحدث لها رصدًا، وخلق فيها شهباً، ذكرت العقلاء من العرب، وقعات الله عز وجل في الكتب، بقوم نوح وعاد وثمود، وأشباههم من مؤلفي تلك الجنود، الذين كانوا أشد بطشاً، وأكثر جمعاً، فانفرجت أيديهم عن كرائم أموالهم، وأرسلت أنفسهم متائن عقدتهم. وإن أهل الطائف لما فعلوا ذلك بأموالهم، وأجمعوا فيه الخروج إلى فقرائهم، قام فيهم رجل منهم ذو سن وعقل فقال:

يا معشر العرب، لا تهلكوا أنفسكم قبل أن تهلكوا، ولا تخرجوا من أموالكم قبل أن تخرجوا، تفقدوا مواقع نجوم السماء، وكواكب بدور الدجى،

فإن كانت النجوم التي حدث الرمي بها والنجوم التي أخلتكم الأموال لها، هي لبروج الشمس والقمر ومسال^(٨٠) الحيوان والشجر، فهي جوائح الاستئصال، المتلفة الأنفس والأموال؛ وإن كانت النجوم التي حدث القذف بها، إنما هي نجوم خلقت اليوم، فليست المعرفة بواقعة على مبتدأها، ولا الأبصار بلا حقة متتهاها، فأمسكوا العقد^(٨١) عليكم والأموال، فإنه أمر يحدث في إحدى هذه الليال.

فإن قلت: وكيف وقعت الأمور في هذا الرجل كالعيان، وصارت المقالة منه كوعي الآذان، أنبأك أمير المؤمنين أن أوعية الفقه من المسلمين، الذين حملوا إلينا سنن الدين، هم أدوا ذلك إلينا، وأبقوه فخراً^(٨٢)... علينا، فما إن ينفك منهم مفتخر يقول: أبونا الذي حبس على العرب الأموال والعقد، فما إن يدفع القول في ذلك منا أحد. هيهات ما كانت العرب لتقر عند الفخار، إلا بطول هو أبين فيها من ضوء النهار. فافهم ما كتب به أمير المؤمنين في هذا إليك، ولا يكن التعلل فيها بالشبهات أوثق ما لديك؛ فإنه قل حجة إلا وإلى جنبها شبهة تخيل للعقول، وتعرض للقلوب، وتجلجل في الصدور؛ فلا يثبت مع تخليها، ولا يقيم لتعرضها بشر إلا من وزن الحق والباطل بميزان عادل، لا يميل إلى تفريط، ولا ينحط في تقصير. وقد جعل الله عز وجل العقول موازين للأموال، فزنوا ما سمعتم من حجج كلام الرب عز وجل بما تنفون به الشبهة عن الحق، ولا تملوا اللسان، فتخسروا الميزان. وسيعلل أمير المؤمنين إن شاء الله بما جاء عن ذكر ما كتب به إليكم من أمر النجوم والرجوم والشهب في القرآن والرواية والكتب؛ فآلفوا النظر في صحة معانيه، ونحو الهوى عن شبهة ما^(٨٣) وقعت فيه: قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾

وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (٣١) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿وقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ وإن شطب عن الحق شاطب، أو ذهب إلى الباطل ذاهب، لا يعرف مذاهب كلام العرب، ولا وجوه معاني الكتب، ولا تفسير آي القرآن، فقال: إنما جعلت الكواكب والمصابيح حفظاً من الله عز وجل للسماء، ورجوماً للشياطين من قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ بالدين.

فإن في آيات القرآن ما فيه بيان مما يبطل دعواه التي لا بينة عليها، ويكذب مقالته التي لا شهود لها؛ فقالت الجن - فجعل الله تبارك وتعالى قولها وحياً - وبه منها صدقاً: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾. ألا ترون أنها كانت الجن لمست السماء فلم تجدها ملئت حرساً شديداً وشهباً، وقعدت الشياطين منها مقاعد للسمع فلم تجد شهباً ولا رسداً، أولاً^(٨٤) يسمعون إلى ما يحقق ذلك ويسدده ويصدقه ويشهد له من قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ﴾ (٣٢) نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٣٣) يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ ﴿مع قول الجن أيام حرست السماء ورميت الشياطين: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾. فإذا أعملتم في ذلك فكركم، وقلبتهم فيه نظركم، فكنتم على برهان يقين، ونور مستبين، من استطاعة الجن للاستماع، وقدرة الشياطين عيسأل يعطى ومن يطلب يجد ومنلى الاستراق، وإمكان السماء للعود في تلك الحال الأولى، ففكروا في الحال الأخرى حيث حرست الآيات أن تعارض باطلاً بحق، ومنعت الشياطين أن تنزل بصدق، وامتنعت السماء أن يصعد إليها شيطان؛ فقال الله عز وجل: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٣٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٣١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿. قالت الجن:

﴿وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقْعِدَ لِسَمْعٍ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا﴾ إن في قولهم الآن لأعظم نور وبيان. وأبين من ذلك لكم وأصح لمن عقل إن شاء الله منكم، إخبار الله عز وجل حين جعلت الكواكب حفظاً من كل شيطان مارد، أنهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمٍ إِلَّا أَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصْبٌ﴾ مع إخباره في الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعدون وينزلون ويستطيعون ويتلون على ملك سليمان، فكن لهذا من الحافظين، وفيه من المفكرين.

ومن آيات النبي ﷺ أنه لما نفرت القبائل من أعلام الشرك بجموعها، وتداعت القادة من صناديد الكفر بأتباعها حذراً على غير لها أقبلت من الشام بصنوف رغائب أموال عظام، فكانت العير والنفير طائفتين: طائفة ذات عدة كثيرة وشوكة شديدة، وطائفة ذات أموال رغبة ورجال قليلة وفرصة ممكنة، أخرج الله عز وجل نبيه ﷺ ووعدته ومن معه من المسلمين إحداهما، فكره المؤمنون جموع المشركين، وأراد الله عز وجل أن يقطع دابر الكافرين، ويشيد بذلك أركان الدين، فلما تراءت الفئتان، وتناوشت الفرسان، وتلاقى الناس، وقبل ذلك ما قال الله عز وجل: ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ قبض النبي ﷺ قبضة [من تراب] حثاها في وجوههم، فلم يتناه دون مناخرهم وعيونهم، فانصرفوا منهزمين بلا كثير قتال من المسلمين. يا أهل الكتاب، فأيتما آية أعظم حجة وأوضح بينة وأقهر غلبة من هذه التي لو صدرت الأمور بلا تحقيق لها، لانفضت الجموع من المسلمين كفاراً بها. أبشارة الله المسلمين بإمداد الملائكة المقربين، وهزيمة نفير المشركين، التي نجمت الأمور عليها، وتناهت الحال بهم إليها. أم قبضة من تراب يسير، ما ملأ المناخر من عدد كثير.

فلئن قلتم: إن هذه آيات بينات، وعلامات واضحات، ولكننا [لا] نقر لكم بها ولا نؤمن بقولكم فيها.

أفتؤمنون أن محمداً ﷺ مع ما نسبتموه من الفضل إليه، كان يخلقها كذباً من تلقاء نفسه، ثم يدعيها حياً من عند ربه، وهو لا يدري لعل الأمور [تقع] بخلاف ما يقول، فيظهر كذبه، ويرفض تبعه. وإن تزعم^(٨٥) أن أصحابه كانوا كثيراً أقوياء، نشاطاً جلداء، فكان على معرفة بقوتهم ويقين من غلبتهم؛ فقد قال الله عز وجل: وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ. ولم يكن الرسول ولا غيره ليخبر أصحابه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم، ثم يدعي ذلك تنزيلاً من ربهم. هذا لا تقبله الآراء، ولا تقر به الحكماء، ولا يحده النظر.

أم تقولون: إنما أراد محمد ﷺ ببيشارته لهم وإخباره ما أخبرهم من هزيمة الله عدوهم، أن يشجع جنهم ويقوي ضعفهم، فكيف إذا لم يبق^(٨٦) لما كان يرى من كثرة المشركين وقوتهم، وضعف المسلمين وقتلهم، بظهور الأنباء على خلاف قوله، وأن يحتال^(٨٧) الخبر على غير ظنه، فيقع ظفر يكذب نبوته، ويقطع حجته، ويكون له ما بعده! وكيف إذا لم ينسب الأمر إلى نفسه وينحي الخبر عن ربه، ليكون الخطر أصغر والشأن أيسر، إن جرت الأقدار بما يحذر، أو وقعت الأمور على ما يكره. ولكنه أثبتته في كتاب مسطور، ورق منشور. فعل لعمر الله يدل على النبوة التي كان بها واثقاً، ويهدي إلى الوحي الذي كان إليه ساكناً. وإن عرض لنظرك، أو وقع في خلدك، أن الله عز وجل عود محمداً ﷺ الغلبة وأجراه على المنعة، فكان يجري على عادة قد عرفها، ويسلك جادة قد خبرها؛ فلقد كانت الهزيمة في أول وقعة أوقعها الله، ثم لقد دالت الحرب فيما^(٨٨) بعد سجلاً فيما بينه وبينهم: تارة عليه لهم، وأخرى له عليهم. فناصرحوا الله عز وجل في نظرهم، وقلبوا فيما يقول أمير المؤمنين فكرهم. فلعمر الله

ما كان النبي ﷺ ليقول للملوك المشركين: إن الله هزمكم برمية من تراب وهو يعلم أنه عنده من الكاذبين. فأحضر كتابي هذا فهمك، واصبر له وإن خصمك؛ فإن هذه آية عظيمة، وحجة بليغة، وبينه عجيبة، في غلبة العرب.

وأعجب من هذه والطف، وأكثر منها وأعظم، الآية في غلبة العجم. واستمع: أمر الله نبيه ﷺ أن يقول للمؤمنين - وكانوا كما قال الله عز وجل قليلاً مستضعفين: إن قبائل العرب ستتحزب عليكم، وإن الله سيهزمهم لكم، وحياً أنزله في الكتاب، فقال: ﴿جُنُودًا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾؛ فكان أصحاب رسول الله ﷺ بعد ما نزل هذا القول عليه بدهور طويلة وسنين كثيرة، محبوسين محصورين في حومة الموت وعسكر الخوف وخندق القهر وذل الحصر، سوادهم الأعم وجلهم الأعظم حفاة عراة عالة، إخوان دير، وأصحاب وبر، لا قوة بهم، ولا منعة لهم، ولا أسلحة عندهم، ولا عدة معهم، قد أهدت العرب بعسكرهم وأحاطت القبائل بخندقهم، وسالت الأحزاب تصديقاً لحتم الله عليهم، تريد أن تزلزل أقدامهم وتهريق دماءهم؛ فكان المؤمنون كما وصف الله عز وجل من سوء الحال، وضيق المآل، وشدة الكظاظ؛^(٨٩) فإن الله قد وصف لهم حالهم، وأذكرهم فعلهم؛ ولم يكن النبي ﷺ ليصف لهم عن الله ما يجهلون، ولا ليذكرهم من أمره ما لا يعرفون؛ حذاراً أن تنكسر عزائمهم وتتغير بصائرهم، فتنهزم أفئدتهم وتموت نجاتهم، وتختلف كلمتهم؛ فقال الله عز وجل: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا﴾ (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿ حَتَّى قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ لَأَهْلُ الْمَدِينَةِ: ﴿يَتَأَهَّلَ يَرْبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ،

فأذن لنا. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾. فبينما هم على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفريقهم في الجبال، وتقسيمهم بالقداح، وأخذهم بالأيدي، إذ قال لهم الرسول ﷺ، فيما ينبئهم به من علم الغيوب، ويبشرهم به من أمر الفتوح: «إِنَّ اللَّهَ سَيَنْصِرُكُمْ عَلَى جَمْعِ الرُّومِ وَيَغْلِبُ لَكُمْ جُنُودَ فَارَسٍ فِيَهْزِمُ لَكُمْ جُنُودَهُمْ وَيُورِثُكُمْ قُصُورَهُمْ وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَيَبْدِلُكُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِكُمْ أَمْنًا». وعدًا صدقه الكتاب، وبشارة نطق بها الوحي، فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

فقال أقوام وأناس ارتابوا حين تضايقت الحال، وتزلزلت الأقدام، وطارت القلوب، ودارت العيون، وأشرف الموت: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا أيعدنا هزيمة جموع الأحزاب، وفتح قصور الشام، وغلبة جنود كسرى، وقد سالت القبائل علينا من كل جانب، وأحرق الموت بنا من كل مكان، فبقينا في مسغبة من الجوع، ومجهدة من الخوف، وضنك من الحال، مقهورين مقموعين^(٩٠). وقالت الخاصة من المؤمنين حين عاينوا الجموع من المشركين. وذكروا ما خبرهم الله من تحزبهم عليهم ومسيرهم إليهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾. فبينما أصحاب النبي ﷺ في مضايق تلك الحال، وشدة ذلك الخصال^(٩١)، وعموم تلك البلايا الباهظة، والأمور الفادحة، التي قد أخذ بأنفاسهم غمها، وبلغ مجهودهم كربها، رافعين إلى الله عز وجل أيديهم، يقبلون في السماء أعينهم، إذ أرسل الله على تلك الجنود الكثيفة والجموع العظيمة والأحزاب المقتدرة،

ريحاً من الأرض وجنوداً من السماء، فقطعت الأبنية، وطيرت الأمتعة، وسفت التراب في العيون، وقذفت الرعب في القلوب، فولوا مدبرين، وخرجوا منهزمين، لا يلوي والد على ولد، ولا مولود على أحد. أمر صدق الله فيه قوله، وأنجز به وعده، وهزم الأحزاب وحده، وذكر المؤمنين نعمته فيهم، وعرفهم منته بهم، فقال: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝١٠﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝١١﴾ وقال عز وجل: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝١٢﴾ ما كان الله عز وجل ليقْتَص على المسلمين في أنفسهم، إلا ما قد رأوه بأعينهم.

لولا أن هذا ما لا ينكره عقلك ولا يدفعه نظرك، لما جادلتك بالكتاب، ولا نازعتك بالتزليل. وإني لأترك من آيات النبي ﷺ وعلامات الوحي، ما هو أعظم من هذا وأبين وأجل وأوضح. ولكن ليس لي أن أحاجك من آيات القرآن، إلا بما عليه شاهد من برهان، ومخبر من بيان؛ لا يستطيع عقلك ردًّا له ولا قلبك جحدًا له. وكيف ينسب لسانك أو يجترئ قلبك أن يقول: إن محمدًا ﷺ أخبر أصحابه بالكذب وهم يعلمون، فاقْتَص عليهم من أمورهم ما لا يعرفون! لا! ما يسوغ لك ولا يجمل بك، ولا يقبل منك أن محمدًا ﷺ يقول له من تلقاء نفسه؛ كيف! أما كان يخاف أن يكذبه أصحابه، وتنتقل أحواله، وتنتقض أموره! لعمر الله لو وصفت بهذا من لا يعرف بفضل ولا ينسب إلى عقل، لما كان سائغًا لك ولا جائزًا منك، فكيف تصف به من يرفع عن الناس قدره، ويفضل عليهم عقله! وتقر أنك لم تر في الدنيا أحدًا صنع [ما صنع]

وبلغ ما بلغ! فأيتما آية فيما اقتصر عليك أمير المؤمنين أعظم أو بينة أعجب: أما كان يتلى على المؤمنين في الكتاب من اجتماع قبائل الأحزاب بجنود عظيمة قبل اجتماعهم بسنين كثيرة، أم ما كان^(٩٢) ينادي به القرآن من الهزيمة لهم وينطق به الوحي من الفتح عليهم، أم قول النبي ﷺ لأصحابه: «إن الله عز وجل يؤمن خوفكم ويعزز نصركم على الأمم» وهو على تلك الحال ثم نجمت الأمور على ما قال، أم عسكريان مطابقان وجيشان متقابلان، باتت الريح تحوس^(٩٣) أحدهما حتى انهزموا، وبات الآخرون منها في عافية وغفلة حتى أصبحوا؟ فأحسن النظر في أمرك، والتثبت في دينك إن شاء الله.

واعلم أن من أعظم الآيات وأبين الدلالات، على نبوة محمد ﷺ وحقه، وأن ليس يتقول شيئاً من تلقاء نفسه، أنه قال في عنفوان أمره: «إن الله عز وجل سيظهر ديني على الدين كله» وجاء مع ذلك بأثرة عن ربه، في كتاب مخطوط وتنزيل محفوظ. فأَي أمرٍ لك^(٩٤) أدل، أو أيها عندك أعجب، إذ كنت بنبوته مصدقاً، ولرسالته محققاً: الخبر الذي أخبره، أم الفعل الذي صدقه؟ لئن نظرت بعقلك وقلت في نفسك: كيف ترقى إلى هذا نيته وارتفعت نحوه همتته، أم كيف امتدت إليه بطنته وقويت عليه رويته؟ بل كيف دعت إليه نفسه، وشجعه عليه قلبه، ودخل فيه طمعه، وطاوعه فيه لسانه، وهو يذكر جنود كسرى، وجموع الروم، وملوك الترك، وملوك الشرك، وقبول اليمن، وصناديد الأمم؟ إن هذا لعجب، ولا سيما إذا لم يكن في إرث ملك قاهر، ولا كنف عز غالب، ولا معدن علم سالف.

ولئن أعدت النظر وكررت، فقلت: كيف وافق خبره أثره، وكيف صدق فعله قوله، حتى غلب الشرق والغرب! إن هذا لعجب! وأعجب من هذا

أمر يدلك أمير المؤمنين عليه، ويهديك إن شاء الله إليه: لو قلت لأهل مملكتك ومن قبلك من أمتك: هل بلغكم أو تقرر قبلكم، أنه كان في الدهر الأول، والعصر الخالي، أحد مثل محمد ﷺ بدأت الأمور به مثل حاله من الوحدة والضعف والذلة والقلّة، وصدرت الحال به كفعاله في الغلبة والمنعة، والقهر والظهور، وغير ذلك؟ لقالوا لا.

ثم أنت لا تؤمن بمقالته، ولا تقرر برسالته، إلّفاً لدينك، وضناً بملكك، وطمعاً في قليل من الدنيا قد نعه الله إليك، ورغبة في صباغة عيش غير باقية في يديك؛ فهذا عجب. وأعجب من هذا أمر يقفك أمير المؤمنين على نور حقه، ويوضح لك إن شاء الله بيان أمره: أصبحت العرب طراً والأمم جميعاً في محمد ﷺ ثلاثة لا رابع لهم ولا مخرج للحق من بينهم: رجل مصدق به من المؤمنين، ورجل مكذب به من الكافرين، ورجل شاك فيه من المنافقين. فأما الشاك فلما قيل له: أخرجت نفسك من الحق، وأبرأتها من الصواب، وأقررت عليها بالخطأ، لقولك: لا بد أن يكون الحق في التصديق أو التكذيب، ولست على واحد منهما، اعتزل عنها.

وأما المكذب فلما قيل له: أنت منكر والمنكر ليس بمدح، ومن لم يدع لم يلزمه بينة ولا يسأل عن حجة، اتبع صاحبه. وإيم الله على ذلك، لو سئل هذا المدعي عن بيته وكشف حجته، ف قيل له: من أين عرف قلبك، وأيقنت نفسك إيقاناً لا يحالجه شك، ومعرفة لا يشوبها ريب ولا ينازعها شبهة، أن محمداً ﷺ ليس برسول، لما دري ما يقول؛ لأنه لا يستطيع أن يقول على الرسل، ولا أن يتكذب على الكتب، فيقول: قد أخبر الله فيها أنه لا يبعث نبياً، ولا ينزل وحياً في كتاب مسطور، بعد التوراة والإنجيل والزبور. بل قد يجد أهل الكتاب في أقاويل رسلهم وأخبار كتبهم، أن الله تبارك وتعالى ينزل كتاباً جديداً أو كلاماً حديثاً،

بعد خراب بيت المقدس في آخر الزمان، ولم ينزل بعد ذلك كتاباً إلا القرآن. وأما الرجل المصدق بمحمد ﷺ ف قيل له: أما أنت فقد ادعيت، والمدعي يسأل عن الحجة ويقبل منه البينة، فما بينتك ومن يشهد لك؟ فقال: ألم تقولوا: إن الحق لا يخرج من بيننا، ولا بد أن يكون مع بعضنا؟ قالوا بلى! قال: فأية بينة أحق وأعدل، وأي شهود أذكى وأفضل من شهادتكم بسقوط صاحبي وثبوت الحق من بعدهما في يدي؟ قالوا: إن الأمر لكما تقول، ولكن البينة أشفى للصدور؛ فأقام بينة من الكتاب، وشهوداً من الوحي، وآيات سوى ذلك عظاماً، وبيانات عوام، من كلام لا يقدر عليه الخلق، وصدق لا يكون إلا من قبل الرب، شبيهاً بما أورده أمير المؤمنين عليكم، وكتب به في صدر كتابه هذا إليكم، مما قد تشهد له قلوب الأمم، ويزكيه فعال العرب.

فلما أقام بينته، وثبتت حجته، ووجب حقه، وقضى به له، قيل له: وكيف توسعت الأمور عليك، وضافت المقالة لك، أن تقول: إن الله لا يبعث نبياً بعد محمد ﷺ ولا وحياً ينزل غير القرآن، فأبطلت الكتب المحدثه، وأكذبت الوثيقة، ولم تترك وحياً غير القرآن، ولم يجز للنصارى أن تقول: لا نبي بعد عيسى عليه السلام، ولا كتاب خلف الإنجيل؛ وعن ذلك من أخبار الكتب ما قلنا كل متنبئ^(٩٥) بعد نبينا كذاب، فشاعت وجازت الحجة، ووضح العذر. وأما النصارى فيجدون في أواخر كتبهم، وأقاويل رسلهم، أن الله عز وجل، يبعث نبياً حديثاً، وينزل كتاباً جديداً، فليس لهم أن يكذبوا نبينا ﷺ ولا أن يردوا كتابنا.

فهؤلاء الثلاثة. أما الشاك فسقط، وأما المنكر فبطل، وأما المصدق فثبت ثبوتاً ليس فيه مدخل شبهة، ولا موضع لحجة، ولا معلق لمنازعة. وذلك أن

المنكر لوجوب حقه، والشاك في ثبوت صدقه، لا يجد بداً من أن ينحي الصدق عن الخلق، ويخلي الدنيا من الحق، وهذا قول المكذبين بربهم، الشاكين في بعثهم، فأحسن النظر في معانيه ينكشف لك عما فيه، إن شاء الله.

ومن آيين آياته وأدل علاماته ﷺ ووسع له فيما صدر إليه: أنه لما أخبرت النصارى واليهود أنهم لم يجدوا محمداً ﷺ في التوراة والإنجيل موصوفاً مكتوباً، تجمعت العلماء منهم، وتدارست الكتب فيما بينهم؛ فلما نظروا إلى اسمه وعاینوه بنعته، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ويستفتحون بذكره على من سواهم، [كفرت] طائفة حسداً من عند أنفسهم، وجحداً من بعد ما تبين لها، وآمنت طائفة، تصديقاً بكتابتها، وخوفاً من ربها.

فلعمر الله لو [لا] أن الذين آمنوا بحقه وصدقوا بأمره، رأوا صفته عياناً، وقبلوا نعته إيقاناً، لما فارقوا أديانهم، ولا جادلوا إخوانهم، حتى وقفوهم على اسمه ونسبه، وصفته وعلامته، وهم علماء بني إسرائيل، وحملة الإنجيل: من أهل الكتاب الذين احتج الله عز وجل بهم على العرب، فقال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾. ولعمر الله إنها آية عظيمة، وحجة بليغة، ذكرها الله في كتابه، وجعلها على العرب من بيناته، فقال لهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٨٧) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً مِّمَّنْ لَهُ الْآيَةُ الْعَظِيمَةُ. يقولون: وعدنا أن يرسل رسولا، فقد أرسله، وحقق قوله، وصدق وعده. واحتج النبي ﷺ بذلك وذكره. ولم يكن النبي ﷺ ليجادل ويحتج في أمرهم بكذب وباطل، ولم يكن ليقول للنصارى واليهود، فيما ذكر الله من صدق الموعود: إنه في التوراة والإنجيل مكتوب موجود، إلا وهو من ذلك على حق يقين، ونور مستبين. وكيف كان يستشهد

من التوراة والإنجيل بكذب، ويتقول عليهم الباطل، مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعي به إيمان أحياء العرب. أما كان يعلم أنه إذا قال لهم: إنه موجود في مثاني كتبهم، وسمي على أفواه رسلهم، فلم يجدوا خبره يقيناً، ولا وصفه مستبيناً، أنهم سيدبرون عنه إدباراً، تزداد به العرب نفاراً، إلا أن يقولوا خطأ من علمه، وهواء من خبره، فكيف لم يخط إذن في كتبهم حرفاً غيره، ولم يخالف منها شيئاً سواه، سبحان الله! لقد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بكم، فأنتم إن تنكر ما يقولون لكم، مما ليس لذي لب أن يأذن له أن يؤمن به، ولا أن ينبذ إليه سمعه^(٩٦)، يقولون: إن أنبياء الله ورسله، المبعوثين بالرحمة إلى خلقه، لطفت النبوة منهم، ووقعت الأخبار المنزلة عليهم، على صغائر الأمور، وغوامض الخطوب، فسار الناس عليها، وأشاروا لهم إلى طلبها، فهي مكررة في مثاني كتبهم، وبطون صحفهم، وأقاويل رسلهم، وتركوا من كلام الله النبأ العظيم، والأمر الكبير، والذكر الحكيم، الذي ملك آفاق الأرضين، واستفاض على جميع العالمين، لم يذكره بخير يأترون به، ولا بشر ينتهون عنه؛ كلا! ما ترك الله على هذا خلقه، ولا بهذا وصف تبارك وتعالى نفسه؛ إنه لأرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين.

ولئن رجعت إلى قلبك، لتقولن في نفسك: لعمر الله لو كان هذا الأمر الذي طلع طلوع الشمس، وامتد امتداد النهار فبلغ مشارق الأرض ومغاربها، وسهول الآفاق وحزونتها، حقاً وصدقاً وعدلاً، لبشرت الكتب به، وتنبأت الرسل عليه، ودعت النذر إليه، تزييناً له وترغيباً فيه، وأمرًا به. ولو كان ضلالة وجهالة وعماية، لتقدموا في التحذير منه، والتزهيد فيه، والتثييط عنه؛ فيدعو ذلك إلى أن تنظروا^(٩٧) إلى كتب الأنبياء وأقاويل الرسل. فإيم الله لئن طلبت

لتجدن، ولئن اجتهدت لتوفقن، وما الصواب بممنوع، ولا الخير بمحذور. ولقد كانت العلماء بالكتب والبصراء بالتأويل تجده، ولكنها كانت تكتمه بتحريف كلام الكتب عن مواضعه، وصرف تأويل الحكم إلى أشباهه، حسداً من عند أنفسهم وبغياً بعد ما تبين لهم. ثم لقد اقتديتم بهم وجريتم معهم وأخذتم عنهم، بلا حجة لكم، ولا قوة معكم إلا الاقتداء بالأباء والاتباع للآثار. فاتق الله في نفسك، واتهم الرجال على دينك، ولا تجعل النظر إلى غيرك من ذوي الشك في القلوب، والفسخ في^(٩٨)... والتهم في التعطيل، الذين لعلهم يعرض لآرائهم ويقع في أوهامهم أن يقولوا: فلعل ما يتلو عليكم أمير المؤمنين من آيات القرآن، ويقرّع لكم من حجج الوحي شيء زيد في المصاحف بعد النبي ﷺ. وهذا ما لا يحتمله عقل صحيح ولا نظر قوي، وذاك الشاك في شهادات الرجال، متفقة من بلدان وأمصار مختلفة، وشعوب وقبائل متفرقة، ليس يدعوهم إلى ما شهدوا دين، ولا يحملهم على ما اتفقوا عليه دنيا، لا يستقيم له أن يؤمن^(٩٩) بما لم تدركه جوارحه وتحيط به حواسه؛ لإسقاطه حجة الإجماع وإبطاله شهادة العوام. واتفاق المختلفين دلالة واضحة. فهو سائلكم عن الحجة في الإنجيل والبيّنة على التوراة، شكاً في الرب وتكذيباً بالرسول، فما كنت قائله له أو مجيبه به في كتابكم، فأجبه بمثله في كتابنا وإن كانت الأحوال منها غير معتدلة ولا مؤتلفة ولا مرتفعة ولا واحدة، تعتدل حالاهما، ويتفق أمرهما، من كتابكم ما لم تنزل به الملائكة وحياً كالقرآن، ولم يشافه المسيح به أصحابه باللسان، إنما كان فعلاً أثبت من بعده، ولم يكن الفعال موضوعاً بعده^(١٠٠). وليس يكتب أمير المؤمنين بهذا إليكم شكاً فيه، ولا يورده عليكم مرية به. ولقد علم أمير المؤمنين أن كتب الله عز وجل محفوظة، وأن حججه مخزونة،

لا يزداد فيها على تقادم عهد، ولا ينتقص منها على تقارب دهر، وأن ذلك ثبت في الإنجيل من بعد عيسى عليه السلام، وأنه قال لمن اجتمع إليه من الحواريين: «بالوحي أكلمكم، والأمثال أضرب لكم». فأمثاله المضروبة كلام، وكلامه الرائع وحي. ولكن ما بال الشك يُنفى عن كتابكم، بحجة الاجتماع عليه عندكم، وهو على ما وصف أمير المؤمنين لكم، وسيان في تنزيل كتابنا، وقد أدرك شهادة دينه، إما ما قربا^(١٠١) من عهده ومعاينة وحيه واجتماع على حفظه، هذا حكم مختلف.

فقل للذين يشكون فيه ويرتابون به: أوقعوا أوهامكم على حالات الأوقات التي تعرفون وقوعها^(١٠٢) بطبقات الرجال الذين يتهمون.

فإن قالوا: أما طبقات الرجال التابعين، وحالات زمان أمير المؤمنين، فذلك ما لا يسوغ الأقاويل فيه، ولا تدخل الشبهة عليه، لانتشار القرآن وامتداد الزمان وكثرة الحملة لآياته فيهم، والحفظة للسانهم؛ ولكن الدين الذي نزل به القرآن، وقبض النبي ﷺ بين أظهرهم. وكيف بوقوع تهمة أو دخول شبهة، على أقوام [لبث] النبي ﷺ عشرين حجة فيهم يتلو كتاب الله عز وجل في كل عام عليهم، حتى حملوه في صدورهم، وحفظوه في قلوبهم، وكرر في آذانهم مسموعاً، وأمر على أبصارهم مكتوباً، وجرى على ألسنتهم متلوّاً، وجمعه كثير منهم محفوظاً؛ ثم توارثوه فيهم وتداولوه فيما بينهم، حتى أدوه إلينا، وأوفوا به عندنا، من مواضع متفاوتة، وأصناف وأجناس متباينة، على كلمة واحدة!

فإن قالوا: اتفقت الرجال على الزيادة فيه وأمكنت الحال من الحمل عليه، فليعلموا أن المؤمنين المخلصين ليسوا في الزيادة متهمين، وأن المنافقين الملحدين ليسوا على ذلك بقادرين. وكيف يقدر القليل من المنافقين على مخالفة الجمع من

المؤمنين، بعد ما حفظته قلوبهم، ووعته أسماعهم، ثم تكتتم القدرة لهم وتستتر الزيادة منهم! هذا ما لا يقدر عليه منافق، ولا يطيقه مشرك ولا فاسق. وإيم الله أن لو قدرت اليهود على الزيادة في الإنجيل، لأفسدوا كتابكم وغيروا دينكم؛ ولو جعل الله المنافقين على الزيادة في كتابه قادرين، لبدلوا ديننا وغيروا حالنا. ولو كانوا لذلك مقرنين وعلى ذلك مقتدرين، لكان الذي كتب به أمير المؤمنين إليكم، وأورده من حجج الله عليكم، أولى ما تلقون، ورأس ما تقترفون. فلا تلقين إلى ما قاله [المضل] سمعك، ولا تنصت الدهر إليه ذهنك، فإنه اتخذ الشك في كتابنا ذريعة إلى الإخلال بكتابك، وسلمًا إلى الشك في دينك^(١٠٣) وعلة في الطعن على ملتك؛ ولكن قل يا ولي الشيطان: أنى وقع لك إيمان بأنك من ولد فلان؟ أتقول: شهدت الجيرة، واجتمعت العشيرة، واتفق المختلفون، فذهب الشك، وزال الريب، ووقع الإيقان، من غير العيان؟ صدقت. فما بال الشك فيما اجتمعت العامة على القول به، واتفقت الجماعة في الشهادة عليه من آيات الكتب وبينات الرسل! وإن ذهب بهذا عن أمره، وباعده^(١٠٤) عن شبهه، فتؤمن أنه من نطفة خلق، ومن رحم خرج، فإن جحدوا بي ألا يؤمن بما لا يرى، فقل: أرايت لو كنت سميعًا أعمى، أكنت تؤمن بشيء مما في الدنيا: من سماء أو هواء، أو بحر أو سبع، أو أرض أو جبل، أو شبه ذلك مما لم يدركه العيان ولم يقبله إلا عن الناس؟ فإن قال نعم، فقل: فهل لك إلا بالاجتماع الكفر بالرب^(١٠٥)، وما لدائه دواء غير الصلب. فاتق الله إذ كنت إمامًا وقائدًا لأهل ملكك، لا تقدمهم إلى النار فتحمل أوزارهم مع وزرك.

فإن من أئين آيات الوحي، وأدل علامات النبي ﷺ أنه لا يبتدع في الدين أمرًا من تلقاء نفسه، ولا يتقدم في الأمور بين يدي ربه. والله أظهر فيما أنزل

من الكتاب أموراً كان يحسبها ﷺ مستورة، فقالت تأديباً له، وإخباراً لمن آمن من بعده^(١٠٦): ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾. وقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ۚ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِكْرَى ۚ (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَفْخَى ۚ (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ ۚ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ (٨) وَهُوَ يَخْشَى ۚ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۚ (١١)﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ تَبْنِيَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۚ (٧٤)﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا ۚ. وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدس إلى البلد الحرام حين سكنت القلوب إليها، وأنست النفوس بها: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۚ﴾. وكانت القبلية التي صرفه الله إليها وأمره بها عظيمة على المنافقين واقعة بخلاف الكافرين، كبيرة^(١٠٧) إلا على الذين هدى الله من المؤمنين؛ فإنهم قالوا: إذا اختلفت القبلتان واختلفت الجهتان، كانت الطاعة فيهما واحدة لا اختلاف فيها ولا افتراق عليها. وكيف تختلف الطاعة من رجل بنى بأمر الله عز وجل ثم هدم بوحي الله.

فإن قلت: إن الله حوله عن أفضل القبلتين وأقوم الجهتين، فلا سواء في الفضل البين والخير السر: قبله سلط الله عليها الكافرين ولم يمنعها من الظالمين، وقبله منعها بجنود من عنده، وعصمها بغير ما حول من خلقه ولا حرمة يدعيها أحد ممن فيها؛ فأرسل طيراً أبابيل ترمي الأعداء بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول. فإن تقل: هذا خبر ننكره، وقول لا نعرفه؛ فبأي حديث بعد هذا تؤمن، وتشهد لله عز وجل أنه من قبله، وأنتم تعلمون أنه أنزل الله عز وجل سورة الفيل على قوم أدركه منهم بشر كثير.

فإن قلت: إن محمداً ﷺ خبرهم بما عاينوه وأدركوا خلافه، نقل: إنه أراد أن يفرقهم عنه ويوحشهم منه، وأحب أن يرموه بالكذب، ويقذفوه بالحمق، ويصموه بالجنون، ويظنون^(١٠٨) به الظنون، كلا! ما كان نبي ولا غير نبي ليجاهد أقواماً بخلاف ما رأت أبصارهم وشاهدت آباؤهم، فيخبرهم بخلاف ما شهدوا، وتكذيب ما عاينوا. فلا تكونن في هذا من الممترين، ولا بأمر الفيل من المكذبين.

فلعمر الله لو كان من أمر النبي ﷺ ما تلحد أنت وقومك إليه لما قام معه رجлан ولا اختلف فيه سيفان. وإن فيما صنع الله عز وجل بالفيل وأتباعه، دلالة على قبلة الله وأنبيائه. فاتق الله! فقد شرح أمير المؤمنين علامات النبي ﷺ وكشف الأغطية لك عن النور بآيات الوحي. فإن مالت الأهواء بك، وغلبت الأساقفة عليك، وحضرك الرؤساء الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى بلا حجة عندهم، ولا سلطان أتاهم فقل: أنبؤني عما اجتمعت عليه النصرانية وذهبت إليه بهم المعاني من تشقيق الكلام وتصريف الكتب: أحروف تتعسفونها، أم لغة تعرفونها؟ فإن قالوا: إنهم بغير لغة يتكلمون، فهم إذن قوم يلعبون. وإن قالوا: إنهم يتكلمون بلغة معروفة ومعان معلومة، فقل: أخبروني عن قولكم: أب وابن، أهما ما تعترف العقول من المنطق ويقع في القلوب من المعنى أم لا؟ فإن قالوا: لا ليس ذلك بالذي تذهب أوهام العباد إليه، ولا بالذي تقع الحقائق في الآباء والأبناء عليه، إنما هو كقول الله عز وجل في التوراة لإسرائيل: «بكرى» لا يعني ولادة الرحم؛ وكقول المسيح عليه السلام للحواريين: «أنتم إخواني» لا يعني أخوة النسب. فذلك قول لا يجدون معه بداً من أن ينسبوا عيسى عليه السلام عبداً. وإن قالوا: بل هو ما تجري به ألسن

العباد، ويقع في قلوب الخلق من الولادة المعروفة والأبوة المعلومة، فليخبرونا متى كان الأب والدًا، والابن مولودًا: أقبل الولادة أم بعدها؟ فإن قالوا: قبلها، رجعوا عن القول الأول بتثبيت الأبوة. إلا أن ذلك ليس بالشيء الذي تذهب إليه الأوهام، ولا بالمعنى الذي يقع في قلوب الأنام.

ولا بد إذا سقطت الولادة المعروفة وبطلت الأبوة الموجودة، أن يقولوا: إن الأب والابن اسمان علقا على غير معنى، ونسبان أضيفا إلى غير حق؛ فيقرون أن عيسى عليه السلام خلق مثلهم، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحد منهم. وإن قالوا: إنما كان الابن مولودًا والأب والدًا بعد الولادة، فقد أقروا بأن الابن حدث مخلوق وعبد مربوب، لقولهم إنه لم يكن حتى ولد، ولم يولد حتى خلق. وقل لمن يقول الزور العظيم، ويقذف بالإفك المبين: أليس الأب أبًا على حياله ولم يزل، والابن ابنًا نجل، وروح القدس كذلك؟ فإن قالوا: نعم، فقد أقروا بأنهم ثلاثة متباينة، وقعت عليهم ثلاثة أسماء متفاوتة، وتركوا قولهم: إنهم ثلاثة أصلهم واحد.

وإن قالوا: الأب والابن وروح القدس واحد، ولكن بعضه أب وبعضه ابن وبعضه روح القدس، فقد دخلوا في التحديد الذي هو عيب عندهم، وقالوا في التبعض بما هو كفر قبلهم. وإن قالوا: ليس ببعضًا، ولا مجزأً، ولا محدودًا، ولا ثلاثة متباينين، فإذا هم قوم يلعبون: الأب ابن، والابن أب، والوالد مولود، والمولود والد، والكبير صغير، والصغير كبير، والقليل كثير، والكثير قليل. وهذا من أبين المحال وأخلف المقال. وليس من المنطق ما لا يوجد في لغة عرب ولا عجم، ولا لسان أمة من الأمم. وإنما أرسل الله عز وجل كل نبي بلسان قومه ليبين لهم، فيضل الله الظالمين. ولولا ذلك لما فهمت

الأمم مذاهب أقاويل الرسل ولا معاني أحاديث الكتب. فلا تطع الذين يلعبون بأنفسهم، ويتكلمون بغير لغتهم، ويقولون: الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة؛ وهذا محال في مجاري المقال، ومعاني الفعال.

لعمر الله لئن اتهمت عقول الأساقفة على دينك، واهتممت بالنظر في توحيدك، لتعلمن أن الواحد لا يكون ثلاثة وأن الثلاثة لا تكون واحداً، إلا على وجه ما له ثان يقول به، ولا منه مخرج تستريح إليه. فألق نحوه سمعك، وأنصت إليه فهمك؛ فإن أمير المؤمنين واصفه لك، وليس واقعاً إلا على المخلوقين، ولا لازماً غير المحدودين، ولا داخلاً على رب العالمين: وهو أن يكون الشيء أصله واحد وأجزاؤه كثيرة، من نحو الإنسان، وهو أصل يجمعه اسم، وله أجزاء تلزمها أسماء؛ فليس الجزء بالأصل، ولا الأصل بالجزء، ولكن الجزء بعض الأصل. فإذا أردت الجزء، قلت يد الإنسان وسمع الإنسان. ولولا أنه محدود مخلوق مجزأ مبعض لما جاز هذا القول فيه ولا دخل هذا المثل عليه؛ وكذلك الشمس: الأصل واحد، وهي شمس، والأجزاء كثيرة وهو عين الشمس وضوء الشمس وشعاع الشمس ودقيقها وغلظها وحرورها وأعلاها وأسفلها وأشباه ذلك.

فلئن قلت سميت كل جزء من الأجزاء على حياله إنساناً، وكل جزء من الشمس دون أصله شمساً، ونسبت فعل الأصل إلى بعض أجزائه، وتركت أن تنسب الأصل فاعلاً ببعض الأجزاء، كما تقول: بسط الإنسان يده، ومشى برجله، ونظر بعينه، ثم ضربت ذلك لله عز وجل مثلاً وجعلت الله له قياساً، فقلت: الأصل واحد، وهو الله عز وجل، والأجزاء كثيرة وهي أب وابن وروح القدس، وكل جزء منها إله على حياله ورب دون غيره، لم تجد بداً أن

تلحق اليد والعين والنفس بالأب والابن وروح القدس، فتكثر آهتك، وتحدد ربك، وتترك قولك: إن الله ليس محدوداً ولا مجزأ ولا مبعضاً؛ إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء فتقول: المعنى واحد، وهو الله عز وجل، والأسماء أب وابن وروح القدس. فإن كنت تقول هذا وكنت إنما تعبد أسماء، فما تجد بدءاً من أن تعبد الأسماء كلها وتقول: إنها آلهة على حيالها، حتى تقول باسم ارحمني، وبثان اغفر لي. فاتقوا الله ي أهل الكتاب؛ فإن الله عز وجل ليس بأب ولا ابن ولا اسم، ولكن له الأسماء الحسنی فادعوه بها، وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون.

فإن أشارت الأساقفة إلى بعض الإنسان باليد والرجل وأشباه ذلك وقالوا ليس إنساناً، فقل لا، ولكنه للإنسان، وقل هو إنسان بكماله. وكذلك إن أشاروا إلى بعض الشمس فقالوا: أليس هذا الشمس طالعاً، فقل لا، ولكنه بعضها، ولو كانت الأسماء التي تقع أبصاركم عليها وتشير أيديكم إليها من الشمس والسماء والهواء شمساً وهواء وسماء لكانت الشمس والهواء والسماء أكثر مما يبلغه الإحصاء. ولو قصدت بالإجابة لمسالك هذه الأودية، لبطلت الحجج الداحضة وانقطعت الأقاويل المناقضة. وسل من قبلك من أساقف أمتك وشمامسة أهل ملتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح، ويرفعونه أن يكون عبداً: على أي شيء وقع اسم المسيح من عيسى: على الروح أم الجسد أم على كليهما؟ فإن قالوا: وقع على الروح نفسه، لأن الروح إله دون غيره، فقد أقرؤا بأن إلههم يأكل ويشرب، ويمشي ويركب، لأنهم يجدون ذلك من فعل عيسى مبيناً قبلهم، موصوفاً عندهم. فإن قالوا: وقع اسم المسيح على الجسد بعينه، فكان الجسد هو المسيح إذن دون غيره، والمسيح إذن مخلوق عندهم،

والإله إنسان إذن مثلهم، فلم يعبدون المخلوق ويدعون من خلقه وبرأه. وإن قالوا: وقع الاسم على الروح والجسد جميعاً، فلن يجدوا مخرجاً ولا بداً ولا محيصاً، إذا أوقعوا الاسم عليهما، من أن يضيفوا الأعمال إليهما، فيقولوا: إن الجسد المخلوق هو خلقهم، وإن الروح الخالقة قد ماتت قبلهم، وذلك لما يجدون من ذكر موت عيسى عليه السلام في الكتب عندهم وفي الإنجيل الذي قبلهم. وسل من قبلك عن الأب والابن، فقل أيهما أعظم وأيها أصغر؛ فإن قالوا: الأب أعظم والابن أصغر، فقد جعلوهما متباينين. وإن قالوا: هما واحد وكلاهما عظيم، وليس الأب بأعظم من الابن، ولا الابن بأصغر من الأب، فقد نقض حينئذ جوابهم، وأكذب المسيح عليه السلام كلامهم، حيث يقول: «لو كنتم^(١٠٩) تحبونني لفرحتم حيث أذهب إلى إلهي فإن إلهي أعظم مني» فلم يقل أعظم مني، إلا وهو مقر بأنه أصغر منه. وسلهم عن قول المسيح^(١١٠): «أنا أذهب إلى إلهي وإلهكم»، فقل: من هذا الإله الذي ذهب عيسى إليه ﷺ: إله في السماء متباين منه منقطع عنه؟ فهما إذن اثنان متباينان، أم إله كان به متصلاً وكانا جميعاً واحداً؟ فكيف إذن يجوز له أن يقول إذن أذهب إليه! إلا أن يقولوا: إن بعضه ذهب إلى بعض! وهذا مما لا يجوز عندهم في صفة الرب عز وجل.

وسل من قبلك: أخرج المسيح من بطن أمه مريم بكماله حتى كان البطن منه فارغاً وكان هو منه بكماله خارجاً؟ فإن قالوا: نعم، فقد انكسر قولهم: إن الله بكل مكان. وإن قالوا: لم يخرج المسيح ولم يخل البطن، فقد كذبوا إذن في قولهم: إنه قد خرج، وأقروا أنه قد ولد. فتعالى الله عما يصفون، وتنزه عما يشركون. وسلهم لم هبط عيسى إلى بطن مريم، وتجسد باللحم والدم؛ فإن قالوا: ليمحق الخطايا من الأرض ويربط الشيطان عن الخلق، فقل: كيف إذن

لم يربطه عن نفسه! وكيف جلاباه^(١١١) من اليهود بصلبه! ولم سلط على أهل دينه يتبعون في كل شعب ويقتلون بكل واد!

وقل للذين يقولون: إن الخالق في كل مكان من السماء والأرض وغير ذلك: أيها أعظم: المحيط المشتمل، أم المحاط المشتمل عليه كما يقولون؟ تعالى الله عما يشركون. فإن قالوا: إنما التحم بعضه دون بعض، فقد حدوا وبعضوا ونقصوا وانتقصوا، وإما قالوا فلن يجدوا بدءاً من أن يقولوا: إن بعض المسيح الذي جعلوه ربهم، وهو إله عندهم، ميت بعضه جيفة، وإن بعضه حي طيب؛ لأنهم زعموا أنه التحم بجسد حي فيه روح، فلا بد إذن أن يدخل عليه ما يدخل على الأجسام الحية من الخوف والفرع والفرح والعطش وأشياء ذلك، وهو عندهم كفر عظيم وإفك مبين، فاتق عقوبة الله ربك، ولا تمس مكباً على وجهك، ولكن اطلب والتمس وابحث؛ فقد قال عيسى عليه السلام في الإنجيل: «من^(١١٢) سأل أعطي ومن طلب وجد ومن استفتح فتح له».

اجمع العلماء والبصراء [الذين] عندك، والأساقفة والرهبان الذين قبلك، فقل: لأي شيء نسبتم المسيح إلهاً وجعلتموه رباً؟ ونجد الله سماه في الكتاب ابناً، وقد تجدونه قال: «إني أذهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم أيضاً». وهذا كلام يحتمل وجهين أحدهما أولى به، وقول لا يحتمل إلا وجهاً وهو الربوبية. أم كيف تنظرون إلى كلامه: «أذهب إلى أبي وأبيكم» فتفردونها في نفسه وقد قالها فيه وفي غيره!

فاتق الله وكن من القائمين بالحق، الموحدين للرب. إن أمير المؤمنين قد ضرب لك أمثالاً جمة، وصرف إليك مسائل كثيرة، وبين لك من آيات النبي ﷺ وعلامات الوحي قليلاً من كثير، واضحاً من تفسير، لا تمتنع العقول من التصديق به، ولا القلوب من الإقرار به.

وسيدكر لك أمير المؤمنين من علامات النبي ﷺ في التوراة والإنجيل، ما يكتفى به، إن شاء الله، وباليسير منه؛ لأن كتب الله عز وجل محفوظة، وحججه محروسة، لا يزداد فيها ولا ينقص منها. وإذا وجدت فيها كلمة تدلك على حق وتهديك إلى رشد، فلست واجداً أخرى تصدك عنه وتشككك فيه، إذا تلي ذلك بالحق ووضع على الصدق. ولكن ضلت اليهود والنصارى بتحريف تأويل الكلام، وتصريف تفسير الكتب. وأمير المؤمنين يسأل الله العصمة والتوفيق.

من ذلك ما قد شهد به عيسى عليه السلام عندكم وبينه في الإنجيل لكم، إذ قال للحواريين^(١١٣): «أنا أذهب وسيأتيكم البارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه إنما يقول كما يقال له، وهو يشهد علي وأنتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس بالخطيئة، وكل شيء أعد الله لكم يجركم به.» وترجمة البارقليط: أحمد. هذا ما لا شك ولا مرية فيه، وهو الذي يخبر بما وعد الله المؤمنين وصالحي الحواريين في القرآن؛ ولستم تجدون ذلك في التوراة ولا في الإنجيل.

ومن ذلك قول أشعيا^(١١٤) النبي عليه السلام: «قل لي: اقم بطارا ما ترى بخبري^(١١٥)؟» قال: أرى راكبين بعيرين مقبلين أحدهما يقول لصاحبه: سقطت بابل وأصنامها^(١١٦) المنحوتة». ولسنا نعلم نبياً ركب بعد موسى ﷺ بغيراً إلا محمداً ﷺ كثيراً.

ومن ذلك قول دواد عليه السلام^(١١٧): «اللهم ابعث جاعل السنة كي يعلم الناس أنهم بشر» يقول: كي يتبين الناس أن عيسى عليه السلام إنسان. ولسنا نعلم نبياً وضع سنة تنسب إليه إلا محمداً ﷺ. أما عيسى فإنه نصب سنة موسى عليه السلام.

ومن ذلك قول حبقوق^(١١٨) المتنبئ في زمان دانيال: «جاء الله من السماء^(١١٩) والقديس من جبال فاران، وامتألت السماء من تحميد أحمد

وتقديسه، ومسح الأرض بيمينه، وملك رقاب الأمم». وقال أيضًا^(١٢٠):
«تضيء لنوره الأرض، وتحمل خيله في البحر». فإلى من ينحو هذا القول، وإلى
أين يذهب بهذا المعنى؟ لئن ذهب به إلى غير الذي [تحمل]^(١٢١) خيله في البحر،
وبدأ من جبال فاران أمره، وغلب على الأرض ومسحها^(١٢٢)، وملك رقاب
الأمم كلها، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون.

ومن ذلك قول داود عليه السلام في الزبور^(١٢٣): «صدقوا وسبحوا الرب
تسبيحًا حديثًا سبخوا الذي هلهه^(١٢٤) الصالحون. ليفرح إسرائيل بخالقه
ويتوب صهيون من أجل أن الله اصطفى له أمته، وأعطاه النصر وسدد
الصالحين بالكرامة، يسبحونه على مضاجعهم، ويكبرون الله بأصوات عالية،
بأيديهم سيوف ذات شفرتين، ليتقم الله من الأمم الذين لا يعبدونه، ثم يقيد
ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال». فأيتما أمة يكبرون الله بأصوات وأذان
الصلوات الدائمة وعلى كل شرف وعند كل حرب، وأيتما أمة كانت سيوفها
ذات شفرتين إلا أمة محمد ﷺ!

ومن ذلك قول^(١٢٥) أشعيا: «سبحوا الرب تسبيحًا حديثًا، ويسبحه من آفاق
الأرض فرح^(١٢٦) يكون في بني فيار». وبنو فيار قریش أهل فاران الذي نزل فيه
القرآن. وأيتما أمة تسبح من آفاق الأرض إلا أمة محمد ﷺ. عبدي أكدي^(١٢٧).
ومن ذلك قول أشعيا^(١٢٨): «عبدي الذي وجب به حبي الذي بشرت به
نفسي أفيض عليه روعي، يوصي الأمم بالوصايا، لا يضحك ولا يسمع صوته
في الأسواق، ويفتح العيون العور، ويسمع الآذان الصم، ويحيي القلوب
الغلف، وما أعطيه لا أعطي غيره، أحمد يحمد الله حمدًا حديثًا، تهليله يأتي من
أقصى الأرض، يجوز الماء بشدة أمواجه، ويفرح^(١٢٩) وكورها، سكانها يحمدون
الله على كل شرف، ويكبرونه على كل رابية».

ومن ذلك قول داود^(١٣٠) عليه السلام في المزمور الخامس والأربعين^(١٣١)، يقول الله عز وجل لمحمد في الزبور: «انصبت رحمتي على شفيتك من أجل ذلك باركتك»^(١٣٢) الدهر، تقلد السيف على الأمم، أيها الجبار على الأمم بالقتل والأسر والسبأ بهاك وحمدك أحمد تغلب البر منك كلمة الحق وذلت لك الأشياء سيفك بجسمه يمينك ونبالك مسمومة وتسقط عند الأمم. «فأي نبي كان على الأمم جباراً ولهم بإذن الله قتالاً إلا نبينا ﷺ».

ومن ذلك في آخر التوراة^(١٣٣): «جاء الله تبارك وتعالى من سيناء وأشرف من ساعير واستبان واستعلن من جبال فاران، وجاء عن يمينه ربوات القديسين.» وتفسير هذا أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى في طور سيناء، وأنزل الإنجيل على عيسى عليه السلام في جبل ساعير وهو جبل بالشام، وأنزل القرآن على محمد ﷺ في جبال فاران وهي بلاد مكة. وأنتم تجدون ذلك في كتبكم مكرراً وتعرفونه جميعاً بلغتكم.

ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام^(١٣٤): «سأقيم لهم من إخوانهم مثلك أجعل كلامي على فهمه ولا يتكلم إلا بما أمره به.» فمن إخوة بني إسرائيل إلا بنو إسماعيل! أما تعلم أن لو كان الله عز وجل يعني أحداً منهم لقال لهم: أقيم لكم نبياً منكم!

فإن قلتم إنما قال من إخوانكم، وهو يريد من أنفسكم، فهب أمير المؤمنين قبل هذا الخلف منكم ووسع في هذا المجال لكم، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل في التوراة: «مثل موسى في بني إسرائيل لا يقوم» فهل تجدون من هذا مخرجاً، ومن الإيمان أن المعنى وقع على محمد ﷺ بدأ.

ألا تسمع قول الله عز وجل: «أجعل كلامي على فمه كي يعنى به، أمي لا يقرأ ولا يكتب.»

أوليس قد أمر عيسى عليه السلام حواربيه أن يقولوا في صلواتهم^(١٣٥):
«يا أبانا الذي في السماء تقدس اسمك.» كيف صار عيسى دونهم ابناً، وصار له
دونهم أباً^(١٣٦)، وهم يقولون: يا أبانا! أم كيف لم يجعل سليمان بن داود إلهاً وقد
قال الله عز وجل لداود: «يولد لك غلام يسمى لي وأسمى له!» ولم لا يجعلون
إسرائيل إلهاً وقد قال الله عز وجل له: «أنت بكري!» بل لم لا يسمعون المؤمنين
عامة والحواريين خاصة [آلهة]، وقد قال المسيح للحواريين: أنتم إخوتي، وقد
قال الإنجيل^(١٣٧): «أعط كل من آمن بي سلطاناً يدعى له». وإن كان هؤلاء
كلهم للمسيح إخوة أفلا تجعلونهم كلهم آلهة! وكيف يقولون: إن عيسى ابن
الله، وهو يقول في مواضع جمة وأماكن كثيرة إنه ابن الإنسان! فكيف يكون ابن
الإنسان ابن الله؟ ومتى كان ذلك؟ لئن قالوا: إن عيسى لم يزل ابن الإنسان،
لقد جعلوا مع الله إنساناً قديماً وجعلوا الله إنساناً حديثاً، وجعلوا المسيح ابن
الله لم يزل، وابن الإنسان فيما حدث. وهذه أمور متناقضة، وحجج داحضة،
وأقاويل فاحشة.

فإن قالوا: إنما نعبد المسيح لأنه رفع إلى السماء، فليعبدوا الملائكة فإنهم
في السماء قبله، وإدريس فقد رفعه الله وغيره. وإن كانوا يعبدون المسيح
لأنه لم يخلق من ذكر، فأدم وحواء لم يخلقا من ذكر ولا أنثى، ولم يقعا من غم
الرحم وضيق البطن وحال الصبا فيما [وقع] فيه المسيح.
وإن قالوا: إنما نعبد عيسى لأنه أحيا الموتى، فما أحيا حزقيل^(١٣٨) أكثر، وما
كان من اليسع تلميذ إلياس أعجب؛ لأنه أحيا الموتى بعد مئتين من السنين.
وإن طلبتم ذلك في سير الملوك عند قصة اليسع أصبتموه، إن شاء الله.
وإن كانوا إنما يعبدون المسيح من أجل الأسقام التي أبرأ والعجائب التي
أرى، فعجائب موسى أعجب وآياته أعظم. أين ما ذكرت لك من [عجائب]

عيسى من عجائب موسى: من انقلاب البحر له، وسلوك الجيش معه! أم أين ذلك من حجر يضربه فينفجر بعيون الماء، ويحمله معه حيث شاء! بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حبس يوشع الشمس^(١٣٩) ثلاث ساعات! وكل ما صنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقدره وقضائه. فائق الله وكن من القائلين بالحق، الموحدين للرب، ولا تقل على عيسى ما لم يقل؛ فإنكم لا تجدونه قال لكم في شيء من كتبكم: اعبدوني فإني ربكم. تعالى الله عما يقول الظالمون، ويذهب إليه الجاحدون.

وإن أمير المؤمنين قد أحب أن ينصح لك، في أولى داريك بك وأهم شأنيك لك، فدعاك إلى الإسلام وأمرك بالإيمان الذي به تدخل الجنة وتنجو من النار. فإن قبلت فحظك أصبت، ونفسك أحرزت، ولك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم. وإن رددت نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الخط في آخرتك، فإن أمير المؤمنين ينصح لك فيما فيه الصلاح في عاجلتك: من إعطاء الجزية التي يحقن الله بها دماءكم ويحرم بها سباءكم، ويجعلها قواماً لمعاشكم، وصلاًحاً لبلادكم، وتوفيراً لأموالكم، وأمناً لجنايبكم، وسعة لسربكم^(١٤٠)، وبركة على فقرائكم، وغنى لأهل الحاجة والفاقة والمسكنة منكم.

ولن يذكر أمير المؤمنين في الجزية لكم من حلول الأمن فيكم، وعموم العافية إياكم، واستقامة البركة عليكم، وكف أيدي المسلمين عنكم، وبسطها على الأعداء منكم، شيئاً إلا وفي قليل ما كان من أشباه ذلك أيام تلك الفدية التي كان الله أجرى نعمتها لكم على يده، وفتح بركتها عليكم من قبله، ما يدلكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر، ويشهد له على حقه فيما يقول إن شاء الله. فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طرف من أطرافكم، وصنف من أصنافكم، بتلك الفدية، أموراً عظيمة البركة، واسعة المنفعة، في أمور غير واحدة:

منها: أن قادة جنودكم وساسة حربكم، كانوا بعد وقوع أمرها واستحكام عقدتها، فراغاً لمحاربة أعدائكم ومناصبه من ناوأكم، بين أن يستعجموهم^(١٤١) في بلادهم وينزلوا عليهم في ديارهم، ولا يرهبون تعقب بشر إن ساروا في أرضهم، ولا يتخوفون طراداً إن اجتمعوا لقتالهم أن يقيموا في خفض ودعة، وأمن وسعة، مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والمحال، وهم اليوم يترقبون الجيوش من كل شعب ويتخوفون الحتوف في كل وقت، لا يهدأ^(١٤٢) لهم جأش، ولا يسكن لهم فزع، ولا ينام لهم ليل، ولا يأمن فيهم حال، قد قطعت الهموم دابرهم، وأضمرت المخاوف جنوبهم، واستأصلت الجنود أموالهم.

ومنها: أن أهل الحراثة وإخوان العمارة، في بلادك وأطراف أرضك، كانوا سرعاً إلى عمارة أرضهم وإصلاح ما تحت أيديهم، فيما لا قوام لهم ولا لمعاشهم إلا به، ولا بقاء لدينهم إلا معه؛ قد أمنوا الجيوش ومعرتها، والجنود وبادرتها، وانتشروا للعمارة، وابتكروا في الزراعة، فارقوا رءوس الجبال وإقحام الغياض، وراحوا في أوساط أوطانهم وظلال محالهم، يشققون الأنهار، ويغرسون الأشجار، ويفجرون العيون، حتى نمت الأموال، واخضرت الحال، وأخصب الجنب؛ وأصبحوا اليوم عن الزراعة ممسكين، وللحراثة تاركين، وبغيرها مشغولين في إصلاح آلات الحرب، وإحراز العيال في الحصون، ورم القلاع للجلاء، وتحريش الحصون للبلاء، قد انتقلوا عن منابت البر وكرائم الأرض، ومجاري المياه، إلى أوشال الجبال، وأشجار الغياض، وبطون الأودية؛ فليس يبلغون من عمارة بلادهم، ولزوم أوطانهم، [و] من تناول ثمارهم وقوام معاشهم مثل ما كانوا يبلغون، ولا ينالون من خفض العيش وطيب الأمن ولذة الدعة، قريباً مما كانوا ينالون.

ومنها: أن إخوان التجارات، وأصحاب الأموال وأهل الظلف والحافر، كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا^(١٤٣) وما قاربهم من أسواقنا، فينفقون تجارتهم ويغنون بضائعهم، فتعظم الأرباح وتضعف الأثمان. وكانت الباعة من تجار المسلمين وغيرهم من الذميين، يتناولونهم للبيع لهم ويتناولونهم للشراء منهم، فعمت البركة وسهلت المنفعة، حتى نالت الرعاء في جبالها وأقتالها،^(١٤٤) والنساء في غزولهن وعمل أيديهن فضلاً عن غيرهن.

ومنها: أنك ومن قبلك من ذوي العبادة والزهادة والتأله والنسك والنيات، كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب، وسلامة من أوزار الخض على قتال الخوف؛ قد نجوتم من معصية المسيح في الدنيا التي نهاكم عنها، والأمور التي أمركم بها، من نحو قوله^(١٤٥): «من لطم خدك الأيمن فأمكنه من الأيسر، ومن انتزع قميصك فأعطه كساءك، ومن لطمك فاغفر له، ومن شتمك فأعرض عنه». ومنها: أن من بأقاصي بلادك ونواحي حوزتك، قد ذاقوا تلك الأيام من لذة الخفض، ودعة الحال، وحلاوة الأمن، ورفاهية العيش، وسعة العافية من سباء أزواجهم، وهيض أولادهم، وحطم معاشهم، وأسر رجالهم، وغنيمة بقرهم وغنمهم، وإفساد شجرهم وثمارهم، وإجلاء عن مساكنهم وأوطانهم، ما لم يكن لهم رأي يعرفه، ولا ظن يبلغه، ولا طمع يقاربه، ولا أمل يذهب إليه. وما قد عرفت الخاصة من بطارقتكم، والعامة من أهل ملتكم به: من رأفتكم بهم، ورحمتكم لهم، وشفقتكم عليهم، وأثرتكم إياهم، وبركة ولايتكم ملكهم، ومنفعة سياستكم أمرهم، ما قد ازدادوا لكم به محبة، وفي بقائكم رغبة، ولأمركم طاعة، وعلى ملككم شفقة، وفيما نابكم نصيحة؛ مع ما قد ازددتم بذلك من الهيبة في صدور الأعداء، والشرف في قلوب النظراء، والعظم

في عيون الأمم، حتى أقروا لكم بقوة عزائم العقول، وفضل سياسة الأمور، وصحة تدبير الملك، وصدق النية، ولطف الحيلة التي جعلوا نسبة عملكم بها، ومحل رأيكم فيها؛ على أنكم نظرتم لضعفائكم حتى قووا، ولفقرائكم حتى استغنوا، ولقرائكم حتى بينوا وحيو وقووا المسلمين^(١٤٦) من أيام الحروب وأوزار القتال، ومعصية المسيح عليه السلام، ولأعدائكم الأبعدين وجيرتكم الأقربين، حتى كنتم من فراغكم لهم، واشتغالكم من أمركم بها ما أوطأتموه لحر سحر^(١٤٧) القتل، وذل الأسر وغلبة القهر، والإذعان والاستسلام. وإما كفيتموهم بالصلح، واستوثقتهم منهم بالرهن.

فإذا ذكرت ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله في الفدية، فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مقيم معكم في الجزية، فلا يكون لك رأي غيرها ولا أمر سواها؛ فلقد أكثر أمير المؤمنين العجب من أمركم، وأطال تقليب الفكرة في بعضكم، فظن أن إخراجكم من جميع ما كنتم فيه إلى خلافه مما أصبحتم عليه من انتظار وقعات الحروب، وصولات الجنود وأكل الحدود، وتوقع الجلاء والسباء والقتل، والأسر والحصار، شيئاً اختدعكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم وكيداً استدرككم به لما علم من قلوبكم.

ألا إن أعجب عذركم وأفظعه كان عند أمير المؤمنين إذ بلغه جرأتكم على الله عز وجل في نقض عهده، واستخفافكم بحقه في خفر ذمته، وتهاونكم بما كان منكم، وأنتم تعلمون أن موثيق العهود ونذور الأيمان الذي وضعه الله عز وجل حرماً بين ظهرائي خلقه، وأماناً أفاضه في عبادته، لتسكن إليه نفوسهم، وتطمئن به قلوبهم، ولتعاملوا به فيما بينهم، ويطيئوا به من دنياهم ودينهم؛ فما من ملك من الملوك ولا أمة من الأمم، تبيح حمى الله عز وجل، تهاوناً به وجرأة

عليه، إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء، وأنزل عليهم عذاباً من السماء. وقد رجا أمير المؤمنين أن يجري الله نعمته منكم بأيدي المسلمين، بعد إذ كان اعتقد عهدكم، وأخذ ميثاقكم بالأيان المغلظة، والعهود الموكدة، التي قد اعتقدها في رقابكم، وحملها على ظهوركم، فأشهدتم الله لها على أنفسكم، وتسامع بها من حولكم، وحكم بها بطارقتكم وأسأفتكم. فلا الله انقيتكم، ولا من الناس استحييتكم، نكثاً للعهد، وبغضاً للمسلمين، وخترأ بالأمانة، وإباحة للحمى. فتوقعوا العقوبة، وانتظروا الغيب؛ فلقد وثق أمير المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حال إن شاء الله بكم.

ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم، ما قد أزمع أمير المؤمنين وعزم عليه، وقذف الله في قلبه: من الإرادة والنية والرغبة في إبطاء الجيوش بلادكم، واستبَاء المقاتلة أرضكم، والتفرغ لكم من كل شغل، والإيثار لجهادكم على كل عمل، حتى تؤمنوا بالله وأنتم طائعون أو كارهون، وتؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، فكونوا على عدة من الجزية، ويقين من الانتجاع الذي لا طاقة لكم إن شاء الله به، ولا صبر لكم بإذن الله عليه؛ فإن جنود أمير المؤمنين فارغة كثيرة، وخزائنه عامرة وافرة، ونفسه سخية بالإنفاق، ويده مطلقة بالبذل، والمسلمون نشاط إليكم، منقلبون عليكم، قد عودهم الله في لقاءكم عادة يرجون انتظار مثلها، وأبلاهم في قتالكم بلاء من أمثالها، إن شاء الله.

وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدي جنوده، ومقدمه إن شاء الله من جيوشه، إلا أن تؤدوا الجزية عن التي دعاك أمير المؤمنين إليها، وحداك ومن قبلك عليها، رحمة للضعفاء الذين لا ترحمهم، وتوجعا للمساكين مما لا توجع منه لهم من الجلاء والسبأ والقتل والأسر والقهر، وقساوة من قلوبكم، وأثرة

لأنفسكم، واعتصامًا بخواصكم، وإجلاء لعوامكم الضعفاء الفقراء المساكين الذين لا تمنعونهم بقوة، ولا تدفعون عنهم بحيلة، ولا تراقبون في الرحمة لهم والتعطف عليهم، أدب المسيح إياكم، وقوله في الكتاب^(١٤٨) لكم: «طوبى للذين يرحمون الناس؛ فإن أولئك أصفىاء الله ونور بني آدم».

وايم الله لو يعلم من قبلك من المساكين والزراعيين والفقراء والضعفاء والعملة بأيديهم، ما لهم عند أمير المؤمنين لتحذروا عليه وأقبلوا إليه، من إيوائهم، وإنزالهم الأرض الواسعة، وإمكانهم من مسايل المياه السائحة، والعدل عليهم بما لا تبلغه أنت ولا تقاربه، رفقا بهم ونظرا لهم وإحسانا إليهم، مع تخليته إياهم وأديانهم، لا يكرههم على خلافها ولا يجبرهم على غيرها، لا اختاروا قرب أمير المؤمنين على قربك، وجواره على جوارك، ولأنقذوا^(١٤٩) أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم، مما يحل بهم في كل عام ويلقون من كل غزاة. فاتفق الله وأقبل ما عرض عليك من الجزية، ولا يمنعك ما فيه^(١٥٠) الحظ لك ولأهل مملكتك. ونحن على رجاء أن الله لا يؤخر ذلك منكم ويدفعه عنكم، إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة، ولأهل الورثة فيهم للكتاب والحكمة، الذين لا يدخل عليكم في الإذعان [لهم] وأداء الجزية إليهم حمية ولا نقيصة ولا عار، والذين يفون لكم بما يعقدون، ويتبعون فعلهم ما يقولون. ثم أمير المؤمنين بخاصة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظره من البر والرحمة والإقسط والوفاء بالعقود والعهود والشروط، نظرا لدينه وخوفا من ربه، ولما قذف الله في قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة، ولما جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة، واتفاق الأفئدة، والنصائح في السر والعلانية، وما عوده الله ممن نصب له بمجاذبة ورماه بمكايدة، وعراه بحيلة: من النصر

العزیز، والفتح القریب، والظفر المبین. فابذل من الجزية ماشئت، وسم منها ما هویت. واعلم أن أمير المؤمنین لیس یحذوک علیها لحاجة به إلیها ولا للمسلمین، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه، ولیجعلها سبباً لما یرید أن یجری فیما بینہ وبینکم. وإنه إنما کان قبول المهدي - رحمه الله - الفدية منکم، بطلبة أمير المؤمنین كانت إلیه، والحاجة كانت فیها علیه^(١٥١)؛ ولم یکن من رغبة فیها، ولا حاجة إلیها، ولا استعظام لها، ولقد کان یعطی فی المجلس الواحد مراراً أمثالها، ولكن ذلك کان رأي أمير المؤمنین یومئذ فیکم. فأما الیوم إذ استبان له غدرکم ونقضکم ونکثکم واستخفافکم بدينکم وجرأتکم علی ربکم، فلیس بین أمير المؤمنین وبینکم، إلا الإسلام أو الحرب المجلیة، إن شاء الله. ولا حول بأمیر المؤمنین ولا قوة إلا بالله؛ علیه یتوکل وبه یتق وإیاه یتستعین. والسلام علی من اتبع الهدی.

(٣) رسالة یحیی بن زیاد فی تقریظ الرشید:

أما بعد، فإني أسأل الله لأمیر المؤمنین فی غابر أموره، أحسن ما عوده فی سالفها من السلامة التي حرسه بها من المکاره، والعز الذي قهر له به الأعداء، والنصر الذي مکن له فی البلاد، والهدی الذي وهب له به المحبة، والرفق الذي أدر له به الحلب، والاستصلاح الذي اتسقت له به الرعية، حتی یكون بما أعطاه من ذلك، وما هو مستقبل به منه، أبعد خلفائه فی الخیر ذكراً، وأبقاهم فی العدل أثراً، وأطولهم فی العمر مدة، وأحسنهم فی المعاد منقلباً.

ثم نحمد الله الذي جعل نعمته علی أمير المؤمنین شواهد منه علی منزلته منه ومكانه عنده؛ لا یحتاج معها إلی شهادات المثین، ولا صفات المقرظین، ثم جعل ذکر نعمته علی أمير المؤمنین ومناصحتها والمجاهدة لمن کادها فريضة

أوجبها على العباد، ومحبة امتحنهم بها، وفرقاً ميز به بينهم، فمن أصبح من رعيته أكثر شغله أن يستعمل لسانه في صفته، وذكر محاسنه وفضائله، ووجوب حقه وطاعته؛ فقد أصبح أثراً أولى الأمور وأحسنها مغبة في دنياه ودينه؛ ومن بدل ذلك عن قدرة عليه، ودفعه بعد معرفة، فلم يدعه إلا عن خذلان حاق به، أو بدعة استمالته؛ كانت حجة الله لأمر المؤمنين عليه هي الكافية لمؤنته. وقد كان علماء الناس وجهالهم يسوون في عام المعرفة بفضل أمير المؤمنين؛ فأما الخاص فلاهل الفضل فيه فضلهم، غير أنه مهما كان من ذلك فقد أصبحوا وهم فيه على منازل ثلاث: حاسد حجب الحسد بصره عن مواقع الصواب أن يراه، والنعمة أن يشكوها، والحق أن يؤديه؛ وكانت معرفته عليه وبالأ، وحسده إلى الضر^(١٥٢) به قائداً. أو ذو هوى. قاده الهوى إلى البدعة وأخرجته الضلالة من الجماعة، فهو عرضة لسوء الأدب أو سيف النكال، لم يوح الله أحداً بفقدته، ولم يعزr أحداً بموالاته. وموفق معصوم^(١٥٣) استنقذه [الله] بموالاة أمير المؤمنين من غل الحسد وبدع الآراء وجبله على صحة الهوى، فهو إن نظر فبعينه ينظر، وإن قال فبلسانه يقول، لا يأمن حتى يعلم أن أمير المؤمنين قد استوطأ مهاد الخفض، ولا يزال له طليعة رأي توفي على خطة حزم وغامض فطنة، تغلغل إلى لطيف منفعته و[تكون] سهم مكيدة نحو عروة^(١٥٤)، قد علم أن يوم أمير المؤمنين يومه، وأن غده غده، فهو وإن تعرض لأداء الحق في نصيحته ينظر لنفسه نظر من لا يأمل السلامة إلا بسلامته، ولا البقاء إلا ببقائه. وقد رجوت بالقرابة التي جعلها الله لي به، والواجب الذي عرفته من حقه، والعظيم الذي حملته من معرفته، ألا يكون أحد ينظر إليه بعين الإشفاق أقوم ما جعله الله أهله مني، فإن أبلغ الذي أردت فبتوفيق الله، وإن أقصر فعن مثل ما حاولت قصر المجتهد.

فأول ما أنا ذاكره من فضله: أن الله قدم له الصنع في سابق علمه، فجعل محته خير المحاتد عنصرًا، ثم اختار له أبًا فأبًا لا ينقله من أب إلى أب إلا نقل معه وإليه فضيلة العنصر الذي هو منه حتى صيره بعد فضائل آبائه إلى أفضل بدنة، فكان خير خلف من خير سلف، وأفضل ولد من أفضل أبوة، وأرضى إمام من أزكى أئمة؛ ثم اختار له مكارم الأخلاق، وألبسه جمال الصورة، فلا نعلم نحن ولا آباؤنا خليفة أبعد في حلمه من ذل، ولا في هيئته من تجبر، ولا في شدته من عنف، ولا في لينه من وهن، ولا في أناته من غفلة، ولا في اقتصاده من بخل، ولا في بذله من إضاعة، ولا أرق وجهًا عند لقاء، ولا أحسن بشرًا عند تحية، ولا أغزر دمعًا عند موعظة، ولا ألين قيادًا عند تذكير بالله منه.

ثم أفضت إليه الخلافة وفي المال ما فيه من القلة، وفي الناس ما فيهم من الإحراج^(١٥٥)، فما دفع عن مال يعطيه عن قلة، ولا قطع عادة توسعة على رعيته؛ ثم استدر الحلب برفقه، فكلما در له منه شخب^(١٥٦) فوَّقه^(١٥٧) طائفة من جنده حتى سقاهم بعد التفويق ريًا، وبعد النهل عللاً؛ ثم ساس رعيته بألین السياسة فعفا عن مذنبها ولو شاء لعاقب، وآمن خائفها ولو طلب لأدرك، ودفع بالحسنة السيئة ولو كافأ لقدر، فما برح صنع الله له يفيض جموع الضلالة بلا قتال، ويعز له النصر بلا مكاثرة، حتى فرغ بشغله من كان لا يفرغ من الوزراء، ونام بسهره من كان لا ينام من العامة، واطمأنت بمنائته^(١٥٨) للأسفار دار من كان لا ينال الخفض من الجنود حتى استوطئوا مركب الأمن فكلهم ضنين بمفارقته. أما ذو النية فكن إلى النقض. وأما من لا يبدله ففعل ما كان يؤخذ به من الاستكراه. وأما الحشر من الجند والرعاع فغلبت عليهم عادة الهوينا، حتى لو رأيناه يجذبه الأمر فما يجد له الأمر غناء عنده ولا نشاطًا ولا حدًا إن وكله إلى قوته، وقواه بهاله^(١٥٩).

فلما رأى ما رأى من تخاذل العامة، وتواكل الجنود، ونزور الفبيء، وجمود الحلب، واستكلاب العمال على الخيانة، وجرأة الرعية على منع الحق، ومال الفراغ بكثير من الناس عن القصد، فتحركت الأهواء، واستعرت نيران العصبية، وجاشت صدور الحسدة وأشياءهم بالأمانى، وظنوا أن لا شدة معه، وأن عفوه لا نكير بعده، وأمير المؤمنين يرمقهم بعين بصيرة، وأذن مصيخة، وقلب يقظان؛ وقد وقر الحلم أن يخف لأول بوارد السفهاء، فهو ينتظر بالمدير أن يقبل، وبالمائد أن يعتدل؛ وبالمغلوب على رأيه أن يتذكر فيبصر، شمر في إثرهم تسمير من قدم الروية قبل العجلة، والعفو قبل العقوبة، والتثبت قبل الإقدام، فاتخذ روابط أنتجها على الجلد والنشاط، ليست لهم سوابق تدعوهم إلى الإدلال، وتسمو بهم إلى كثير لم ينالوه؛ إنما همهم أن يتفاضلوا في النجدة، ويستوجبوا بالغناء، ثم فرقهم على خواص خدمه، فإذا أراد أن يتناول بهم فرصة ممكنة، أو عدوًا غاط^(١٦٠)، أو راتق فتق قبل الساعة، يغمس يديه إلى أيهم أراده، فينفذ لأمره ولم يشركه فيه مشير، ولم يخرج به توقيع، ولم يخص فيه عامة، ولم يطلع منه على مكيدة، فلم نعلم أننا رأينا جنودًا أسرع نهضة إذا مروا، وأحسن إجابة إذا دعوا، وأفضل غناء إذا استكفوا من جنده. ثم قصد بنفسه حتى مثل بين النواحي إلى أهمها له فسادًا في البيضة، وانقاصًا من الأطراف، فأتى ناحية الشام فوطئها وطأة جمع الله بها لهم شتات الفرقة، وأخذ بها بينهم نار الفتنة.

وأما الجزيرة فإنه ألفاها وهي كالجرح النغل، فاستأصل الله به منها شأفة الداء، وأطفأ به عنها بوارد السفهاء؛ وخير أمير المؤمنين من منزله الذي هو به منزلاً جمع من بسطته في الموضع، ورفاهيته في المعاش، أنه حامل للجنود،

جامع للمرافق، فباشر أمره أمرًا أمرًا، حتى إذا استدبر له منها مبرم، استقبل بعده جسام منتقض؛ وإذا أشحن من ثغوره ثغراً لم يرض حتى يفتح من حصون أعدائه حصناً، وإذا قضى الله عنه حجة، وصل خطوه منها عزا؛ ثم رأينا ما عزم الله به عليه من ترك الصوائف^(١٦١) مراقباً للذي كان من غموط أهل الشام لما كانوا فيه من النعمة، فلم نتشكك في أنه توفيق من الله له وافق سخطاً عليهم حتى استباحوا الحرم، وتسافكوا الدماء، ونقضوا ما بينهم من مبرم حبل الإسلام.

ومن ذلك أن أرمينية كانت فيها جنود تُخرج عليهم أطماع تحمل إليها، بعد اعترافهم بإخراجهم الأموال من كور الشام، فلما رأى ذلك فعل كذا وكذا، فلم يتوكل على الله في أمر فوكله إلى نفسه، ولم يكتف به في حفظ طرف أو قاصية ثغر إلا كفاه مؤنته، وعلم أن ما يدخل ممن أضعاف العافية من عوارض العلل، إنما هو بتقدير من الله لا يمتنع بعذر، ولا يستطيع دفعه بحيلة، يصيب فيه أقواماً بالبلايا والتمحيص، ويقسم فيه لأقوام الأجر والجهاد والسعادة، فرأى أن في عاجل ما يرفع عن أهل أرمينية من ضرر مؤنتهم وغمطهم نفعا للرعية، وإجمالاً للفيء، ورفقا بالعامية مع اقتصاده في الأبواب على أكناف سجيتها، وفي سائر أرمينية على المقاتلة من أهلها، ولم يزل منذ أراه الله ذلك، يكفيه مؤنة ذاك الثغر، ويكف عنه بوائقه، حتى كأنه في هدوء الأحداث عنه، وسكون الأفتدة من روعاته مصر من الأمصار، واسط المحلة مأمون النائرة. فلما اغتتم خاقان ما اغتتم، وانتهاز الفرصة مبادراً، لما قد أيقن من معالجة المؤمنين إياه، فكأنه حين بلغه ذلك من إعظامه إياه بسببه له، وما أنصب فيه من بدنه، وأسهر فيه من ليله، وأنصب فيه من نهاره، لم يعلم الذي يكون من اشتباهه في الأزمنة الماضية

قبله، وأنه بذلك لجد عالم؛ غير أن حميته للإسلام وشفقته عليه وامتعاضه من أن يُتناول شيء من أطرافه، قد زاد ذلك عنده قدرًا في العظم، وتفاقماً في الخطب، حتى أكمل البعث بأكثر العدد، وأكمل العدة، واستقل أهل الكور والأمصار، وندب له من أهل بيته من لم يترك بعده نهاية في التخير؛ وكان قد صرف باله إلى هذين الثغرين من الخزر والروم، وإلى هذين العدوين المحاربين له من المارقة المتعصبة.

فلما بلغ الله في إحكام أمرهما ما بلغ، لم يستغن عن إعادة النظر في أمر غيرهما من نواحيه ليستبرئ به، وإرادته في أقوام يدافع ظنونهم به في أخرى، وعلم غيرهما أن ما شمل من بمدينة السلام من الأمن والفراغ نتيجة مكروهة، فشخص عنها لتحقيق ذلك مؤثرًا لأبغض وطنيه على أحبهما وأخشن عيشيه على أليئهما؛ فلما ظهرت له العورة أقدم إقدام ذي الحجة، فلم ير مثلها نارًا خبت، وسحابة أقشعت، لم يسفك بها دم امرئ مسلم صبرًا، ولم ينتهك فيها حرمة محرم إباحة.

وذلك أنه بسط يده بسط من يريد الاستصلاح لا من يريد الانتقام، فلم يلبث الظالع أن رجع عن ظله، والناطق أن صمت عن بدعته، والناكث أن رجع إلى قصده، وازداد البرئ على البراءة فرحًا، والسالم بالسلامة اغتباطًا، ولم نر مثله فيما أفضى الله به إليه من خلافته، وحمله من أمور عبا؛ أما ليله بمناجاة ربه فيها واسعتانته إياه عليها فساھر؛ وأما نهاره في حلب فيئها وإحكام أمورها فتعب؛ وأما صدقاته على فقرائها وأهل الحاجة فجارية؛ وأما مجلسه من فقهاءها وصلحائها فغاص؛ وأما غلظته على ظالمها فعتيدة؛ وأما أفضاله لمظلومها فمبسوطة؛ ولئن كان الحق ألزم أقوامًا استوجبوا في أنفسهم وأمواھم، إنا لنعلم

أن ما ترك أكثر، وأنه لولا ما خفف من الوطأة على أقوام لحمل الواحد منهم مثل الذي حمله للجميع، ولكنه رضي بالعفو، وسخا نفساً عن الاستقصاء، فأوجب أن يبسط يداً بغلظة ويتبعها أخرى بلين؛ فكان من ذلك نظره في هذه البقايا التي هي فيء المسلمين ومال الله، غير أن الله جعله قيمه فيه، وفي أخذه وصرفه في وجوهه؛ فلما رأى ضراوة^(١٦٢) العمال بها ومصانعتهم دونها، وأن قد صارت كالسنة اللازمة لا يدعها عفيفهم تورعاً، ولا شريفهم تنزهاً، أحب توفيره للمسلمين فيئهم، أن يحدث لهم أدباً يقطع به عنهم أهل الضراوة، ويعرف به ذوو الاستخفاف بالأمانة، والأمر للتبعة؛ أن عليهم^(١٦٣) من تفقده وأدبه عيناً ترمق، ويداً تقبض، ولو أنه حين هم بأخذ تلك البقايا حمل على الموسر بقدر يساره، وأخذ المعسر بطاعته، كان قد أنصف، كلا! ولكنه أحب أن يستبقي قوة، ولا يبلغ من المكثر جهداً، واقتصر بهم على العشر من ذلك، كرمًا في القدرة حين رأى موضع الرفق، وتجاوى عن العلة حين عرف مكان الغدر؛ فأى نعمة أعظم، وأي بلاء أحسن من هذه البقايا! كانت في أيديهم جماماً، فلما اطلع طلعتها، وأخذ ما أخذ، وترك ما ترك، محلاً مع ما جعل الله في ذلك من [كلمات]^(١٦٤) المقصر من العمال المؤذية التي لم تكن تعدو أفواههم، فليس منهم أحد إلا وكان منه له واعظ ألا يكسر شيئاً من الخراج تضييعاً، أو يأخذه غلوا^(١٦٥) أو ينفقه إسرافاً، أو يتركه إرهاباً.

فلما تفرغ من علاج الداء المخوف واستأصله، ومن الفيء المتفرق فجمعه، ومن الأمور المعطلة فأحكمها، استخلف على القيام بذلك من يحويه عقله عن حذر، ولا إضاعة عن حفظ، ولا لين عن تشدد، ولا يستحل الأكف عن نقض ما أبرم، ولا مزاوله ما أحكم، ولا فتح ما أغلق، ولا إغلاق ما فتح، فلان

خيرة أبويه، ومح بيضته، وجوهر أرومته، الفائق سبقا، البين عدواً، الراسخ عرقاً، المنفجر بحرّاً، المحمود أمراً، القائل فصلاً، الحاكم عدلاً، ثم انصرف بها أفاده الله من الأجر إلى جناحه الذي كان مده على من خلف من الأهل والأموال والرعايا والجنود، فلان سليفة صلبه، وثمره قلبه، المحتك مع فتاة سنه عقلاً، والمأمون مع شدة شكيمته حملاً، والمحصد مع لينه وتعطفه أمراً، الشبيه بأمر المؤمنين إن نطق نطقاً، وإن نظر لحظاً، وإن سئل جوداً، وإن اهتصر عوداً، وإن ساس رفقاً، وإن غضب حلمًا، وإن وصف علماً، وإن كلم فهماً، وإن قدر عفواً، وإن لقي بشراً، وإن نازع فلجاً، وإن قارع ظفراً؛ فكان عند ظنه به، رعاية للحرمة، وحزماً في المكيدة، وحلباً للفيء، وحيطة للغائب، ومباشرة للشاهد؛ هذا قليل من كثير. مما جعلك الله أهله، وإنما اقتصرت عليه لأنني رأيت المتكلمين من الخطباء تركوه، وأن ما سمعت من الكتب المقروءة لم تنظمه، فأحببت أن يعلم أمير المؤمنين أن له في كل أمر عمل به في رعيته حجة واضحة، وعذراً معروفاً، إن قام به متكلم في خاصة حسن موقعه، وإن قرئ به كتاب في عامة، قويت به حجته.

والحمد لله الذي جعله وذريته أولياء هذه النعم، والمخصوصين بهذه الفضائل، ونسأله أن يبقيه وإياهم للدين الذي سد بهم عورته، والحق الذي أقر بهم جادته، والعدل الذي أوضح بهم أعلامه، حتى يكونوا ورثة هذه الأمة وخلفاءها في غابر الدهر، وباقيات الأيام؛ مستقلين بالعدل، موفقين للسداد، معصومين من الشبهات، مستوجبين مع فضائل الدنيا لأفضل كرامات المعاد والسلام^(١٦٦).

(٤) كتب الرشيد :

(أ) كتاب عهد البيعة^(١٦٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله، وجواز من أمره، طائعا غير مكره؛ إن أمير المؤمنين ولاني العهد من بعده، وصير البيعة لي في رقاب المسلمين جميعا، وولى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين العهد والخلافة، وجميع أمور المسلمين بعدي، برضا مني وتسليم، طائعا غير مكره. وولاه خراسان وثغورها، وكورها وحربها، وجندها وخراجها، وطرازها وبريدها؛ وبيوت أموالها وصدقاتها، وعشرها وعشورها، وجميع أعمالها في حياته وبعده؛ وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين، برضا مني وطيب نفس، أن لأخي عبد الله بن هارون علي الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين: من العهد والولاية والخلافة، وأمور المسلمين جميعا بعدي، وتسليم ذلك له وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلها، وما أقطعه أمير المؤمنين من قطيعة، أو جعل له من عقدة أو ضيعة من ضياعه، أو ابتاع من الضياع والعقد، وما أعطاه في حياته وصحته من مال، أو حلي أو جوهر، أو متاع أو كسوة، أو منزل أو دواب، أو قليل أو كثير؛ فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين، موفرا عليه مسلما له.

وقد عرفت ذلك كله شيئا شيئا، فإن حدث بأمر المؤمنين حدث الموت، وأفضت الخلافة إلى محمد ابن أمير المؤمنين، فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين، في تولية عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها، ومن

ضم إليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقرماسين^(١٦٨)، وأن يمضي عبد الله ابن أمير المؤمنين إلى خراسان والري، والكور التي سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره، من سلطان أمير المؤمنين، وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحب من لدن الري إلى أقصى عمل خراسان، ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائدًا ولا مقودًا ولا رجلًا واحدًا ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين؛ ولا يحول عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولاه إياها هارون أمير المؤمنين: من ثغور خراسان وأعمالها كلها، ما بين عمل الري مما يلي همذان إلى أقصى خراسان، وثغورها وبلادها، وما هو منسوب إليها ولا شخصه إليه؛ ولا يفرق أحدًا من أصحابه وقواده عنه، ولا يولي عليه أحدًا، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله وولاة أموره بندارًا^(١٦٩) ولا محاسبًا ولا عاملًا، ولا يدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير ضررًا، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتديره، ولا يعرض لأحد ممن ضم إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته، وقضاته وعماله، وكتابه وقواده، وخدمه ومواليه وجنده، بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم في أنفسهم، ولا قراباتهم ولا مواليتهم، ولا أحد يتنسل منهم؛ ولا في دمائهم ولا في أموالهم، ولا في ضياعهم ودورهم، ورباعهم وأمتعتهم، ورقيقهم ودوابهم، شيئًا من ذلك صغيرًا ولا كبيرًا.

ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه، وبترخيص له في ذلك، وإدهان منه فيه لأحد من ولد آدم، ولا يحكم في أمرهم، ولا أحد من قضاته ومن عماله، ومن كان بسبب منه، بغير حكم عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأي قضاته؛ وإن نزع إليه أحد ممن ضم أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين، من أهل

بيت أمير المؤمنين وصحابته، وقواده وعماله وكتابه وخدمه، ومواليه وجنده، ورفض اسمه ومكتبه ومكانه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين، عاصيًا له، أو مخالفًا عليه، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين رده إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين، بصغر له وقماء^(١٧٠)، حتى ينفذ فيه رأيه وأمره؛ فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين خلع عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده، أو عزل عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية خراسان، وثغورها وأعمالها، والذي من حد عملها ما يلي همذان، والكور التي سماها أمير المؤمنين في كتابه هذا، أو صرف أحد من قواده الذين ضمهم أمير المؤمنين إليه، ممن قدم قرماسين، أو أن ينتقصه قليلًا أو كثيرًا، مما جعله أمير المؤمنين له، بوجه من الوجوه، أو بحيلة من الحيل، صغرت أو كبرت، فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين، وهو المقدم على محمد ابن أمير المؤمنين، وهو ولي الأمر من بعد أمير المؤمنين، والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون، من أهل خراسان وأهل العطاء؛ وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار لعبد الله بن أمير المؤمنين والقيام معه، والمجاهدة لمن خالفه، والنصر له والذب عنه؛ ما كانت الحياة في أبدانهم، وليس لأحد منهم جميعًا من كانوا أو حيث كانوا أن يخالفه ولا يعصيه، ولا يخرج من طاعته؛ ولا يطيع محمد ابن أمير المؤمنين في خلع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين، وصرف العهد عنه من بعده إلى غيره، أو تنقصه شيئًا مما جعله له أمير المؤمنين هارون، في حياته وصحته؛ واشترط في كتابه الذي كتبه عليه في البيت الحرام، وفي هذا الكتاب.

وعبد الله ابن أمير المؤمنين المصدق في قوله، وأنتم في حل من البيعة التي في أعناقكم لمحمد ابن أمير المؤمنين هارون، إن نقص شيئًا مما جعله له أمير المؤمنين

هارون، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون، ويسلم له الخلافة؛ وليس لمحمد ابن أمير المؤمنين هارون، ولا لعبد الله ابن أمير المؤمنين، أن يخلعا القاسم ابن أمير المؤمنين هارون، ولا يقدم عليه أحداً من أولادهما وقرابتهما، ولا غيرهم من جميع البرية؛ فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين، فالأمر إليه في إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده، أو صرف ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوته، وتقديم من أراد أن يقدم قبله، وتصيير القاسم بن أمير المؤمنين بعد من يقدم قبله، يحكم في ذلك بما أحب ورأى؛ فعليكم معشر المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا، وشرط عليهم وأمر به؛ وعليكم السمع والطاعة لأمر المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد الله بن أمير المؤمنين؛ وعهد الله وذمته وذمة رسوله ﷺ وذمم المسلمين، والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقربين والنبیین والمرسلين، ووكلها في أعناق المؤمنين والمسلمين، لتَقَنَّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سمى، ولمحمد وعبد الله والقاسم بني أمير المؤمنين بما سمى، وكتب في كتابه هذا واشترط عليكم، وأقرتم به على أنفسكم؛ فإن أنتم بدلتهم من ذلك شيئاً، أو غيرتم أو نكثتم، أو خالفتهم ما أمركم به أمير المؤمنين، واشترط عليكم في كتابه هذا، فبرئت منكم ذمة الله، وذمة رسوله محمد ﷺ، وذمم المؤمنين والمسلمين، وكل مال هو اليوم لكل رجل منكم، أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين، وعلى كل رجل منكم المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة خمسين حجة، نذراً واجباً، لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك؛ وكل مملوك لأحد منكم، أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة حر؛ وكل امرأة له فهي طالق ثلاثاً البتة، طلاق الحرج لا مثنوية فيها، والله عليكم بذلك كفيل وراع، وكفى بالله حسيباً.

(ب) نسخة الشرط الذي كتب عبد الله بن أمير المؤمنين

بخط يده في الكعبة:

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين، في صحة من عقله، وجواز من أمره، وصدق نية فيما كتب في كتابه هذا؛ ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين.

إن أمير المؤمنين هارون ولاني العهد والخلافة، وجميع أمور المسلمين في سلطانه، بعد أخي محمد بن هارون؛ وولاني في حياته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها، وشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لي من الخلافة، وولاية أمور العباد والبلاد بعده، وولاية خراسان وجميع أعمالها، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين، وابتاع لي من الضياع والعقد والرباع، وابتعت منه من ذلك، وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال، والجواهر والكساء، والمتاع والدواب، والرقيق وغير ذلك؛ ولا يعرض لي ولا لأحد من عمالي وكتابي بسبب محاسبة، ولا يتبع لي في ذلك، ولا لأحد منهم أبدًا؛ ولا يدخل علي ولا عليهم، ولا على من كان معي؛ ومن استعنت به من جميع الناس مكروهًا في نفس ولا دم ولا شعر ولا بشر ولا مال، ولا صغير من الأمور ولا كبير، فأجابه إلى ذلك وأقر به، وكتب له كتابًا أكد فيه على نفسه، ورضي به أمير المؤمنين هارون، وقبله وعرف صدق نيته فيه؛ فشرطت لأمر المؤمنين، وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد، وأطيع ولا أعصيه؛ وأنصحه ولا أغشه، وأوفي ببيعته وولايته، ولا أغدر ولا أنكث، وأنفذ كتبه وأمره، وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه في ناحيتي؛ ما وفي لي بما شرط لأمر المؤمنين في أمري، وسمى في الكتاب الذي كتبه لأمر المؤمنين، ورضي به أمير المؤمنين، ولم

يتبعني بشيء من ذلك، ولم ينقض أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه؛ فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جند، وكتب إلي يأمرني بإشخاصه إليه، أو إلى ناحية من النواحي، أو إلى عدو من أعدائه خالفه، أو أراد نقص شيء من سلطانه أو سلطاني الذي أسنده أمير المؤمنين إلينا، وولانا إياه، فعلي أن أنفذ أمره، ولا أخالفه ولا أقصر في شيء كتب به إلي؛ وإن أراد محمد أن يولي رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدي.

فذلك له ما وفي لي بما جعله أمير المؤمنين إلي، واشترطه لي عليه، وشرط على نفسه في أمري؛ وعلي إنفاذ ذلك والوفاء له به لا أنقص من ذلك ولا أغیره ولا أبدله ولا أقدم قبله أحداً من ولدي ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين؛ إلا أن يولي أمير المؤمنين هارون أحداً من ولده العهد من بعدي، فيلزمني ومحمداً الوفاء له، وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد علي الوفاء بما شرطت وسميت في كتابي هذا، ما وفي لي محمد بجميع ما اشترط لي أمير المؤمنين عليه في نفسي، وما أعطاني أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسماة في هذا الكتاب الذي كتبه لي؛ وعلي عهد الله وميثاقه، وذمة أمير المؤمنين وذمتي، وذمم آبائي وذمم المؤمنين؛ وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين، من عهوده ومواريثه، والأيمان المؤكدة التي أمر الله بالوفاء بها، ونهى عن نقضها وتبديلها؛ فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت وسميت في كتابي هذا، أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو غدرت، فبرئت من الله عز وجل، ومن ولايته ودينه، ومحمد رسول الله ﷺ، ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً؛ وكل امرأة هي لي اليوم، أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة، طلاق الحرج؛ وكل مملوك هو لي اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة، أحرار لوجه الله؛ وعلي المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة

ثلاثين حجة، نذرًا واجبًا علي في عنقي، حافيًا راجلاً لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك؛ وكل مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدي بالغ الكعبة، وكل ما جعلت لأمر المؤمنين، وشرطت في كتابي هذا لأزم لي، لا أضمر غيره، ولا أنوي غيره. وشهد سليمان بن أمير المؤمنين، وفلان وفلان، وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة.

(ج) نسخة كتاب الرشيد إلى العمال بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإن الله ولي أمير المؤمنين وولي ما ولاه، والحافظ لما استرعاه، وأكرمه به من خلافته وسلطانه، والصانع له فيما قدم وآخر من أموره، والمنعم عليه بالنصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها، والكالئ والحافظ والكافي من جميع خلقه، وهو المحمود على جميع آلائه، المسئول تمام حسن ما أمضى من قضائه لأمر المؤمنين وعاداته الجميلة عنده، وإلهام ما يرضى به ويوجب له عليه أحسن الميزان من فضله؛ وقد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوام المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله ابني أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسن ما أملت الأمة ومدت إليه أعناقها، وقذف الله لهما في قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون إليهما والثقة بهما لعماد دينهم وقوام أمورهم وجمع ألفتهم وصلاح دهمائهم ودفع المحذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم حتى ألقوا إليهما أزمتهن، وأعطوهما بيعتهن، وصفقات أيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلظة عليهم؛ أراد الله فلم يكن له مرد، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته، ولا صرف له عن محبته ومشيتته، وما سبق في علمه منه؛ وأمر المؤمنين يرجو تمام النعمة عليه وعليهما

في ذلك، وعلى الأمة كافة لا عاقب لأمر الله ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه. ولم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عقد العهد لمحمد ابن أمير المؤمنين، ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين يعمل فكره ورأيه ونظره ورويته، فيما فيه الصلاح لهما ولجميع الرعية؛ والجمع للكلمة، واللم للشعث، والدفع للشتات والفرقة، والحسم لكيد أعداء النعم من أهل الكفر والنفاق، والغل والشقاق، والقطع لآمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها وانتهازها منهما بانتقاص حقهما، ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك ويسأله العزيمة له على ما فيه الخيرة لهما، ولجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه وائتلاف أهوائهما، وصلاح ذات بينهما، وتحصينهما من كيد أعداء النعم، ورد حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما، فعزم الله لأمر المؤمنين على الشخوص بهما إلى بيت الله وأخذ البيعة منهما لأمر المؤمنين بالسمع والطاعة والإنفاذ لأمره، واكتتاب الشرط على كل واحد منهما لأمر المؤمنين ولهما بأشد الموائيق والعهود، وأغلظ الأيمان والتوكيد، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع ألفتها ومودتهما وتواصلهما ومؤازرتها ومكاتفتهما على حسن النظر لأنفسهما، ولرعية أمير المؤمنين التي استرعاهما، والجماعة لدين الله عز وجل وكتابه وسنن نبيه ﷺ، والجهاد لعدو المسلمين من كانوا وحيث كانوا وقطع طمع كل عدو مظهر للعداوة ومسر لها، وكل منافق ومارق، وأهل الأهواء الضالة المضلة من فرقة تكيد بكيد توقعه بينهما، وبدحس^(١٧١) يدحس به لهما، وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه من الضرب بين الأمة والسعي بالفساد في الأرض، والدعاء إلى البدع والضلالة، نظرًا من أمير المؤمنين لدينه ورعيته، وأمة نبيه

محمد ﷺ، ومناصرة الله ولجميع المسلمين، وذنبًا عن سلطان الله الذي قدره وتوحد فيه للذي حمله إياه؛ والاجتهاد في كل ما فيه قربة إلى الله، وما ينال به رضوانه والوسيلة عنده.

فلما قدم مكة أظهر لمحمد وعبد الله رأيه في ذلك وما نظر فيه لهما، فقبلا كل ما دعاهما إليه من التوكيد على أنفسهما بقبوله، وكتبًا لأمير المؤمنين في بطن بيت الله الحرام بخطوط أيديهما بمحضر ممن شهد الموسم من أهل بيت أمير المؤمنين وقواده، وصحابته وقضاته، وحجة الكعبة وشهاداتهم عليهما، كتابين استودعهما أمير المؤمنين الحجة، وأمر بتعليقهما في داخل الكعبة؛ فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كله في داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة؛ أمر قضاته الذين شهدوا عليهما وحضروا كتابهما أن يعلموا جميع من حضر الموسم من الحاج والعمار ووفود الأمصار، ما شهدوا عليه من شرطهما وكتابهما وقراءة ذلك عليهم، ليفهموه ويعرفوه ويحفظوه ويؤيدوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم، ففعلوا ذلك، وقرئ عليهم الشرطان جميعًا في المسجد الحرام؛ فانصرفوا وقد اشتهر ذلك عندهم، وأثبتوا الشهادة عليه، وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنايته بصلاحهم، وحقن دمائهم ولم شعثهم، وإطفاء جمرة أعداء الله وأعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم، وأظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان منه في ذلك، وقد نسخ لك أمير المؤمنين ذينك الشرطين الذين كتبهما لأمير المؤمنين ابنه محمد وعبد الله في بطن الكعبة في أسفل كتابه هذا؛ فاحمد الله عز وجل على ما صنع لمحمد وعبد الله وليي عهد المسلمين حمداً كثيراً، واشكره ببلائه عند أمير المؤمنين وعند وليي عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمة محمد ﷺ كثيراً؛ واقرأ كتاب أمير المؤمنين على من قبلك من

المسلمين وأفهمهم إياه، وطمع به بينهم وأثبتته في الديوان قبلك، وقبل قواد أمير المؤمنين ورعيته قبلك، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك، إن شاء الله. وحسبنا الله ونعم الوكيل، وبه الحول والقوة والطول. كتبه إسماعيل بن صبيح يوم السبت لسبع ليال بقين من المحرم سنة ست وثمانين ومائة.

هوامش:

- (١) كسروا الخراج أي كفوا عن أدائه.
- (٢) هو ابن الليث بن نصر بن سيار. وكان أرسل المهدي أباه الليث لمحاربة المقتنع فلم يتمكن منه. وكان ابنه محمد هذا من كتاب المهدي، ولم تعرف سنة وفاته.
- (٣) هو سلام بن الأبرش، استعمله المنصور ثم تولى العقوبات في أيام المهدي.
- (٤) الهزاهن: تحريك البلايا والحروب في الناس.
- (٥) المنّة: القوة.
- (٦) لا يتغيل: لا يضعف.
- (٧) معارض الكلام ما عرّض به ولم يصرح، وهي التورية بالشيء عن الشيء.
- (٨) الحقاب: شيء تتخذه المرأة تعلق به معاليق الحلي تشده على وسطها.
- (٩) ظنينًا: متهمًا. ودخلة مكروهة: أي نية سيئة.
- (١٠) ربضه أي أثبتته.
- (١١) أبرق وأرعد بمعنى تهدد وتوعد.
- (١٢) البعوث: الجيوش.
- (١٣) الخطار: الإشراف على هلكة.
- (١٤) نفست عنهم: فرجت عنهم.
- (١٥) نائرة الحرب: ما اشتعل واتقد منها.
- (١٦) الإسجاح: مصدر أسجح الوالي، إذا أحسن العفو.
- (١٧) الخريطة: وعاء من أدم وغيره.
- (١٨) الإرجاف: مصدر أرجف القوم إذا خاضوا في أخبار الفتن على أن يوقعوا في الناس الاضطراب من غير أن يصح عندهم شيء.
- (١٩) لا يتكأده: لا يشق عليه.
- (٢٠) يستح: يشتد ويقوى.
- (٢١) غمط الأمر: ازدهر. وسفه حقه: امتهنه وبخسه.
- (٢٢) العذر جمع عذار.
- (٢٣) النزوة: الوثوب إلى الشر.
- (٢٤) عصب الشيء: لواه وشده.
- (٢٥) الفطام هنا: القطع والاستئصال.
- (٢٦) ظنين بما ادعى: متهم بدعواه.
- (٢٧) الميسم: المكواة يوسم بها الحيوان.

(٢٨) فر الدابة: فتح فاهها وكشف عن أسنانها ينظر ما سنها. والمسن من الدواب ما دخل في الثامنة.

(٢٩) الماتة: الحرمة والوسيلة.

(٣٠) التوغير بهم: التشديد عليهم.

(٣١) ميمون النقية: أي مبارك النفس ينجح فيما يحاول. ومخبور التجارب: خير بها.

(٣٢) العازب: الغائب.

(٣٣) العذل: اسم مصدر من العذل بمعنى اللوم ومنه المثل «سبق السيف العذل» يضرب لما قد فات.

(٣٤) ضراعة سنه: شبابه وحدائه سنه.

(٣٥) عتاق الطير: كرام الطير.

(٣٦) شسوعه: ابتعاده.

(٣٧) سعت ودأبت حتى أثرت.

(٣٨) وقعت طائرة الأهواء: خمد غضبها وسكن روعها.

(٣٩) يتدأب: ينجث.

(٤٠) تتفقد مخارج رأيه: أي تفحص عن وجوه رأيه وتدبره.

(٤١) أملك الأمور: أضبطها.

(٤٢) السميت: المذهب والقصد.

(٤٣) الأعطاف: جمع عطف وهو الجانب.

(٤٤) الكنف: جمع كنف وهو الجانب. وأرجفت: زلزلت.

(٤٥) الكريمة: صاحب الكرم. وكرائم الرجال: أخاير رجال العرب وأحاسنهم.

(٤٦) غير مغموز: غير مطعون: لا يداخله فساد.

(٤٧) في الأصل: «مايلا».

(٤٨) محاتد: جمع محتد، وهو الأصل.

(٤٩) أرومات: جمع أرومة، وهي الأصل.

(٥٠) نبعات: أصول كريمة.

(٥١) أعياص قريش: أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر، وهم: العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والعويص.

(٥٢) في الأصل: «فلا».

(٥٣) أصله تنداعى فحذفت إحدى تاءيه، ومعناه يجتمعون عليهم ويتألبون بالعداوة.

(٥٤) تستحملهم: تلقي عليهم حملها وعبأها.

(٥٥) المستأسدة: القوية.

(٥٦) تستلحمه: تعلق به وتنشب.

- (٥٧) كذا في الأصل.
- (٥٨) عمارات العرب: أحيائها العظيمة.
- (٥٩) غميرة: مطعن.
- (٦٠) بياض في الأصل بمقدار كلمة.
- (٦١) كذا في الأصل.
- (٦٢) لعله: ولا تغلق.
- (٦٣) في الأصل: لا.
- (٦٤) كذا في الأصل.
- (٦٥) بياض في الأصل بمقدار كلمة.
- (٦٦) زيادة يقتضيها السياق.
- (٦٧) في الأصل: «متراحية».
- (٦٨) في الأصل: «... ولا يسقط حقه ولولا أن ... إلخ».
- (٦٩) زيادة يتطلبها الكلام.
- (٧٠) في الأصل: «إلا أنهم ...»
- (٧١) في الأصل: «ولا سقط».
- (٧٢) صبر نفسه: حبسها.
- (٧٣) وهل: فزع.
- (٧٤) الصوت: الذكر الحسن كالصيت.
- (٧٥) كذا وردت هذه الجملة في الأصل وهي مضطربة.
- (٧٦) في الأصل: «ولا ينوح ...»
- (٧٧) كذا في الأصل.
- (٧٨) في هذا الموضع اضطراب.
- (٧٩) في الأصل: «دافعة ...»
- (٨٠) كذا في الأصل.
- (٨١) العقد: جمع عقدة وهي الضيعة أو العقار الذي اقتناه صاحبه.
- (٨٢) بياض بالأصل بمقدار كلمة.
- (٨٣) في الأصل «عن شبهة إنما إلخ».
- (٨٤) كذا وردت هذه الجملة في الأصل وهي غير واضحة.
- (٨٥) في الأصل: «ويزعم أن أصحابه ...» والكلام عليه غير واضح.
- (٨٦) هكذا في الأصل.
- (٨٧) هكذا في الأصل.
- (٨٨) في الأصل: «فيها بعد ...»

- (٨٩) الكظاظ: التعب والشدة.
- (٩٠) مقموعين: مقهورين مذللين.
- (٩١) الخصال: النضال.
- (٩٢) في الأصل: «أما كان...»
- (٩٣) تحوس أحدهما: تغشاه وتهيته. وفي الأصل «تحوش...» بالشين المعجمة وهو تحريف.
- (٩٤) في الأصل: «فأي أمر بذلك...»
- (٩٥) في هذه الجملة غموض لم نوفق إلى كشف سببه وإن كان المراد منها واضحاً.
- (٩٦) هكذا في الأصل.
- (٩٧) في الأصل «أن ينظروا...» بياء الغيبة.
- (٩٨) كذا في الأصل، وظاهر أن كلمة بعد «في» سقطت من الناسخ سهواً.
- (٩٩) في الأصل: «لا يستقيم له أن يؤمن له بها...» بزيادة «له». وهي قلقه في موضعها فلعلها زيدت من الناسخ.
- (١٠٠) في هذا الموضع اضطراب في الكلمات، والمراد واضح.
- (١٠١) في هذا الموضع اضطراب في الكلمات، والمراد واضح.
- (١٠٢) كذا في الأصل.
- (١٠٣) في الأصل «في دينه...»
- (١٠٤) كذا بالأصل.
- (١٠٥) كذا في الأصل.
- (١٠٦) في الأصل: «لن آمن من بعده إذ يقول...» وظاهر أن كلمة «إذ يقول» غير مفيدة هنا، فلعلها زيدت سهواً من الناسخ.
- (١٠٧) في الأصل: «كثيرة...»
- (١٠٨) كذا بالأصل.
- (١٠٩) الوارد في إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٨ ج ٣ ص ١٨٦ من الكتاب المقدس طبعة بيروت سنة ١٨٨٢ م): «فلو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون بأني ماض إلى الأب لأن الأب هو أعظم مني».
- (١١٠) الوارد في إنجيل يوحنا (فصل ٢٠ آية ١٧ ج ٣ ص ١٩٦ من الكتاب المقدس): «إني صاعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم».
- (١١١) كذا بالأصل.
- (١١٢) الوارد في إنجيل متى (فصل ٥ آية ٤٢ ج ٣ من الكتاب المقدس): «من سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا تمنعه.» والوارد في إنجيل لوقا (فصل ١١ آية ١٠ ج ٣ من الكتاب المقدس): «من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له.»
- (١١٣) راجع إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٦ وفصل ١٥ آية ٢٦ وفصل ١٦ آية ١٣ ج ٣ ص ١٨٨ من الكتاب المقدس).
- (١١٤) راجع نبوءة أشعيا (فصل ٢١ آية ٩ ج ٢ ص ٣٤٨ من الكتاب المقدس).
- (١١٥) كذا بالأصل، ولم نوفق إلى تصحيحه.

- (١١٦) في الأصل: «المنحرة» وقد استأنسنا في إثبات ما أثبتناه بالكتاب المقدس.
- (١١٧) راجع سفر الزمير (فصل ٩ آية ٢١ ج ٢ ص ٥٢ من الكتاب المقدس).
- (١١٨) راجع نبوءة حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس).
- (١١٩) في الأصل: «من السمان...»
- (١٢٠) راجع نبوءة حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس).
- (١٢١) زيادة يدل عليها ما قبلها.
- (١٢٢) في الأصل: «ومنعها...»
- (١٢٣) راجع سفر الزمير (فصل ١٤٩ آية ١-٩ ج ٢ ص ١٥٧ من الكتاب المقدس).
- (١٢٤) في الأصل: «هلكه الصالحون...»
- (١٢٥) راجع نبوءة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١٠ ج ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس).
- (١٢٦) كذا في الأصل، ولعله محرف عن «فوج». والفوج: الجماعة من الناس.
- (١٢٧) كذا بالأصل، ولم ندر لهاتين الكلمتين ولا لذكرهما معنى.
- (١٢٨) راجع نبوءة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١-١٠ ج ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس).
- (١٢٩) كذا بالأصل.
- (١٣٠) راجع سفر الزمير (فصل ٤٤ «وفي بعض النسخ ٤٥» آية ٣-٨ ج ٢ ص ٧٩ من الكتاب المقدس).
- (١٣١) في الأصل: «في خمسة وأربعين مزمورًا».
- (١٣٢) في الأصل: «من أجل ذلك باركل الدهر. واستعنا في تصحيحها بالكتاب المقدس الذي وردت فيه الجملة هكذا: «وقد انسكبت النعمة على شفتيك فلذلك باركك الله إلى الأبد». أما الباقي فلم نوفق إلى تصحيحه فأثبتناه كما وردت بالأصل».
- (١٣٣) راجع سفر تشيئة الاشرع (فصل ٣٣ آية ٢ ج ١ ص ٤٤٣ من الكتاب المقدس).
- (١٣٤) راجع سفر تشيئة الاشرع (فصل ١٨ آية ١٥ ج ١ ص ٣١٨ من الكتاب المقدس).
- (١٣٥) راجع إنجيل متى (فصل ٦ آية ٩ ج ٣ ص ١٠ من الكتاب المقدس).
- (١٣٦) في الأصل: «وصار دونه أبا...»
- (١٣٧) لم نجد هذا في الإنجيل.
- (١٣٨) حزقيل نبي بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل، وهو الذي أحيا الله به القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فأحياهم الله تعالى بعد موتهم بدعوته. وهو ما يشير إليه قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ الْآيَةَ.
- (١٣٩) إشارة إلى قصة يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس؛ فقد روي أن يوشع قاتل الجبارين يوم الجمعة، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه، فدعا الله تعالى، فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم.
- (١٤٠) السرب: الطريق.
- (١٤١) كذا في الأصل.
- (١٤٢) في الأصل: «لا سكن لهم إلخ».

- (١٤٣) في الأصل: «من بلادهم...»
 (١٤٤) كذا في الأصل.
 (١٤٥) راجع إنجيل متى (فصل ٥ آية ٣٩ ج ٣ ص ٩ من الكتاب المقدس).
 (١٤٦) كذا في الأصل.
 (١٤٧) كذا في الأصل.
 (١٤٨) راجع إنجيل متى (فصل ٥ آية ٧ ج ٣ ص ٧ من الكتاب المقدس).
 (١٤٩) في الأصل: «ولأبتدلوا...»
 (١٥٠) كذا في الأصل وهو غير واضح ولعل أصل الجملة «ولا يمنعك الشيطان مما فيه... إلخ» فسقط هذا أو نحوه سهواً من الناسخ.
 (١٥١) كذا في الأصل.
 (١٥٢) في الأصل: «الغير».
 (١٥٣) في الأصل: موفق معصوم ثم استنفذه بمولاة إلخ.
 (١٥٤) في الأصل: «عورة».
 (١٥٥) الإحراج: الضيق، وفي الأصل: «الاستخراج».
 (١٥٦) الشخب (بالضم): ما خرج من تحت يد الخالب عند كل غمرة وعصرة للضرع.
 (١٥٧) فوقه الشيء: أعطاه إياه قليلاً قليلاً.
 (١٥٨) في الأصل: «بمفآته».
 (١٥٩) في الأصل: «إن وكله إلى قوته ولا نشاطاً ولا حداً وقواه بهاله».
 (١٦٠) غاط: دخل.
 (١٦١) الصوائف: جمع صائفة وهي الغزوة في الصيف.
 (١٦٢) الضراوة: اللهج بالشيء والإغراء به.
 (١٦٣) في الأصل: «لهم» والسياق يقتضي ما أثبتناه.
 (١٦٤) وضعنا هذه الكلمة لأنها تتفق والسياق، ومكانها في الأصل بياض.
 (١٦٥) الغلول: الطعام أو الشراب الذي يدخل في الجوف.
 (١٦٦) هذه الرسالة ورسالة أبي الربيع محمد بن الليث السابقة من كتاب اختيار المنظوم والمشور لابن طيفور.
 (١٦٧) هذا العهد ورد في تاريخ اليعقوبي (ج ٢ ص ٥٠٢ طبعة ليدن) وفيه عبارات تخالف ما أثبتناه هنا عن الطبري.
 (١٦٨) قرماسين: موضع بين الزبيدية ومكة.
 (١٦٩) البندار: الحافظ.
 (١٧٠) القماء: الذل والخضوع.
 (١٧١) الدحس: الفساد.

باب المنظوم

صورنا لك بالمجلد الأول حالة الشعر في صدر الدولة العباسية وذكرنا لك جملة صالحة من شعراء ذلك العصر ووعدناك بذكر مختارات من شعرهم، وإليك ما وعدناك به.

(١) بشار بن برد العقيلي^(١)؛

سأله المهدي لما دخل عليه فقال له: فيمن تعتد يا بشار؟ فقال: أما اللسان والزي فغريبان وأما الأصل فعجمي، كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين:

ونبئت قومًا بهم جنة يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيها السائلي جاهدًا ليعرفني أنا أنف الكرم
نمت في الكرام بني عامر فروعِي وأصلي قريش العجم
فإنني لأغني مقام الفتى وأصبي الفتاة فما تعصم

وكان أبو دلالة حاضرًا، فقال: كلا! لوجهك أقبح من ذلك، وجهي مع وجهك، فقال بشار: كلا! والله ما رأيت رجلاً أصدق على نفسه وأكذب على جلسه منك، والله إني لطويل القامة، عظيم الهامة، تام الألواح، أسجح الخدين، ولرب مسترخي المزورين للعين فيه مراد. ثم قال له المهدي: من أي العجم أصلك؟ فقال: من أكثرها في الفرسان وأشدّها على الأقران أهل طخارستان؛ فقال بعض القوم: أولئك الصغد، فقال: لا! الصغد تجار؛ فلم يردد ذلك المهدي.

وكان بشار كثير التلون في ولائه، شديد التشيع والتعصب للعجم، مرة
يقول يفتخر بولائه في قيس:

أمنت مضرة الفحشاء إني أرى قيسًا تشب^(٢) ولا تضار
كأن الناس حين تغيب عنهم نبات الأرض أخطأه القطار
وقد كانت بتدمر خيل قيس فكان لتدمر فيها دمار
بحي من بني عيلان شوس يسير الموت حيث يقال ساروا
وما نلقاهم إلا صدرنا بري منهم وهم حرار
ومرة يتبرأ من ولاء العرب فيقول:

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم مولى العريب فجذبفضلك فافخر
مولاك أكرم من تميم كلها أهل الفعال ومن قريش المشعر
فارجع إلى مولاك غير مدافع سبحة مولاك الأجل الأكبر
وقال يفتخر بولاء بني عقيل:

إنني من بني عقيل بن كعب موضع السيف من طلى الأعناق
وولد بشار أعمى، فما نظر إلى الدنيا قط، وكان يشبه الأشياء بعضها ببعض
في شعره، فيأتي بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله؛ فقليل له يومًا وقد أنشد قوله:
كأن مشار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا
شيئًا فيها؟ فقال: إن عدم النظر يقوي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر
إليه من الأشياء، فيتوفر حسه وتذكو قريحته؛ ثم أنشدهم قوله:
عميت جنيًا والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم موثلا

وغاض ضياء العين للعلم رافداً بقلب إذا ما ضيع الناس حصلاً
وشعر كنور الأرض لاءمت بينه بقول إذا ما أحزن الشعر أسهلاً
وكان من أشد الناس تبرماً بالناس . وكان يقول: الحمد لله الذي ذهب
ببصري. فقليل له لم يا أبا معاذ؟ قال: لئلا أرى ما أبغض.

وقال الأصمعي: بشار خاتمة الشعراء، والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته
على كثير منهم. وقيل لأبي عبيدة: أمروان أشعر أم بشار؟ فقال: حكم بشار
لنفسه بالاستظهار، إنه قال ثلاثة عشر ألف بيت جيد، ولا يكون عدد الجيد
من شعر شعراء الجاهلية والأسلام هذا العدد، وما أحسبهم برزوا في مثلها،
ومروان أمدح للملوك.

وسئل الأصمعي عن بشار ومروان أيهما أشعر؟ فقال: بشار؛ فسئل عن
السبب لذلك، فقال: لأن مروان سلك طريقاً كثر من يسلكه، فلم يلحق بمن
تقدمه وشركه فيه من كان في عصره، وبشار سلك طريقاً لم يسلك وأحسن
فيه وتفرد به، وهو أكثر تصرفاً وفنون شعر، وأغزر وأوسع بديعاً، ومروان لم
يتجاوز مذهب الأوائل.

وقيل لبشار: ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً
استنكره العرب من ألفاظهم وشك فيه، وإنه ليس في شعرك ما يشك فيه؛
قال: ومن أين يأتيني الخطأ؟ وولدت ها هنا، ونشأت في حجور ثمانين شيخاً
من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ، وإن دخلت إلى
نسائهم فنسأؤهم أفصح منهم، وأيفعت فأبديت^(٣) إلى أن أدركت، فمن أين
يأتيني الخطأ؟

كان جرير بن المنذر السدوسي يفاخر بشاراً، فقال فيه بشار:

أمثل بني مضر وائل فقدتك من فاخر ما أجن
أفي النوم هذا أبا منذر فخيرًا رأيته وخيرًا يكن
رأيتك والفخر في مثلها كعاجنة غير ما تطحن
كان بشار يهوى امرأة من أهل البصرة، فراسلها يسألها زيارته، فوعده
بذلك ثم أخلفته، وجعل ينتظرها ليلته حتى أصبح، فلما لم تأت أرسل إليها
ليعاتبها فاعتذرت بمرض أصابها، فكتب إليها بهذه الأبيات:

يا ليلتي ترزاد نكرًا	من حب من أحببت بكرا
حوراء إن نظرت إلي	ك سقتك بالعينين خمرًا
وكان رجع حديثها	قطع الرياض كسين زهرا
وكان تحت لسانها	هاروت ينفث فيه سحرا
وتخال ما جمعت علي	ه ثيابها ذهبًا وعطرا
وكانها برد الشرا	ب صفا وصادف منك فطرا
جنية إنسية	أو بين ذاك أجل أمرا
وكفاك أني لم أحط	بشكاة من أحببت خبرا
إلا مقالة زائر	نثرت لي الأحزان نثرا
متخشعات تحت الهوى	عشرًا وتحت الموت عشرا

وكان إسحاق الموصلي لا يعتد بشار ويقول: هو كثير التخليط في نثره،
وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضًا، أليس هو القائل:

إنما عظم سليمي حبتي قصب السكر لا عظم الجمل
وإذا أدنيت منها بصلا غلب المسك على ريح البصل
لو قال: كل شيء جيد ثم أضيف إليه هذا لزيفه. وكان يقدم عليه مروان

ويقول: هو أشد استواء شعر منه، وكلامه ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها، وكان لا يعد أبا نواس البتة ولا يرى فيه خيرًا.

قال الجاحظ: كان بشار خطيبًا صاحب منشور ومزدوج وسجع ورسائل، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع، المتفنين في الشعر، القائلين في أكثر أجناسه وضروبه. وقال الشعر في حياة جرير وتعرض له، وحكى أنه قال: هجوت جريرًا فأعرض عني، ولو هاجاني لكنت أشعر الناس، وكان يدين بالرجعة، ويكفر جميع الأمة، ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين، وذكر مثل ذلك في شعره فقال:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار
وقال بعض الرواة لأبي عمرو: من أبدع الناس بيتًا؟ قال الذي يقول:
لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف ألم
وإذا قلت لها جودي لنا خرجت بالصمت عن لا ونعم
روحي يا عبد عني واعلمي أنني يا عبد من لحم ودم
إن في بردي جسمًا ناحلا لو توكت عليه لانهدم
وهذه الأبيات لبشار.

قال: فمن أمدح الناس؟ قال الذي يقول:

لمست بكفي كفه أبغني الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعداني فأتلقت ما عندي
وهذه الأبيات لبشار.

ودخل بشار على إبراهيم بن عبد الله بن حسن، فأنشده قصيدة يهجو فيها المنصور ويشير عليه برأي يستعمله في أمره، فلما قتل إبراهيم خاف بشار،

فقلب الكنية وأظهر أنه كان قالها في أبي مسلم، وحذف منها أبياتاً، وأولها:
أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم
قلب هذا البيت فقال: أبا مسلم:

على الملك الجبار يقتحم الردى ويصرعه في المأزق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوج عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسم كسرى رهطه بسيوفهم وأمسى أبو العباس أحلام نائم
يعني الوليد بن يزيد.

وقد كان لا يخشى انقلاب مكيدة عليه ولا جري النحوس الأشائم
مقيماً على اللذات حتى بدت له وجوه المنايا حاسرات العمام
وقد ترد الأيام غرّاً وربما وردن كلوحاً باديات الشكائم
ومروان قد دارت على رأسه الرحا وكان لما أجمرت نزر الجرائم
فأصبحت تجري سادراً في طريقهم ولا تتقي أشباه تلك النقائم
تجردت للإسلام تعفو سبيله وتعري مطاه^(٤) لليوث الضراغم
فما زلت حتى استنصر الدين أهله عليك فعاذوا بالسيوف الصوارم
فرم وزراً ينجيك يابن سلامة فلست بناج من مضيم وضائم
جعل موضع «يابن سلامة» «يابن وشيكة» وهي أم أبي مسلم.

لحا الله قومًا رأسوك عليهم وما زلت مرءوسًا خبيث المطاعم
أقول لبسام عليه جلالة غدا أريحياً عاشقاً للمكارم
من الفاطميين الدعاة إلى الهدى جهارا ومن يهديك مثل ابن فاطم
هذا البيت حذفه بشار من الأبيات:

سراج لعين المسيء وتارة يكون ظلاماً للعدو المزاحم

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة^(٥)
وما خير كف أمسك الغل أختها^(٧)
وخل الهوينا للضعيف ولا تكن
وحارب إذا لم تعط إلا ظلامة
وأدن على القريبى المقرب نفسه
فإنك لا تستطرد الهم بالمنى
إذا كنت فرداً هرك القوم مقبلا
وما قرع الأقوام مثل مشيع^(٩)
برأي نصيح أو نصيحة حازم
فإن الخوافي^(٦) قوة للقوادم
وما خير سيف لم يؤيد بقائم
نثوماً فإن الحزم ليس بنائم
شبا^(٨) الحرب خير من قبول المظالم
ولا تشهد الشورى امرأ غير كاتم
ولا تبلغ العليا بغير المكارم
وإن كنت أدنى لم تفز بالعزائم
أريب ولا جلي العمى مثل عالم

قال أبو عبيدة: ميمية بشار هذه أحب إلي من ميميتي جرير والفرزدق.
وقال الأصمعي لبشار: يا أبا معاذ، إن الناس يعجبون من أبياتك في المشورة؛
فقال له: يا أبا سعيد، إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته، أو خطأ يشارك في
مكروهه؛ فقال له: أنت في قولك هذا أشعر منك في شعرك.

توفي ابن لبشار فجزع عليه، فقليل له: أجر قدمته، وفرط افترطته، وذخر
أحرزته؛ فقال: ولد دفتته، وثكل تعجلته، وغيب وعدته فانتظرتة، والله لئن لم
أجزع للنقص لا أفرح للزيادة. وقال يرثيه:

أجارتنا لا تجزعي وأنيسي
بني على رغمي وسخطي رزته
وكان كريحان العروس تخاله
أصبت به في حين أوراق غصنه
عجبت لإسراع المنية نحوه
أأتاني من الموت المطل نصيبي
وبدل أحجاراً وجال^(١٠) قلب
ذوى بعد إشراق يسر وطيب
وألقى علي الهم كل قريب
وما كان لو مليته بعجيب

قيل لبشار: إنك لتجيء بالشيء المهجين المتفاوت؛ قال: وما ذاك؟ قيل: بينما تقول شعراً يثير النقع وتخلع به القلوب مثل قولك:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تظن الدما
إذا ما أعرنا سيِّداً من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلم
تقول:

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت
فقال: لكل وجه، فالقول الأول جد، وهذا قلته في ربابة جاريتي، وأنا لا آكل البيض من السوق، وربابة لها عشر دجاجات وديك، فهي تجمع لي البيض، فهذا عندها أحسن من «قفانبك» عندك. وسألته جارية مغنية لبعض ولد سليمان بن علي، وكانت محسنة بارعة الظرف، أن يذكرها في قصيدة ولا يذكر فيها اسمها ولا اسم سيدها ويكتب بها إليها، فانصرف وكتب إليها:

وذات دل كأن البدر صورتها باتت تغني عميد القلب سكرانا
«إن العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحين قتلانا»
فقلت أحسنت يا سؤلي ويا أملي فأسمعيني جزاك الله إحسانا
«يا حبذا جبل الريان من جبل وحبذا ساكن الريان من كانا»
قالت فهلا فدتك النفس أحسن من هذا لمن كان صب القلب حيرانا
«يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً»
فقلت أحسنت أنت الشمس طالعة أضرمت في القلب والأحشاء نيرانا
فأسمعيني صوتاً مطرباً هزجاً يزيد صبّاً محبّاً فيك أشجانا
يا ليتني كنت تفاحاً مفلجة أو كنت من قُضب الريحان ريحانا

حتى إذا وجدت ريحي فأعجبها ونحن في خلوة مثلت إنسانا
فحركت عودها ثم انثت طربًا تشدو به ثم لا تخفيه كتمانا
«أصبحت أطوع خلق الله كلهم لأكثر الخلق لي في الحب عصيانا»
فقلت أطربتنا يا زين مجلسنا فهات إنك بالإحسان أولانا
لو كنت أعلم أن الحب يقتلني أعددت لي قبل أن ألقاك أكفانا
فغنت الشرب صوتًا مونقًا رملا يذكي السرور ويكي العين ألوانا
«لا يقتل الله من دامت مودته والله يقتل أهل الغدر أحيانًا»

كان الزوار يسمون في قديم الدهر إلى أيام خالد بن برمك السؤال، فقال خالد: هذا والله اسم أستثقله لطلاب الخير، وأرفع قدر الكرم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعيم، ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبًا، ولكننا نسميهم الزوار، فقال بشار يمدحه بذلك:

حذا خالد في فعله حذو برمك فمجد له مستطرف وأصيل
وكان ذوو الآمال يدعون قبله بلفظ على الإعدام فيه دليل
يسمون بالسؤال في كل موطن وإن كان فيهم نابه وجليل
فسماهم الزوار سترًا عليهم فأستاره في المهتدين سدول

وقال بشار هذا الشعر في مجلس خالد في الساعة التي تكلم خالد بهذا في أمر الزوار، فأعطاه لكل بيت ألف درهم.

دخل بشار على عقبة بن سلم فأنشده بعض مدائحه فيه، وعنده عقبة بن روبة ينشده رجزًا يمدحه به، فسمعه بشار وجعل يستحسن ما قاله إلى أن فرغ، ثم أقبل على بشار فقال: هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ، فقال بشار: ألي يقال هذا! أنا والله أرجز منك ومن أييك وجدك؛ فقال له: عقبة أنا وأبي

فتحننا للناس باب الغريب وباب الرجز، وإني لخليق أن أسده عليهم؛ فقال
بشار: ارحمهم رحمك الله، ولما كان من غد غدا على عقبة بن سلم وعنده عقبة
بن ربيعة، فأنشده أرجوزته التي مدحه فيها:

يا طلل الحي بذات الصمد	بالله خبر كيف كنت بعدي
أوحشت من دعد وترب دعد	سقيًا لأسماء ابنة الأشد
قامت تراءى إذ رأته وحدي	كالشمس تحت الزبرج ^(١) المنقد
صدت بخد وجلت عن خد	ثم انثنت كالنفس المرتد
عهدي بها سقيًا له من عهد	تخلف وعدًا وتفي بوعده
فنحن من جهد الهوى في جهد	وزاهر من سبط وجعد
أهدي له الدهر ولم يستهد	أفواف نور الخبر المجد
يلقى الضحى ريحانه بسجد	بدلت من ذاك بكى لا يجدي
وافق حظًا من سعى بجد	ما ضر أهل النوك ضعف الجد
الحر يلحى والعصا للعبد	وليس للملحف مثل الرد
والنصف يكفيك من التعدي	وصاحب كالدمل الممد
حملته في رقعة من جلدي	أرقب منه مثل يوم الورد
حتى مضى غير فقيده فقد	وما درى ما رغبتني من زهد
إسلم وحييت أبا الملد	مفتاح باب الحدث المنسد
مشترك النيل وري الزند	أغر لباس ثياب الحمد
ما كان مني لك غير الود	ثم ثناء مثل ريح الورد
نسجته في محكمات الند	فالبس طرازي غير مسترد
لله أيامك في معد	وفي بني قحطان غير عد

يومًا بذى طخفة^(١٢) عند الحد ومثله أودعت أرض الهند
بالمرهفات والحديد السرد والمقربات^(١٣) المبعدات الجرد
إذا الحيا أكدي بها لا تكدي تلحم أمرًا وأمورًا تسدي
وابن حكيم إن أتاك يردي أصم لا يسمع صوت الرعد
حييته بتحفة المعد فانهد مثل الجبل المنهد
كل امرئ رهن بما يؤدي ورب ذي تاج كريم الجد
كآل كسرى وكآل برد أنكب جاف عن سبيل القصد

«فصلته عن ماله والولد»

فطرب عقبة بن سلم وأجزل صلته، وقام عقبة بن ربيعة فخرج عن المجلس بخزي وهرب من تحت ليلته فلم يعد إليه.

قال الجاحظ: فانظر إلى سوء أدب عقبة بن ربيعة وقد أجمل بشار محضره وعشرته، فقابل بهذه المقابلة القبيحة، وكان أبوه أعلم خلق الله به، لأنه قال له وقد فاخره بشعره: أنت يا بني ذهبان الشعر، إذا مت مات شعرك معك، فلم يوجد من يرويه بعدك، فكان كما قال له، ما يعرف له بيت واحد ولا خبر غير هذا الخبر القبيح الإخبار عنه، الدال على سخفه وسقوطه وسوء أدبه.

وقال بشار في هوى له كانت بالبصرة، ثم خرجت مع زوجها إلى عمان:
هوى صاحبي ريح الشمال إذا جرت وأشفى لقلبي أن تمب جنوب
وما ذاك إلا أنها حين تنتهي تناهى وفيها من عبيدة طيب
عذيري من العذال إذ يعذلونني سفاهًا وما في العاذلين ليب
يقولون لو عزيت قلبك لارعوى فقلت وهل للعاشقين قلوب
إذا نطق القوم الجلوس فإنني مكب كأي في الجميع غريب

جاء أبو الشمقمق إلى بشار يشكو إليه الضيقة ويحلف له أنه ما عنده شيء، فقال له بشار: والله ما عندي ما يغنيك، ولكن قم معي إلى عقبة بن سلم، فقام معه، فذكر له أبا الشمقمق وقال: هو شاعر وله شكر وثناء، فأمر له بخمسمائة درهم، فقال له بشار:

يا واحد العرب الذي أمسى وليس له نظير
لو كان مثلك آخرًا ما كان في الدنيا فقير
فأمر لبشار بألفي درهم، فقال أبو الشمقمق: نفعتنا ونفعناك يا أبا معاذ، فجعل بشار يضحك.

دخل يزيد بن منصور الحميري على المهدي وبشار بين يديه ينشده قصيدة امتدحه بها، فلما فرغ منها أقبل عليه يزيد، وكانت فيه غفلة، فقال: يا شيخ، ما صناعتك؟ فقال: أثقب اللؤلؤ، فضحك المهدي، ثم قال لبشار: اغرب ويلك! أتنادى على خالي؟ فقال له: وما أصنع به؟ يرى شيخًا أعمى ينشد الخليفة شعرًا ويسأله عن صناعته.

وقف على بشار بعض المجان، وهو ينشد شعرًا، فقال له: استر شعرك هذا كما تستر عورتك، فصفق بشار بيديه وغضب ثم قال له: ومن أنت؟ ويلك! قال: أنا - أعزك الله - رجل من باهلة، وأخوالي سلول، وأصهاري عكل، واسمي كلب، ومولدي بأضاخ^(١٤)، ومنزلي بظفر بلال، فضحك بشار، ثم قال: اذهب ويلك! فأنت عتيق لؤمك، قد علم الله أنك استترت مني بحصون من حديد.

مر بشار برجل قد رحته بغلة وهو يقول: الحمد لله شكرًا، فقال له: بشار استزده يزدك. ومر به قوم يحملون جنازة وهم يسرعون المشي بها، فقال: ما لهم مسرعين؟ أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا فيؤخذ منهم.

رفع غلام بشار إليه في حساب نفقته جلاء مرآة عشرة دراهم، فصاح به بشار وقال: والله ما في الدنيا أعجب من جلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم، والله لو صدئت عين الشمس حتى يبقى العالم في ظلمة ما بلغت أجرة من يجلوها عشرة دراهم.

قال قدامة بن نوح: كان بشار يحشو شعره إذا أعوزته القافية والمعنى بالأشياء التي لا حقيقة لها؛ فمن ذلك أنه أنشد يوماً شعراً له فقال فيه: «غني للغريض يابن قنان» ف قيل له: من ابن قنان هذا؟ لسنا نعرفه من مغني البصرة، قال: وما عليكم منه؟ ألكم قبله دين فتطالبوه به، أو ثأر تريدون أن تدركوه، أو كفلت لكم به، فإذا غاب طالبتوني بإحضاره؛ قالوا: ليس بيننا وبينه شيء من هذا، وإنما أردنا أن نعرفه، فقال: هو رجل يغني لي ولا يخرج من بيتي، فقال له: إلى متى؟ فقال: مذيوم ولد وإلى أن يموت. وذكر أيضاً في هذه القصيدة «البردان» ف قيل له: يا أبا معاذ، أين البردان هذا؟ لسنا نعرفه بالبصرة، فقال: هو بيت في بيتي سميته بالبردان، أفعلكم من تسميتي داري وبيوتها شيء فتسألوني عنه؟. قالت امرأة لبشار: أي رجل أنت لو كنت أسود اللحية والرأس، قال: أما علمت أن بيض البزاة أشهر من سود الغربان؟ فقالت له: أما قولك فحسن في السمع، ومن لك بأن يحسن شيبك في العين كما حسن قولك في السمع؟ فكان بشار يقول: ما أفحمني قط غير هذه المرأة.

دعاه رجل إلى منزله فأكل وشرب، ولما أراد الانصراف قامت جارية للرجل وأخذت بيده، فلما صار بالصحن أوماً إليها ليقبلها، فأرسلت يدها من يده، فجعل يحول في العرصة وخرج مولى الجارية فقال: ما لك يا أبا معاذ؟ فقال: أذنبت ذنباً ولا أبرح أو أقول شعراً، فقال:

أتوب إليك من السيئات وأستغفر الله من فعلتي
تناولت ما لم أرد نيله على جهل أمري وفي سكرتي
ووالله والله ما جئته لعمد ولا كان من همتي
وإلا فمت إذن ضائعاً وعذبني الله في ميتتي
فمن نال خيراً على قبلة فلا بارك الله في قبلتي

لما كثر استهتار نساء البصرة وشبانها بشعر بشار، وقال سوار بن عبد الله
ومالك بن دينار: ما شيء أدعي لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا
الأعمى، وما زالا يعظانه وكان واصل بن عطاء يقول: إن من أخدع حبال
الشیطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد، فلما كثر ذلك وانتهى خبره إلى
المهدي نهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب، وكان المهدي من أشد الناس غيرة،
فقال في ذلك:

يا منظرًا حسنًا رأيته في وجه جارية فديته
بعثت إلي تسومني ثوب الشباب وقد طويته
والله رب محمد ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئاً أبيته
ومخضب رخص البناء ن بكى علي وما بكيته
ويشوقني بيت الحبيب ب إذا أدكرت وأين بيته
قام الخليفة دونه فصبرت عنه وما قلتيه
ونهانني الملك الهما م عن النساء وما عصيته
لا بل وفيت فلم أضع عهدًا ولا رأيًا رأيته

وأنا المطل على العدا وإذا غلا الحمد اشتريته
أصفي الخليل إذا دنا وإذا نأى عني نأيته
وأميل في أنس الندي — م من الحياء وما اشتهيه
وكان الخليل بن أحمد ينشد هذه الأبيات ويستحسنها ويعجب بها.

وكان لبشار خمسة ندماء، فمات منهم أربعة وبقي واحد يقال له: البراء، فركب في زورق يريد عبور دجلة العوراء فغرق، فكان بشار يقول: ما خير في الدنيا بعد الأصدقاء؛ ثم رثى أصدقاءه بقوله:

يابن موسى ماذا يقول الإمام في فتاة بالقلب منها أوام
بت من حبها أوقر بالكأ س ويهفو على فؤادي الهيام
لم يكن بينها وبينني إلا كتب العاشقين والأحلام
يابن موسى اسقني ودع عنك سلمى إن سلمى حمى وفي احتشام
رب كأس كالسلسيل تعلل ست بها والعيون عني نيام
حبست للشراة في بيت^(١٥) رأس عتقت عانساً عليها الختام
نفحت نفحة فهزت نديمي بنسيم وانشق عنها الزكام
وكان المعلول منها إذا را ح شج في لسانه برسام^(١٦)
صدمته الشمول حتى بعيني ه انكسار وفي المفاصل خام
وهو باقي الأطراف حيث^(١٧) به الكأ س وماتت أوصاله والكلام
وفتى يشرب المدامة بالما ل ويمشي يروم ما لا يرام
أنفدت كأسه الدنانير حتى ذهب العين واستمر السوام
تركته الصهباء يرنو بعين نام إنسانها وليست تنام
جن من شربة تعل بأخرى وبكى حين سار فيه المدام

كان لي صاحباً فأودى به الدهر
 بقي الناس بعد هلك نداما
 كجزور الأيسار^(١٨) لا كبد فيه
 يابن موسى فقد الحبيب على العيد
 كيف يصفولي النعيم وحيداً
 نفستهم^(١٩) علي أم المنايا
 لا يغض انسجام عيني عليهم
 وقال في نهي الخليفة إياه عن ذكر النساء:

والله لولا رضا الخليفة ما
 وربما خير لابن آدم في الد
 فاشرب على أبنّة الزمان فما
 الله يعطيك من فواضله
 قد عشت بين الريحان والراح والز
 وقد ملأت البلاد ما بين يغب
 شعراً تصلي له العواتق والش
 ثم نهاني المهدي فأنصرفت
 فالحمد لله لا شريك له
 وأنشد المهدي قصيدته التي أولها:

تجاللت عن فهر وعن جارتني فهر
 وقالت سليمي فيك عنا جلادة
 أخي في الهوى مالي أراك جفوتنا
 وودعت نعماً بالسلام وبالبشر
 محلك دان والزيادة عن عفر^(٢١)
 وقد كنت تقفونا على العسر واليسر

تثاقلت إلا عن يد أستفيدها
وأخرجني من وزر خمسين حجة
دفنت الهوى حيا فليست بزائر
ومصفرة بالزعفران جلودها
فرب ثقال الردف هبت تلومني
تركت لمهدي الأنام وصاها
ولولا أمير المؤمنين محمد
لعمري لقد أوقرت نفسي خطيئة
تسلى عن الأحباب صرام خلة
وركاض أفراس الصبابة والهوى
فأصبحن ما يركبن إلا إلى الوغى
فهذا وإني قد شرعت مع التقى
ثم قال يصف السفينة:

وعذراء لا تجري بلحم ولا دم
إذا ظعنت فيها الفلول تشخصت
وإن قصدت زلت على متنصب
تلاعب تيار^(٢٢) البحور وربما
إلى ملك من هاشم في نبوة
من المشترين الحمد تندى من الندى
فألزمت حبلي جبل من لا تغبه
بنى لك عبد الله بيت خلافة

قليلة شكوى الأين ملجمة الدبر
بفرسانها لا في وعود ولا وعر
ذليل القوى لا شيء يفري كما تفري
رأيت نفوس القوم من جريها تجري
ومن حمير في الملك والعدد الدثر^(٢٣)
يداه ويندى عارضاه من العطر
عفاة الندى من حيث يدري ولا يدري
نزلت بها بين الفراقد والنسر

وعندك عهد من وصاة محمد
ولما أنشد الوليد بن يزيد قول بشار:

أيها الساقيان صبا شرابي

إن دائي الظما وإن دوائي

ولها مضحك كغفر الأقاحي

نزلت في السواد من حبة القل

ثم قالت نلقاك بعد ليال

عندها الصبر عن لقائي وعندي

طرب الوليد وقال: من لي بمزج كأسي هذه من ريق سلمى، فيروي ظمئي،
وتطفأ غلتي، ثم بكى حتى مزج كأسه بدمعه، وقال: إن فاتنا ذاك فهذا.

مدح بشار خالد بن برمك فقال فيه:

لعمري لقد أجدى علي ابن برمك

حلبت بشعري راحتيه فدرتا

إذا جئته للحمد أشرق وجهه

له نعم في القوم لا يستثيها

مفيد ومتلاف سبيل تراثه

أخالد إن الحمد يبقى لأهله

فأطعم وكل من عارة مستردة

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم، وكان قبل ذلك يعطيه في كل وفادة خمسة
آلاف درهم، وأمر خالد أن يكتب هذان البيتان في صدر مجلسه الذي كان
يجلس فيه، وقال ابنه يحيى بن خالد: آخر ما أوصاني به أبي العمل بهذين البيتين.

وكان إسحاق الموصلبي يطعن على شعر بشار ويضع منه، ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضاً، فقليل له: أتقول هذا لمن يقول:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعرش واحد أوصل أخاك فإنه مقارف^(٢٥) ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى^(٢٦) ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وهي من غرر قصائده، مدح بها عمر بن هبيرة، ومنها قوله:

يخاف المنايا إن ترحلت صاحبي كأن المنايا في المقام تناسبه
فقلت له إن العراق مقامه وخيم إذا هبت عليك جنائبه
لألقى بني عيلان إن فعالهم تزيد على كل الفعال مراتبه
أولاك الألى شقوا العمى بسيوفهم عن العين حتى أبصر الحق طالبه
وجيش كجنح الليل يزحف بالحصا وبالشوك والخطى حمراً تغالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها تطالعنا والطل لم يحر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه وتدرك من نجى الفرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
بعثنا لهم موت الفجاءة إننا بنو الموت خفاق علينا سبائبه^(٢٧)
فراحوا فريق في الإِسار ومثله قتيل ومثلٌ لاذ بالبحر هاربه

ومنها:

إذا الملك الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه
رويداً تصاهل بالعراق جيانا كأنك بالضحاك قد قام نادبه
وسام لمروان ومن دونه الشجا وهول كلج البحر جاشت غواربه
أحلت به أم المنايا بناتها بأسيفنا إنا ردى من نحاربه

وكنا إذا دب العدو لسخطنا
ركبنا له جهراً بكل مثقف
ومنها:

فلما تولى الحي واعتصر الثرى
وطارت عصافير الشقائق واكتسى
غدت عانة^(٢٨) تسكو بأبصارها الصدى
ومن حسن شعره:

لو كنت تلقين ما نلقى قسمت لنا
لا خير في العيش إن كنا كذا أبدا
من راقب الناس لم يظفر بحاجته
أشكو إلى الله هماً ما يفارقني
وقال يهجو عبيد الله بن قزعة:

خليلي من كعب أعينا أخاكما
كأن عبيد الله لم يلق ماجداً
ولا تبخلاً بخل ابن قزعة إنه
فقل لأبي يحيى متى تدرك العلا
إذا جئته في حاجة سد بابيه
وفد على خالد بن برمك فأنشده:

أخالد لم أخبط^(٢٩) إليك بذمة
أخالد بين الأجر والحمد حاجتي
فإن تعطني أفرغ عليك مدائحي

وراقبنا في ظاهر لا نراقبه
وأبيض تستسقي الدماء مضاربه

لظى الصيف من نجم توقد لاهبه
من الآل أمثال المجرة ناضبه
إلى الجأب إلا أنها لا تخاطبه

يوما نعيش به منكم ونبتهج
ما في التلاقي ولا في قبلة حرج
وفاز بالطيبات الفاتك اللهج
وشرعاً في فؤادي الدهر تعتلج

على دهره إن الكريم معين
مخافة أن يرجو نداه حزين
ولم يدر أن المكرمات تكون
وفي كل معروف عليك يمين
فلم تلقه إلا وأنت كمين

سوى أنني عاف وأنت جواد
فأيهما تأتي فأنت عماد
وإن تأب لم يضرب علي سداد

ركابي على حرف^(٣٠) وقلبي مشيع ومالي بأرض الباخلين بلاد
إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي على سواد
فدعا خالد بأربعة آلاف دينار في أربعة أكياس، فوضع واحدًا عن يمينه،
وواحدًا عن شماله، وآخر بين يديه، وآخر خلفه، وقال: يا أبا معاذ، هل استقل
العماد؟ فلمس الأكياس ثم قال: استقل والله أيها الأمير.

قال أبان بن عبد الحميد: نزل في ظاهر البصرة قوم من أعراب قيس بن
عيلان، وكان فيهم بيان وفصاحة، فكان بشار يأتيهم وينشدهم أشعاره
التي يمدح بها قيسًا، فيجلونه لذلك ويعظمونه، وكان نساؤهم يجلسن معه
ويتحدثن إليه وينشدهن أشعاره في الغزل، وكنت كثيرًا ما آتي في ذلك الموضع
فأسمع منه ومنهم، فأتيتهم يومًا فإذا هم ارتحلوا، فجئت إلى بشار فقلت: يا أبا
معاذ، أعلمت أن القوم قد ارتحلوا؟ قال: لا، فقلت: فاعلم، قال: قد علمت لا
علمت، ومضيت، فلما كان بعد ذلك بأيام سمعت الناس ينشدون:

دعا بفراق من تهوى أبان ففاض الدمع واحترق الجنان
كأن شرارة وقعت بقلبي لها في مقلتي ودمي استنان
إذا أنشدت أو نسمت عليها رياح الصيف هاج لها دخان
فعلمت أنها لبشار، فأتيته فقلت: يا أبا معاذ، ما ذنبي إليك؟ قال: ذنب غراب
البن، فقلت: هل ذكرتني بغير هذا؟ قال: لا، فقلت: أنشدك الله ألا تزيد،
فقال: امض لشأنك فقد تركتك.

مدح بشار المهدي فلم يعطه شيئًا، فقليل له: لم يستجد شعرك، فقال: والله لقد
قلت فيه شعراً لو قيل في الدهر لم يخش صرفه على أحد، ولكننا نكذب في القول
فيكذب في الأمل.

مدح بشار سليمان بن هشام بن عبد الملك، وكان مقيماً بحران وخرج إليه،
فأنشده قوله فيه:

نأتك على طول التجاور زينب	وما شعرت أن النوى سوف تشعب
يرى الناس ما تلقى بزینب إذ نأت	عجيباً وما تخفي بزینب أعجب
وقائلة لي حين جد رحيلنا	وأجفان عينيها تجود وتسكب
أغاد إلى حران في غير شيعة	وذلك شأو عن هواها مغرب
فقلت لها كلفتني طلب الغنى	وليس وراء ابن الخليفة مذهب
سيكفي فتى من سعيه حد سيفه	وكور علافي ^(٣١) ووجناء ^(٣٢) ذعلب
إذا استوغرت دار عليه رمى بها	بنات الصوى منها ركوب ومصعب
فعدي إلى يوم ارتحلت وسائلي	بزورك والرحال من جاء يضرب
لعلك أن تستيقني أن زورتي	سليمان من سير الهواجر تعقب
أغر هشامي القناة إذا انتمى	نمته بدور ليس فيهن كوكب
وما قصدت يوماً فحيلين خيله	فتصرف إلا عن دماء تصيب

فوصله سليمان بخمسة آلاف درهم، وكان يبخل، فلم يرضها وانصرف عنه
مغضباً، فقال:

إن أمس منقبض اليدين عن الندى	وعن العدو خيس الشيطان
فلقد أروح على اللثام مسلطاً	ثلج المقييل منعم الندمان
في ظل عيش عشيرة محمودة	تندى يدي ويخاف فرط لساني
أزمان خيبي الشباب مطاوع	وإذ الأمير علي من حران
ريم بأحوية العراق إذا بدا	برقت عليه أكلة المرجان
فاكحل بعبدة مقلتيك من القذى	وبوشك رؤيتها من الهملان

فلقرب من تهوى وأنت متيم أشفى لدائك من بني مروان
قدم بشار على المهدي بالرصافة فدخل عليه في البستان، فأنشده مديحاً فيه
تشبيب حسن، فنهاه عن التشبيب لغيرة شديدة كانت فيه، فأنشده مديحاً يقول
فيه:

كأنما جئته أبشره ولم أجيئ راغباً ومحتلباً
يزين المنبر الأشم بعطفه وأقواله إذا خطباً
تشم نعلاه في الندي كما يشم ماء الريحان منتها
قال: وقد طلب منه أن ينشده شيئاً من غزله:

وقائل هات شوقنا فقلت له أنائم أنت يا عمرو بن سمعان
أما سمعت بما قد شاع في مضر وفي الحليفين من بكر وقحطان
قال الخليفة لا تنسب بجارية إياك إياك أن تشقى بعصيان
وقال له المهدي: قل في الحب شعراً ولا تطل، واجعل الحب قاضياً بين
المحبين لا تسم أحداً، فقال:

اجعل الحب بين حبي وبينني قاضياً إني به اليوم راض
فاجتمعنا فقلت يا حب نفسي إن عيني قليلة الإغماض
أنت عذبتني وأنحلت جسمي فارحم اليوم دائم الأمراض
قال لي لا يحل حكمي عليها أنت أولى بالسقم والإعراض
قلت لما أجابني بهواها شمل الجور في الهوى كل قاض

فبعث إليه المهدي: حكمت علينا ووافقنا ذلك، فأمر له بألف دينار.

وقال بشار في عشق السمع:

يا قوم أدني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً

قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم
هل من دواء لمشغوف بجارية
وقال في مثل ذلك:

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها
أنى ولم ترها تهذي فقلت لهم
أصبحت كالحائم الحيران مجتنبًا
وقال:

يزهديني في حب عبدة معشر
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارضى
فما تبصر العينان في موضع الهوى
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا
وقال:

يا قلب مالي أراك لا تقر
أذعت بعد الألى مضوا حرقًا
وقال:

إن سليمي والله يكلؤها
بلغت عنها شكلاً فأعجبني
وقال وقد مدح المهدي فحرمه:

خليلي إن العسر سوف يفيق
وما كنت إلا كالزمان إذا صحا
أدماء لا أسطيع في قلة الشرا
وإن يسارًا في غد لخليق
صحوت وإن ماق^(٣٣) الزمان أموق
خزوزًا ووشيا والقليل محيق

خذي من يدي ما قل إن زماننا
لقد كنت لا أرضى بأدنى معيشة
خليلي إن المال ليس بنافع
وكننت إذا ضاقت علي محلة^(٣٤)
وما خاب بين الله والناس عامل
ولا ضاق فضل الله عن متعفف
شموس ومعروف الرجال رقيق
ولا يشتكي بخلاً علي رفيق
إذا لم ينل منه أخ وصديق
تيممت أخرى ما علي تضيق
له في التقى أو في المحامد سوق
ولكن أخلاق الرجال تضيق

هجا بشار يعقوب بن دواد وزير المهدي فقال:

بني أمية هبوا طال نومكم
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا
فاتهمه عند المهدي بالزندقة وقال: إنه قد هجا المهدي، فأمر، فضرب بالسياط
حتى مات.

(٢) حماد عجرد^(٣٦)؛

«ولو^(٣٧) أني أحببت أن أشخص حمادًا لو صفته قبل كل شيء بحدة الطبع،
وسوء الخلق، وحب الانتقام، والإسراع إليه، ثم بالصراحة في القول، والملاءمة
بينه وبين العمل، وبكره النفاق والانصراف عنه، لا يعنيه أرضي الناس عنه أم
سخطوا عليه، ثم بحدة اللسان ومضيه وإقذاعه وكلفه بفاحش القول وبحته
عن أسوئه وأقبحه، ثم بالسخرية من الناس وازدراءهم؛ لا على أنه يتخذ ذلك
فلسفة وأصلاً من أصول الحياة كالوليد ومطيع وأبي نواس، بل على أنه يتخذ
ذلك وسيلة من وسائل الشعراء يخلص بها كلما ضاقت عليه المذاهب وأخذت
عليه، أو دعتة إلى ذلك حاجة. لم يكن حماد يحفل بما يحفل به الناس من الوفاء
والانصراف عن التناقض، وإنما كان صديقاً مخلصاً حتى تبدوا له حاجة

أو تسنح له فرصة أو تضطره ضرورة؛ فإذا صداقته قد استحالت إلى عداء، وإذا هو ليس أقل صدقًا وإخلاصًا في العداء منه في المودة والحب: فقد مدح يحيى بن زياد واتخذَه صديقًا ونال جوائزه، ثم كان الخلاف فهجاه. وصادق بشارًا وصافاه، ثم اختصما فلم يعرفا في الخصومة رحمة ولا رفقًا. وصافي مطيعًا وأحبه ومدحه وأكثر في الثناء عليه، ثم اختصما في امرأة مرة وفي غلام مرة أخرى، فهجاه وأقذع في هجائه. وكان على هذا كله يؤثر شعره وضروراته على البر بالناس في معاملتهم: هجا ذات يوم رجلًا يقال له حشيش وجعل اسمه قافية لهذا الشعر وأراد أن يبالغ في ذمه فشبهه ببحيش، وكان بحيش هذا رجلًا من أهل البصرة وادعًا لا يعرف حمادًا ولا يعرفه حماد، فلما قرأ الرجل هذا الشعر جزع له وسافر من البصرة حتى بلغ الكوفة فعاتب حمادًا؛ فقال له حماد ضاحكًا معتذرًا: لا بأس عليك فإن هذا من آثام القافية ولن أعود إليه». وكان السبب في مهاجمة حماد وبشار أن حمادًا كان نديماً لنافع بن عقبة، فسأله بشار تنجيز حاجة من نافع فأبطأ عنها، فقال بشار فيه:

مواعيد حماد سماء مخيلة	تكشف عن رعد ولكن سترق
إذا جئته يومًا أحال على غد	كما وعد الكمون ما ليس يصدق
وفي نافع عني جفاء وإنني	لأطرق أحيانًا وذو اللب يطرق
وللنقري ^(٣٨) قوم فلو كنت منهم	دعيت ولكن دوني الباب مغلق
وما زلت أستاذيك حتى حسرتني	بوعد كجاري الآل يخفي ويخفق

فغضب حماد وأنشد نافعًا الشعر فمنع بشارًا، فقال بشار:

أبا عمر ما في طلابيك حاجة	ولا في الذي منيتنا ثم أضجرا
وعدت فلم تصدق وقلت غداً غداً	كما وعد الكمون شرباً مؤخرا

فكان ذلك سبب التهاجي بين بشار وحماد. وكان بشار يرمي حمادًا بالزندقة، وفي ذلك يقول:

ابن نهبى رأس علي ثقیل واحتمال الرءوس خطب جلیل
ادع غیری إلى عبادة الاثنین من فإني بواحد مشغول
يابن نهبی برئت منك إلى الله جهارًا وذاك مني قليل
فأشاع حماد هذه الأبيات لبشار، وجعل فيها مكان: «فإني بواحد مشغول»
«فإني عن واحد مشغول» ليصح عليه الزندقة والكفر بالله تعالى. فما زالت
الأبيات تدور في الناس حتى انتهت إلى بشار، فاضطرب منها وجزع وقال:
أشاط ابن الفاعلة بدمي، والله ما قلت إلا «فإني بواحد مشغول» فغيرها حتى
شهرت في الناس.

كان رجل من أهل البصرة يدخل بين حماد وبشار على اتفاق منهما ورضًا بأن
ينقل إلى كل واحد منهما وعنه الشعر؛ فدخل يومًا إلى بشار فقال له: إيه يا فلان،
ما قال ابن الفاعلة، فأنشده:

إن تاه بشار عليكم فقد أمكنت بشارًا من التيه
فقال بشار: بأي شيء ويحك؟ فقال:

وذاك إذ سميته باسمه ولم يكن حرًا نسميه
قال: سخنت عينه، فبأي شيء كنت أعرف! إيه، فقال:

فصار إنسانًا بذكري له ما يتغي من بعد ذكره!
فقال: ما صنع شيئًا، إيه ويحك! فقال:

لم أهج بشارًا ولكنني هجوت نفسي بهجائي
فقال: على هذا المعنى دار وحوله حام. وتمام الأبيات:

لم آت شيئاً قط فيما مضى ولست فيما عشت آتية
أسوأ لي في الناس أحوثة من خطأ أخطأته فيه
فأصبح اليوم لسبي له أعظم شأنًا من مواليه
وقال بشار لراوية حماد: ما هجاني به اليوم حماد؟ فأنشده:

ألا من مبلغ عني الـ ذي والـده بـرد
فقال: صدق ابن الفاعلة فما يكون؟ فقال:

إذا ما نسب الناس فلا قبل ولا بعد
فقال: كذب، أين هذه العرصات من عقيل! فما يكون؟ فقال:
وأعمى قلوبان^(٣٩) ما على قاذفه حد
فقال: كذب، بل عليه ثمانون جلدة، هيه، فقال:

وأعمى يشبه القرد إذا ما عمى القرد
فقال: والله ما أخطأ حين شبهني بقرد، حسبك حسبك! ثم صفق بيديه
وقال: ما حيلتي! يراني فيشبهني ولا أراه فأشبهه. وتمام الأبيات:

دني لم يرح يوماً إلى مجد ولم يغد
ولم يحضر مع الحضا ر في خير ولم يبد
ولم يخش له ذم ولم يرج له حمد
جرى بالنحس مذ كان ولم يجر له سعد
هو الكلب إذا مات فلم يوجد له فقد

وقال علي بن مهدي: أجمع علماء البصرة أنه ليس في هجاء حماد عجرد لبشار
إلا أربعون بيتاً معدودة، ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد. وكل
واحد منهما هو الذي هتك صاحبه بالزندقة وأظهرها عليه، وكانا يجتمعان

عليها، فسقط حماد وهتك بفضل بلاغة بشار وجودة معانيه، وبقي بشار على حاله لم يسقط، حتى عرف مذهبه في الزندقة فقتل به.

ومن أغلظ ما هجا به حماد بشاراً:

نهاره أخبث من ليله ويومه أخبث من أمسه
وليس بالمقلع عن غيه حتى يوارى في ثرى رمسه
كان حماد صديقاً ليحيى بن زياد، فأظهر يحيى تورعاً وقرعاً ونزوعاً عما كان فيه وهجر حماداً وأشباهه، فكان إذا ذكر عنده ثلبه وذكر تهتكه ومجونه؛ فبلغ ذلك حماداً فكتب إليه:

هل تذكرن دلجى اليك على المضمرة القلاص
أيام تعطيني وتأخذ من أباريق الرصاص
إن كان نسكك لا يتم بغير شتمي وانتقاصي
أو كنت لست بغير ذا كتنال منزلة الخلاص
فعليك فاشتتم آمناً كل الأمان من القصاص
وأقعد وقم بي ما بدا لك في الأداني والأقاصي
فلطالما زكيتني وأنا المقيم على المعاصي
أيام أنت إذا ذكر ت مناضل عني مناصي^(٤٠)
وأنا وأنت على ارتكاب الموبقات من الحراص
وبنا مواطن ما بنا في البر أهلة العراص
فاتصل هذا الشعر بيحيى بن زياد، فنسب حماداً إلى الزندقة ورماه بالخروج عن الإسلام؛ فقال حماد فيه:

لا مؤمن يُعرف إيمانه وليس يحيى بالفتى الكافر

منافق ظاهره ناسك مخالف الباطن للظاهر
كان حماد صديقاً لحريث بن أبي الصلت الثقفي، وكان يعيبه بالبخل، وفيه
يقول:

حريث أبو الفضل ذو خبرة بما يصلح المعد الفاسده
تخوف تخمة أضيافه فعودهم أكلة واحده
ومن قوله:

ألا قل لعبد الله إنك واحد ومثلك في هذا الزمان كثير
قطعت إخائي ظالماً وهجرني وليس أخي من في الإخاء يجور
أديم لأهل الود ودي وإنني لمن رام هجري ظالماً لهجور
ولو أن بعضي رابني لقطعته وإني بقطع الرائبين جدير
فلا تحسبن منحي لك الود خالصاً لعز ولا أني إليك فقير
ودونك حظي منك لست أريده طوال الليالي ما أقام ثبير^(٤١)
كان حماد صديقاً لحفص بن أبي بردة، وكان حفص أعمش أفطس أعضب
مقبح الوجه، فاجتمعوا يوماً على شراب وجعلوا يتناشدون ويتحدثون، فأخذ
حفص يطعن على مرقش ويعيب شعره ويلحنه؛ فقال له حماد:

لقد كان في عينيك يا حفص شاغل وأنف كثيل^(٤٢) العود عما تتبع
تتبع لحناً في كلام مرقش ووجهك مبني على اللحن أجمع
فأذناك إقواء وأنفك مكفأ وعيناك إبطاء فأنت المرقع
ومن قوله:

إنني أحبك فاعلمي إن لم تكوني تعلمينا
حباً أقل قليله كجميع حب العالمينا

وأنشد بشار قول حماد عجرد:

أخي كف عن لومي فإنك لا تدري بما فعل الحب المبرح في صدري
أخي أنت تلحاني وقلبك فارغ وقلبي مشغول الجوانح بالفكر
دوائي ودائي عند من لو رأيته يقلب عينيه لأقصرت عن زجري
فأقسم لو أصبحت في لوعة الهوى لأقصرت عن لومي وأطبت في عذري
ولكن بلائي منك أنك ناصح وأنت لا تدري بأنك لا تدري

فطرب بشار ثم قال: ويلكم أحسن والله! من هذا؟ قالوا: حماد عجرد؛ قال: أوه وكنتموني والله بقية يومي لهم طويل، والله لا أطعم بقية يومي طعاماً، ولأصومن غماً بما يقول النبطي مثل هذا.

قال محمد بن الفضل السلولي: لقيت حماد عجرد بواسط وهو يمشي وأنا راكب، فقلت له: انطلق بنا إلى المنزل، فإني الساعة فارغ لتحدث، وحبست عليه الدابة، فقطع شغل عرض لي لم أقدر على تركه، فمضيت وأنسيته، فلما بلغت المنزل خفت شره فكتبت إليه:

أبا عمر اغفرها هديت فإنني قد اذنبت ذنباً مخطئاً غير عامد
فلا تجدن فيه علي فإنني أقر بإجرامي ولست بعائد
وهبه لنا تفديك نفسي فإنني أرى نعمة أن كنت لست بواجد
وعدمك بالفضل الذي أنت أهله فإنك ذو فضل طريف وتالد
فأجابني عن الأبيات:

محمد يا با الفضل يا ذا المحامد ويا بهجة النادي وزين المشاهد
وحقك ما أذنبت منذ عرفتنني على خطأ يوماً ولا عمد عامد
ولو كان ما ألفتني متسرعاً إليك به يوماً تسرع واجد^(٤٣)

ولو كان ذو فضل يسمي لفضله بغير اسمه سميت أم القلائد
فبيننا رقعته في يدي وأنا أقرؤها إذ جاءني رسوله برقعة فيها:

قد غفرنا الذنب يابن الـ فضل والذنب عظيم
ومسيء أنت يابن الـ فضل في ذاك ملهم
حين تخشاني على الذنب ب كما يخشى اللئيم
ليس لي إن كان ما خف ت من الأمر حريم
أننا والله ولا أف خر للغيط كظوم
وبأصحابي ولا ريـ بة بر ورحيم
وبما يرضيهم عند ي ويرضيني عليم
كان عثمان بن شيبة مبخلًا وكان حماد يهجو، فجاء رجل كان يقول الشعر
إلى حماد فقال له:

أعني من غناك بيت شعر على فقرى لعثمان بن شيبة
فقال:

فإنك إن رضيت به خليلاً ملأت يديك من فقر وخيبة
فقال له الرجل: جزاك الله خيرًا فقد عرفتنني من أخلاقه ما قطعني عن مدحه
وصنت وجهي عنه.

لما مات محمد بن أبي العباس طلب محمد بن سليمان حماد عجرد لما كان يقوله
في أخته زينب من الشعر، فعلم أنه لا مقام له معه بالبصرة، فاستجار بقبر أبيه
سليمان بن علي وقال فيه:

من مقر بالذنب لم يوجب الدـ ه عليه بسوء إقرارا
ليس إلا بفضل حلمك يعـ تد بلاء وما يعد اغترارا

يابن بنت النبي أحمد لا أجـ
غير أني جعلت قبر أبي أيو
وحري من استجار بذاك الـ
لم أجد لي من العباد مجيراً
لست أعتاض منك في بغية العزة
فأنا اليوم جارٌ من ليس في الأر
يابن بنت النبي يا خير من حطـ
إن أكن مذنباً فأنت ابن من كا
فاعف عني فقد قدرت وخير الـ
لو يطيل الأعمار جار لعز
فقال: والله لأبلن قبر أبي من دمه؛ فهرب حماد إلى بغداد، فعاذ بجعفر
بن المنصور فأجاره، وقال: لا أرضى أو تهجو محمد بن سليمان، فقال يهجو:
قل لوجه الخصي ذي العار إني سوف أهدي لزينب الأشعارا
قد لعمرى فررت من شدة الخو ف وأنكرت صاحبي نهارا
وظننت القبور تمنع جاراً فاستجرت التراب والأحجارا
كنت عند استجارتي بأبي أيـ سوب أبغي ضلالة وخسارا
لم يحبرني ولم أجد فيه حظا أضرم الله ذلك القبر نارا
فبلغ هجاؤه محمد بن سليمان فقال: والله لا يفلتني أبداً، وإنما يزداد حتفاً
بلسانه! ولا والله لا أعفو عنه ولا أتغافل أبداً.
ومن قوله:

إن الكريم ليخفى عنك عسرته حتى تراه غنياً وهو مجهود

زرق العيون عليها أوجه سود
تقدر على سعة لم يظهر الجود
ترجى الثمار إذا لم يورق العود
فكل ما سد فقراً فهو محمود

وللبخيل على أمواله علل
إذا تكرمت أن تعطي القليل ولم
أبرق بخير ترجى للنوال فما
بث النوال ولا تمنعك قلته

وقال أيضاً:

ما دمت من دنياك في يسر
يلقاك بالترحيب والبشر
حى الغدر مجتهداً وذا الغدر
دهر عليك عدا مع الدهر
يقل المقل ويعشق المثري
في العسر إما كنت واليسر
من يخلط العقيان بالصفير!

كم من أخ لك لست تنكره
متصنع لك في مودته
يطري الوفاء وذا الوفاء ويل
فإذا عدا، والدهر ذو غير،
فارفض بإجمال مودة من
وعليك من حالاه واحدة
لا تخلطنهم بغيرهم

وهو القائل في محمد بن طلحة:

له حياء وله خير
إن أذى التخمة محذور
بالصوم والصائم مأجور
بصحة الأبدان مسرور

زرت امراً في بيته مرة
يكره أن يتخم إخوانه
ويشتهي أن يؤجروا عنده
يابن أبي شهدة أنت امرؤ

وهو القائل في محمد بن أبي العباس السفاح:

يا أكرم الناس أعراقاً وأغصانا
لمج عودك فينا المسك والبانا

أرجوك بعد أبي العباس إذ بانا
لو مج عود على قوم عصارته

قيل: إن حماداً مضى إلى الأهواز، فأقام هناك مستتراً، وبلغ محمداً خبره فأرسل مولى له إلى الأهواز، فلم يزل يطلبه حتى ظفر به فقتله غيلة. وقيل: إنه خرج من الأهواز يريد البصرة، فمر بشيراز في طريقه، فمرض بها، فاضطرم إلى المقام بسبب علته، فاشتد مرضه فمات هناك ودفن على تلعة. وكان بشار بلغه أن حماداً عليل، ثم نعى إليه قبل موته، فقال بشار:

لو عاش حماد هونا به لكنه صار إلى النار
فبلغ هذا البيت حماداً قبل أن يموت وهو في السياق،^(٤٤) فقال يرد عليه:
نبئت بشاراً نعاني وللـ موت براني الخالق الباري
يا ليتني مت ولم أهجه نعم ولو صرت إلى النار
وأني خزي هو أخزي من أن يقال لي يا سب^(٤٥) بشار
فلما قتل المهدي بشاراً بالطيحة اتفق أن حمل إلى منزله ميتاً، فدفن مع حماد على تلك التلعة، فمر بها أو هشام الباهلي الشاعر البصري الذي كان يهاجي بشاراً، فوقف على قبريهما فقال:

قد تبع الأعمى قفا عجرد فأصبحا جارين في دار
قالت بقاع الأرض لا مرحباً بقرب حماد وبشار
تجاورا بعد تنائيهما ما أبغض الجار إلى الجار
صارا جميعاً في يدي مالك في النار والكافر في النار

(٣) مروان بن أبي حفصة:

«لم^(٤٦) يكن مروان^(٤٧) متصرفاً في فنون الشعر، ولعله لم يعد منها فناً أو فنين؛ فلسنا نعرف له غزلاً إلا هذا الغزل الذي تعود الشعراء أن يبدؤوا به مدائحهم؛ ولسنا نعرف له هجاء إلا هذا النحو من الهجاء الذي يضطر إليه

الشعراء السياسيون حين يدافعون عن مذهبهم ويهاجمون خصومهم. على أن موقف مروان كان في هذا دقيقاً جداً، فهو لم يكن ينصر بني العباس على بني أمية فيبلغ منهم ما يريد، ويهجوهم في حرية؛ وإنما كان السيف هو الذي انتصر للعباسيين من بني أمية، وكان العباسيون في حاجة إلى من ينصرهم على العلويين وأتباعهم من بني هاشم، ولم يكن هجاء العلويين يسيراً! كان الدين يأباه في ذلك الوقت، وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضاً، فالعلويون من بني هاشم وهجاؤهم هجاء للعباسيين؛ ومن هنا سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسيون الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين مسلك الدفاع والمناظرة الشريفة البريئة من الشتم والقذف، فكان دفاعهم أبلغ، وكانت مناظراتهم أحسن وقعاً من هجاء أولئك الشتامين المسرفين في الشتم؛ ثم لا نعرف لمروان مجوناً ولا عبثاً، فلم يكن كما قلنا ماجناً ولا عبثاً وإنما كان بخيلاً، والبخل والعبث شيئان لا يتفقان، ومن ضمن على نفسه باللحم وطيبات الطعام لم يستبح لنفسه خمرًا ولا ما تستتبعه الخمر. ثم لا نعرف لمروان فخرًا وما نحسب أنه فاخر أو مال إلى الفخر، فقد كان رجلًا عمليًا يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة وكان يضمن بوقته وجهده على الفخر الذي لا يفيد. لم يعرض إذن إلا لفنّين اثنين: المدح والثناء، وهو في المدح أشعر منه في الرثاء وهذا طبعي، فهو راغب حين يمدح، يطلب المال ويحرص على أن يظفر به، فمعقول أن يجيد وأن يبلغ من الإجادة حظاً عظيماً؛ أما في الرثاء فهو لا يرغب ولا يطلب مالاً وإنما يفني بعهد ويشكر صنعة. ومعقول أن موقفه هذا لا يدفعه إلى الإجادة إلا أن يكون حساساً دقيق الشعور راقى النفس، ولم يكن مروان من هذا كله في شيء، وإنما كان كما قلت لك رجلاً عملياً يريد المال. على أن رثاءه لمعن ليس بالرديء

وكذلك رثاؤه للمهدي، وهل نستطيع أن نعد رثاءه للمهدي رثاء! هو مدح لأنه عزاء للخليفة الجديد، ففيه ذكر للخليفة الراحل، والثناء على وارثه، وفيه المثوبة والعطاء. فهو إلى المدح أقرب منه إلى الرثاء.

أما مدح مروان فمن آيات المدح العربي، ونحن لا نحفظ منه إلا متفرقات قليلة ولكنها تكفي لنحكم أن مروان كان قد أتقن المدح وبرع فيه، بل نحسب أنه برز في هذا الفن على غيره من المعاصرين، ولكن مدح مروان ينقسم إلى قسمين متميزين: أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف، وهو موجه لمعن بن زائدة، فهو يفتن في وصف معن بالجود والكرم والشجاعة والحب، ثم يفتن في مدح بني شيان الذين ينتمي إليهم معن، وهو لا يخرج في مدحه هذا عن سنة الشعراء من قبله، ولكنه جيد المعاني منتقاها، حسن الألفاظ صافيها.

وأما القسم الثاني فهو هذا المدح السياسي الذي كان ينشده الخلفاء من بني العباس، وهو مدح إن شئت ولكنه يمتاز عن المدح المعروف بما فيه من هذا النضال السياسي الذي كان يحتاج إلى مهارة وفطنة ودقة وخفة، والذي كان يضطر صاحبه إلى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيه، وإلى أن ينصر العباسيين دون أن يزدري خصومهم، وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد، فقد أغضب العلويين لا لأنه آذاهم أو هجاهم فيما نعتقد، بل لأنه كان خصماً قوياً عنيداً ماهراً في الخصام.

ثم هناك شيان لا بد من الإشارة إليهما ليكمل رأينا في مروان، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكماً معللاً إن صح هذا التعبير:

* الأول: أن مروان لم يكن عراقياً ولم يرض الإقامة في العراق ولم يطل عشرة العراقيين من أهل المجون والعبث، وإنما كان من أهل اليامة أقام فيها

لا يبرحها إلا وافداً على أمير أو وزير أو خليفة، فإذا أنشد قصيدته وظفر بجائزته عاد إلى اليمامة وأقام فيها عامه ثم استأنف الرحلة. ولهذا أثره في شعر مروان، فهو أقرب إلى شعر الجاهليين والإسلاميين منه إلى شعر المحدثين من شعراء الحضارة العباسية، تقرأه فتجد عليه هذه المسحة التي تخلو أو تكاد تخلو من الدعابة والخفة، وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة، يمثل البادية تمثيلاً صحيحاً؛ ولهذا أثره من وجهة أخرى، فقد رضي علماء اللغة جميعاً عن مروان وأحبوه من هذه الناحية، وما أشك أنا في أنهم كانوا يودون لو استطاعوا إثارة على بشار وأبي نواس، لأنه كان أقرب منهما إلى الأسلوب البدوي القديم، ولكن أنى لهم ذلك! وقد سلط الله عليهم لسان بشار وأبي نواس فاضطروا إلى أن يحبوا هذين الشاعرين ويتملقوهما، وأجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديم بشار وإثارة على مروان. ومع ذلك فليس إلى المقارنة سبيل بين الشاعرين إذا اتخذنا وجهة البحث والنقد، هذه الوجهة التي كان يعنى بها علماء اللغة وهي وجهة المتانة والرصانة في اللفظ والأسلوب، لا يقاس إلى مروان في هذا أحد من شعراء العراق، أما إذا اتخذنا وجهة أخرى للنقد، إذا اتخذنا اختلاف الفنون التي طرقها الشاعر، وقرب المأخذ، والدنو من أذهان الناس والقدرة على تمثيل حياتهم، فليس مروان يقاس إلى بشار ولا إلى أبي نواس بنوع خاص؛ على أن من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعاً شريفاً في فنه لا يخاف ولا يهاب فصدق نفسه وصدق الناس، وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين، وهذا العالم اللغوي هو ابن الأعرابي الذي ختم الشعر بمروان وأبى أن يدون لأحد من المحدثين بعده، والذي كان ينشد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الجيدة من شعر مروان، وهي:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لها في بطن خفان أشبل
هم يمنعون الجار حتى كأنها لجارهم بين السماكين منزل
هاميم^(٤٨) في الإسلام سادوا ولم يكن كأولهم في الجاهلية أول
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا
وكان ابن الأعرابي يقول: لو أن معنًا أعطى مروان كل ما يملك بهذه
الآيات لما بلغ حقه.

* الثاني: أن مروان لم يكن سريعًا في الشعر ولا متعجلًا ولا مسترسلًا مع
الطبع وإنما كان بطيئًا متمهلًا. كان يجيد الشعر لأنه كان يجوده. كان يسلك هذه
الطريقة التي يزعم الرواة أن زهيرًا كان يسلكها في هذه القصائد التي يسمونها
الحوليات، كان ينفق أشهرًا في إنشاء القصيدة وأشهرًا في إصلاحها وأشهرًا
في عرضها حتى إذا استقام له هذا كله أنشد قصيدته لممدوحه خليفة كان أو
وزيرًا أو أميرًا، فليس عجيبًا مع هذه الأناة أن يخلو شعره مما يستنكر وأن يبرأ
من الضعف والوحشية معًا. ولقد يحدثنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع
اللغويين والشعراء الذين كان يعرض عليهم شعره قبل أن ينشده الخلفاء.
ولست أشير إلا إلى سيرته مع بشار فلها معناها. كان مروان يعرض القصيدة
على بشار ويسأله رأيه فيها فلا يجيبه بشار بأنها جيدة أو بأنها رديئة، بل يقدر له
قيمة القصيدة ماليًا، فيقول: سيعطونك عليها كذا وكذا... وقد صدق بشار
مرتين فأظهر له مروان العجب من ذلك، فقال بشار: ألم أقل لك إني أعلم
الغيب! ولم يكن يعلم الغيب، وإنما كان يفهم مروان ويفهم الخلفاء ويفهم
الميول السياسية التي كان من شأنها أن تجزل حظ مروان من العطاء.
كان مروان متناقضًا ولكنه تناقض مفهوم، كان شديد الحرص على

الإجادة، فكان يشك في شعره، ويستشير فيه الشعراء والنحاة، ولكنه كان مع ذلك معجباً بنفسه لا يقدم عليها أحداً بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة: الأخطل والفرزدق وجريـر. واسمع رأيـه فيهم وفي نفسه، فقد عقده شعراً ليثبت كما يقول:

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما	حلو القريض ومره لجريـر
ولقد هجا فأمض أخطل تغلب	وحوى اللهـى ببيانه المشهور
كل الثلاثة قد أجاد فمدحه	وهجاؤه قد سار كل مسير
ولقد جريت ففت غير مهلل	بجـراء لا قرف ولا مبهور
إني لأنف أن أحبر مدحة	أبداً لغير خليفة ووزير
ما ضـرني حسد اللئام ولم يزل	ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

أما رأي مروان في النقد فبديع، كان ينشد الشعر لامرئ القيس ويقول: هو أشعر الناس، ثم ينشد شعر الأعشى ويقول: هو أشعر الناس، ثم ينشد شعر زهير ويقول: هو أشعر الناس، حتى إذا أنشد لطائفة كثيرة من الشعراء، فرآهم جميعاً أشعر الناس، قال ضاحكاً: الناس أشعر الناس! ولست أعرف رأياً كهذا الرأي يمثل الشك في نقد الناقدين المعاصرين والسخرية بهذا النقد.

وننتقل من ذاك الوصف الرائع إلى ذكر نبذة صالحة من أخباره وأشعاره. دخل مروان بن أبي حفصة على المهدي بعد وفاة معن، فأنشده مديحاً فيه، فقال له المهدي: ألسـت القائل:

أقمنا باليهامة بعد معن	مقاماً لا نريد به زوالا
وقلنا أين نرحل بعد معن	وقد ذهب النوال فلا نوالا

قد ذهب النوال فيما زعمت، فلم جئت تطلب نوالنا؟ لا شيء لك عندنا. فلما

كان من العام المقبل تلتطف حتى دخل مع الشعراء، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء كل عام مرة، فمثل بين يديه، وأنشد — بعد رابع أو خامس من الشعراء:

طرقتك زائرة فحي خيالها	بيضاء تخلط بالجمال دلالها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها	قاد القلوب إلى الصبا فأمالها
فكأنما طرقت بنفحة روضة	سحت بها ديم الربيع طلالها
باتت تسائل في المنام معرّسا	بالبيد أشعث لا يمل سؤالها
في فتية هجعوا غراراً بعدما	سئموا مراعاة السرى ومطالها
فكأن حشو ثيابهم هندية	نحلت وأغفلت القيون صقالها
وضعوا الخدود لدى سواهم جناح	تشكو كلوم صفاحها وكلالها
طلبت أمير المؤمنين فواصلت	بعد السرى بغدوها آصالها
نزعت إليك صوادياً فتقاذفت	تطوي الفلاة حزونها ورمالها
يتبعن ناجية يهز مراحها	بعد النحول تليلها ^(٤٩) وقذالها
هوجاء تدرع الربا وتشقها	شق الشموس إذا تراعى جلالها
تنجو ^(٥٠) إذ ادفع القطيع كما نجت	خرجاء ^(٥١) بادرت الظلام رئالها ^(٥٢)
كالقوس ساهمة أتتك وقد ترى	كالبرج تملأ رحلها وحبالها

وفيهما يقول:

هل تطمعون من السماء نجومها	بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة عن ربكم	جبريل بلغها النبي فقلها
شهدت من الأنفال آخر آية	بترائهم فأردتم إبطالها

ومنها:

أحيا أمير المؤمنين محمد
ملك تفرع نبعة من هاشم
جبل لأتمه تلوذ بركنه
لم يغشها مما يخاف عظيمة
حتى يفرجها أغر مهذب
ثبت على زلل الحوادث راكب
كلتا يديك جعلت فضل نواها
وقعت مواقعها بعفوك أنفس
ونصبت نفسك خير نفس دونها
هل تعلمون خليفة من قبله
طلع الدروب مشمرًا عن ساقه
قود تريع إلى أغر لوجهه
قصرت حمائله عليه فقلصت
حتى إذا وردت أوائل خيله
أحمى بلاد المسلمين عليهم
أدمت دوابر خيله وشكيمها
لم يبق بعد مغارها وطرادها
رفع الخليفة ناظري وراشني
وحسدت حتى قيل أصبح باغيًا
ولقد حذوت لمن أطاع ومن عصى

فزحف المهدي من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعجابًا بما سمع، ثم

قال: كم هي؟ قال مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم، فكانت أول مائة ألف درهم أعطيتها شارع في أيام بني العباس، وهكذا فعل معه الرشيد لما أنشده قصيدته التي يقول فيها:

لعمرك ما أنسى غداة المحصب إشارة سلمى بالبنان المخضب
وقد صدر الحجاج إلا أقلهم مصادر شتى موكباً بعد موكب
قال مروان: دخلت على المهدي في قصر السلام، فلما سلمت عليه وذلك
بعقب سخطه على يعقوب بن داود، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن يعقوب رجل
رافضي، وإنه سمعني أقول في الوراثة:

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام
فذلك الذي حمله على عدواني؛ ثم أنشدته:
كان أمير المؤمنين محمداً لرأفته بالناس للناس والد
فقال له المهدي: والله ما أعطيك إلا من صلب مالي، فاعذرني، وأمر لي بثلاثين
ألف درهم وكساني جبة ومطرفاً، وفرض لي على أهل بيته ومواليه ثلاثين ألفاً
أخرى.

لما قدم معن من اليمن دخل عليه مروان والمجلس غاص بأهله، فأخذ
بعضادتي الباب وأنشأ يقول:

أرى القلب أمسى بالأوانس مولعاً وإن كان من عهد الصبا قد تمتعا
ويقول فيها:

ولما سرى الهم الغريب قرينه قرى من أزال الشك عنه وأزمعا
عزمت فعجلت الرحيل ولم أكن كذي لوثة لا يطلع الهم مطالعا
فأمت ركابي أرض معن ولم تزل إلى أرض معن حيثما كان نزعا

نجائب لولا أنها سخرت لنا
كسونار حال الميس^(٥٥) منها غواربًا
فما بلغت صنعاء حتى تواضعت
إلى أن قال:

وما الغيث إذ عم البلاد بصوبه
تدارك معن قبة الدين بعدما
أقام على الثغر المخوف وهاشم
مقام امرئ يأبى سوى الخطة التي
وما أحجم الأعداء عنك بقية
رأوا مخدرًا قد جربوه وعاینوا
وليس بثانيه إذا شد أن يرى
له راحتان الغيث والحتف فيهما
لقد دوخ الأعداء معن فأصبحوا
نجيب مناجيب وسيد سادة
لبانت خصال الخير فيه وأكملت
لقد أصبحت في كل شرق ومغرب
وطئت حدود الحضرميين وطأة
فأقعوا على الأذنان إقعاء معشر
فلو مدت الأيدي إلى الحرب كلها

أبت عزة من جهلها أن تورعا
تدارك فيها النبي^(٥٦) صيفًا ومربعًا
ذراها وزال الجهل عنها وأقلعا

على الناس من معروف معن بأوسعا
خشينا على أوتادها أن تنزعا
تشاقى سمامًا بالأسنة منقعا
تكون لدى غب الأحاديث أنفعا
عليك ولكن لم يروا فيك مطمعا
لدى غيله منهم مجرًا ومصرعا
لدى نحره زرق الأسنة شرعا
أبى الله إلا أن تضرا وتنفعا
وأمنعهم لا يدفع الذل مدفعا
ذرى المجد من فرعي نزار تفرعا
وما كملت خمسًا سنوه وأربعًا
بسيفك أعناق المرييين خضعا
لها هد ركن منهم فتضعضعا
يرون لزوم السلم أبقى وأودعا
لكفوا وما مدوا إلى الحرب أصبعا

فقال له معن: احتكم، قال: عشرة آلاف درهم، فقال معن: ربنا عليك
تسعين ألفًا، قال: أقلني، قال: لا أقال الله من يقيلك.

لما مات المهدي وفدت العرب على موسى الهادي يهتئونه بالخلافة ويعزونه عن المهدي، فدخل مروان فأخذ بعضادتي الباب وقال:

لقد أصبحت تحتال في كل بلدة بقبر أمير المؤمنين المقابر
ولو لم تسكن بابنه في مكانه لما برحت تبكي عليه المنابر
مرض عمرو بن مسعدة فدخل عليه مروان وقد أبل من مرضه، فأنشأ يقول:
صح الجسم يا عمرو لك التمحيص والأجر
والله علينا الحم — د والمنة والشكر
فقد كان شكا شوقاً إليك النهي والأمر

قال موسى بن يحيى: أوصلنا إلى مروان بن أبي حفصة في وقت من الأوقات سبعين ألف درهم، وجمع إليها مالا حتى تمت مائة ألف وخمسين ألف درهم وأودعها يزيد بن مزيد، فبينما نحن عند يحيى بن خالد إذ دخل يزيد بن مزيد، وكانت فيه دعابة، فقال: يا أبا علي، أودعني مروان خمسين ومائة ألف درهم، وهو يشتري الخبز من البقال؛ فغضب يحيى ثم قال: علي بمروان، فأتي به، فقال له: قد أخبرني أبو خالد بما أودعته من المال وما تبتاعه من البقال، والله لما يرى من أثر البخل عليك أضر من الفقر لو كان بك. ويروى أنه قال له: والله للبخل أسوأ عليك أثراً من الفقر لو صرت إليه فلا تبخل. وقال عمر بن شبة قال مروان: ما فرحت بشيء قط فرحي بمائة ألف وهبها لي أمير المؤمنين المهدي، فوزنتها فزادت درهما، فاشتريت به لحما. وقال جهم بن خلف: أتينا اليمامة ففرزنا على مروان بن أبي حفصة فأطعمنا تمرًا وأرسل غلامه بفلس وسكرجة ليشتري زيتًا، فلما جاء بالزيت قال لغلامه: ختني؛ قال: من فلس! كيف أخونك؟ قال: أخذت الفلس لنفسك واستوهبت الزيت. وقال التوزي: مروان بن أبي حفصة

في بعض سفراته وهو يريد مغنى امرأة من العرب، فأضافته؛ فقال: الله علي إن وهب لي الأمير مائة ألف أن أهب لك درهماً؛ فأعطاه ستين ألف درهم، فأعطها أربعة دوانق. وقال أبو دعامة: اشترى مروان لحماً بنصف درهم فلما وضعه في القدر وكاد ينضج دعاه صديق له، فرده على القصاب بنقصان دانق، فشكاه القصاب وجعل ينادي هذا لحم مروان، وظن أنه يأنف لذلك؛ فبلغ الرشيد ذلك فقال: ويلك! ما هذا؟ فقال: أكره الإسراف.

دخل مروان على موسى الهادي فأنشده قوله فيه:

تشابه يوماً بأسه ونواله فما أحد يدري لأيهما الفضل

فقال له الهادي: أيما أحب إليك؟ أثلاثون ألفاً معجلة، أم مائة ألف تدون في الدواوين؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، أنت تحسن ما هو خير من هذا، ولكنك أنسيته، أفتأذن لي أن أذكرك؟ قال: نعم؛ قال: تعجل لي الثلاثين ألفاً وتدون المائة ألف في الدواوين، فضحك وقال: بل يعجلان جميعاً، فحمل إليه المال أجمع.

قال محمد النوفلي: اجتاز مروان برجل من باهلة من أهل اليمامة، وهو ينشد قومًا كان جالسًا إليهم شعرًا مدح به مروان بن محمد، وأنه قتل قبل أن يلقاه وينشده إياه، أوله:

مروان يا بن محمد أنت الذي زیدت به شرفاً بنو مروان

فأعجبته القصيدة، فأمهل الباهلي حتى قام من مجلسه، ثم أتاه في منزله فقال له: إني سمعت قصيدتك وأعجبني، ومروان قد مضى ومضى أهله، وفاتك ما قدرت عنده، أفتبيعني القصيدة حتى أنتحلها، فإنه خير لك من أن تبقى عليك وأنت فقير؟ قال: نعم؛ قال: بكم؟ قال: بثلاثمائة درهم، قال: قد ابتعتها،

فأعطاه الدراهم وحلفه بالطلاق ثلاثاً وبالأيمان المحرجة ألا يتحلها أبداً، ولا ينسبها إلى نفسه ولا ينشدها، وانصرف بها إلى منزله فغير منها أبياتاً وزاد فيها وجعلها في معن، وقال في ذلك البيت:

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً على شرف بنو شيان

ووفد بها إلى معن حتى أثرى واتسعت حاله، فكان معن أول من رفع ذكره ونوه به. وله فيه مدائح بعد ذلك شريفة ومراث حسنة. قال مروان: كان المنصور قد طلب معن بن زائدة طلباً شديداً وجعل فيه مالا، فحدثني معن باليمن أنه اضطر لشدة الطلب إلى أن قام في الشمس حتى لوحت وجهه، وخفف عارضيه ولحيته، ولبس جبة صوف غليظة، وركب جملاً من الجمال النقاله يمضي إلى البادية فيقيم بها، وكان قد أبلى في حرب يزيد بن عمر بن هبيرة بلاءً حسناً غاظ المنصور وجد في طلبه، قال معن: فلما خرجت من باب حرب تبعني أسود متقلداً سيفاً حتى إذا غبت عن الحرس قبض على خطام جلي فأناخه وقبض علي، فقلت له: ما لك؟ قال أنت طلبت أمير المؤمنين، قلت: ومن أنا حتى يطلبني أمير المؤمنين؟ قال معن بن زائدة، قلت: يا هذا، اتق الله، وأين أنا من معن؟ قال: دع هذا عنك، فأنا والله أعرف بك منك، فقلت له: فإن كانت القصة كما تقول، فهذا جوهر حملته معي يفي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بي، فخذ به ولا تسفك دمي، قال: هاته، فأخرجته إليه، فنظر إليه ساعة وقال: صدقت في قيمته، ولست قابله حتى أسألك عن شيء، فإن صدقتني أطلقتك، فقلت: قل، قال: إن الناس قد وصفوك بالجوهر فأخبرني، هل وهبت قط مالك كله؟ قلت: لا، قال: فنصفه؟ قلت: لا، قال: فثلثه؟ قلت: لا، حتى بلغ العشر، فاستحييت، فقلت: أظن أني فعلت هذا،

فقال: ما أراك فعلته، أنا والله راجل ورزقي من أبي جعفر عشرين درهماً وهذا الجوهر قيمته آلاف الدنانير وقد وهبته لك، ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور عنك بين الناس، ولتعلم أن في الدنيا أجود منك فلا تعجبك نفسك، ولتحقر بعد هذا كل شيء تفعله ولا تتوقف عن مكرمة؛ ثم رمى بالعقد في حجري وخلي خطام البعير وانصرف؛ فقلت: يا هذا، قد والله فضحتني ولسفك دمي أهون علي مما فعلت، فخذ ما دفعته إليك فأني غني عنه، فضحك وقال: أردت أن تكذبني في مقامي هذا، والله لا أخذه ولا آخذ بمعروف ثمناً أبداً ومضى؛ فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن جاءني به ما شاء، فما عرفت له خبراً وكأن الأرض ابتلعه. وكان سبب رضا المنصور عن معن أنه لم يزل مستتراً حتى كان يوم الهاشمية،^(٥٧) فلما وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه، وثب معن وهو مثلثم فانتضى سيفه وقاتل فأبلى بلاء حسناً وذب القوم عنه حتى نجا وهم يحاربونه بعد؛ ثم جاء والمنصور راكب على بغلة ولجامها بيد الربيع فقال له: تنح فأني أحق باللجام منك في هذا الوقت وأعظم فيه غناء؛ فقال له المنصور: صدق فادفعه إليه، فأخذه ولم يزل يقاتل حتى انكشفت تلك الحال، فقال له المنصور: من أنت؟ لله أبوك! قال: أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة؛ قال: قد أمنتك الله على نفسك ومالك ومثلك يصطنع، ثم أخذه معه وخلع عليه وحباه وزينه، ثم دعا به يوماً فقال له: إني قد أملتك لأمر فكيف تكون فيه؟ قال: كما يحب أمير المؤمنين؛ قال: قد وليتك اليمن فابسط السيف فيهم حتى ينقض حلف ربيعة واليمن، وابلغ من ذلك ما يحب أمير المؤمنين؛ فولاه اليمن وتوجه إليها فبسط السيف فيهم حتى أسرف. قال مروان: وقدم معن بعقب ذلك فدخل على المنصور، فقال له بعد كلام طويل: قد بلغ أمير

المؤمنين عنك شيء لولا مكانك عنده ورأيه فيك لغضب عليك؛ قال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: إعطاؤك مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله فيك:

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً على شرف بنو شيان

إن عد أيام الفعّال فإنما يوماه يوم ندى ويوم طعان

فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أعطيته ما بلغك لهذا الشعر، وإنما أعطيته لقوله:

ما زلت يوم الهاشمية معلناً بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهند وسانان

فاستحيا المنصور وقال: إنما أعطيته ما أعطيته لهذا القول؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين؛ والله لولا مخافة الشنعة لأمكنته من مفاتيح بيوت الأموال وأباحتها إياها؛ فقال له المنصور: لله درك من أعرابي! ما أهون عليك ما يعز على الرجال وأهل الحزم!

وأختم هذه الترجمة بموت مروان يقصه قاتله. روى صاحب الأغاني عن رجل يقال له صالح بن عطية الأصجم أنه قال: لما قال مروان:

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام

لزمته وعاهدت الله أن أغتاله فأقتله أي وقت أمكني، وما زلت ألافه وأبره، وأكتب أشعاره حتى خصصت به فأنس بي جداً، وعرفت ذلك بنو حفصة جميعاً فأنسوا بي، ولم أزل أطلب غرة حتى مرض من حمى أصابته، فلم أزل أظهر له الجزع عليه وألزمه وألافه حتى خلا لي البيت يوماً، فوثبت عليه فأخذت بحلقه فما فارقه حتى مات، فخرجت وتركته فخرج إليه أهله بعد ساعة فوجدوه ميتاً وارتفعت الصيحة، فحضرت وتباكيت وأظهرت الجزع عليه حتى دفن وما فطن لما فعلت أحد ولا اتهمني به.

(٤) أبو دلامة^(٥٨)؛

كان أول ما حفظ من شعره وأسنيت الجوائز له به، قصيدة مدح بها أبا جعفر المنصور وذكر قتله أبا مسلم يقول فيها:

أبا مسلم^(٥٩) خوَّفَني القتل فانتحى عليك بما خوَّفَني الأسد الورد
أبا مسلم ما غير الله نعمة على عبده حتى يغيرها العبد
أنشدھا المنصور في محفل من الناس فقال له: احتكم، فطلب عشرة آلاف درهم، فأمر له بها، فلما خلا قال له: إيه، أما والله لو تعديتها لقتلتك.
أمر أبو جعفر أصحابه بلبس السواد وقلانس طوال تدعم بعيدان من داخلها، وأن يعلقوا السيوف في المناطق ويكتبوا على ظهورهم: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فقال أبو دلامة:

وكنا نرجي من إمام زيادة تراها على هام الرجال كأنها
ودخل إلى المنصور مرة فأنشده:

إن الخليط أجد البين فانتجعوا وزودوك خبالاً، بئسما صنعوا
والله يعلم أن كادت لبيّنهم يوم الفراق حصاة القلب تنصدع
عجبت من صبيتي يوماً وأمهم أم الدلامة لما هاجها الجزع
لا بارك الله فيها من منبهة هبت تلوم عيالي بعد ما هجعوا
ونحن مشبهوا الألوان أوجهنا سود قباح وفي أسمائنا شنع
إذا تشكت إلي الجوع قلت لها ما هاج جوعك إلا الري والشبع
لا والذي يا أمير المؤمنين قضى لك الخلافة في أسبابها الرفع
ما زلت أخلصها كسبي فتأكله دوني ودون عيالي ثم تضطجع

شوهاء مشناة في بطنها بجر^(٦١) وفي المفاصل من أوصالها لها فذع
ذكرتها بكتاب الله حرمتنا ولم تكن بكتاب الله تنتفع
فاخرنطمت^(٦٢) ثم قالت وهي مغضبة أنت تتلو كتاب الله يا لكع
اخرج لتبغ لنا مالاً ومزرعة كما لجيراننا مال ومزدرع
واخذع خليفتنا عنا بمسألة إن الخليفة للسؤال ينخدع
فضحك أبو جعفر وكتب له بضیعة.

كان واقفاً بين يدي السفاح فقال له: سلني حاجتك، قال: كلب أتصيد به،
قال: أعطوه إياه، قال: ودابة أتصيد عليها، قال: أعطوه دابة، قال: وغلام يصيد
بالكلب ويقوده، قال: أعطوه غلاماً، قال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا
منه، قال: أعطوه جارية، قال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عبيدك، فلا بد لهم من دار
يسكنونها، قال: أعطوهم داراً تجمعهم، قال: فإن لم تكن لهم ضیعة فمن أين
يعيشون؟ قال: قد أعطيتك مائة جريب عامرة، ومائة جريب غامرة، قال: وما
الغامرة؟ قال ما لا نبات فيه، فقال: قد أقطعتك يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف
جريب غامرة من فيافي بني أسد، فضحك وقال: اجعلوها عامرة، قال: فأذن
لي أن أقبل يدك، قال: أما هذه فدعها، قال: والله ما منعت عيالي شيئاً أقل ضرراً
عليهم منها، قال الجاحظ: فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها، ابتداء بكلب
فسهل القصة به وجعل يأتي بما يليه على ترتيب وفكاهة حتى نال ما لو سأل
بديهة لما وصل إليه.

قال علي بن سلام: كنت أسقي أبا دلامة والسندي إذ خرجت بنت لأبي
دلامة، فقال فيها أبو دلامة:

فما ولدتك مريم أم عيسى ولا رباك لقمان الحكيم

أجز يا أبا عطاء، فقال:

ولكن قد تضمك أم سوء إلى لباتها وأب لئيم
فضحك لذلك، ثم غدا أبو دلامة إلى المنصور فألفاه في الرحبة يصلح فيها
شيئاً يريد، فأخبره بقصة ابنته وأنشده البيتين، ثم اندفع فأنشده بعدهما:
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقيلا أقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلكم إلى السماء فأنتم أظهر الناس
وقدموا القائم المنصور رأسكم فالعين والأنف والأذنان في الراس
فاستحسنها وقال: بأي شيء تحب أن أعينك على قبج ابنتك هذه؟ فأخرج
خريطة كان قد خاطها من الليل، فقال: تملأ لي هذه دراهم، فملئت فوسعت
أربعة آلاف درهم.

لما توفي أبو العباس السفاح دخل أبو دلامة على المنصور والناس عنده يعزونه،
فأنشأ أبو دلامة يقول:

أمسيت بالأنبار يابن محمد	لم تستطع عن عقرها تحويلا
ويلي عليك وويل أهلي كلهم	ويلاً وعولاً في الحياة طويلا
فلتبكين لك النساء بعبرة	وليبكين لك الرجال عويلا
مات الندى إذ مت يابن محمد	فجعلته لك في التراب عديلا
إني سألت الناس بعدك كلهم	فوجدت أسمح من سألت بخيلا
ألشقتني أخرت بعدك للتي	تدع العزيز من الرجال ذليلا
فلأحلفن يمين حق برة	بالله ما أعطيت بعدك سولا

فأبكى الناس قوله، فغضب المنصور غضباً شديداً وقال: لئن سمعتك تنشد
هذه القصيدة لأقطعن لسانك، فقال: يا أمير المؤمنين، إن أبا العباس أمير

المؤمنين كان لي مكرماً، وهو الذي جاء بي من البدو كما جاء الله بإخوة يوسف إليه، فقل كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ أَلْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فسري عن المنصور وقال: قد أقلناك يا أبا دلامة، فسل حاجتك، فقال: يا أمير المؤمنين، قد كان أبو العباس أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً وهو مريض، ولم أقبضها. فقال المنصور: ومن يعرف هذا؟ فقال: هؤلاء، وأشار إلى جماعة ممن حضر، فوثب سليمان بن خالد وأبو الجهم فقالا: صدق أبو دلامة نحن نعلم ذلك، فقال المنصور لأبي الخازن وهو مغيط: يا سليمان، ادفعها إليه وسيره إلى هذا الطاغية «يعني عبد الله بن علي» وقد كان خرج بناحية الشام وأظهر الخلاف، فوثب أبو دلامة فقال: يا أمير المؤمنين إني أعيذك بالله أن أخرج معهم، فوالله إني لمشئوم، فقال المنصور: امض، فإن يمني يغلب شؤمك فاخرج، فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أحب لك أن تجرب ذلك مني على مثل هذا العسكر، فإني لا أدري أيهما يغلب، أيمنك أم شؤمي، إلا أني بنفسني أوثق وأعرف وأطول تجربة، قال: دعني من هذا فما لك من الخروج بد، فقال: إني أصدقك الآن، شهدت والله تسعة عشر عسكراً كلها هزمت وكنت سببها، فإن شئت الآن على بصيرة أن يكون عسكرك العشرين فافعل، فاستغرب أبو جعفر ضحكاً وأمره أن يتخلف مع عيسى بن موسى بالكوفة.

قال أبو دلامة: أتى بي المنصور أو المهدي وأن سكران، فحلف ليخرجني في بعث حرب، فأخرجني مع روح بن حاتم الهلبي لقتال الشراة، فلما التقى الجمعان قلت لروح: أما والله لو أن تحتي فرسك ومعني سلاحك لأثرت في عدوك اليوم أثراً ترتضيه، فضحك وقال: والله العظيم لأدفعن ذلك إليك ولاخذنك بالوفاء بشرطك، ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما إلي ودعا

بغيرهما فاستبدل بهما، فلما حصل ذلك في يدي وزالت عني حلاوة الطمع
قلت له: أيها الأمير هذا مقام العائذ بك، وقد قلت أبياتاً فاسمعهما، قال: هات،
فأنشدته:

إني استجرتك أن أقدم في الوغى لتطاعن وتنازل وحراب^(٦٣)
فهب السيوف رأيته مشهورة فتركتهام ومضيت في الهرب
ماذا تقول لما يحيى وما يرى من واردات الموت في الشباب

فقال: دع عنك هذا وستعلم، وبرز رجل من الخوارج يدعو للمبارزة:
فقال: اخرج إليه يا أبا دلامة، فقلت: أنشدك الله أيها الأمير في دمي، قال: والله
لتخرجن، فقلت: أيها الأمير فإنه أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام
الدنيا وأنا والله جائع ما شبع مني جارحة من الجوع، فمر لي بشيء آكله ثم
أخرج، فأمر لي برغيفين ودجاجة، فأخذت ذلك وبرزت عن الصف، فلما
رآني الشاري أقبل نحوي وعليه فرو قد أصابه المطر فابتل وأصابته الشمس
فانفعل^(٦٤) وعينه تقدان، فأسرع لي، فقلت له: على رسلك يا هذا، كما أنت،
فوقف، فقلت: أنقتل من لا يقاتلك؟ قال: لا، قلت: أنقتل رجلاً على دينك؟
قال: لا، قلت: أفتستحل ذلك قبل أن تدعو من تقاتله إلى دينك؟ قال: لا،
فاذهب عني إلى لعنة الله، قلت: لا أفعل أو تسمع مني، قال: قل، قلت: هل
كانت بيننا قط عدواة أو ترة أو تعرفني بحال تحفظك علي أو تعلم بيني وبين
أهلك وتراً، قال: لا والله، قلت: ولا أنا والله أضمر لك إلا جميل الرأي، وإني
لأهواك وأنتحل مذهبك، وأدين دينك، وأريد السوء لمن أرادك لك، قال: يا
هذا جزاك الله خيراً فانصرف، قلت: إن معي زاداً أحب أن آكله معك وأحب
مواكلتك لتتأكد المودة بيننا ويرى أهل العسكر هوانهم علينا، قال: فافعل،
فتقدمت إليه حتى اختلفت أعناق دوابنا، وجمعنا أرجلنا على معارفها والناس

قد غلبوا ضحكًا، فلما استوفينا ودعني، ثم قلت له: إن هذا الجاهل إن أقمت على طلب المبارزة ندبني إليك فتتعبني وتتعب نفسك، فإن رأيت ألا تبرز اليوم فافعل، قال: قد فعلت، ثم انصرف وانصرفت فقلت لروح: أما أنا فقد كفيتك قرني، فقل لغيري أن يكفيك قرنه كما كفيتك، فأمسك، وخرج آخر يدعو إلى البراز، فقال لي: اخرج إليه، فقلت:

إني أعود بروح أن يقدمني إلى البراز فتحزى بي بنو أسد
إن البراز إلى الأقران أعلمه مما يفرق بين الروح والجسد
قد حالفتك المنيا إن صمدت لها وأصبحت لجميع الخلق بالرصد
إن المهلب حب الموت أورثكم وما ورثت اختيار الموت عن أحد
لو أن لي مهجة أخرى لجدت بها لكنها خلقت فردًا فلم أجد
فضحك وأعفاني.

قال أبو أيوب المورياني لأبي جعفر وكان يشنأ أبا دلامة: إن أبا دلامة معتكف على الخمر، فما يحضر صلاة ولا مسجدًا وقد أفسد فتیان العسكر، فلو أمرته بالصلاة معك لأجرت فيه وفي غيره من فتیان عسكرك بقطعه عنهم، فلما دخل عليه أبو دلامة قال له: ما هذا المجون الذي يبلغني عنك؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما أنا والمجون وقد شارفت باب قبري! قال: دعني من استكانتك وتضرعك، وإياك أن تفوتك الظهر والعصر في مسجدي، فلئن فاتتاك لأحسن أدبك ولأطيلن حبسك، فوقع في شر ولزم المسجد أيامًا، ثم كتب قصة ودفعها إلى المهدي فأوصلها إلى أبيه وكان فيها:

ألم تعلم أن الخليفة لزني^(٦٥) بمسجده والقصر، مالي وللقصر
أصلي به الأولى جميعًا وعصرها فويلي من الأولى وويلي من العصر

أصليهما بالكره في غير مسجدي فمالى في الأولى ولا العصر من أجر
لقد كان في قومي مساجد جمّة ولم ينشرح يوماً لغشيانها صدري
يكلّفني من بعد ما شبت خطة يحط بها عني الثقل من الوزر
وما ضره والله يغفر ذنبه لو ان ذنوب العالمين على ظهري

فقال: صدق، ما يضرني ذلك، والله لا يصلي هذا أبداً، فدعوه يعمل ما يشاء.
وقال الهيثم في خبره: قد أعفيناك من هذا الحال، ولكن على ألا تدع القيام معنا
في ليالي شهر رمضان فقد أظل، فقال: أفعل، قال: فإنك إن تأخرت لشرب
الخمر علمت ذلك والله لئن فعلت لأحدنك، فقال أبو دلامة: البلية في شهر
أخف منها في طول الدهر، سمعاً وطاعة، فلما حضر شهر رمضان لزم المسجد،
وكان المهدي يبعث إليه في كل ليلة حرسياً يجيء به، فشق ذلك عليه وفزع
إلى الخيزران وإلى أبي عبيد الله وكل من يلوذ بالمهدي ليشفعوا له في الإعفاء
من القيام، فلم يجبه، فقال له أبو عبيد الله: الدال على الخير كفاعله، فكيف
شكرك؟ قال: أتم شكر، قال: عليك بريطة فإنه لا يخالفها، قال: صدقت، ثم
رفع إليها رقعة يقول فيها:

أبلغا ريطة أني كنت عبداً لأبيها
فمضى يرحمه الله ه وأوصى بي إليها
وأراها نسيتني مثل نسيان أخيها
جاء شهر الصوم يمشي مشية ما أشتهيها
قائداً لي ليلة القد ر كأنني أبتغيها
تنطح القبلة شهراً جبهتي لا تأتليها
ولقد عشت زماناً في فيافي وجيها
في ليال من شتاء كنت شيخاً أصطليها

قاعداً أوقد ناراً لضباب أشتوها
وصبوح وغبوق في علاب أحتسيها
ما أبالي ليلة القدر ولا تسمعيها
فاطلبي لي فرجاً منها وأجري لك فيها

فلما قرأت الرقعة ضحكت وأرسلت إليه: اضطرب حتى مضي ليلة القدر،
فكتب إليها: إني لم أسألك أن تكلمي في إعفائي عاماً قابلاً، وإذا مضت ليلة
القدر فقد فني الشهر، وكتب تحتها أبياتاً:

خافي إلهك في نفس قد احتضرت قامت قيامتها بين المصلينا
ما ليلة القدر من همي فأطلبها إني أخاف المنايا قبل عشرينا
يا ليلة القدر قد كسرت أرجلنا يا ليلة القدر حقاً ما تمنينا
لا بارك الله في خير أومله في ليلة بعد ما قمنا ثلاثينا

فلما قرأت الرقعة ضحكت ودخلت إلى المهدي فشفت له إليه وأنشدته
الآبيات، فضحك حتى استلقى ودعا به وريطة معه في الحجلة، فدخل،
فأخرج رأسه إليه وقال: قد شفّعنا ربطة فيك وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم،
فقال: أما شفاعة سيدي في حتى أعفيتني فأعفاها الله من من النار، وأما السبعة
الآلاف فما أعجبني ما فعلته إما أن تتمها بثلاثة آلاف فتصير عشرة أو تنقصني
منها ألفين فتصير خمسة آلاف، فإني لا أحسن حساب السبعة، فقال: قد جعلتها
خمس، فقال: أعينك بالله أن تختار أدنى الحالين وأنت أنت، فعبث به المهدي
ساعة، ثم تكلمت فيه ربطة، فأتمها له عشرة آلاف درهم.

شرب أبو دلامة في بعض الحانات فسكر وانصرف وهو يميل، فلقيه العسس،
فأخذه وقالوا له: من أنت، وما دينك؟ فقال:

ديني على دين بني العباس ما ختم الطين على القرطاس
إني اصطحبت أربعًا بالكاس فقد أدار شربها براسي
«فهل بما قلت لكم من باس»

فأخذوه ومضوا وخرقوا ثيابه وساجه،^(٦٦) وأتى به أبو جعفر، وكان يؤتى بكل ما أخذه العسس، فحبسه مع الدجاج في بيت، فلما أفاق جعل ينادي غلامه مرة وجاريته مرة، فلم يجبه أحد، وبينما هو في ذلك إذ سمع صوت الدجاج وزقاء الديوك، فلما أكثر قال له السجان: ما شأنك؟ قال: ويلك من أنت؟ وأين أنا؟ قال: في الحبس وأنا فلان السجان، قال: من حبسني؟ قال: أمير المؤمنين، قال: ومن خرق طيلساني؟ قال: الحرس، فطلب منه أن يأتيه بدواة وقرطاس، ففعل، فكتب إلى أبي جعفر:

أمير المؤمنين فدتك نفسي علام حبستني وخرقت ساجي
أمن صفراء صافية المزاج كأن شعاعها لهب السراج
وقد طبخت بنار الله حتى لقد صارت من النطف النضاج
تهش لها القلوب وتشتهيها إذا برزت ترقرق في الزجاج
أقاد إلى السجون بغير جرم كأني بعض عمال الخراج
ولو معهم حبست لكان سهلا ولكنني حبست مع الدجاج
فدعا به وقال: أين حبست يا أبا دلامة؟ قال: مع الدجاج، قال: فما كنت تصنع؟ قال: أقوق معهن حتى أصبحت، فضحك وخلي سبيله وأمر له بجائزة، فلما خرج قال له الربيع: إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين، أما سمعت قوله: وقد طبخت بنار الله، يعني الشمس؟ فأمر برده، ثم قال: يا خبيث، شربت الخمر؟ قال: لا، قال: أفلم تقل طبخت بنار الله تعني الشمس؟ قال: لا والله ما عנית

إلا نار الله الموقدة التي تطلع على فؤاد الربيع، فضحك وقال: خذها يا ربيع ولا تعاود.

صام الناس في سنة شديدة الحر على عهد المهدي، وكان أبو دلامة يتنجز جائزة أمر له المهدي بها، فكتب إليه أبو دلامة رقعة يشكو فيها أذى الحر والصوم، وهي:

أدعوك بالرحم التي قد جمعت	في القرب بين قريتنا والأبعد
إلا سمعت وأنت أكرم من مشى	من منشد يرجو جزاء المنشد
جاء الصيام فصمته متعبداً	أرجو رجاء الصائم المتعبد
ولقيت من أمر الصيام وحره	أمرين قيساً بالعذاب المؤصد
وسجدت حتى جبهتي مشجوجة	مما يناطحني الحصا في المسجد
فأمنن بتسريحى بمطلك بالذي	أسلفتني من البلاء المرصد

فلما قرأ المهدي رقعته غضب وقال: أي قرابة بيني وبينك؟ قال: رحم آدم وحواء، أنسيتهما يا أمير المؤمنين! فضحك وقال: لا والله ما نسيتهما، وأمر بتعجيل ما أجاز به وزاد فيه، وأنشده أيضاً في ذم الصوم:

هل في البلاد لرزق الله مفترش	أم لا فني جلده من خشنة برش ^(٦٧)
أضحى الصيام منيخاً وسط عرصتنا	ليت الصيام بأرض دونها جرش
إن صمت أو جعني بطني وأقلقني	بين الجوانح مس الجوع والعطش
وإن خرجت بليل نحو مسجدهم	أضري بصر قد خانه العمش

دخل أبو دلامة على سعيد بن دعلج مولى بني تميم فقال:

إذا جئت الأمير فقال سلام	عليك ورحمة الله الرحيم
وأما بعد ذاك فلي غريم	من الأعراب قبح من غريم

غريم لازم بفناء بيتي لزوم الكلب أصحاب الرقيم
له مائة علي ونصف أخرى ونصف النصف في صك قديم
دراهم ما انتفعت بها ولكن وصلت بها شيوخ بني تميم
أتوني بالعشيرة يسألوني ولم أك في العشيرة باللئيم
فأمر له بمائتين وخمسة وسبعين درهماً وقال: ما أساء من أنصف، وقد كافأتك
عن قومك وزدتك مائة.

دخل أبو دلامة على المهدي فأنشده قصيدته في بغلته المشهورة:
أتاني، بغلة يستام مني، عريق في الخسارة والضلال
فقال تبيعها قلت ارتبطها بحكمك إن بيعي غير غال
فأقبل ضاحكاً نحوي سروراً وقال أراك سمحاً ذا جمال
هلم إلي يخلو بي خداعاً وما يدري الشقي لمن يخالي
فقلت بأربعين، فقال أحسن إلي فإن مثلك ذو سجال
فأترك خمسة منها لعلمي بما فيه يصير من الخبال
فقال المهدي: لقد أفلت من بلاء عظيم، قال: والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت
شهرًا أتوقع صاحبها أن يردها، ثم أنشده:

فأبدلني بها يا رب طرفاً يكون جمال مركبه جمالي
فقال لصاحب دوابه: خيره من الإصطبل بين مركبين، قال: يا أمير المؤمنين
إن كان الاختيار لي وقعت في شر من البغلة، ولكن مره أن يختار لي، فاختار له.
خاصم رجل أبا دلامة في داره فارتفعاً إلى عافية القاضي، فأنشأ أبو دلامة يقول:
لقد خاصمتني دهاة الرجال وخاصمتها سنة وافية
فما أدحض الله لي حجة ولا خيب الله لي قافية

ومن خفت من جوره في القضاء فلست أخافك يا عافيه
فقال له عافية: والله لأشكونك إلى أمير المؤمنين، ولأعلمنه أنك هجوتني،
قال: إذن يعزلك، قال: ولمه؟ قال: لأنك لا تعرف المديح من الهجاء، فبلغ ذلك
المنصور فضحك وأمر لأبي دلامة بجائزة.

دخل أبو دلامة على المهدي وعنده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى
والعباس ابن محمد ومحمد بن محمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بني هاشم
فقال له: أنا أعطي الله عهدًا لئن لم تهج واحدًا ممن في البيت لأقطعن لسانك،
فنظر إليه القوم، فكلما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن عليه رضاه، قال أبو
دلامة: فعلمت أي قد وقعت وأنها عزمة من عزماته لا بد منها؛ فلم أر أحدًا
أحق بالجهاء مني، ولا أدعى إلى السلامة من هجاء نفسي؛ فقلت:

ألا أبلغ لديك أبا دلامه فليس من الكرام ولا كرامه
إذا لبس العمامة كان قردًا وخنزيرًا إذا نزع العمامه
جمعت دمامة وجمعت لؤمًا كذاك اللؤم تتبعه الدمامه
فإن تك قد أصبت نعيم دنيا فلا تفرح فقد دنت القيامة
فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازه.

خرج المهدي وعلي بن سليمان إلى الصيد، فسنح لهما قطع من الطباء،
فأرسلت الكلاب وأجريت الخيل، فرمى المهدي ظبيًا بسهم فصرعه، ورمى
علي بن سليمان، فأصاب بعض الكلاب فقتله، فقال أبو دلامة:

قد رمى المهدي ظبيًا شك بالسهم فؤاده
وعلي بن سليمان رمى كلبًا فصاده
فهنيئًا لهما كل امرئ يأكل زاده

فضحك المهدي حتى كاد يسقط عن سرجه وقال: صدق والله أبو دلامة؛
وأمر له بجائزة سنية، فلقب علي بن سليمان صائد الكلب، وعلق به.
أنشد أبو دلامة المنصور يوماً:

هاتيك والدتي عجوز همة ^(٦٨)	مثل البلية درعها في المشجب ^(٦٩)
مهزولة اللحين من يرها يقل	أبصرت غولاً أو خيال القطرب ^(٧٠)
ما إن تركت لها ولا لابن لها	مألاً يؤمل غير بكر أجرب
ودجائجاً خمساً يرحن إليهم	لما يبضن وغير عنز مغرب ^(٧١)
كتبوا إلي صحيفة مطبوعة	جعلوا عليها طينة كالعقرب
فعلمت أن الشر عند فكاكها	ففككتها عن مثل ريح الجورب
وإذا شبيه بالأفاعي رقشت	يوعدنني بتلمظ وتثؤب
يشكون أن الجوع أهلك بعضهم	لزبا فهل لك في عيال لزب
لا يسألونك غير طل سحابة	تغشاهم من سيلك المتحلب
يا باذل الخيرات يابن بذولها	وابن الكرام وكل قرم منجب
أنتم بنو العباس يعلم أنكم	قدمًا فوارس كل يوم أشهب
أحلاس ^(٧٢) خيل الله وهي مغيرة	يخرجن من خلل الغبار الأكهب

فأمر له بدار يسكنها وكسوة ودراهم، وكانت الدار قريبة من قصره، فأمر
أن تزداد في قصره بعد ذلك لحاجة دعته إليها، فدخل عليه أبو دلامة فأنشده
قوله:

يا بن عم النبي دعوة شيخ	قد دنا هدم داره ودماره
فهو كالماخض التي اعتادها الطل	فق فقت وما يقر قراره
إن تحز عسرة بكفيك يوماً	فبكفيك عسره ويساره

أو تدعه فللبوار وأنى ولماذا وأنت حي بواره
هل يخاف الهلاك شاعرقوم قدمت في مديحهم أشعاره
لكم الأرض كلها فأعيروا شيخكم ما احتوى عليه جداره
فكأن قد مضى وخلف فيكم ما أعرتم وأقفرت منه داره
فاستعبر المنصور وأمر بتعويضه داراً خيراً منها ووصله.

دخل على المهدي يوماً وعنده محرز ومقاتل ابنا ذوال يعاتبانه على تقريبه أبا
دلامة ويعيانه عنده فقال:

ألا أيها المهدي هل أنت مخبري وإن أنت لم تفعل فهل أنت سائلي
ألم ترحم اللحين من لحيتهما وكلتاها في طولها غير طائل
وإن أنت تفعل فهل أنت مكرمي بحلقهما من محرز ومقاتل
فإن يأذن المهدي لي فيهما أقل مقالاً كوقع السيف بين المقاتل
وإلا تدعني والهموم تنوبني وقلبي من العلجين جم البلابل
فقال: أو آخذ لك منها عشرة آلاف درهم يفديان بها أعراضها منك، قال:
ذلك إلى أمير المؤمنين، فأخذها له منها وأمسك عنهما.

دخل على أم عبيدة حاضنة موسى وهارون، فدفع إليها رقعة قد كتبها إلى
الخيزران فيها:

أبلغني سيدتي بالـ هـ يا أم عبيده
أنها أرشدها الـ هـ وإن كانت رشيدة
وعدتني قبل أن تحـ رـ رج للحج وليده
فتأنيت وأرسلـ تـ بعشرين قصيده
كلما أخلقن أخلفـ تـ لها أخرى جديده

ليس في بيتي لتمهيد سد فراشي من قعيده
غير عجفاء عجوز ساقها مثل القديده
وجهها أقبح من حوت طري في عصيده
ما حياة مع أنثى مثل عرسي بسعيده
فلما قرئت عليها الأبيات ضحكت واستعادتها منه لقوله: «حوت طري في
عصيدة» وجعلت تضحك ووهبت له جارية.

دخل يوماً على المهدي فحادثه ساعة وهو يضحك وقال له: هل بقي أحد من
أهلي لم يصلك؟ قال: إن أمنتني أخبرتك وإن أعفيتني فهو أحب إلي، قال: بل
تخبرني وأنت آمن، قال: كلهم قد وصلني إلا حاتم بني العباس، قال: ومن
هو؟ قال: عمك العباس بن محمد، فالتفت إلى خادم على رأسه وقال: جأ
عنقه، فلما دنا منه صاح به أبو دلامة: تنح يا عبد السوء لا تحنث مولاك وتنكثه
عهده وأمانه، فضحك المهدي وأمر الخادم فتنحى عنه، ثم قال لأبي دلامة:
ويلك! والله عمي أخبل الناس، فقال أبو دلامة: بل هو أسخى الناس، فقال
له المهدي: والله لو مت ما أعطاك شيئاً، قال: فإن أنا أتيتك فأجازني؟ قال: لك
بكل درهم تأخذه منه ثلاثة دراهم، فانصرف أبو دلامة فحبر للعباس قصيدة،
ثم غدا بها عليه وأنشده:

قف بالديار وأي الدهر لم تقف على المنازل بين الظهر والنصف
وما وقوفك في أطلال منزلة لولا الذي استدرجت من قلبك الكلف
إن كنت أصبحت مشغولاً بساكنها فلا وربك لا تشفيك من شغف
دع ذاو قل في الذي قد فاز من مضر بالمكرمات وعز غير مقترف
هذي رسالة شيخ من بني أسد يهدي السلام إلى العباس في الصحف
تخطها من جوارى المصر كاتبة قد طالما ضربت في اللام والألف

وطالما اختلفت صيفاً وشتاتية
حتى إذا نهى الثديان وامتلاً
صينت ثلاث سنين ما ترى أحداً
فبينما الشيخ يهوي نحو مجلسه
حانت له لمحة منها فأبصرها
فخر والله ما يدري غدا تئذ
وجاءه الناس أفواجاً بمائهم
ووسوسوا بقران في مسامعه
شيئاً ولكنه من حب جارية
قالوا لك الويل ما أبصرت قلت لهم
فقلت أيكم والله يأجره
فقام شيخ بهي من رجالهم
فابتاعها لي بألفي درهم فأتى
فبين ذاك كذا إذ جاء صاحبها
وذكر حق على زند وصاحبه
وبين ذاك شهود لا يضرهم
فإن يكن منك شيء فهو حقهم

إلى معلمها باللوح والكتف^(٧٣)
منها وخيفت على الإسرار والقرف
كما يصون تجار درة الصدف
مبادراً للصلاة الصبح بالسدف^(٧٤)
مطلّة بين سجنها من الغرف
آخر منكشفاً أم غير منكشف
ليغسلوا الرجل المغشي بالنطف
فخافه الجحش والإنسان لم يخف
أمسى وأصبح موقوفاً على التلف
تطلعت من أعالي القصر ذي الشرف
يعين قوته فيها على ضعف
قد طالما خدع الأقوام بالحلف
بها إلي فألقاها على كتفي
يبغي الدراهم بالميزان ذي الكف
والحق في طرف والطين في طرف
أكنت معترفاً أم غير معترف
أو لا فإني مدفوع إلى التلف

فضحك العباس وقال: ويحك! أصادق أنت؟ قال: نعم والله، قال: يا غلام
ادفع إليه ألفي درهم ثمنها، فأخذها ثم دخل على المهدي فأخبره القصة وما
احتال له، فأمر له المهدي بستة آلاف درهم، وقال له المهدي: كيف لا يضرهم
ذلك؟ قال: لأنني معدم لا شيء عندي.

دخل على إسحاق الأزرق يعوده، وكان إسحاق قد مرض مرضاً شديداً
ثم تعافى منه وأفاق، فكان من ذلك ضعيفاً وعند إسحاق طبيب يصف له
أدوية تقوي بدنه، فقال أبو دلامة للطبيب: أتصف هذه الأدوية لرجل أضعفه
المرض؟ ما أردت والله إلا قتله، ثم التفت إلى إسحاق فقال: اسمع أيها الأمير
مني، قال: هات ما عندك يا أبا دلامة، فأنشأ يقول:

نح عنك الطبيب واسمع لنعتي إنني ناصح من الناصح
ذو تجارب قد تقلبت في الصح ة دهرًا وفي السقام المتاح
غاد هذا الكباب كل صباح من متون الفتية السحاح
فإذا ما عطشت فاشرب ثلاثًا من عتيق في الشم كالنفاح
ثم عند المساء فاعكف على ذا وعلى ذا بأعظم الأقداح
فتقوِّ ذا الضعف منك وتلقى عن ليال أصح هذي الصاح

فضحك إسحاق وعواده وأمر لأبي دلامة بخمسمائة درهم، وكان الطبيب
نصرانيًا فقال: أعوذ بالله من شرك يا ركل «يريد يا رجل»، وقال الطبيب: اقبل
مني أصلحك الله ولا تسألني عن شيء قدامه، فقال أبو دلامة: أما وقد أخذت
أجرة صفقتي وقضيت الحق في نصح صديقي فانعت له الآن أنت ما أحببت.
دخل على المهدي وبين يديه سلمة الوصيف واقفاً، فقال: إني أهديت إليك يا
أمير المؤمنين مُهرًا ليس لأحد مثله، فإن رأيت أن تشرفني بقبوله، فأمر بإدخاله
إليه، فخرج وأدخل إليه دابته التي كانت تحته، فإذا برزون محطم أعجف
هرم، فقال له المهدي: أي شيء هذا؟ ألم تزعم أنه مهر؟ قال له: أوليس هذا
سلمة الوصيف بين يديك قائماً، تسميه الوصيف وله ثمانون سنة، وهو عندك
وصيف؟ فإذا كان سلمة وصيفاً فهذا مهر، فجعل سلمة يشتمه والمهدي

يضحك، ثم قال المهدي لسلمة: ويلك! إن لهذه منه أخوات، وإن أتى بها في محفل فضحك، فقال أبو دلامة: والله لأفضحنه يا أمير المؤمنين، فليس من مواليك أحد إلا وقد وصلني غيره، فإني ما شربت له الماء قط، قال: فقد حكمت عليه أن يشتري نفسه منك بألف درهم حتى يتخلص من يدك، قال: قد فعلت على ألا يعاود، فقال له: ما ترى؟ قال: أفعل، فلولا أني ما أخذت منه شيئاً قط ما فعلت معه مثل هذه، فمضى سلمة فحملها إليه.

(٥) أبان بن عبد الحميد اللاحقي^(٧٥)؛

ذكرنا في المجلد الأول أن أبان كان صديقاً للبرامكة متصلًا بهم أشد اتصال، يستشيرونه ويعتمدون عليه في تدبير أمورهم، جدها وهزلها، صعبها وهينها. وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمي، وبالغوا في ذلك حتى جعلوا إليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلوات. فغضب الشعراء لذلك؛ وكان أشدهم غضباً أبو نواس الذي كان يكره البرامكة كرهاً شديداً، وكانت بينه وبين أبان مهاجاة ذكرها صاحب الأغاني.

وكان أبان صديقاً للمعذل بن غيلان، وكانا مع صداقتهما يتعابثان بالهجاء، فيهجوه المعذل بالكفر وينسبه إلى الشؤم. ويهجوه أبان وينسبه إلى الفساد الذي تُهجي به عبد القيس وبالقصر، وكان المعذل قصيراً. فسعى في الإصلاح بينهما أبو عيينة المهلبى، فقال له أخوه عبد الله وهو أسن منه: يا أخي إن في هذين شراً كثيراً ولا بد من أن يخرجاه، فدعهما ليكون شرهما بينهما وإلا فرقاه على الناس.

ومن قوله يهجو أبا النضير:

إذا قامت بوايك وقد هتك أستارك
أيثنين على قبرك أم يلعن أحجارك

وما تترك في الدنيا إذا زرت غداً نارك
ترى في سقر المثوى وإبليس غداً جارك
بلى تترك باكيك ودنياك وأوتارك
وخمساً من بنات اليد ل قد ألبسن أطمارك
تعالى الله ما أقرب ح إذ وليت أدبارك

خرج أبان من البصرة طالباً للاتصال بالبرامكة، وكان الفضل بن يحيى غائباً فقصده، فأقام ببابه مدة مديدة لا يصل إليه، فتوسل إلى من وصل له شعراً إليه؛ وقال له:

يا عزيز الندى ويا جوهر الجوهر هر من آل هاشم بالبطاح
إن ظني، وليس يحلف ظني بك في حاجتي سبيل النجاح
إن من دونها لمصمت باب أنت من دون قفله مفتاحي
تاقت النفس يا خليل السباح نحو بحر الندى مجاري الرياح
ثم فكرت كيف لي واستخرت لله عند الإساء والإصباح
وامتدحت الأمير أصلحه لله بشعر مشهر الأوضح

فقال: هات مديحك؛ فأعطاه شعراً في هذا الوزن وقافيته، ترى فيه أن الرجل معجب بنفسه، مدل بعلمه وأدبه، تياه لا حد لتيهه وغروره:

أنا من بغية الأمير وكنز من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أديب ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريد شة مما يكون عند الجناح

وهي طويلة ذكرناها في المجلد الأول.

وكان أبان شديد الحرص على المال يضحى في سبيله بأشياء كثيرة، منها

العقيدة والرأي. وكان يحسد مروان بن أبي حفصة لمكانه من الرشيد ولظفره بالصلوات الضخمة والجوائز السنية؛ فقد انتهى الأمر ببني العباس مع مروان ابن أبي حفصة إلى أن كانوا يمنحونه بالبيت ألف درهم، فغاظ ذلك أبان وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان، فعاتب أبان البرامكة على تركهم إيصاله للرشيد وإيصال مديحه إليه؛ فقالوا له: ما تريد من ذلك؟ فقال: أريد أن أحظى منه بمثل ما يحظى به مروان بن أبي حفصة، فقالوا: إن لذلك مذهبًا في هجاء آل أبي طالب وذمهم، به يحظى وعليه يعطى، فاسلكه حتى تفعل؛ قال: لا أستحل ذلك؛ قالوا: فما تصنع، لا يجيء طلب الدنيا إلا بما لا يحل! فقال أبان:

نشدت بحق الله من كان مسلماً	أعم بما قد قتلته العجم والعرب
أعم رسول الله أقرب زلفة	لديه أم ابن العم في رتبة النسب
وأيهما أولى به وبعهده	ومن ذاله حق التراث بما وجب
فإن كان عباس أحق بترككم	وكان علي بعد ذاك على سبب
فأبناء عباس هم يرثونه	كما العم لابن العم في الإرث قد حجب

وهي طويلة.

فقال الفضل: ما يرد على أمير المؤمنين اليوم شيء أعجب من أبياتك. فركب فأنشدها الرشيد، فأمر لأبان بعشرين ألف درهم. ثم اتصل مدحه للرشيد بعد ذلك وخص به.

وكان أبان هجاء قبيح اللسان، وكان مع هذا شريراً قاسياً يؤثر الشر ويجد فيه لذة. وقد روى له أبو الفرج قصة تمثل نصيبه من القسوة وحب الشر، كما أنها تعطينا صورة من شعره ومن الحياة في عصره. قالوا: كان يقيم بالقرب

من أبان رجل ثقفي يقال له: محمد بن خالد، وكان عدواً لأبان، فتزوج محمد هذا ثقفية معروفة هي عمارة بنت عبد الوهاب، وكانت عمارة غنية موفورة الثروة، فاغتاز أبان لهذا الزواج، وقال هذه القصيدة التي بلغت عمارة فأفسدت زواجها:

لما رأيت البز والشاره	والفرش قد ضاقت به الحاره
واللوز والسكر يرمي به	من فوق ذي الدار وذو الداره
وأحضروا الملهين لم يتركوا	طبلاً ولا صاحب زماره
قلت: لماذا قيل: أعجوبة	محمد زُوجَ عماره
ماذا رأيت فيه وماذا رجت	وهي من النسوان مختاره
أسود كالسفود ينسى لدى التند	سوربل محراك قياره ^(٧٦)
يجري على أولاده خمسة	أرغفة كالريش طيارة
وأهله في الأرض من خوفه	إن أفرطوا في الأكل سياره
ويحك فري واعصبي ذا به	فهذه أختك فراره
إذا غفا بالليل فاستيقظي	ثم اطفري ^(٧٧) إنك طفاره
فصعدت نائلة سلماً	تخاف أن تصعده الفاره
«سرور» غرتها فلا أفلحت	فإنها اللخناء غراره
لو نلت ما أبعدت من ريقها	إن لها نفثة سحاره

فلما بلغت هذه القصيدة عمارة هربت، فحرم من جهتها مالا عظيماً. والثلاثة الأبيات الأخيرة التي أولها:

فصعدت نائلة سلماً

زادها في القصيدة بعد أن هربت.

جلس أبان ليلة في قوم فثلب أبا عبيدة فقال: يقدح في الأنساب ولا نسب له. فبلغ ذلك أبا عبيدة فقال في مجلسه: لقد أغفل السلطان كل شيء حين أغفل أخذ الجزية من أبان اللاحقي، وهو وأهله يهود، وهذه منازلهم فيها أسفار التوراة وليس فيها مصحف، وأوضح الدلالة على يهوديتهم أن أكثرهم يدعي حفظ التوراة ولا يحفظ من القرآن ما يصلي به. فبلغ ذلك أبان فقال:

لا تمنن عن صديق حديثاً واستعد من تسرر المنام
واخفض الصوت إن نطقت بلبيل والتفت بالنهار قبل الكلام
قال عيسى بن إسماعيل: كنا في مجلس أبي زيد الأنصاري فذكروا أبان بن عبد الحميد، فقالوا: كان كافراً؛ فغضب أبو زيد وقال: كان جاري فما فقدت قراءته في ليلة قط.

وكان أبان يفوق الشعراء في شيء نحسب أنه هو الذي سبق إليه، فقد ابتكر في الأدب العربي فناً لم يتعاطه أحد من قبله، وهو فن الشعر التعليمي، طرق فيه فنوناً مختلفة من العلم والحكمة والدين. وقد تحدث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب «كليلة ودمنة» ليسهل عليهم حفظه، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف واكتفى جعفر بأن يكون راويته. وروى أبو الفرج أبياتاً أربعة من هذا النظم، وقد عثرنا على قطعة من كتاب مخطوط يوجد في دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٩٤) تاريخ، وهو كتاب «الأوراق» للصولي. وفي هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبان لكليلة ودمنة، فرأينا أن نثبتها هنا، لأن المنظومة ضاعت ولم يبق منها إلا الأبيات الأربعة التي رواها أبو الفرج. وها هي ذي:

هذا كتاب كذب ومحنه وهو الذي يدعي كليله دمنه
فيه دلالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند

فوصفوا آداب كل عالم
فالحكماء يعرفون فضله
وهو على ذاك يسير الحفظ
يا نفس لا تشاركي الجهالا
يا نفس لا تشقى ولا تعنى
ما لم ينله أحد إلا ندم
دنياك بالأحباب والإخوان
وهي وإن نيل بها السرور
يا نفس لا يحملك حب أهلك
في جمع ما يرضيهم فإنه
ينال قوم عَرَفَهَا وتحترق
وجدت ذا النسك الذي قد فكرا
وقلَّ لَمَّا رضى اهتمامه
وترك الدنيا لمن يشقى بها
فعندها نجا من الشرور
ثم سخت عن كل فان نفسه
وأبصر الثواب في القيامة
ومثل الدنيا كبرق الخلب
وهو قياسًا مثل نوم النائم
حتى إذا استيقظ صارهما
فكيف بالصبر على أيام

حكاية عن ألسن البهائم
والسخفاء يشتهون هزله
لذَّ على اللسان عند اللفظ
في حب مذموم كأن قد زالا
في طلب الدنيا ولا تمنى
إذا تولى ذاك عنه وسدم^(٧٨)
كثيرة الآلام والأحزان
آفاتها وغمها كثير
ولا أدانيك على أن تهلكي
يضرب من أمثال ذاك الدخنة^(٧٩)
رأى به يرضى أخو الرأي الحمق
فزاده تفكيره توقرا
وتم من سروره تمامه
ومن يقاسي الكد من أنصائها
ونال أقصى غاية السرور
فلقي السعد وغاب نحسه
فأمن الحسرة والندامة
من يغتر منه بسقي يكذب
تفرحه أضغاث حلم الحالم
ما كان في النوم به ألما
عما قليل هن لانصرام

وكيف والدنيا بلاء كلها
أشهد أن الله فرد واحد
ليس له كفؤًا ولا ندًا أحد
وإنني بما عملت مرتهن
من باب الأسد والثور

وإن من كان دني النفس
كمثل الكلب الشقي البائس
وإن أهل الفضل لا يرضيهم
كالأسد الذي يصيد الأرنب
فيرسل الأرنب من أظفاره
والكلب من رقته ترضيه
فمن يعيش ما عاش غير خامل
فهو وإن كان قصير العمر
ومن يعيش في وحشة وضيق
فهو وإن عمر طول دهره
وقيل أيضًا إنه قد ينبغي
ألا يُرى إلا مع الأملاك^(٨١)
كالفيل لا يصلح إلا مركبا
قال له السبع لقد سمعت
لكنني لست أظن ما تظن
قال له دمنة من ثم أتى

يرضى من الأرفع بالأخس
يفرح بالعظم العتيق اليابس
شيء إذا ما كان لا يعنيه
ثم إلى العير^(٨٠) المجد هربا
ويتبع العير على أدباره
بلقمة تقذفها في فيه
له سرور دائم ونائل
أطول عمرًا من حليف فقر
وقلة المعروف في الصديق
ليس بمغبوط بطول عمره
للرجل الفاضل فيما يبتغي
أو يعبد الله مع النساك
لملك أو راعيًا مسيبا
وكل ما تقول قد فهمت
بالثور من غش بلي ظني حسن^(٨٢)
وهذه من حاله هي التي

رفعته حتى تعدى طوره
 وتلك أخلاق اللئيم الفاجر
 ما إن يزال ناصحًا نفاعا
 فعندها يسمو إلى ما فوقها
 وربما كان هلاك الشجر
 وذنوب الطاووس فهو زينه
 وباذل النصح لمن لم يشكره
 لا خير للعاقل في ذي المنظره
 وليس في الصديق ذي الصفاء
 الرجل العاقل من لا تسكره
 فالجبل الثابت في أصوله
 والناقص العقل الذي لا رأي له
 مثل الحشيش أيما ريح جرت
 الأهل والإخوان والأعوان
 والمال هادي الرأي والمروة
 والمال فيه العز والجمال
 وربما دعا الفقير فقره
 فيخسر الدين كما كان خسر
 وليس من شيء يكون مدحا
 على الفقير ويكون ذما
 فإن يكن نجداً يقولوا أهوج^(٨٥)
 وكان هذا لك منه شكره
 الكافر المغرور غير الشاكر
 حتى يرى من حاله ارتفاعا
 إلى التي لا تستطيع أوقها^(٨٣)
 في حسن الغصن وطيب الثمر
 كذاك أحيانا وفيه حينه
 كطارح في سبخ ما يبذره
 إن هو لم يحمده عند المخبره
 خير إذا لم يك ذا وفاء
 كأس سمو واقتدار يبطره^(٨٤)
 لا تقدر الريح على تحويله
 يطغى إذا ما نال أدنى منزله
 مالت به فأقبلت وأدبرت
 عند ذوي الأموال حيث كانوا
 وهو على كل الأمور قوة
 والذل حيث لا يكون المال
 إلى التي يحبط فيها أجره
 دنياه والخسران ما لا ينجبر
 لذي الغنى إلا يكون برحا
 كذاك يدعى وبه يسمى
 كذاك عند الحرب لا يعرج

وهو إذا كان جواداً سيداً سمي للفقر مضيعاً مفسداً
أو يك ذا حلم يقل ضعيف أو يك بساماً يقل سخي
الرجل العاقل فيما يسدي مغتبط بكسبه للحمد
لأنه باع قليلاً فانياً واعتاض من ذاك كثيراً باقيا
فأغبط الناس الكثير نائله ومدرک النجح لديه سائله
فلا تعدن ذا غنى غنياً حتى يكون ماجداً سرياً
واعلم بأن الملك المشاوراً ذا العقل فيما نابہ المؤازراً
فإنه يعضد بالتأييد يغنى به عن كثرة الجنود
والحازم التابع أمر الحزمه النصحاء غير أهل التهمه
يزداد حزمًا بهم ورشداً زيادة البحر إذا ما مدا
بما يصب فيه من أنهاره حتى يهيج الموج من تياره
والموت من مات كريماً صابراً خير من العيش ذليلاً صاغراً
ولم ينقل لنا الصولي في كتابه إلا هذه القطعة. ويعد أبان في هذا ناظماً لكتاب
معروف، ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة إلى تأليف كتب منظومة، فنظم
قصيدة طويلة في الصوم والزكاة، روى منها الصولي طرفاً.
فقل لأبان بعد أن نظم كليله ودمنة: ألا تعمل شعراً في الزهد؟ فعمل قصيدة
مزدوجة في الصيام والزكاة. وترجمتها:

قصيدة الصيام والزكاة نقل أبان من فم الرواة
وها هي ذي القصيدة:

هذا كتاب الصوم وهو جامع لكل ما قامت به الشرائع
من ذلك المنزل في القرآن فضلاً على من كان ذا بيان

ومنه ما جاء عن النبي
صلى الإله وعليه سلماً
وبعضه على اختلاف الناس
والجامع الذي إليه صاروا
قال أبو يوسف أما المفترض
والصوم في كفارة الأيمان
ومعه الحج وفي الظهار^(٨٦)
وخطأ القتل وحلق المحرم
فرمضان شهره معروف
والصوم في الظهار إن لم يقدر
والقتل إن لم يك عمداً قتله
شهران في العدة كاملان
والحنث في رواية مقبولة
ومثلها في عدة الأيام
ثلاثة يصومها إن حلها
والصوم في المتعة إن لم يجد
صيام أيام مؤقتات
وبعد ما يرجع صوم سبعة
أما الثلاثة التي في الحج
أو غيره ممن يرى أن يرويه
ويومها وصوم يوم عرفه

من عهده المتبع المرضي
كما هدى الله به وعلمها
من أثر ماض ومن قياس
رأي أبي يوسف مما اختاروا
فرمضان صومه إذا عرض
من حيث ما يجري على اللسان
الصوم لا يدفع بالإنكار
لرأسه فيه الصيام فافهم
وصومه مفترض موصوف^(٨٧)
مظاهريوماً على محرر
فإن ذاك في الصيام مثله
متصلان لا مفرقان
ثلاثة أيامها موصولة
للمحرم الخالق في الإحرام
لا بأس إن تابعها أو فرقا
هدياً وكان بالصيام يفتدي
ثلاثة في الحج مفروضات
عشرة كاملة في المتعة
فكان من أدركت من محتج
يقول يوماً قبل يوم الترويه
مؤتلفات الصوم لا مختلفة

قالوا وإن أحب أن يفرقا فذاك ما ليس عليه ضيقاً
إن كان ذاك الصوم منه بعدما يكون في عمرته قد أحرمنا
ولو أراد الصوم في شوال من بعد أن يوجب بالهلال
عمرته لكان ذاك مجزياً بذاك يفتى من أتى مستفتياً
وهي طويلة جداً

ونحسب أن مكانه من البرامكة هو الذي حمّله على اختراع هذا الفن؛ فقد
كان مكانه منهم مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم، وكان من الحق عليه أن
يسهل لهم العلم تسهلاً. وليس من شك في أن هذه الأموال التي أصابها من
البرامكة حينما نظم كليلة ودمنة قد أطعمته، فنظم القصائد الأخرى ليصيب
مثل ما أصاب.

أخبار حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان ومختار من شعره
قال أبو بكر الصولي: حدثني محمد بن زياد قال: كانت في عبد الصمد بن
المعذل عربة إذا سكر، فعربد يوماً في مجلس فيه حمدان بن أبان بن عبد الحميد
بن أبان، وكان أَيْدًا^(٨٨)، فقال لهم: كلوه إليّ وحدي، وأخذه وكتفه وجعله في
بيت وأغلق بابه، وقال: إذا أصبحتم فأطلقوه، وانصرف؛ فبلغه أن عبد الصمد
حلف ليهجونه سنة، فقال: حمدان يهجو:

قل لعبد الصمد الأحـ	مق لا تغضب عليّـه
وعلى أمك فاغضب	واكوها في الهن كيّـه
أمك العفلاء جاءتـ	نبي بسلمى ورقيه
وهي ساقط ليلة فا	طمة أخرى إليه
فضينا فيهم الحفـ	قّ وقلبنا السويه

وقد ذكر الصولي في كتابه الأوراق ما اختاره من قصيدة حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان في وصف الحب وأهله وهي طويلة، قال:

ما بال أهل الأدب	منا وأهل الكتب
قد وضعوا الآدابا	وأتعبوا الكتابا
لكل فن دفر	منقط محبر
ففرقت أجناسا	وعلموها الناسا
بالحيل الرقيقه	والفطن الدقيقه
فأرشدوا الضلالا	وعلموا الجهالا
سوى المحبين فلم ^(٨٩)	يرعوا لهم حق الذمم
في علم ما قد جهلوا	ومابه قد ابتلوا
قد غلقت رهونهم	واستعبرت عيونهم
وحالفوا السهادا	وخالفوا الرقادا
فليلهم طويل	ونومهم قليل
أبدانهم نحيله	متعبة عليله
نفوسهم حزينه	مشغوفة رزينه
ظاهرة غمومهم	باطنة كلومهم
باكية عيونهم	قريحة جفونهم
إن ظلموا لم يظلموا	وإن شكوا لم يرحموا
أحبابهم في لعب	وفي دوام الطرب
صافية ألوانهم	ضاحكة أسنانهم
قد سكنوا القصورا	وقارنوا السرورا

وللنوى والغدر	تفرغوا للهجر
بالله ما أقساهم	بعاشق يهواهم
إقرارهم جحود	وعندهم وعيد
أهل الضنا والرق	بؤسى لأهل العشق
ولا وجوه حيله	ليس لهم وسيله
وفي هواهم وحلوا	رأيت لما خذلوا
الجاهل المضللا	أن أرشد المغفلا
عند البلاء الفداح	إلى الطريق الواضح
للوصف بابا بابا ^(٩٠)	وأبتدي كتابا
وصيتي واستمعوا	يا أيها الناس فعوا
وفي كتابي أدب	ففي صفاتي عجب
ألفاظها منظمه	قصيدي مقومه
ومنية المشتاق	فيها هوى العشاق
ولم أمل عن حق	وصفت أهل العشق
يا من يبيت عاشقا	فاسمع مقالا صادقا
هماهما اللتان	للحب خلطان
يومًا إذا ما اجتمعا	الصبر والرفق معا
مباعد مغرور	في عاشق مهجور
وبلغاه الوطرا	قضى قريبًا وطرا
والملك والسلطان	ما الحسن والإحسان
وكسره للطرف	يعدل وصل الإلف

ما حسن في العين أحسن من إلفين
 يومًا إذا ما التقيا في مجلس فاشتفيا
 مداومين للنظر قد أمانا كل حذر
 يبادران الخلوه ويظهرا الصبوه
 مساعدين اتفقا باتا ولم يفترقا
 هواهما مخزون سرهما مدفون
 مداريين أصبحا للناس لم يفتضحا
 من جرب الحب عرف ما بين ملك وأسف
 لن يبلغ الصب المنى إلا بصبر وعنا
 إن الهوى ضروب وأمره عجيب
 وأهله أطوار فيه لهم أوطار
 للعاقل الشريف والأحق السخيف
 فمنهم مرزوق محبب معشوق
 على اضطراب الخلق منه وسوء الخلق
 تقضي له الأوطار وتعمل الأشعار
 مقرب ما يقصى مطاوع ما يعصى
 ومنهم محروم محارف^(٩١) مشئوم
 على جمال هيئته وحسنه وبهجته
 ومنهم من يبتدا ينال عيشًا رغدا
 من غير سعي وطلب وغير كد ونصب
 فمد ذاك الأسعد والبخت منه أجود

إذ فاز بالذات
ومنهم من يتعب
أسقمه طول الهوى
فذاك صب قد شقي
ومنهم البصير
يحتمل الهجرانا
فلا يزال مبتلى
ومنهم العميد
يحب بالتضجر
يلقى الحبيب باهتًا
ومنهم من يهوى
فيزرع الغموما
فذاك حب الغيب
من دونه حجاب
فما لذاك لبث
حتى يرى مقهورا
ومنهم جبار
يزهي إذا ما عشقا
يلتزم اللجاجة
فذاك حب الفوت
ومنهم من للنظر

ودرك الحاجات
في حبه ويدأب
وشفه وجد الجوى
بؤسى له ماذا لقي
العاقل النحرير
ويحمل الأحزاننا
حتى ينال أملا
الجاهل البليد
والجهل والتكبر
فلا يزال ساكتا
بالغيب يأتي عفوا
مستجلبًا هموما
ليس به من عيب
ودوننه أبواب
وليس منه مكث
في حبه محسورا
في حبه ازورار
ورهنه قد غلقا
فليس يبدي الحاجة
وفيه كرب الموت
يهوى ولم يعد البصر

إذا رأى خليله
يكتم ما يقاسي
ومنهم من اقتصر
غايته السلام
مدافع عن حبه
ينفي الهوى وينكره
فذاك حب العاقل
وبعضهم لا يقنعه
قد طلب الحراما
فذاك حب النهم
حق له الحرمان
وبعضهم مذاق
مستعمل للكذب
فذاك حب الزور
وبعضهم عميد
خلوة من هواه
لحظته مسارقه
مكاتم لحبه
فذاك حب يكمد
ومنهم من يهتف
إذا الحبيب صدا

داوى به غليله
من أعين الجلاس
على الحديث والنظر
واللحظ والكلام
يكتم وجد قلبه
وبالتبري يستره
حب أديب كامل
إلا عمود يودعه
والتمس الأثاما
الماجن المغتلم
والمنع والخذلان
معانت ملاق
محرف في الكتب
يلسع كالزنبور
غاية ما يريد
في مشهد يلقاه
مبيته معانقه
في بعده وقربه
نيرانه لا تخمد
بالحب حين يشغف
ولم ينله ودا

تاه عليه وحزق^(٩٢) وصدد عنه وحمق
وقال في آخرها:

قد تم مني وصف	ولم يخني الرصف
وانقضت القصيده	محبوبة حميده
والحمد للرحمن	ذي العز والسلطان
واللذم للشيطان	ذي العرم ^(٩٣) والطغيان

(٦) منصور النمرى^(٩٤):

كان ذا حيلة سياسية، فأدرك أن الرشيد يسره أن يمدح بنفي الإمامة عن علي والطعن عليه، لما كان يراه من تقديم مروان بن أبي حفصة بسبب ذلك، فسلك مذهبه ونحا نحوه - والشعراء يومئذ إنما يطلبون الكسب - لكنه لم يصرح بالهجاء والسب كما فعل مروان؛ ومن قوله فيه قصيدة مطلعها:

أمير المؤمنين إليك خضنا غمار الهول من بلد شطير
بخصوص كالأهله خافقات تلين على السرى وعلى الهجير
حملن إليك أحمالاً ثقالاً ومثل الصخرة الدر النثير
فقد وقف المديح بمتناه وغايته وصار إلى المصير
إلى من لا تشير إلى رسول إذا ذكر الندى كف المشير

وذكر في القصيدة يحيى بن عبد الله بن حسن فقال:

يذل من رقاب بني علي ومن ليس بالمن الصغير
منتت على ابن عبد الله يحيى وكان من الختوف على شفير
ولقد تخلص إلى شيء ليس عليه فيه شيء وهو قوله:

وإن شكروا فقد أنعمت فيهم
وإن قالوا بنو بنت فحق
وما لبني بنات من تراث
ومنها:

بني حسن ورهط بني حسين
فقد ذقتم قراع بني أبيكم
أحين شفوكم من كل وتر
وجادوكم على ظمأ شديد
فما كان العقوق لهم جزاء
وإنك حين تبلغهم أذاة
فقال له: صدقت وإلا فعلي وعلي، وأمر له بثلاثين ألف درهم.
وأنشد الرشيد يوماً قصيدته التي أولها:

ما تنقضي حسرة مني ولا جزع
بان الشباب وفاتتني بلذته
ما كنت أوفي شبابي كنه غرته
فقال الرشيد: أحسن! والله لا يتهنى أحد بعيش حتى يخطر في رداء الشباب.
ومن قوله فيها يمدح الرشيد:

أي امرئ بات من هارون في سخط
إن المكارم والمعروف أودية
إذا رفعت امرءاً فالله يرفعه
نفس فداؤك والأبطال معلمة
فليس بالصلوات الخمس ينتفع
أحلك الله منها حث تجتمع^(٩٥)
ومن وضعت من الأقوام متضع
يوم الوغى والمنايا صابها فزع

ومن قوله يمدح الرشيد:

يا منزل الحي ذا المغاني إنعم صباحاً على بلاكا
هارون يا خير من يرجى لم يطع الله من عصاكا
في خير دين وخير دنيا من اتقى الله واتقاكا
وناهيك بقصيدته التي رفعت السيف عن ربيعة بنصيبين بعد أن جرده فيها
الرشيد وهي التي يقول فيها:

وقد علم العدوان والجور والخنأ بأنك عياف هن مزايل
ولو عملوا فينا بأمرك لم يكن ينال برياً بالأذى متناول
لنا منك أرحام ونعتد طاعة وبأساً إذا اصطك القنا والقنابل^(٩٦)
وما يحفظ الإحسان مثلك حافظ ولا يصل الأرحام مثلك واصل
جعلناك فامنعنا معاذاً ومفزغاً لنا حين عضتنا الخطوب الحلائل
لأنت إذا عاذت بوجهك عوذ تطامن خوف واستقرت بلايل
اجتمع جماعة من الشعراء ببغداد وفيهم منصور النمري، وكانوا على نبذ،
فأبى منصور أن يشرب معهم، فقالوا له: إنما تعاف الشراب لأنك رافضي،
وتسمع وتصغي إلى الغناء، وليس تركك النبذ من ورع، فقال:

خلا بين ندماني موضع مجلسي ولم يبق عندي للوصال نصيب
ورُدْتُ على الساقى تفيض وربما رددْتُ عليه الكأس وهو سليب
وأي امرئ لا يستهش إذا جرت عليه بنان كفهن خضيب
قال النمري: كنت واقفاً على جسر بغداد أنا وعبيد الله بن هشام، وقد وخطني
الشيب يومئذ، وعبد الله شاب حديث السن، فإذا أنا بقصرية ظريفة قد وقفت،
فجعلت أنظر إليها وهي تنظر إلى عبيد الله ثم انصرفت، وقلت فيها:

لما رأيتِ سوام الشيب منتشراً في لمتي وعبيد الله لم يشب
سللت سهمين من عينيك فانتضلا على سبية ذي الأذيال والطرب
كذا الغواني نرى منهن قاصدة إلى الفروع معرة عن الخشب
لأنت أصبحت تعقد بيننا أرباً^(٩٧) ولا وعيشك ما أصبحت من أربي
إحدى وخمسين قد أنضيت جدتها تحول بيني وبين اللهو واللعب
لا تحسبني وإن أغضيت عن بصري غفلت عنك ولا عن شأنك العجب
غضب الرشيد على منصور النمري لما أنشد قصيدته في مدح العلويين وأولها:
شاء من الناس راتع هامل يعللون النفوس بالباطل
وفيهما يقول:

ألا مساعير^(٩٨) يغضبون لها بسلة البيض والقنا الذابل
فغضب من ذلك غضباً شديداً وقال للفضل بن الربيع: أحضره الساعة،
فبعث الفضل في ذلك، فوجده قد توفي، فأمر بنبشه ليحرقه، فلم يزل الفضل
يلطف له حتى كف عنه.

وإليك قصيدته في مدح العلويين نقلاً عن الشعر والشعراء لابن قتيبة، لأن
صاحب الأغاني أغفلها ولم يذكر منها إلا البيتين السابقين:

شاء من الناس راتع هامل يعللون النفوس بالباطل
تقتل ذرية النبي وير جون جنان الخلود للقاتل
ويلك يا قاتل الحسين لقد نؤت بحمل ينوء بالحامل
أي حباء حبوت أحمد في حفرته من حرارة الشاكل
بأي وجه تلقى النبي وقد دخلت في قتله مع الداخل
هلم فاطلب غداً شفاعته أو لا فرد حوضه مع الناهل

ما الشك عندي في حال قاتله
نفسي فداء الحسين حين غدا
ذلك يوم أنحى بشفرته
حتى متى أنت تعجبين ألا
لا يعجل الله إن عجلت وما
وعاذلي أنني أحب بني
قد ذقت ما دينكم عليه فما
دينكم جفوة النبي وما الـ
مظلومة والنبي والدها
ألا مصاليت يغضبون لها
وقال أيضاً:

آل النبي ومن يحبهم
أمنوا النصارى واليهود وهم
يتطامنون مخافة القتل
من أمة التوحيد في أزل^(٩٩)
وأنشد الرشيد هذا بعد موته فقال: لقد هممت أن أنبشه ثم أحرقه.
ومن جيد شعره قوله في الرشيد:

يا زائرينا من الخيام
يحزنني أن أطفئنا بي
لم تطرقاني وبى حراك
هيهات للهو والتصابي
أقصر جهلي وثاب حلمي
عمر أبيها لقد تولت
حيا كما الله بالسلام
ولم تنالا سوى الكلام
إلى حلال ولا حرام
وللغواني وللمدام
ونهنه الشيب من عرامي^(١٠٠)
سألة الخد من عذامي^(١٠١)

لله حبي وترب حبي ليلة أعياهما مرامي
 أَذْنَتَانِي بطول هجر وَغَرَّتَانِي مع السوام
 وانطوتَا لي على ملام والشيب شر من الملام
 بورك هارون من إمام بطاعة الله ذي اعتصام
 له إلى ذي الجلال قربي ليست لعدل ولا إمام
 يسعى على أمة تمنى أن لو تقيه من الحام
 لو استطاعت لقاسمته أعمارها قسمة السهام
 يا خير ماض وخير باق بعد النبيين في الأنام
 ما استودع الدين من إمام حامى عليه كما تحامي
 يؤنس من رأيه برأي أصدق من سلة الحسام
 وقال:

أعمير كيف لحاجة طلبت إلى صم الصخور
 لله در عداتكم كيف انتسبن إلى الغرور
 إن الليالي ضمنني ووسمنني سمة الكبير
 أطفأ نور شبيتي وفرشنني كنف الغيور
 ولقد تبيت أناملي يجنين رمان النحور

(٧) السيد الحميري^(١٠٢):

«لم^(١٠٣) يكن السيد الحميري من أنصار الحسن والحسين، أو بعبارة أصح
 لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين؛ وإنما كان من الكيسانية الذين كانوا
 ينصرون الابن الثالث من أبناء علي: محمد بن خولة الحنفية؛ والذين كانوا
 يدينون بأنه لم يمت وإنما تغيب عن الناس واحتجب عنهم حيناً وسيعود فيملاً»

الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، فلم يكن على السيد الحميري بأس أن يمدح بني العباس ويتقرب منهم ما دام صاحبه محمد بن الحنفية لم يعد من غيبته بعد. ثم نستطيع أن نميز هذا الشاعر بخصلة لم نرها في شاعر من الذين تحدثنا عنهم، وهي أنه كان سخيلاً ضعيف العقل شديد الإيمان بالخرافات والأوهام، ويظهر أن هذه الخصلة جاءت من مذهبه نفسه في الرجعة، فقد أسرف في هذا المذهب كما أسرف في مدح العلويين والإيمان بهم حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يقبل وما لا يقبل؛ فكان كل خير يمكن أن ينسب إلى العلويين، رضيه العقل أم لم يرضه، وكان كل شر يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين، رضيه العقل أم لم يرضه، وكان يكفي أن يسمع رجلاً من أهل القصص ورواة الأساطير يروي كرامة من الكرامات يضيفها إلى أحد العلويين حتى ينظم فيها قصيدة طويلة، جيدة، ويتخذ هذه القصيدة وسيلة إلى ذم السلف والنعي عليه.

وخصلة أخرى تقربه من الزنادقة الذين عاصروه ولكنها تجعل الصلة بينه وبينهم ضعيفة واهية في الوقت نفسه.

وهي أنه كان يستبيح ضرراً من اللهو والمنكر، ويسرف في شرب الخمر وغير ذلك من ألوان العبث، لا لأنه كان يحسد الدين أو يزدريه بل لأنه كان يدل على صاحب الدين؛ كان يحب النبي ﷺ وآله ويمنحهم مودته ونصره، ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك وسيشفعون له في ذنوبه وآثامه لما قدم بين يديه من مدح العلويين ونصرهم على خصومهم؛ وكان بنو هاشم وبنو علي خاصة يطمعون في ذلك ويتعرفون له به، فإذا ذكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر قالوا: وأي ذنب يعظم على الله أن يغفره لرجل من أنصار أهل البيت! بل قال أحدهم: إن من أحب آل علي لم تزل له قدم إلا ثبتت له أخرى؛ وعلى هذا كان السيد الحميري يلهو آمناً في دينه، يعتمد في دينه على العلويين، ويعتمد في دنياه

على العباسيين، يقدر أن العلويين سيشفعون له عند الله، ويعلم أن العباسيين يتقون شره ويؤثرون مدحه على هجائه؛ وكان من معاصريه من يكره ذلك ويمقتة كل المقت، ويضمر للسيد عداً وحقداً لا يعدلها عداً ولا حقداً؛ ومن هؤلاء سوار بن عبد الله العنبري قاضي البصرة للمنصور، فقد كان العداً بينه وبين السيد شديداً، وكان قد أجمع ألا يقبل للسيد شهادة، وكان قد سعى بالسيد عند المنصور غير مرة؛ وكان السيد قد هجاه فأسرف في هجائه، فشكا ذلك إلى المنصور فنهاه المنصور عنه وأمره أن يذهب إلى القاضي فيعتذر إليه، وأبى القاضي أن يقبل معذرتة، فاستأنف السيد الهجاء وألح فيه. ويقال إن سواراً أعد شهوداً يشهدون على السيد بالسرقة ليقطع يده، فعلم السيد ذلك فجزع وفزع إلى المنصور، فعزل المنصور سواراً من القضاء للسيد أو عليه، ولم يلبث سوار أن مات فتبعه السيد بعدائه وبغضه وهجائه.

قال أبو جعفر الأعرج: كان السيد أسمر تام القامة، أشنب ذا وفرة، حسن الألفاظ جميل الخطاب، إذا تحدث في مجلس قوم أعطى كل رجل في المجلس نصيبه من حديثه.

وقال الفرزدق: إن ههنا لرجلين لو أحذا في معنى البأس لما كنا معهما في شيء: السيد الحميري وعمران بن حطان السدوسي، ولكن الله عز وجل قد شغل كل واحد منهما بالقول في مذهبه؛ وقال الأصمعي لما أنشد شيئاً من شعره: ما أسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه، ولولا ما في شعره ما قدمت عليه أحداً من طبقة؛ وكان أبو عبيدة يقول: أشعر المحدثين السيد الحميري وبشار. وكان السيد يذهب مذهب الكيسانية ويقول بإمامة محمد بن الحنفية، وله في ذلك شعر كثير.

وقف السيد على بشار وهو ينشد الشعر، فأقبل عليه وقال:

أيها المادح العباد ليعطى إن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم وارج نفع المنزل العواد
لا تقل في الجواد ما ليس فيه وتسمي البخيل باسم الجواد
قال بشار: من هذا؟ فعرفه، فقال: لولا أن هذا الرجل قد شغل عنا بمدح بني
هاشم لشغلنا، ولو شاركنا في مذهبنا لتعبنا.
ومن قول السيد:

أتعرف رسماً بالثوين قد دثر عفته أهاضيب السحاب والمطر
وجرت به الأذيال ريحان حلقة صبا ودبور بالعشيات وال بكر
منازل قد كانت تكون بجوها هضم الحشى ربا الشوى سحرها النظر
قطوف الخطا خمصانة بخترية كأن محياها سنا دارة القمر
رمتني يبعد بعد قرب بها النوى فبانت ولما أقض من عبدة الوطر
ولما رأتنى خشية البين موجعا أكفكف منى أدمعا يبيضها درر
أشارت بأطراف إلي ودمعها كنظم جمان خانه السلك فانتثر
وقد كنت مما أحدث البين حاذرا فلم يغن عني منه خوفا والحذر
لما استقام الأمر لبني العباس قام السيد إلى أبي العباس السفاح حين نزل عن
المنبر فقال:

دونكموها يا بني هاشم فجددوا من عهدا الدارسا
دونكموها لا علا كعب من كان عليكم ملكها نافسا
دونكموها فالبسوا تاجها لا تعدموا منكم له لابسا
لو خير المنبر فرسانه ما اختار إلا منكم فارسا
قد ساسها قبلكم ساسة لم يتركوا رطباً ولا يابسا

ولست من أن تملكوها إلى مهبط عيسى فيكم آيسا
وبعث بهذه الأبيات إلى المهدي يسأله ألا يعطي آل بكر وعمر من مال الدولة:

قل لابن عباس سمي محمد	لا تعطين بين عدي درهما
احرم بني تيم بن مرة إنهم	شر البرية آخرًا ومقدما
إن تعطهم لن يشكروا لك نعمة	ويكافئوك بأن تذم وتشتما
وإن ائتمتهم أو استعملتهم	خانوك واتخذوا خراجك مغنا
ولئن منعهم لقد بدءوكم	بالمنع إذ ملكوا وكانوا أظلمًا
منعوا تراث محمد أعمامه	وبنيه وابنته عديلة مريما
وتأمرؤا من غير أن يستخلفوا	وكفى بما فعلوا هنالك مآثما
لم يشكروا لمحمد إنعامه	أفيشكرون لغيره إن أنعما
والله من عليهمو بمحمد	وهداهم وكسا الجنوب وأطعما
ثم انبروا لوصيه ووليه	بالمنكرات فجرعوه العلقما

أنشد السيد جعفر بن محمد هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين:

أمرر على جدث الحسيد	ن فقل لأعظمه الزكيه
أأعظمًا لا زلت من	وطفاء ساكبة رويه
وإذا مررت بقبره	فأطل به وقف المطيه
وابك المطهر للمط	هر والمطهرة النقيه
كبكاء معولة أنت	يومًا لواحدھا المنيه

فانحدرت دموع جعفر على خديه وارتفع الصراخ والبكاء من داره حتى
أمره بالإمساك فأمسك.

ومن قول السيد في إمامة ابن الحنفية:

ألا يا أيها الجدل المعني
أتبصر ما تقول وأنت كهل
ألا إن الأئمة من قريش
علي والثلاثة من بنيهِ^(١٠٤)
فأنى في وصيته إليهم
بهم أوصاهم ودعا إليه
فسبط سبط إيمان وحلم
سقى جدثاً تضمنه ملث
تظل مظلة منها عزال^(١٠٥)
وسبط لا يذوق الموت حتى
من البيت المحجب في سراة
عصائب ليس دون أغر أجلى
وأنشد العتبي قصيدته اللامية التي أولها:

هل عند من أحببت تنويل
أم في الحشى منك جوى باطل
علقت يا مغرور خداعة
ريا رداح النوم خمصانة
يشفيك منها حين تخلو بها
وذوق ريق طيب طعمه
في نسوة مثل المها خرد
يقول فيها:

أم لا فإن اللوم تضليل
ليس تدوايه الأباطيل
بالوعد منها لك تحيل
كأنها أدماء عطبول
ضم إلى النحر وتقبيل
كأنه بالمسك معلول
تضييق عنهن الخلاخيل

أقسم بالله وآلائه والمرء عما قال مسؤل
 إن علي بن أبي طالب على التقى والبر مجبول
 فقال: أحسن والله ما شاء، هذا والله الشعر الذي يهجم على القلب بلا حجاب.
 قيل للسيد: ما لك لا تستعمل في شعرك من الغريب ما تُسأل عنه كما يفعل
 الشعراء؟ قال: لأن أقول شعراً قريباً من القلوب يلذه من سمعه، خير من أن
 أقول شيئاً معقداً تضل فيه الأوهام.

تقدم السيد إلى سوار القاضي ليشهد عنده، فلم يرض به، فقام مغضباً من
 مجلسه، وكتب رقعة يقول فيها:

يا أمين الله يا من	صوريا خير الولاة
إن سوار بن عبد الله	ه من شر القضاة
نعثلي جملي	لكم غير موات
جده سارق عنز	فجرة من فجرات
لرسول الله والقا	ذفه بالمنكرات
وابن من كان ينادي	من وراء الحجرات
يا هناة اخرج إلينا	إننا أهل هنات
مدحنا المدح ومن نر	م يصب بالزفرات
فاكفنيه لا كفاه الله	ه شر الطارقات

قيل: فلما قرأها سوار وثب من مجلسه وقصد أبا جعفر المنصور، وهو يومئذ
 نازل بالجسر، فسبقه السيد إليه فأنشده:

قل للإمام الذي ينجى بطاعته	يوم القيامة من بحبوحة النار
لا تستعن وجزاك الله صالحه	يا خير من دب في حكم بسوار

لا تستعن بخبيث الرأي ذي صلف جم العيوب عظيم الكبر جبار
يضحي الخصوم لديه من تجبره لا يرفعون إليه لحظ أبصار
تيهاً وكبراً ولولا ما رفعت له من ضبعه كان عين الجائع العاري
ودخل سوار، فلما رآه المنصور تبسم وقال: أما بلغك خبر إياس بن معاوية
حيث قبل شهادة الفرزدق واستزاد في الشهود؟ فما أحوجك للتعرض للسيد
ولسانه! ثم أمر السيد بمصالحته.

دخل السيد على المهدي لما بايع لابنيه موسى وهارون، فأنشأ يقول:

ما بال مجرى دمك الساجم أمّن قدى بات بها لازم
أم من هوى أنت له ساهر صباية من قلبك الهائم
آليت لا أمدح ذا نائل من معشر غير بني هاشم
أوليتهم عندي يد المصطفى ذي الفضل والمن أبي القاسم
فإنها بيضاء محمودة جزاؤها الشكر على العالم
جزاؤها حفظ أبي جعفر خليفة الرحمن والقائم
وطاعة المهدي ثم ابنه موسى على ذي الإربة الحازم
وللرشيد الرابع المرتضي مفترض من حقه اللازم
ملكهم خمسون معدودة برغم أنف الحاسد الراغم
ليس علينا ما بقوا غيرهم في هذه الأمة من حاكم
حتى يردوها إلى هابط عليه عيسى منهم ناجم
ومن شعر السيد:

ما جرت خطرة على القلب مني فيك إلا استترت عن أصحابي
من دموع تجري فإن كنت وحدي خالياً أسعدتْ دموعي انتحابي

ورماني بالشيب قبل الشباب
هائم القلب قد ثوى في التراب

إن حبي إياك قد سل جسمي
لو منحت اللقا شفى بك صبا
ومما قاله في الحبس:

واسأل وكيف يجب من لا يسمع
إلا الضوايح والحمام الوقع
جُمْلُ وعزة والرباب وبروع
أمثالهن من الصيانة أربع
والدهر صاح مشتت ما يجمع
عند الأمير تضر فيه وتنفع
فيه وتشفع عنده فتشفع
منه ولم يك عنده من يسمع
وبنيه إنك حاصد ما تزرع
في الصدر قد طويت عليها الأضلع

قف بالديار وحيها يا مربع
إن الديار خلت وليس بجوها
ولقد تكون بها أوانس كالدمى
حور نواعم لا ترى في مثلها
فعرين بعد تألف وتجمع
فاسلم فإنك قد نزلت بمنزل
تؤتى هواك إذا نطقت بحاجة
قل للأمير إذا ظفرت بخلوة
هب لي الذي أحبته في أحمد
يختص آل محمد بمحبة

وقال يهجو امرأة وارث موسر من خلانته، وكانت تعذل زوجها على إسرافه:

من العداوة من أعدى أعاديا
في هوة فتدهدى يومها فيها
فيه الرياح فهاجت من أواذيا^(١٠٧)
قد شد منه إلى هاديه هاديا
وقد أتى القوم بعد الموت ناعيا
لا أسخن الله إلا عين باكيها

أقول يا ليت ليلى في يدي حنق
يعلو بها فوق رعن^(١٠٦) ثم يحدرها
أوليتها في غمار البحر قد عصفت
أوليتها قد دنت يوماً إلى فرسي
حتى يرى لحمها من حضرة زيا^(١٠٨)
فمن بكأها فلا جفت مدا معه

وقيل: إن آخر قصيدة له هي قوله:

أشأقتك المنازل بعد هند
منازل أقفرت منهن محت
وريح حرجف تستن فيها
ألم يبلغك والأنباء تنمي
إلى ذي علمه الهادي علي
ألم تر أن خولة سوف تأتي
يفوز بكنتي واسمي لأنني
يغيب عنهم حتى يقولوا
سنين وأشهرًا ويرى برضوى
مقيم بين آرام وعين
تراعيها السباع وليس منها
أمن به الردى فرتعن طورًا
حلفت برب مكة والمصلى
يطوف به الحجيج وكل عام
لقد كان ابن خولة غير شك
فما أحد أحب إلي فيما
سوى ذي الوحي أحمد أو علي
ومن ذا يابن خولة إذ رمتني
يذنب عنكم ويسد مما
ومالي أن أمر به ولكن
فأدرك دولة لك لست فيها

وتربيتها وذات الدل دعد
معالمهن من سيل ورعد
بسافي الترب تلحم ما تسدي
مقال محمد فيما يؤدي
وخولة خادم في البيت تردي
بوارى الزند صافي الخيم نجد
نحلتها هو المهدي بعدي
تضمنه بطيبة بطن لحد
بشعب بين أنهار وأسد
وحفان^(١٠٩) تروح خلال ربد
ملاقيهن مفترسًا بحد
بلا خوف لدى مرعى وورد
وبيت طاهر الأركان فرد
يحل لديه وفد بعد وفد
صفاء ولايتي وخلوص ودي
أسر وما أبوح به وأبدي
ولا أذكى وأطيب منه عندي
بأسهمها المنية حين وعدي
تثلّم من حصونكم كسدي
أؤمل أن يؤخر يوم فقدي
بجبار فتوصف بالتعدي

على قوم بغوا فيكم علينا لتعدى منكم يا خير معد
لتعل بنا عليهم حيث كانوا بغور من تهامة أو بنجد
إذا ما سرت من بلد حرام إلى من بالمدينة من معد
وماذا عزهم والخير منهم بأشوس أعصل الأنياب ورد
وأنت لمن بغى وعدا وأذكى عليك الحرب واسترداك مرد

(٨) سلم بن عمرو الخاسر^(١١٠)؛

كان منقطعاً إلى البرامكة وإلى الفضل بن يحيى خصوصاً من بينهم، وفيه يقول أبو العتاهية:

إنما الفضل لسلم وحده ليس فيه لسوى سلم درك
وكان هذا أحد الأسباب إلى فساد ما بينه وبين أبي العتاهية. ولسلم يقول أبو العتاهية وقد حج مع عتبة:

والله والله ما أبالي متى ما مت يا سلم بعد ذا السفر
أليس قد طفت حيث طافت وقب لت الذي قبلت من الحجر
وله يقول أبو العتاهية وقد حبس إبراهيم الموصلي:

سلم يا سلم ليس دونك سر حبس الموصلي فالعيش مر
ما استطاب اللذات، مذسكن المط بق رأس اللذات والله، حر
ترك الموصلي من خلق الل ه جميعاً وعيشهم مقشعر
لما قال بشار قصيدته الميمية في عمر بن العلاء وهي التي يقول فيها:

إذا نبهتك صعب الأمور فنبه لها عمراً ثم نم
فتى لا يبيت على دمنة^(١١١) ولا يشرب الماء إلا بدم

بعث بها مع سلم إلى عمر بن العلاء، فوافاه، فأنشده إياها، فأمر لبشار بمائة

ألف درهم، فقال له سلم: إن خادمك - يعني نفسه - قد قال في طريقه فيك قصيدة؛ قال: فإنك هناك! قال: تسمع ثم تحكم؛ قال: هات، فأنشده:

قد عزني الداء فما لي دواء مما ألاقي من حسان النساء
قلب صحيح كنت أسطوبه أصبح من سلمى بداء عياء
أنفاسها مسك وفي طرفها سحر وما لي غيرها من دواء
وعدتني وعدًا فأوفي به هل تصلح الخمرة إلا بهاء
ويقول فيها:

كم كربة قد مسني ضرها ناديت فيها عمر بن العلاء
فأمر له بعشرة آلاف درهم، فكانت أول عطية سنية وصلت إليه.
ومن قوله يرثي باقونة بنت المهدي:

أودى بباقونة ريب الزمان مؤنسة المهدي والخيزران
لم تنطو الأرض على مثلها مولودة حن لها الوالدان
باقون يا بنت إمام الهدى أصبحت من زينة أهل الجنان
بكت لك الأرض وسكانها في كل أفق بين إنس وجان
دخل سلم على الفضل بن يحيى في يوم نيروز والهدايا بين يديه، فأنشد:
أمن ربع تسائله وقد أقوت منازل
بقلبي من هوى الأطلا ل حب ما يزايله
رويدكم عن المشغو ف إن الحب قاتله
بلا بل صدره تسري وقد نامت عواذله
أحق الناس بالتفضي ل من ترجى فواضله
رأيت مكارم الأخلا ق ما ضمت همائله

فلمست أرى فتى في النا س إلا الفضل فاضله
يقول لسانه خيراً فتفعله أنامله
ومهما يرج من خير فإن الفضل فاعله

وكان إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق حاضرين، فقال لإبراهيم: كيف ترى وتسمع؟ قال: أحسن مرئي ومسموع، وفضل الأمير أكثر منه؛ فقال: خذوا جميع ما أهدي إلي اليوم فاقسموه بينكم أثلاثاً إلا ذلك التمثال، فإني أريد أن أهديه اليوم إلى دنانير؛ ثم قال: لا والله ما هكذا تفعل الأحرار، يقوّم ويُدفع إليهم ثمنه ثم نهديه، فقوّم بألفي دينار، فحملها إلى القوم من بيت ماله واقتسموا جميع الهدايا بينهم.

كان المهدي يعطي مروان وسلماً الخاسر عطية واحدة، فكان سلم يأتي باب المهدي على البرذون الفاره، قيمته عشرة آلاف درهم بسرج ولجام مفضضين، ولباسه الخز والوشي وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان، ورائحة المسك والطيب الغالية تفوح منه، ويحيي مروان بن أبي حفصة عليه فرو كبل^(١١٢) وقميص كرايبس^(١١٣) وعمامة كرايبس وخفّاء كبل^(١١٤) وكساء غليظ، وهو منتن الرائحة، وكان لا يأكل اللحم حتى يقرم إليه بخلاً، فإذا قرم أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله، فقال له قائل: أراك لا تأكل إلا الرأس، قال: نعم أعرف سعره فأمن خيانة الغلام ولا أشتري لحماً فيطبخه فيأكل منه، والرأس آكل منه ألوانا: آكل من عينيه لوناً ومن غلصمته^(١١٥) لوناً ومن دماغه لوناً.

كان سلم قد بلي بالكيمياء، فكان يذهب بكل شيء له باطلاً، فلما أراد الله عز وجل أن يصنع له عرف أن بباب الشام صاحب كيمياء عجيباً، وأنه لا يصل إليه أحد إلا ليلاً، فسأل عنه، فدلوه عليه. قال: فدخلت إليه إلى موضع معور^(١١٦)،

فدققت الباب فخرج إلي، فقال: من أنت عافاك الله؟ فقلت: رجل معجب بهذا العلم؛ قال: فلا تشهري فإني رجل مستور إنما أعمل القوت، قلت: إني لا أشهرك إنما أقتبس منك، قال: فاکتم ذلك، وبين يديه كوز شبه^(١١٧) صغير، فقال لي: اقلع عروته، فقلعتها، فقال: اسبكها في البوتقة^(١١٨) فسكبتها، فأخرج شيئاً من تحت مصلاه فقال: ذره عليه، ففعلت، فقال: أفرغه، فأفرغته، فقال: دعه معك، فإذا أصبحت فاخرج فبعه وعد إلي، فأخرجته إلى باب الشام فبعت المثقال بأحد وعشرين درهماً ورجعت إليه فأخبرته، فقال: اطلب الآن ما شئت؛ قلت: تفيدني؟ قال: بخمسمائة درهم على ألا تعلمه أحداً، فأعطيته وكتب لي صفة فامتاحتها فإذا هي باطلة، فعدت إليه، فقيل لي: قد تحول وإذا عروة الكوز الشبه من ذهب مركبة عليه، والكوز شبه، ولذلك كان يدخل إليه من يطلبه ليلاً ليخفي عليه، فانصرفت وعلمت أن الله عز وجل أراد بي خيراً وأن هذا كله باطل.

قال أبو المستهل: دخلت يوماً على سلم وإذا بين يديه قراطيس فيها أشعار يرثي ببعضها أم جعفر، وبعضها جارية غير مسماة، وبعضها أقواماً لم يموتوا، وأم جعفر يومئذ باقية؛ فقلت له: ويحك ما هذا؟ فقال: تحدث الحوادث فيطالبونا بأن نقول فيها ويستعجلوننا ولا يجمل بنا أن نقول غير الجيد، فنعد لهم هذا قبل كونه، فمتى حدث حادث أظهرنا ما قلناه فيه قديماً على أنه قيل في الوقت. دخل سلم على الرشيد فأنشده:

حي الأحبة بالسلام

فقال الرشيد: حياهم الله بالسلام؛ فقال سلم:

أعلى وداع أم مقام

فقال الرشيد: حياهم الله على أي ذلك كان، فأنشده:

لم يبق منك ومنهم غير الجلود على العظام

فقال له الرشيد: بل منك، وأمر بإخراجه، وتطير منه ومن قوله، فلم يسمع منه باقي الشعر ولا أثابه بشيء.

استوهب إسحاق الموصلي من الرشيد تركة سلم، وكان قد مات عن غير وارث، فوهبها له قبل أن يتسلمها صاحب المواريث، فحصل منها على خمسين ألف دينار، وروي أنه رفع إلى الرشيد أن سلماً قد توفي وخلف مما أخذه منه خاصة ومن زبيدة ألف ألف وخمسمائة ألف درهم سوى ما خلفه من عقار وغيره مما اعتقده^(١١٩) قديماً، فقبضه الرشيد وتظلم إليه مواليه من آل أبي بكر الصديق رضوان الله عليه؛ فقال: هذا خادمي ونديمي، والذي خلفه من مالي فأنا أحق به، فلم يعطهم إلا شيئاً يسيراً من قديم أملاكه.

(٩) ربيعة الرقي^(١٢٠)؛

كان منقطعاً عن الحضارة، بعيداً عن مجالسة الخلفاء، فأخمل ذكره بسبب ذلك؛ لكنهم كانوا يستقدمونه إليهم. وأول من فعل ذلك المهدي، فمدحه ونال جوائزه؛ وكان ابن المعتز يرى ربيعة أشعر غزلاً من أبي نواس، لأن في غزل أبي نواس برداً كثيراً، وغزل هذا سليم عذب سهل، ولذلك فإن شهرته بلغت إلى بلاط الخليفة. وكان يمدح غير الخلفاء وينال جوائزهم ويعود إلى بلده، وإن قصر أحد في إعطائه هجاء، وله في ذلك حديث مع العباس بن محمد بن علي من أمراء بني العباس.

ومن قوله يمدح يزيد بن حاتم المهلبي ويهجو يزيد بن أسيد السلمي:

حلفت يميناً غير ذي مشنوية^(١٢١) يمين امرئ آلى بها غير آثم
لشتان ما بين اليزيديين في الندى يزيد سليم والأعرابن حاتم
يزيد سليم^(١٢٢) سالم المال، والفتى أخو الأزد للأموال غير مسالم
فهم الفتى الأزدى إتلاف ماله وهم الفتى القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب التتمام أنى هجوته ولكنني فضلت أهل المكارم
قال رجل لربيعة: يا أبا أسامة، ما حملك على أن هجوت رجلاً من قومك
وفضلت عليه رجلاً من الأزد؟ فقال: أخبرك، أملت فلم يبق لي إلا داري،
فرهنتها على خمسمائة درهم، ورحلت إليه إلى أرمينية، فأعلمته بمكاني ومدحته،
وأقمت عنده حولاً، فوهب لي خمسمائة درهم، فتحملت وصرت بها إلى منزلي،
فلم يبق معي كبير شيء، فنزلت في دار بكراء، فقلت: لو أتيت يزيد بن حاتم،
ثم قلت: هذا ابن عمي فعل بي هذا الفعل فكيف بغيره! ثم حملت نفسي على أن
آتيه، فأعلم بمكاني، فتركني أشهراً حتى ضجرت، فأكرت نفسي من الحمالين.
وكتبت بيتاً في رقعة فألقيته في دهليزه؛ والبيت:

أراني ولا كفران لله راجعاً بخفى حنين من يزيد بن حاتم
فوقعت الرقعة في يد حاجبه، فأوصلها إليه من غير علمي ولا أمري، فبعث
خلفي، فلما دخلت عليه قال: هيه أنشدني ما قلت، فتمنعت، فقال: والله
لتنشدني، فأنشدته، فقال: والله لا ترجع كذلك، ثم قال: انزعوا خفيه، فنزعا،
فحشاهما دنانير وأمر لي بغلمان وجوار وكسى، ألا ترى لي أن أمدح هذا وأهجوا
ذاك؟ قلت: بلى والله، وسار شعري حتى بلغ المهدي، فكان سبب دخولي إليه.
قيل لأبي النحوي: إن الأصمعي قال: لا يقال شتان ما بينهما، وإنما
يقال: شتان ما هما، وأنشد قول الأعشى: «شتان ما يومي على كورها»

فقال: كذب الأصمعي، يقال: شتان ما هما وشتان ما بينهما، وأنشد لربيعة الرقي: «لشتان ما بين اليزيديين» وفي استشهاد مثل أبي زيد على دفع قول مثل الأصمعي بشعر ربيعة كفاية له في تفضيله.

امتدح ربيعة العباس بن محمد بن علي بقصيدة لم يسبق إليها حسناً، وهي طويلة، يقول فيها:

لو قيل للعباس يا بن محمد قل «لا» وأنت مخلص ما قالها
ما إن أعد من المكارم خصلة إلا وجدت كعمها أو خالها
وإذا الملوك تسايروا في بلدة كانوا كواكبها وكنت هلالها
إن المكارم لم تزل معقولة حتى حلت براحتيك عقالها
فبعث إليه بدینارین، وكان يقدر فيه ألفین، فلما نظر إلى الدينارين كاد يجن غيظاً
وقال للرسول: خذ هذين الدينارين فهما لك على أن ترد الرقعة إلي من حيث
لا يدري العباس، ففعل الرسول ذلك، فأخذها ربيعة وأمر من كتب في ظهرها:
مدحتك مدحة السيف المحلى لتجري في الكرام كما جريت
فهبها مدحة ذهب ضياعاً كذبت عليك فيها وافترت
فأنت المرء ليس له وفاء كأني إن مدحتك قد زيت

ثم دفعها إلى الرسول وقال: ضعها في الموضع الذي أخذتها منه، فردها الرسول؛ فلما كان من الغد أخذها العباس فنظر فيها، فلما قرأ الأبيات غضب و قام من وقته فركب إلى الرشيد، وكان أثيراً^(١٢٣) عنده يبجله ويقدمه، وكان قد هم أن يخطب إليه ابنته، فرأى الكراهة في وجهه، فقال: ما شأنك؟ فقال: هجاني ربيعة الرقي، فأحضر، فقال له الرشيد: تهجو عمي وآثر الخلق عندي؟ لقد هممت أن أضرب عنقك، فقال: والله يا أمير المؤمنين لقد مدحتك بقصيدة

ما قال مثلها أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء، ولقد بالغت في الشناء وأكثرت في الوصف، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمره بإحضارها! فلما سمع الرشيد ذلك منه سكن غضبه وأحب أن ينظر إلى القصيدة، فأمر العباس بإحضار الرقعة، فتلكأ عليه العباس، فقال له الرشيد: سألتك بحق أمير المؤمنين إلا أمرت بإحضارها، فعلم العباس أنه قد أخطأ وغلط، فأمر بإحضارها، فأحضرت، فأخذها الرشيد وإذا فيها القصيدة بعينها، فاستحسنها واستجادها وأعجب بها وقال: والله ما قال أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء مثلها، لقد صدق ربعة وبر؛ ثم قال للعباس: بم أثبتته عليها؟ فسكت العباس وتغير لونه وجرض^(١٢٤) بريقه، فقال ربعة: أثابني عليها يا أمير المؤمنين بدينارين، فتوهم الرشيد أنه قال ذلك من الموجدة على العباس، فقال: بحياتي يا رقي بكم أثابك؟ قال: وحياتك يا أمير المؤمنين ما أثابني إلا بدينارين، فغضب الرشيد غضباً شديداً ونظر في وجه العباس وقال: سوء لك! أي حال قعدت بك عن إثابته؟ الأموال؟ فوالله لقد مولتك جهدي، أم انقطاع المادة عنك؟ فوالله ما انقطعت، أم أصلك؟ فهو الأصل لا يدانيه شيء، أم نفسك فعلت ذلك بك حتى فضحت آباءك وأجدادك وفضحتني ونفسك؟ فنكس العباس رأسه ولم ينطق، فقال الرشيد: يا غلام، أعط ربعة ثلاثين ألف درهم وخلعة واحمله على بغلة؛ فلما حمل المال بين يديه وألبس الخلعة قال: بحياتي يا رقي لا تذكره في شعرك لا تعريضاً ولا تصريحاً، وفتّر الرشيد عما كان هم به أن يتزوج إليه، وظهر له منه بعد ذلك جفاء كثير واطراح له.

قال أبو بشر: كنت حاضراً ربعة الرقي يوماً وجاءته امرأة فقالت: تقول لك فلانة إن بنت مولاي محمومة فإن كنت تعرف لها عوذة^(١٢٥) فافعل،

فقال اكتب لها أبا بشر هذه العوذة:

ثقوا ثقوا باسم إلهي الذي لا يعرض السقم لمن قد شفى
أعيذ مولاتي ومولاتها وابنتها بعوذة المصطفى
من شر ما يعرض من علة في الصبح والليل إذا أسدفا
فقلت له: يا أبا ثابت، لست أحسن أن أكتب ثقوا ثقوا، فكيف أكتبها؟
قال انضح المداد من رأس القلم في موضعين حتى يكون كالنفث^(١٢٦)، وادفع
العوذة إليها فإنها نافعة، ففعلت ودفعتها إليها، فلم تلبث أن جاءت الجارية
وهي لا تتمالك ضحكاً، فقالت له: يا مجنون ما فعلت بنا! كدنا نفتضح بما
صنعت! قال: فما أصنع! أشاعر أنا أم صاحب تعاويذ!
واتفق للرقى أيضاً مثل ذلك مع معن بن زائدة، وقد لقيه في بعض قدماته
إلى العراق، فمدحه، فلم يهش له، فهجاه بقصيدة مطلعها:

معن يا معن يابن زائدة الكـ لب الذي في الذراع لا في البنان
لا تفاخر إذا فخرت بأبا نك وافخر بعمك الحوفزان^(١٢٧)
ومن غزله أبيات يغنى بها، وهي:
وتزعم أني قد تبدلت خلة^(١٢٨) سواها وهذا الباطل المتقول
لحا الله من باع الصديق بغيره فقالت نعم حاشاك إن تك تفعل
ستصرم إنساناً إذا ما صرمتني بحبك فانظر بعده من تبدل

(١٠) الرقاشي^(١٢٩)؛

كان سهل الشعر مطبوعاً، وكان منقطعاً إلى آل برمك، مستغنياً بهم
عن سواهم، وكانوا يصولون به على الشعراء، ويروون أولادهم أشعاره،
ويدونونها القليل والكثير منها، تعصباً له، وحفظاً لخدمته، وتنوياً باسمه،

وتحريكاً لنشاطه، فحفظ ذلك لهم. فلما نُكبوا صار إليهم في حبسهم، فأقام معهم مدة أيامهم ينشدهم ويسامرهم حتى ماتوا، ثم رثاهم فأكثر من رثائهم؛ فمن ذلك قوله في جعفر:

كم هاتف بك من باك وباكية يا طيب للضيف إذ تدعى وللجار
إن يعدم القطر كنت المزن بارقه لمع الدنانير لا ما خيل الساري
وقوله:

لعمرك ما بالموت عار على الفتى إذا لم تصبه في الحياة المعايير^(١٣٠)
وما أحد حي وإن كان سالماً بأسلم مما غيبته المقابر
ومن كان مما يحدث الدهر جازعاً فلا بد يوماً أن يرى وهو صابر
وليس لذي عيش عن الموت مقصر وليس على الأيام والدهر غابر
وكل شباب أو جديد إلى البلى وكل امرئ يوماً إلى الله صائر
فلا يبعدنك الله عني جعفرًا بروحي ولو دارت علي الدوائر
فأليت لا أنفك أبكيك ما دعت على فنن ورقاء أو طار طائر
ومن ذلك قوله لما صلب الفضل بن يحيى واجتاز به الرقاشي وهو مصلوب على الجذع، فوقف يبكي ثم قال:

أما والله لولا خوف واش وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام
فما أبصرت قبلك يابن يحيى حسامًا حتفه السيف الحسام
على اللذات والدنيا جميعًا ودولة آل برمك السلام
فكتب أهل الأخبار بذلك إلى الرشيد، فأحضره فقال: ما حملك على ما قلت؟ فقال: يا أمير المؤمنين كان إلي محسنًا، فلما رأيته على الحال التي هو عليها

حركني إحسانه فما ملكت نفسي حتى قلت الذي قلته؛ قال: وكم كان يجري عليك؟ قال: ألف دينار في كل سنة، قال: إنا قد أضعفناها لك. ومن قوله يصف جارية:

صفات وحسن أورثا القلب لوعة تضرم في أحشاء قلب مقيم
تمثلها نفسي لعيني فأنثني عليها بطرف الناظر المتيسم
يحملني حبي لها فوق طاقتي من الشوق دأب الحائر المتقسم
(١١) أبو العتاهية^(١٣١)؛

قال أحمد بن زهير: سمعت مصعب بن عبد الله يقول: أبو العتاهية أشعر الناس، فقلت له: بأي شيء استحق ذلك عندك؟ فقال بقوله:

تعلقت بآمال طوال أي آمال
وأقبلت على الدنيا ملحاً أي إقبال
أيها هذا تجهزل فراق الأهل والمال
فلا بد من الموت على حال من الحال

ثم قال مصعب: هذا كلام سهل حق لا حشوفيه ولا نقصان، يعرفه العاقل ويقر به الجاهل. وكان الأصمعي يستحسن قوله:

أنت ما استغنيت عن صا حبك الدهر أخوه
فإذا احتجت إليه ساعة مجك فوه
وأنشد له سلم الخاسر:

سكن يبقى له سكن ما بهذا يؤذن الزمن
نحن في دار نخبرنا ببلاها ناطق لسن
دار سوء لم يدم فرح لامرئ فيها ولا حزن

في سبيل الله أنفسنا كلنا بالموت مرتين
كل نفس عند ميته حظها من مالها الكفن
إن مال المرء ليس له منه إلا ذكره الحسن

وقال عبد الله بن عبد العزيز العمري: أشعر الناس أبو العتاهية حيث يقول:

ما ضر من جعل التراب مهاده ألا ينام على الحرير إذا قنع
وقيل لأبي العتاهية: كيف تقول الشعر؟ قال: ما أردته قط إلا مثل لي، فأقول
ما أريد وأترك ما لا أريد. وكان يقول: لو شئت أن أجعل كلامي شعراً كله
لفعلت.

حُمّ الرشيد فصار أبو العتاهية إلى الفضل بن الربيع برقعة فيها:

لو علم الناس كيف أنت لهم ماتوا إذا ما أنت أجمعهم
خليفة الله أنت ترجح بالناس س إذا ما وزنت أنت وهم
قد علم الناس أن وجهك يغ نني إذا ما رآه معدمهم
فأنشدها الفضل بن الربيع الرشيد، فأمر بإحضار أبي العتاهية، فما زال
يسامره ويحدثه إلى أن برئ، ووصل إليه بذلك السبب مال جليل. وقد حدث
ابن الأعرابي بهذا الحديث، فقال له رجل بالمجلس: ما هذا الشعر بمستحق
لما قلت؟ قال: ولم؟ قال: لأنه ضعيف؛ فقال ابن الأعرابي، وكان أحد الناس،
الضعيف والله عقلك لا شعر أبي العتاهية، لأبي العتاهية تقول إنه ضعيف
الشعر! فوالله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت منه، وما أحسب
مذهبه إلا ضرباً من السحر؛ ثم أنشد له:

قطعت منك حبائل الآمال وحططت عن ظهر المطي رحالي
ويست أن أبقى لشيء نلت مم ما فيك يا دنيا وأن يبقى لي

فوجدت برد اليأس بين جوانجي وأرحت من حل ومن ترحال
يأيها البطر الذي هو من غد في قبره متمزق الأوصال
حذف المنى عنه المشمر في الهدى وأرى مناك طويلة الأذيال
حيل ابن آدم في الأمور كثيرة والموت يقطع حيلة المحتال
ما لي أراك لحر وجهك مخلقاً أخلقت يا دنيا وجوه رجال
قست السؤال فكان أعظم قيمة من كل عارفة جرت بسؤال
فإذا ابتليت ببذل وجهك سائلاً فابذله للمتكرم المفضل
وإذا خشيت تعذراً في بلدة فاشدد يدك بعاجل الترحال
واصبر على غير الزمان فإنما فرج الشدائد مثل حل عقال
ثم قال للرجل: هل تعرف أحداً يحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له
الرجل: يا أبا عبد الله، جعلني الله فداك، إني لم أردد عليك ما قلت، ولكن
الزهد مذهب أبي العتاهية، وشعره في المديح ليس كشعره في الزهد؛ فقال:
أفليس الذي يقول في المديح:

وهارون ماء المزن يشفي من الصدى إذا ما الصدى بالريق غصت حناجره
وأوسط بيت في قريش لبيته وأول عز في قريش وآخره
وزحف له تحكي البروق سيوفه وتحكي الرعود القاصفات حوافره
إذا حميت شمس النهار تضاحكت إلى الشمس فيه بيضه ومغافره
إذا نكب الإسلام يوماً بنكبة فهارون من بين البرية نائره
ومن ذا يفوت الموت والموت مدرك كذا لم يفت هارون ضد ينافره
فتخلص الرجل من شر ابن الأعرابي بأن قال له: القول كما قلت، وما كنت
سمعت له مثل هذين الشعرين، وكتبهما عنه.

قال ثمامة بن أشرس أنشدني أبو العتاهية:

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذي هو مالكة
ألا إنما مالي الذي أنا منفق وليس لي المال الذي أنا تاركة
إذا كنت ذا مال فبادر به الذي يحق وإلا استهلكته مهالكه

فقلت له: من أين قضيت بهذا؟ فقال: من قول رسوله الله ﷺ: «إنما لك من مالك ما أكلت فأفנית أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت». فقلت له: أتؤمن بأن هذا قول رسوله الله ﷺ وأنه الحق؟ قال: نعم؛ قلت: فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرية في دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكي ولا تقدمها ذخرًا ليوم فقرك وفاقتك؟ فقال: يا أبا معن، والله إن ما قلت هو الحق، ولكنني أخاف الفقر والحاجة إلى الناس؛ فقلت: وبم تزيد حال من افتقر على حالك وأنت دائم الحرص، دائم الجمع، شحيح على نفسك، لا تشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد؟ فترك جواب كلامي كله، ثم قال لي: والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم؛ فلما قال هذا القول أضحكني حتى أذهلني عن جوابه ومعاتبته، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للإسلام.

زار مرة عمرو بن مسعدة فحجب عنه، فلزم منزله، فاستبطأه عمرو، فكتب إليه:

كسلني اليأس عنك فما أر فع طرقي إليك من كسل
إني إذا لم يكن أخي ثقة قطعت منه حبائل الأمل
وكتب إليه مرة أخرى:

مالك قد حلت عن إخائك واسد تبدلت يا عمرو شيمة كدره

إني إذا الباب تاه حاجبه لم يك عندي في هجره نظره^(١٣٢)
لستم ترجون للحساب ولا يوم تكون السماء منفطره
لكن لدنيا كالظل بهجتها سريعة الإنقضاء منشمه
قد كان وجهي لديك معرفة فالיום أضحي حرفاً من النكره
جلس المهدي للشعراء يوماً فأذن لهم، وفيهم بشار وأشجع، وكان أشجع
يأخذ عن بشار ويعظمه، وكان في القوم غير هذين أبو العتاهية، قال أشجع:
فلما سمع بشار كلام أبي العتاهية قال: يا أخا سليم، أهذا ذلك الكوفي الملقب؟
قلت: نعم، قال: لا جزى الله خيراً من جمعنا معه؛ ثم قال له المهدي: أنشد،
فقال: ويحك! أو يستنشد أيضاً قبلنا؟ فقلت: قد ترى؛ فأنشد:

ألا ما لسيدتي ما لها أدلاً فأحمل إدلالها
وإلا ففيم تجنت وما جنيت سقى الله أطلالها
ألا إن جارية للإمام قد أسكن الحسن سربالها
مشت بين حور قصار الخطا تجاذب في المشي أكفالها
وقد أتعب الله نفسي بها وأتعب باللوم عذالها
فقال بشار لأشجع: ويحك يا أخا سليم! ما أدري من أي أمره أعجب،
أمن ضعف، شعره أم من تشبيهه بجارية الخليفة وهو يسمع ذلك بأذنه؟ حتى
أتى على قوله:

أنته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولورامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها

وإن الخليفة من بغض «لا» إليه ليبغض من قالها
فقال بشار لأشجع وقد اهتز طرباً: ويحك يا أخا سليم، أترى الخليفة لم يطر
عن فراشه طرباً لما يأتي به هذا الكوفي!
ولما اتهمه منصور بن عمار بالزندقة، لأنه لا يذكر في شعره الجنة والنار وإنما
يذكر الموت، قال فيه:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
كالملبس الثوب من عري وعورته للناس بادية ما إن يوارىها
فأعظم الإثم بعد الشرك نعلمه في كل نفس عماها عن مساويها
عرفانها بعيوب الناس تبصرها منهم ولا تبصر العيب الذي فيها
وقيل له: زعم الناس أنك زنديق، فقال: والله ما ديني إلا التوحيد، فقل له
قل شيئاً يتحدث به عنك، فقال:

ألا إننا كلنا بائد وأي بني آدم خالد
وبدؤهم كان من ربهم وكل إلى ربه عائد
فيا عجباً كيف يعصي الإله له أم كيف يحجده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد
وسمع الجاحظ مرة من ينشد أرجوزة أبي العتاهية التي سماها «ذوات
الأمثال» حتى أتى على قوله:

يا للشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب
فقال للمنشد: قف، ثم قال: انظروا إلى قوله «روائح الجنة في الشباب» فإن
له معنى كمعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته
الأسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير، وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله

أسرع من اللسان إلى وصفه. وهذه الأرجوزة من بدائع أبي العتاهية، ويقال:
إن فيها أربعة آلاف مثل، منها قوله:

حسبك مما تبتغيه القوت	ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا	من اتقى الله رجا وخافا
هي المقادير فلمني أو فذر	إن كنت أخطأت فما أخطا القدر
لكل ما يؤذي وإن قل ألم	ما أطول الليل على من لم ينم
ما انتفع المرء بمثل عقله	وخير ذخر المرء حسن فعله
إن الفساد ضده الصلاح	ورب جد جره المزاح
من جعل النمام عينًا هلكا	مبلغك الشر كباغيه لكا
إن الشباب والفراغ والجده	مفسدة للمرء أي مفسده
يغنيك عن كل قبيح تركه	يرتهن الرأي الأصيل شكه
ما عيش من آفته بقاؤه	نغص عيشًا كله فناؤه
يا رب من أسخطنا بجهده	قد سرنا الله بغير حمده
ما تطلع الشمس ولا تغيب	إلا لأمر شأنه عجيب
لكل شيء معدن وجوهر	وأوسط وأصغر وأكبر
من لك بالمحض وكل ممتزج	وساوس في الصدر منه تعتلج
وكل شيء لاحق بجوهره	أصغره متصل بأكبره
ما زالت الدنيا لنا دار أذى	ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخير والشر بها أزواج	لذا نتاج ولذا نتاج
من لك بالمحض وليس محض	يخبث بعض ويطيب بعض
لكل إنسان طبيعتان	خير وشر وهما ضدان

إنك لو تستشيق الشحيحا وجدته أنتن شيء ريحا
والخير والشر إذا ما عدّا بينهما بون بعيد جدّا
عجبت حتى غمني السكوت صرت كأني حائر مبهوت
كذا قضى الله فكيف أصنع الصمت إن ضاق الكلام أوسع

ومن قول أبي العتاهية في الوحدة والتبرم بالناس:

برمت بالناس وأخلاقهم فصرت أستاذس بالوحده
ما أكثر الناس لعمرى وما أقلهم في حاصل العده
قال الأصمعي: شعر أبي العتاهية كساحة الملوك، يقع فيها الجواهر والذهب
والتراب والخزف والنوى.

كان أبو العتاهية لا يفارق الرشيد في سفر ولا حضر إلا في طريق الحج، وكان
يجري عليه في كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والمعاون، فلما قدم
الرشيد الرقة لبس أبو العتاهية الصوف وتزهّد، وترك حضور المنادمة والقول
في الغزل، وأمر الرشيد بحبسه فحبس، فكتب إليه من وقته:

أنا اليوم لي والحمد لله أشهر يروح علي اهتم منكم ويكر
تذكر أمين الله حقّي وحرمتي وما كنت توليني كذلك يذكر
ليالي تدني منك بالقرب مجلسي ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لي بالعين التي كنت مرة إلي بها في سالف الدهر تنظر

فلما قرأ الرشيد الأبيات قال: قولوا له: لا بأس عليك؛ فكتب إليه:

أرقت وطار عن عيني النعاس ونام السامرون ولم يواسوا
أمين الله أمنك خير أمن عليك من التقى فيه لباس
تساس من السماء بكل بر وأنت به تسوس كما تساس

كأن الخلق ركب فيه روح له جسد وأنت عليه راس
أمين الله إن الحبس باس وقد أرسلت: ليس عليك باس
وكتب إليه أيضاً في الحبس:

وكلفتني ما حلت بيني وبينه وقلت سأبغي ما تريد وما تهوى
فلو كان لي قلبان كلفت واحداً هواك وكلفت الخلي لما يهوى
فأمر بإطلاقه.

كان الهادي واجداً على أبي العتاهية لملازمته أخاه هارون في خلافة المهدي،
فلما ولي موسى الخلافة قال أبو العتاهية يمدحه:

يضطرب الخوف والرجاء إذا حرك موسى القضيب أو فكر
ما أبين الفضل في مغيب وما أورد من رأيه وما أصدر
فكم ترى عز عند ذلك من معشر قوم وذل من معشر
يثمر من مسه القضيب ولو يمسه غيره لما أثمر
من مثل موسى ومثل والده ال مهدي أو جده أبي جعفر
فرضي عنه. فلما دخل عليه أنشده:

لهفي على الزمن القصير بين الخورنق والسدير
إذ نحن في غرف الجنا ن نعوم في بحر السرور
في فتية ملكوا عنا ن الدهر أمثال الصقور
ما منهم إلا الجسو ر على الهوى غير الحصور
يتعاورون مدامة صهباء من حلب العصير
عذراء رباهاشعا ع الشمس في حر الهجير
لم تدن من نار ولم يعلق بها وضر القصور

ومقرطق يمشي أما
بزجاجة تستخرج السـ
زهراء مثل الكوكب الدـ
تدع الكريم وليس يد
ومخصرات زرننا
ريارواد فهـن يلـ
غر الوجوه محجًا
متنعمات في النعمـ
يرفلن في حلل المحـ
ما إن يرين الشمس إلا
وإلى أمين الله مهـ
وإليه أتعبنا المطـ
صعر الخدود كأنها
متسربلات بالظلا
حتى وصلن بنا إلى
ما زال قبل فطامه

م القوم كالرشأ الغرير
ر الدفين من الضمير
ري في كف المدير
ري ما قبيل من دبـر
بعد الهدو من الخدور
بسـن الخواتم في الخصور
ت قاصرات الطرف حور
يم مضمخات بالعبـر
سن والمجاسد والحرير
القرط من خلل الستور
ربنا من الدهر العثور
يا بالروح وبالبكور
جنّحن أجنحة النسور
م على السهولة والوعور
رب المدائن والقصور
في سن مكتهل كبير

استنشه المأمون أحسن ما قال في الموت فأنشده:

أنساك محياك المماتا
أوثقت بالدنيا وأنـ
وعزمت منك على الحيا
يا من رأى أبويه فيـ

فطلبت في الدنيا الثباتا
ت ترى جماعتها شتاتًا
ة وطولها عزماً بتاتا
من قد رأى كانا فماتا

هل فيهما لك عبرة أم خلت أن لك انفلاتا
ومن الذي طلب التفد — ت من منيته ففاتا
كل تصبحه المنية — ة أو تبيته بياتا
دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده:

ما أحسن الدنيا وإقبالها إذا أطاع الله من نالها
من لم يواس الناس من فضلها عرض للإدبار إقبالها
فقال له المأمون: ما أجود البيت الأول، فأما الثاني فما صنعت فيه شيئاً، الدنيا
تدبر عمن واسى منها أو ضن بها، وإنما توجب السماحة بها الأجر والضن بها
الوزر، فقال: صدقت يا أمير المؤمنين، أهل الفضل أولى بالفضل وأهل النقص
أولى بالنقص، فلما كان بعد أيام عاد فأنشده:

كم غافل أودى به الموت لم يأخذ الأبهة للفوت
من لم تزل نعمته قبله زال عن النعمة بالموت
فقال له: أحسنت، طيبت المعنى، وأمر له بعشرين ألف درهم.
كان أبو العتاهية يحج كل سنة، فإذا قدم أهدى إلى المأمون برداً ومطرفاً ونعلاً
سوداء ومساويك أراك، فيبعث إليه بعشرين ألف درهم، فأهدى مرة له كما
كان يهدي كل سنة إذا قدم، فلم يثبه ولا بعث إليه بالوظيفة، فكتب إليه أبو
العتاهية:

خبروني أن من ضرب السنه جدداً بيضا وصفراً حسنه
أحدثت لكنني لم أرها مثل ما كنت أرى كل سنه
فأمر المأمون بحمل العشرين الألف وقال: أغفلناه حتى ذكرنا.
أنشد المأمون بيت أبي العتاهية يخاطب سلماً الخاسر:

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال
فقال المأمون: إن الحرص لمفسد للدين والمروءة، والله ما عرفت من رجل قط
حرصاً ولا شرها فوجدت فيه مصطنعاً، فبلغ ذلك سلماً فقال: ويلى على الجرار
الزنديق جمع الأموال وكنزها وعبأ البدور في بيته ثم تزهد مراعاة ونفاقاً، فأخذ
يهتف بي إذا تصديت للطلب.

كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين في الزلالات إذا ركبها، وكان يتأذى
بفساد كلامهم ولحنهم، فقال: قولوا لمن معنا من الشعراء: يعملوا لهؤلاء شعراً
يغنون فيه، فقيل: ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية وهو في الحبس،
فوجه إليه الرشيد: قل شعراً حتى أسمعهم، ولم يأمر بإطلاقه، فغاضه ذلك
وقال: والله لأقولن شعراً يحزنه ولا يسر به، فعمل شعراً ودفعه إلى من حفظه
من الملاحين، فلما ركب الحراقة سمعه، وهو:

خانك الطرف الطموح	أيها القلب الجموح
لدواعي الخير والشـ	ردنـو ونـزوح
هل لمطلوب بذنب	توبة منه نصوح
كيف إصلاح قلوب	إنما هن قـروح
أحسن الله بنا	إن الخطايا لا تفوح
فإذا المستور منا	بين ثوبيه فضوح
كم رأينا من عزيز	طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيل	صائح الدهر الصدوح
موت بعض الناس في الأر	ض على قوم فتوح
سيصير المرء يوماً	جسداً ما فيه روح

علم الموت يلوح	بين عيني كل حي
موت يغدو ويروح	كلنا في غفلة والـ
يا غبوق وصبوح	لبنى الدنيا من الدنـ
من عليها المسوح	رحن في الوشى وأصبح
رله يومًا نطوح	كل نطاح من الدهـ
كين إن كنت تنوح	نح على نفسك يا مسـ
مرت ما عمر نوح	لتموتن وإن عمـ

فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكي وينتحب، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعاً في وقت الموعظة، وأشدّهم عسفاً في وقت الغضب والغلظة؛ فلما رأى الفضل بن الربيع كثرة بكائه أوماً إلى الملاحين أن يسكتوا.

لما عقد الرشيد العهد لبنيه الثلاثة: الأمين والمأمون والمؤتمن، قال أبو العتاهية:

رحلت عن الربع المحيل قعودي	إلى ذي زحوف جمّة وجنود
وراع يراعي الليل في حفظ أمة	يدافع عنها الشر غير رقود
بألوية جبريل يقدم أهلها	وريات نصر حوله وبنود
تجافى عن الدنيا وأيقن أنها	مفارقة ليست بدار خلود
وشد عرى الإسلام منه بفتية	ثلاثة أملاك ولالة عهود
هم خير أولاد لهم خير والد	له خير آباء مضت وجدود
بنو المصطفى هارون حول سريرته	فخير قيام حوله وقعود
تقلب أحوال المهابة بينهم	عيون ظباء في قلوب أسود
جدودهم شمس أتت في أهلة	تبدت لراء في نجوم سعود

فوصله الرشيد بصلة ما وصل مثلها شاعراً قط.

(١٢) مسلم^(١٣٣) بن الوليد أحد الشعراء المفلّحين والبلغاء المبدعين:

قال الشعر في صباه، ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء، مكثفياً بما يناله من قليل العطاء، وينفقه على ملاذه مع إخوانه من خلعاء الشعر، ثم انقطع إلى يزيد بن يزيد الشيباني قائد الرشيد، ثم اتصل بالخليفة هارون الرشيد وعد من شعرائه، ومدحه ومدح البرامكة وحسن رأيهم فيه. ولما أصبح الحل والعقد بيد ذي الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون في أول خلافته قربوه وأدناه: لأنه كان من خاصته قبل وزارته، وولاه أعمالاً بجرجان اكتسب منها ألف ألف درهم ثم لزم منزله إلى أن أنفقها في اللذات، وعاد إلى الفضل فقلده الضياع بأصبهان فاكسب منها ألف ألف أيضاً. ولما قتل الفضل لزم منزله ونسك ولم يمدح أحداً إلى أن مات بجرجان.

ومسلم أول من تكلف البديع في شعره واستكثر منه في قوله، وسبقه بشار إلى ذلك إلا أنه لم يبلغ شأو مسلم فيه. وقد عد العلماء هذا التصنع والتكلف إفساداً للشعر، إذ قد تبعه في ذلك الشعراء مثل البحتري وأبي تمام وابن المعتز وغيرهم.

وقد مزج مسلم كلام البدويين بكلام الحضريين، فضمنه المعاني اللطيفة، وكساه الألفاظ الظرفية، فله جزالة البدويين، ورقة الحضريين.

لقي مسلم أبا نواس فقال له: ما أعرف لك بيتاً إلا فيه سقط؛ قال له: فما تحفظ من ذلك؟ قال: قل أنت ما شئت حتى أريك سقطك فيه؛ فأنشد:

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا وأمله ديك الصباح صياحا

فقال له مسلم: فلم أمله وهو الذي أذكره وبه ارتاح؟ فقال أبو نواس:

فأنشدني شيئاً من شعرك ليس فيه خلل؛ فأنشده مسلم:

عاصي الشباب فراح غير مفند وأقام بين عزيمة وتجلد
فقال له أبو نواس: قد جعلته رائحاً مقيماً في حالة واحدة وبیت واحد،
فتشاغبا وتسابا ساعة. وكلا البيتين صحيح المعنى.

اجتمع أصحاب المأمون عنده يوماً، فأفاضوا في ذكر الشعر والشعراء، فقال
له بعضهم: أين أنت يا أمير المؤمنين من مسلم بن الوليد؟ قال: حيث يقول
ماذا؟ قال: حيث يقول وقد رثى رجلاً:

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر
وحيث مدح رجلاً بالشجاعة فقال:

يجود بالنفس إذ ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وهجا رجلاً بقبح الوجه والأخلاق فقال:

قبحت مناظره فيحن خبرته حسنت مناظره لقبح المخبر
وتغازل فقال:

هوى يجد وحيب يلعب أنت لقي بينهما معذب
فقال المأمون: هذا أشعر من خضتم اليوم في ذكره.

قال يزيد بن مزيد: أرسل إليَّ الرشيد يوماً في وقت لا يرسل فيه إلى مثلي،
فأتيته لا بساً سلاحاً مستعداً لأمر إن أراده مني، فلما رأي ضحك إليَّ ثم قال:
يا يزيد، خبرني من الذي يقول فيك:

تراه في الأمن في درع مضاعفة لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل
ضافي العنان طموح العين همته فك العناية وأسر الفاتك الخطل

فقال: لا أعرفه يا أمير المؤمنين، فقال: سوءة لك من سيد قوم يُمدح بمثل هذا

الشعر ولا يعرف قائله، وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله، وهو مسلم بن الوليد! فانصرفت فدعوت به ووصلته ووليته.

وروي أنه دخل على الرشيد فقال له: يا يزيد، من الذي يقول فيك:

لا يعبق الطيب خديه ومفرقه ولا يمسح عينيه من الكحل
إذا انتضى سيفه كانت مسالكه مسالك الموت في الأبدان والقلل
وإن خلت بحديث النفس فكرته حي الرجاء ومات الخوف من وجل
كالليث إن هجته فالموت راحته لا يستريح إلى الأيام والدول

فقال: لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين، فقال له هارون: أيقال فيك مثل هذا الشعر ولا تعرف قائله! فخرج من عنده خجلاً، فلما صار إلى منزله دعا حاجبه فقال له: من بالباب من الشعراء؟ قال: مسلم بن الوليد؛ قال: وكيف حجبه عني، فلم تعلمني بمكانه! فقال: أخبرته أنك مضيق، وأنه ليس في يديك شيء تعطيه إياه، وسألته الإمساك والمقام أياً إلى أن تتسع؛ فأنكر ذلك وقال: أدخله، فأدخله إليه، فأنشده قوله فيه:

أجررت^(١٣٤) حبل خليع في الصبا غزل وشمرت همم العذال في عذلي
هاج البكاء على العين الطموح^(١٣٥) هوى مفرق بين توديع ومحمل
كيف السلو لقلب راح مختبلا يهذي بصاحب قلب غير مختبل
عاصي العزاء غداة البين منهمل من الدموع جرى في إثر منهمل
لولا مداراة دمع العين لانكشف مني سرائر لم تظهر ولم تخل^(١٣٦)
أما كفى البين أن أرمى بأسهمه حتى رماني بلحظ الأعين النجل
مما جنى لي وإن كانت منى صدقت صباية خلّس التسليم بالمثل
ماذا على الدهر لو لانت عريكته ورد في الرأس مني سكرة الغزل

جرم الحوادث عندي أنها اختلست
ورب يوم من اللذات محتضر^(١٣٨)
وليلة خلست للعين من سنة
قد كان دهري وما بي اليوم من كبر
إذا شكوت إليها الحب خفها^(١٣٩)
كم قد قطعت وعين الدهر راقدة
وطيب الفرع أصفاني مودته
وبلدة لمطايا الركب منضية^(١٤١)
فيم المقام وهذا النجم^(١٤٢) معترضاً
يا مائل الرأس إن الليث مفترس
حذار من أسد ضرغامه بطل
لولا يزيد لأضحى الملك مطرداً^(١٤٣)
سل الخليفة سيفاً من بني مطر
كم صائل في ذرا تمهيد مملكة
ناب الإمام الذي يفتر عنه إذا
من كان يختل قرناً عند موقفه
سد الثغور يزيد بعد ما انفرجت
كم قد أذاق حمام الموت من بطل
أغر أبيض يغشى البيض أبيض لا
يغشى الوغى وشهاب الموت في يده
يفتر عند افترار الحرب مبتسماً

مني بنات غذاء الكرم والكلل^(١٣٧)
قصرته بلقاء الراح والخلل
هتكت فيها الصبا عن بيضة الحجل
شرب المدام وعزف القينة العطل
شكواي فاحمر خداها من الخجل
أيامه بالصبا واللهو والجذل
كافأته بمديح فيه متخل^(١٤٠)
أنضيتها بوجيف الأنيق الذلل
دنا النجاء وحان السير فارتحل
ميل الجماجم والأعناق فاعتدل
لا يولغ السيف إلا مهجة البطل
أو مائل السمك أو مسترخي الطول
أقام قائمه من كان ذا ميل
لولا يزيد بني شيبان لم يصل
ما افترت الحرب عن أنيابها العصل
فإن قرن يزيد غير مختل
بقائم السيف لا بالختل والحيل
حامي الحقيقة لا يؤتى من الوهل
يرضى لمولاه يوم الروع بالفشل
يرمي الفوارس والأبطال بالشعل
إذا تغير وجه الفارس البطل

كأنه أجل يسعى إلى أمل
كالموت مستعجلاً يأتي على مهل
من هالك وأسير غير محتل
بين العطية والإمساك والعلل
عن النفوس مطلات على الهبل^(١٤٤)
كالبيت^(١٤٥) يضحي إليه ملتقى السبل
يقري الضيوف شحوم الكرم والبرز^(١٤٦)
ويجعل الهام تيجان القنا الذبل
شوارعاً تتحدى الناس بالأجل
عبي لها الموت بين البيض والأسل
فهن يتبعنه في كل مرتحل
لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل
فك العناية^(١٤٧) وأسر الفاتك الخطل
ولا يمسح عينيه من الكحل
مسالك الموت في الأبدان والقلل
حي الرجاء ومات الخوف من وجل
لا يستريح إلى الأيام والدول
أزمعن عن جار شيبان بمنتقل
إذ لم يكن كان في أعصاره الأول
تكلم الفخر عنه غير منتحل
وراثه في بني شيبان لم تزل

موف على مهج واليوم ذور هج
ينال بالرفق ما يعيا الرجال به
لا يلحق الحرب إلا ريث ينتجها
إن شيم بارقه حالت خلائقه
يغشي المنايا المنايا ثم يفرجها
لا يرحل الناس إلا نحو حجرته
يقري المنية أرواح الكماة كما
يكسو السيوف دماء الناكثين به
يغدو فتغدو المنايا في أسنته
إذا طغت فئة عن غب طاعتها
قد عود الطير عادات وثقن بها
تراه في الأمن في درع مضاعفة
ضافي العنان طموح العين همته
لا يعبق الطيب خديه ومفرقه
إذا انتضى سيفه كانت مسالكه
وإن خلت بحديث النفس فكرته
كالليث إن هجته فالموت راحته
إن الحوادث لما رمن هضبته^(١٤٨)
فالدهر يغبط أولاه وأواخره
إذا الشريكي^(١٤٩) لم يفخر على أحد
لا تكذبن فإن الحلم معدنه

سلوا السيوف فأغشوا من يحاربهم
الزائديون قوم في رماحهم
كبيرهم لا تقوم الراسيات له
اسلم يزيد فما في الدين من أود
أثبت سوق بني الإسلام فاطأت^(١٥٠)
لولا دفاعك بأس الروم إذ بكرت
ويوسف^(١٥٢) البرم قد صبحت عسكره
غافسته^(١٥٣) يوم عبر النهر مهلته
والمارق ابن طريف^(١٥٤) قد دلفت له
لما رآك مجداً في منيته
شام النزال فأبرقت اللقاء له
ماتوا وأنت غليل في صدورهم
لو أن غير شريكى أطاف به
وقمت بالدين يوم الرس^(١٥٦) فاعتدلت
ما كان جمعهم لما لقيتهم
تابوا ولو لم يتوبوا من ذنوبهم
كم آمن لك نائي الدار ممتنع
يأبى لك الذم في يوميك إن ذكرا
ومارقين غزاة من بيوتهم
خلفت أجسادهم والطير عاكفة
فافخر فما لك في شيبان من مثل

خطبأ بها غير ما نكل ولا وكل
خوف المخيف وأمن الخائف الوجل
حلما وطفلهم في هدى مكتهل
إذا سلمت وما في الملك من خلل
يوم الخليج وقد قامت على زلل
عن^(١٥١) عترة الدين لم تأمن من الثكل
بعسكر يلفظ الأقدار ذي زجل
وكان محتجزاً في الحرب بالمهل
بعسكر للمنايا مسبل هطل
وأن دفعك لا يسطاع بالحيل
مقدم الخطو فيها غير متكل
وكان سيفك يستشفي من الغلل
فاز الوليد بقدح الناضل^(١٥٥) الخصل
منه قوائم قد أوفت على ميل
إلا كمثل نعام ريع منجفل
لآب جيشك بالأسرى وبالنفل
أخرجته من حصون الملك والحوّل
عضب حسام وعرض غير مبتذل
لا ينكلون ولا يؤتون من نكل
فيها وأقفلتهم هاما مع القفل
كذاك ما لبنى شيبان من مثل

كم مشهد لك لا تحصى مآثره قسمت فيه كرزق الإنس والخبيل
 لله من هاشم في أرضه جبل وأنت وابنك ركننا ذلك الجبل
 قد أعظموك فما تدعي لهينة إلا لمعضلة تستن^(١٥٧) بالعضل
 يا رب مكرمة أصبحت واحداها أعيت صنابير راموها فلم تنل
 تشاغل الناس بالدنيا وزخرفها وأنت من بذك المعروف في شغل
 أقسمت ماذب عن جدواك طالباها ولا دفعت اعتزام الجدد بالهزل
 يأبى لسانك منع الجود سائله فما يلجج بين الجود والبخل
 صدقت ظني وصدقت الظنون به وحط جودك عقد الرحل عن جملي

فقال له يزيد: قد أمرنا لك بخمسين ألف درهم فاقبضها واعذر؛ فخرج الحاجب فقال لمسلم: قد أمرني أن أرهن ضيعة من ضياعه على مائة ألف درهم: خمسون ألفاً منها لك وخمسون ألفاً لنفقتة، فأعطاه إياها. وكتب صاحب الخبر بذلك إلى الرشيد، فأمر ليزيد بمائتي ألف درهم وقال: اقض الخمسين ألفاً التي أخذها الشاعر وزده مثلها، وخذ مائة ألف لنفقتك، فافتك ضيعة وأعطى مسلماً خمسين ألفاً أخرى. ولما أنشده «لا يعقب الطيب» البيت. قال لجاريتته: حرم علينا مسلم الطيب.

كان دواد بن يزيد بن حاتم المهلبى يجلس للشعراء في السنة مجلساً واحداً، فيقصده لذللك اليوم وينشدونه، فوجه إليه مسلم راويته بقصيدته التي أولها: «لا تدع بي الشوق» فقدم عليه يوم جلوسه للشعراء ولحقه بعقب خروجهم عنه، فتقدم إلى الحاجب وحسر لثامه عن وجهه، ثم قال له: استأذن لي على الأمير؛ قال: ومن أنت؟ قال: شاعر، قال: قد انصرم وقتك وانصرف الشعراء وهو على القيام؛ فقال له: ويحك! إني قد وفدت على الأمير بشعر ما قالت العرب

مثله، وكان مع الحاجب أدب يفهم به ما يسمع، فقال: هات حتى أسمع، فإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك إليه؛ فأنشده بعض القصيدة، فسمع شيئاً يقصر عنه الوصف، فدخل على دواد فقال له: قدم على الأمير شاعر بشعر ما قيل فيك مثله؛ فقال: أدخل قائله؛ فلما مثل بين يديه سلم وقال: قدمت على الأمير - أعزه الله - بمدح يسمعه فيعلم تقدمي على غيري ممن امتدحه؛ فقال: هات، فلما افتتح القصيدة وقال: «لا تدع بي الشوق» استوى جالساً وأطرق حتى أتى الرجل على آخر الشعر، ثم رفع رأسه إليه فقال: أهذا شعرك؟ قال: نعم أيها الأمير؛ قال: في كم قلته يا فتى؟ قال: في أربعة أشهر أبقاك الله؛ قال: لو قلته في ثمانية أشهر لكنت محسناً، وقد اهتمت، لجودة شعرك وخول ذكرك، فإن كنت قائل هذا الشعر فقد أنظرتك أربعة أشهر في مثله، وأمرت بالإجراء عليك، فإن جئتنا بمثل هذا الشعر وهبت لك مائة ألف درهم وإلا حرمتك، فقال: أو الإقالة أعز الله الأمير، قال: قد أقلتك؛ قال: الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك بشعره؛ فقال: أنا ابن حاتم، إنك لما افتتحت شعره فقلت: «لا تدع بي الشوق إني غير معمود» سمعت كلام مسلم يناديني، فأجبت نداءه واستويت جالساً؛ ثم قال: يا غلام، أعطه عشرة آلاف درهم، واحمل الساعة إلى مسلم مائة ألف درهم. وهذه هي القصيدة:

لا تدع بي الشوق إني غير معمود	نهى النهى عن هوى الهيف الرعايد ^(١٥٨)
لو شئت لا شئت راجعت الصبا ومشت	في العيون وفاتتني بمجلود ^(١٥٩)
سل ليلة الخيف هل أمضيت آخرها	بالراح تحت نسيم الخرد الغيد
شجبتها بلعاب المزن فاغترلت ^(١٦٠)	نسجين من بين محلول ومعقود
كلا الجديدين قد أطعمت خبرته ^(١٦١)	لو آل حي إلى عمر وتخليد
أهلا بوافدة للشيب واحدة	وإن تراءت بشخص غير مودود

لا أجمع الحلم والصهباء قد سكنت
لم ينهني فند^(١٦٢) عنها ولا كبر
أوفى بي الحلم واقتاد النهى طلقا
إذا تجافت بي الهلمات عن بلد
لا تطبيني^(١٦٣) المنى عن جهد مطلب
ومجهل كاطراد السيف محتجز
تمشي الرياح به حسري موهلة
موقف المتن لا تمضي السبيل به
قريته الوخد من خطارة^(١٦٤) سرح
إليك بادرت إسفار الصباح بها
وبلدة ذات غول لا سبيل بها
كأن أعلامها والآل يركبها
كلفت أهولها عيناً مؤرقة
حتى أتتك بي الآمال مطلقاً
من بعد ما ألفت الأيام لي عرضاً
وساورتني بنات الدهر فامتحننت
إلى بني حاتم أدى ركائبنا
تطوي النهار فإن ليل تخمطها^(١٦٧)
مثل السمام^(١٦٨) بعيدات المقييل إذا
حلت بدادود فامتاحت وأعجلها
أعطي فأفنى المنى أدنى عطيته

نفسي إلى الماء عن ماء العناقيد
لكن صحوت وغصني غير مخضود
شأوي وعفت الصبا من غير تفنيد
نازعت أرضاً ولم أحفل بتمهيد
ولا أحول لشيء غير موجود
عن الأدلاء مسجور الصياخيد
حيرى تلوذ بأطراف الجلاميد
إلا التخلل ريثاً بعد تجهيد
تفري الفلاة بإرقال وتوخيد
من جنح ليل رحيب الباع ممدود
إلا الظنون وإلا مسرح السيد
بدن توافي بها نذر إلى عيد
إليك لولاك لم تكحل بتسعيد
لليسر عندك في سربال محسود
ملقى رهين^(١٦٥) لحد السيف مصفود
ربعي بممحلة^(١٦٦) شهباء جارود
خوض الدجى وسرى المهرة القود
باتت تخمط هامات القرديد
ألقى الهجير يدًا في كل صيخود
حذو النعال على أين وتحريد^(١٦٩)
وأرهب الوعد نجحاً غير منكود

والله أطفأ نار الحرب إذ سعرت
لم يأت أمرًا ولم يظهر على حدث
موحد الرأي تشق الظنون له
تمنى الأمور له من نحو أوجهها
إذا أباحت حمى قوم عقوبته
كالليث بل مثله الليث الهصور إذا
يلقى المنية في أمثال عدتها
إن قصر الرمح لم يمش الخطا عددًا
إذا رعى بلدًا داني مناهله
جرى فأدرك لم يعنف بمهله
آل المهلب قوم لا يزال لهم
مظفرون تصيب الحرب أنفسهم
نجل مناجيب لم يعدم تلادهم
قوم إذا هداة^(١٧٣) شامت سيوفهم
نفسى فداؤك يا دواد إذ علقت
داويت من دائها كرماني وانتصفت
ملأتها فزعًا أخلى معاقلها
لما نزلت على أدنى بلادهم
لمستهم بيد للعفو متصل
أتيهم من وراء الأمن مطلعًا
وطار في إثر من طار الفرار به

شرقًا بموقدها في الغرب داود
إلا أعين بتوفيق وتسديد
عن كل ملتبس منها ومعقود
وإن سلكن سبيلًا غير مورود
غادى له العفو قومًا بالمراسيد
غنى الحديد غناء غير تغريد
كالسيل يقذف جلمودًا بجلمود
أو عرد السيف لم يههم بتغريد
وإن بنين على شحط وتبعد
واستودع البهر^(١٧٠) أنفاس المجاويد
رق الصريح^(١٧١) وأسلاب المذاويد
إذا الفرار تمطى بالمحايد^(١٧٢)
فتى يرجى لنقض أو لتوكيد
فإنها عقل الكوم المقاحيد
أيدي الردى بنواصي الضمر القود
بك المتون لأقوام مجاهيد
من كل أبلخ^(١٧٤) سامي الطرف صناديد
ألقى إليك الأقاصي بالمقاليد
بها الردى بين تليين وتشديد
بالخيل تردي بأبطال مناجيد
خوف يعارضه في كل أخذود

فاتوا الردى وظبات الموت تنشدهم
ولو تلبث ديان^(١٧٥) لها رويت
أحرزه أجل ما كاد يحزره
ورأس مهران قد ركبت قلته
قد كان في معزل حتى بعثت له
أجن أم أسلمته الفاضحات إلى
ألحقته صاحبيه فاستمر بهم
أعذر^(١٧٨) من فر من حرب صبرت لها
يوم استضبت سجستان^(١٧٩) طوائفها
ناهضتهم ذائد الإسلام تقررهم
تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها
تلك الأزارق إذ ضل الدليل بها
كان الحصين يرجى أن يفوز بها
ما زال يعنف بالنعمة ويغمطها
وضعته حيث ترتاب^(١٨٠) الرياح به
تغدو الضواري فترميه بأعينها
يتبعن أفياءه^(١٨١) طورًا وموقعه
فكان فارط قوم حان مكرهم
يوم جراحة إذ شيبان موجفة^(١٨٢)
زاحفته بابن سفيان فكان له
نجا قليلًا ووافي زجر عائفه

وأنت نصب المنايا غير منشود
منه ولكن شأها عدو مرزود
فمريطوى على أحشاء مفئود^(١٧٦)
لدنا كفاه مكان الليت والجيد
أم المنية في أبنائها الصيد
حد من السيف من يعلق به يود
ضرب يفرق ضبات^(١٧٧) القماحيد
يوم الحصين شعار غير مجحود
عليك من طالب وترا ومحقود
عنه ثلاث ومثنى بالمواحيد
والجود بالنفس أقصى غاية الجود
لم يخطها القصد من أسياف داود
حتى أخذت عليه بالأخاديد
حتى استقل به عود على عود
وتحسد الطير فيه أضبع البید
تستنشق الجو أنفاسًا بتصعيد
يلغن في علق منه وتجسيد
بأرض زادن شتى في الموارد
ينجون منك بشلو منه مقدود
ثناء يوم بظهر الغيب مشهود
بيومه طير منحوس ومسعود

ولى وقد جرعت منه القنا جرعا
زالت حشاشته عن صدر معتدل
إذا السيوف أصابته تقطع في
يفدي بما نحلته من خلافته
حل اللواء وخال الخدر عائذه
وإن يكن شبها حرباً وقد خمدت
كل مثلت به في مثل خطته
عافوا رضاك فعاقبتهم بعقوتهم^(١٨٦)
وأنت بالسند إذ هاج الصريخ بها
واستغزر القوم كأساً من دمائهم
رددت أهمالها^(١٨٧) القصوى مخيسة
كنت المهلب حتى شك عالمهم
لم تقبل السلم إلا بعد مقدرة
حتى أجابوك من مستأمن حذر
أهدي إليك على الشحنة ألفتهم
وفي يديك بقايا من سراتهم
إن تعف عنهم فأهل العفو أنت وإن
اسمع فإنك قد هيبت ملحمة
أقذف أبا مالك فيها يكنك بها
يمضي بعزمك أو يجري بشأوك أو
لا يعد منك حمى الإسلام من ملك

حي المخافة ميتاً غير مودود
داني الكعوب بعيد الصدر أملود^(١٨٣)
سرادق بحوامي الخيل ممدود
حشاشة الركض من جرداء قيدود^(١٨٤)
فعاذ بالخدر ترب الكاعب الرود
فنائياً حيث لا هيد ولا هيد^(١٨٥)
قتلاً وأضجعت في غير ملحود
عن الحياة مناياهم لموعود
واستنفدت حربها كيد المكايد
وأحرق الموت بالكرار والحيد
وشمت بالبيض عورات المراسيد
ثم انفردت ولم نسبق بتسويد
ولا تألفت إلا بعد تبديد
راج ومنتظر حتفاً ومثمود
موت تفرق في شتى عباديد
هم لديك على وعد وتوعيد
تمض العقاب فأمر غير مردود
وفدت منها بأرواح الصناديد
ويسع فيها بجد منك مجدود
يفري بحدك كل غير محدود
أقمت قتلته من بعد تأويد

كفيت في الملك حتى لم يقف أحد
أعطيتهم منك نصحًا لا كفاء له
لم يبعث الدهر يومًا بعد ليلته
أجرى لك الله أيام الحياة على
لا يفقد الدين خيالًا أنت قائدها
محملات إذا آبت غنائمها
هناك أنك مغدى كل ملتمس
تستأنف الحمد في دهر أوائله
إذا عزمتم على أمر بطشت به
عودت نفسك عادات خلقت لها
دخل الوليد على الفضل بن سهل لينشده شعرًا، فقال له: أيها الكهل، إني
أجلك عن الشعر فسل حاجتك؛ قال: بل تستتم اليد عندي بأن تسمع، فأنشده:
دموعها من حذار البين تنسكب وقلبها مغرم من حرها يجب
جد الرحيل به عنها ففارقها لبينه اللهو واللذات والطرب
يهوى المسير إلى مرو ويحزنه فراقها فهو ذو نفسين يرتقب
فقال له الفضل: إني لأجلك عن الشعر؛ قال: فأغنيي بما أحببت من عملك،
فولاه البريد بجرجان^(١٨٨).

هجا مسلم قريشًا وفخر بالأنصار بشعر يمثل لك ناحية من نواحي العصبية
بين القبائل وهو يعتبر، إلى حد ما، من الشعر السياسي، فقال:

قل لمن تاه إذ بنا عز جهلا ليس بالتيه يفخر الأحرار
فتناها وأقصروا فلقد جا رت عن القصد منكم الأبصار

أيكم حاط ذا جوار بعز
أورجا أن يفوت قومًا بوتر
لم يكن ذاك فيكم فدعوا الفخ
ونزارًا ففاخروا تفضلوهم
فبنا عز منكم الذل والده
حاذروا دولة الزمان عليكم
فتردوا ونحن للحالة الأو
فاخرتنا لما بسطنا لها الفخ
ذكرت عزها وما كان فيها
إنما كان عزها في جبال
أيها الفاخرون بالعز والع
أخبرونا من الأعز أألمد
فلنا العز قبل عز قريش
فانبرى له ابن قنبر يجيبه فقال:

ألا امثل أمير المؤمنين بمسلم
ولا ترجعن عن قتله باستتابة
ولا عن مساواة له ولقومه
ويفخر بالأنصار جهلاً على الذي
وسموا به الأنصار لا عز قائل
ومنهم رسول الله أذكى من انتمى
وما كانت الأنصار قبل اعتصامها
وأقلق به الأحشاء من كل مجرم
فما هو عن شتم النبي بمجرم
قريشاً بأصداء لعاد وجرحهم
بنصرته فازوا بحظ ومغنم
أراد قريشاً بالمقام المذمم
إلى نسب زاك ومجد مقدم
بنصر قريش في المحل المعظم

صداء وخولان ولخم وسلهم
قريشاً ومن يستعصم الله يعصم
من الذل من باب من العز مبهم
كريم ومن لا ينكر الظلم يظلم
على الخلق طراً من فصيح وأعجم
يمد إليهم كف أجزم أعسم
بمولى يمانى وببيت مهدم
مقام به من لؤم مبنى ومدعم
يباعون ما ابتيعوا جميعاً بدرهم
ولكنه من نسل علج ملكم
إليهم فلم يكرم ولما يكرم
مواليه لا من يدعي بالتزعم
بقافية تستكره الجلد بالدم
لأقلف منقوش الذراع موشم
بنفيكموه من مقال ومأثم
إذا اختلفت فيكم صوارد أسهمي
إذا اطلعت من كل فج ومعلم
ولستم بأبناء السنام المقدم
فيسمو بكم مولى مسام ويتتمي
ببيتكم الرث القصير المهدم
عليه وأكوي متماه بميسمي

ولا بالألى يعلون أقدار قومهم
ولكنهم بالله عاذوا ونصرهم
فعزوا وقد كانوا وفطيون فيهم
يسومهم الفطيون ما لا يسامه
وإن قريشاً بالمآثر فضلت
فما بال هذا العلج ضل ضلاله
يسامي قريشاً مسلم وهم هم
إذا قام فيه غيرهم لم يكن لهم
جعايسس^(١٨٩) أشباه القروء لو انهم
وما مسلم من هؤلاء ولا ألى
تولى زماناً غيرهم ثمت ادعى
فإن يك منهم فالنضير ولفهم
وإن تدعه الأنصار مولى أسمهم
عقاباً لهم في إفكهم وادعائهم
فلا تدعوه وانتفوا منه تسلموا
وإلا فغضوا الطرف وانتظروا الردى
ولم تجدوا عنها مجنا يجنكم
وأنتم بنو أذئاب من أنتم له
ولا يبني الرأس الرفيع محله
فكيف رضيتم أن يسامى نبيكم
سأحطم من سامى النبي تطاولا

أيعدل بيت بشرى بكعبة ثوتها قريش في المكان المحرم
 قريش خيار الله والله خصهم بذلك فاتعس أيها العليج وارغم
 ومن تدعي منه الولاء مؤخر إذا قيل للجاري إلى المجد أقدم
 وكان مسلم قال قصيدته في قريش وكتمها، فوقعت إلى ابن قنبر وأجابه عنها،
 فاستعلى عليه وهتكه وأغرى به السلطان، فلم يكن عند مسلم في هذا جواب
 أكثر من الانتفاء منها ونسبتها إلى ابن قنبر والادعاء عليه أنه ألصقها به ونسبها
 إليه ليعرضه للسلطان وخافه، فقال يتنفي من هذه القصيدة:

دعوت أمير المؤمنين ولم تكن هناك ولكن من يخف يتجشم
 وإنك إذ تدعوا الخليفة ناصراً لكالمترقي في السماء بسلم
 كذاك الصدى تدعوه من حيث لا ترى وإن تتوهمه تمت في التوهم
 هجوت قريشاً عامداً ونحلتني رويدك يظهر ما تقول فيعلم
 إذا كان مثلي في قبلي فإنه على ابن لؤي قصرة غير متهم
 سكشفك التعديل عما قذفتني به فتأخر عارفاً أو تقدم
 فإن قريشاً لا يغادر ودها ولا يستمال عهدا بالترحم
 مضى سلف منهم وصلّى بعقبهم لنا سلف في الأول المتقدم
 جروا فجرينا سابقين بسبقهم كما اتبعت كف نواشر معصم
 وإن الذي يسعى ليقطع بيننا كملت المسير في حجر أرقم
 أضلك قرع الأبدات طريقها فأصبحت من عميائها في تميم
 وخانتك عند الجري لما اتبعتها تميم فحاولت العلا بالتحم
 فأصبحت ترميني بسهمي وتتقي يدي بيدي أصليت نارك فاضرم
 ثم هجاه ابن قنبر بقصيدة أولها:

قل لعبد النضير مسلم الوغد سد الدني اللئيم سنخ النصاب
اخس يا كلب إذ نبحت فإني لست ممن يحيب نبخ الكلاب
أفأرضي ومنصبي منصب العد عز وبيتي في ذروة الأحساب
أن أخط الرفيع من سمك بيتي بمهاجاة أوشب الأوشاب
من إذا سيل من أبوه بدا من ه حياء يحميه رجع الجواب
وإذا قيل حين يقبل من أن ت ومن تعزیه في الأنساب
قلت هاجي ابن قنبر فتسربل ت بذكري فخرًا لدى النساب

وهي قصيدة طويلة فلم يحبه عنها مسلم بشيء فقال فيه ابن قنبر أيضًا:

لست أنفيك إن سواي نفاكا عن أبيك الذي له متماكا
ولماذا أنفيك يابن الوليد من أب إن ذكرته أخزاکا
ولو أني طلبت الأم منه لم أجده إن لم تكن أنت ذاكا
لو سواه أبوك كان جعلنا ه إذا الناس طاعونا أباکا
حاك دهرًا بغير حذق لبرد وتحوك الأشعار أنت كذاكا

ثم هجاه بشعر أفذع فيه، فمشى إليه قوم من مشايخ الأنصار واستعانوا بمشيخة من قراء تميم وذوي الفضل والعلم، فمشوا معهم إليه، فقالوا: ألا تستحي من أن تهجو من لا يحبيك! أنت بدأت الرجل فأجابك، ثم عدت فكف، وتجاوزت ذلك إلى ذكر أعراض الأنصار التي كان رسول الله ﷺ يحميها ويذب عنها ويصونها لغير حال أحلت ذلك منهم، فما زالوا به يعظونه ويقولون له كل قول حتى أمسك عن المناقضة لمسلم فانقطعت.

ولمسلم بن الوليد:

لكالغمد يوم الروح فارقه النصل
وسائل أدتها المودة والوصل
بذكرك نأى عن ضميري ولا شغل
لنأيك لا مال لدي ولا أهل
وقيل الخنا والحلم والعلم والجهل
وألقاك في محمودها ولك الفضل
بعرضك لا بالمال حاشالك البخل
دع الثقل واحمل حاجة ما لها ثقل
وليس له إلا بني خالد أهل
فكالوحش يستدنيه للقنص المحل

وإني وإسماعيل يوم وداعه
أما والحبالات الممرات بيننا
لما خنت عهداً من إخاء ولا نأى
وإني في مالي وأهلي كأني
يذكرنيك الدين والفضل والحجا
فألفاك عن مذمومها متنزهاً
وأحمد من أخلاقك البخل إنه
أمتجعاً مروا بأثقال همة
ثناء كعرف الطيب يهدى لأهله
فإن أغش قوماً بعدهم أو أزورهم

وله يرثي يزيد بن مزيد:

تأمل أيها الناعي المشيد
به شفتاك كان به الصعيد
فما للأرض ويحك لا تميد
دعائمه وهل شاب الوليد
وهل وضعت عن الخيل اللبود
بدرتها وهل يخضر عود
بلى وتقوض المجد المشيد
طريف المجد والحسب التليد
عليك بدمعها أبداً تجود
فليس لدمع ذي حسب جمود

أحق إنه أودي يزيد
أتدري من نعت فكيف فاهت
أحامي المجد والإسلام أودي
تأمل هل ترى الإسلام مالت
وهل شमित سيوف بني نزار
وهل تسقي البلاد عشار مزن
أما هدت لمصرعه نزار
وحل ضريحه إذ حل فيه
أما والله ما تنفك عيني
فإن تجمد دموع لثيم قوم

أبعد يزيد تختزن البواكي دموعاً أو تصان لها حدود
لتبكك قبة الإسلام لما وهت أطناها ووهى العمود
ويبكك شاعر لم يبق دهر له نشباً وقد كسد القصيد
فمن يدعو الإمام لكل خطب ينوب وكل معضلة تئود
ومن يحمي الخميس إذا تعايا بحيلة نفسه البطل النجيد
فإن تهلك يزيد فكل حي فريس للمنية أو طريد
ألم تعجب له أن المنايا فتكن به وهن له جنود
لقد عزى ربيعة أن يومًا عليها مثل يومك لا يعود

(١٣) العباس بن الأحنف^(١٩٠):

قال إبراهيم بن العباس يصفه: كان والله ممن إذا تكلم لم يحب سامعه أن يسكت، وكان فصيحًا جميلًا ظريف اللسان، لو شئت أن تقول كلامه كله شعر لقلت. وقال صالح بن عبد الوهاب: كان العباس من عرب خراسان ومنشؤه ببغداد، ولم تزل العلماء تقدمه على كثير من المحدثين، ولا تزال قد ترى له الشيء البارع جدًا حتى تلحقه بالمحسنين. وقال الجاحظ: لولا أن العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم، وأوسعهم كلامًا وخاطرًا، ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد لا يجاوزه، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف، وما نعلم شاعرًا لزم فنًا واحدًا لزومه فأحسن فيه وأكثر.

أنشد الحرمازي للعباس بن الأحنف:

لا جزى الله دمع عيني خيرًا وجزى الله كل خير لساني
نم دمعي فليس يكتم شيئًا ورأيت اللسان ذا كتمان

كنت مثل الكتاب أخفاه طي فاستدلوا عليه بالعنوان
ثم قال: هذا والله طراز يطلب الشعراء مثله فلا يقدرّون عليه.
وكان أبو الهذيل العلاف ييغضه ويلعنه لقوله:

إذا أردت سلّوا كان ناصركم قلبي وما أنا من قلبي بمنتصر
فأكثروا أو أقلّوا من إساءتكم فكل ذلك محمول على القدر
فكان أبو الهذيل يلعنه ويقول: يعقد الكفر والفجور في شعره، فقال العباس -
وقال محمد بن يحيى: وأظن أن يهجو به أبا الهذيل وما سمعت للعباس هجاء
غيره:

يا من يكذب أخبار الرسول لقد أخطأت في كل ما تأتي وما تذر
كذبت بالقدر الجاري عليك فقد أتاك مني بما لا تشتهي القدر
قيل للأصمعي: ما أحسن ما تحفظ للمحدثين؟ قال: قول العباس بن
الأحنف:

لو كنت عاتبة لسكن روعتي أملي رضاك وزرت غير مراقب
لكن مللت فلم تكن لي حيلة صد الملول خلاف صد العاتب
ومما أنشده له إبراهيم بن العباس:

قالت ظلوم سمية الظلم مالي رأيك ناحل الجسم
يا من رمى قلبي فأقصده أنت العليم بموضع السهم
ولشعره الغزلي، وقع في النفس، فإنهم كانوا يغنون كثيراً منه كقوله:
لو كنت عاتبة لسكن روعتي أملي رضاك وزرت غير مراقب
لكن مللت فلم تكن لي حيلة صد الملول خلاف صد العاتب
وأنشده له الأصمعي:

أتأذنون لصب في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمم السوء إن طال الجلوس به عف الضمير ولكن فاسق النظر
فقال: ما زال هذا الفتى يدخل يده في جرابه فلا يخرج شيئاً حتى أدخلها
فأخرج هذا، ومن آدم من طلب شيء ظفر ببعضه.
وقال سعيد بن جنيده: ما أعرف أحسن من شعر العباس في إخفاء أمره حيث
يقول:

أريدك بالسلام فأتقيهم فأعمد بالسلام إلى سواك
وأكثر فيهم ضحكي ليخفى فسني ضاحك والقلب باك
ومما تمثل به الواثق في شر كان بينه وبين بعض جواريه:

عدل من الله أبكاني وأضحكها فالحمد لله عدل كل ما صنعا
اليوم أبكي على قلبي وأندبه قلب ألح عليه الحب فانصدعا
ومما تمثل به أيضاً في مثل ذلك:

أما تحسبيني أرى العاشقين بلى ثم لست أرى لي نظيراً
لعل الذي بيديه الأمور سيجعل في الكره خيراً كثيراً
وقال الزبير: ابن الأحنف أشعر الناس في قوله:

تعتل بالشغل عنا ما تكلمنا الشغل للقلب ليس الشغل للبدن
ويقول: لا أعلم شيئاً من أمور الدنيا خيرها وشرها إلا وهو يصلح أن يتمثل
فيه بهذا النصف الأخير.

وقال إسحاق: لقد ظرف ابن الأحنف في قوله - يصف طول عهده بالنوم:

قفا خبراني أيها الرجالان عن النوم إن الهجر عنه نهائي
وكيف يكون النوم أم كيف طعمه صفا النوم لي إن كتتما تصفان

على قلة إعجابه بمثل هذه الأشعار.

قال أحمد بن إبراهيم: رأيت سلمة بن عاصم ومعه شعر العباس بن الأحنف،
وقلت مثلك أعزك الله يحمل هذا! فقال: ألا أحمل شعر من يقول:

أسأت إذ أحسنت ظني بكم والحزم سوء الظن بالناس
يقلقني الشوق فآتيكم والقلب مملوء من الياس
وقال أحمد بن إبراهيم: أتاني أعرابي فصيح ظريف، فجعلت أكتب عنه أشياء
حساناً، ثم قال: أنشدني لأصحابكم الحضرين، فأنشدته للعباس بن الأحنف:
ذكرتك بالتفاح لما شممته وبالراح لما قابلت أوجه الشرب
تذكرت بالتفاح منك سوالفاً وبالراح طعماً من مقبلك العذب
فقال: هذا عندك وأنت تكتب عني! لا أنشدك حرفاً بعد هذا.

وقال عبد الله بن العباس بن الفضل: ما أعرف في العراق أحسن من قول
ابن الأحنف:

سبحان رب العلاما كان أغفلني عما رمتني به الأيام والزمن
من لم يذق فرقة الأحباب ثم يرى آثارهم بعدهم لم يدر ما الحزن
قال حسين بن الضحاك: لو جاء العباس بقول ما قاله في بيتين في أبيات
لعذر، وهو قوله:

لعمرك ما يستريح المحب حتى يبوح بأسراره
فقد يكتُم المرء أسراره فتظهر في بعض أشعاره
ثم قال: أما قوله في هذا المعنى الذي لم يتقدمه فيه أحد فهو:

الحب أملك للفؤاد بقهره من أن يرى للستر فيه نصيب
وإذا بدا سر اللبيب فإنه لم يبد إلا والفتى مغلوب

وقال أبو العتاهية: ما حسدت أحداً إلا العباس بن الأحنف في قوله:
إذا امتنع القريب فلم تنله على قرب فذاك هو البعيد
وقال الكندي: العباس بن الأحنف مليح ظريف حكيم جزل في شعره،
وكان قليلاً ما يرضيني الشعر، فكان ينشد له كثيراً:

ألا تعجبون كما أعجب حبيب سيء ولا يعتب
وأبغي رضاه على سخطه فيأبى علي ويستصعب
فيا ليت حظي إذا ما أسأ ت أنك ترضى ولا تغضب
وكان إبراهيم الموصلی مشغوقاً بشعر العباس فيغني في كثير من شعره، فمما
غنى فيه:

وقد ملئت ماء الشباب كأنها قضيب من الريحان ريان أخضر
هم كتموني سيرهم حين أزمعوا وقالوا اتعدنا للروح وبكروا
ومنه:

تمنى رجال ما أحبوا وإنما تمنيت أن أشكو إليك وتسمعا
أرى كل معشوقين غيري وغيرها قد استعذبا طول الهوى وتمتعا
ومنه:

بكت عيني لأنواع من الحزن وأوجاع
وإني كل يوم عند دكم يحظى بي الساعي
أعيش الدهر إن عشت بقلب منك مرتاع
وإن حل بي البعد سينعاني لك الناعي
وقال الواثق لجلسائه: أريد أن أصنع لحناً في شعر معناه أن الإنسان كائنًا من كان
لا يقدر على الاحتراس من عدوه، فهل تعرفون في هذا شيئاً؟ فأنشدوه ضروباً

من الأشعار، فقال: ما جئتم بشيء مثل قول العباس بن الأحنف:

قلبي إلى ما ضرني داعي يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي
أسلمني للحب أشياعي لما سعى بي عندها الساعي
لقلما أبقى على كل ذا يوشك أن ينعاني الناعي
ومما غنى فيه من شعرة:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
وقال إبراهيم بن العباس: ما رأيت كلامًا محدثًا أجزل في رقة، ولا أصعب في
سهولة، ولا أبلغ في إيجاز، من قول العباس بن الأحنف:

تعالى نجدد دارس العهد بيننا كلانا على طول الجفاء ملوم
وأنشد إبراهيم بن العباس للأحنف:
إن قال لم يفعل وإن سئل لم يذل وإن عوتب لم يعتب
صب بعصيانى ولو قال لي لا تشرب البارد لم أشرب
إليك أشكو رب ما حل بي من صد هذا المذنب المغضب
ثم قال: هذا والله الكلام الحسن المعنى، السهل المورد، القريب المتناول،
الملح اللفظ، العذب المستمع.
ومما غنى فيه من شعرة:

نام من أهدي لي الأرقا مستريحًا سامني قلعا
لو بيت الناس كلهم بسهادي بيض الحدقا
كان لي قلب أعيش به فاصطلى بالحب فاحترقا
أنا لم أرزق مودتكم إنما للعبد ما رزقا

وقال ابن المعتز: لو قيل: ما أحسن شيء تعرفه لقلت: شعر العباس بن الأحنف:

قد سحب الناس أذيال الظنون بنا وفرق الناس فينا قولهم فرقا

فكاذب قد رمى بالحب غيركم وصادق ليس يدري أنه صدقا

ومما تمثل به الفضل بن الربيع في أمر كان بينه وبين إحدى جواريه:

تحمل عظيم الذنب ممن تحبه وإن كنت مظلوماً فقل أنا ظالم

فإنك إلا تغفر الذنب في الهوى يفارقك من تهوى وأنفك راغم

أنشد مخلد الموصللي قصيدته التي يقول فيها:

كل شيء أقوى عليه ولكن ليس لي بالفراق منك يدان

فجعل يستحسنه ويردده؛ فقال له عبد الله بن ربيعة الرقي: أنت الفداء لمن

ابتدأ هذا المعنى فأحسن فيه حيث يقول - وهو العباس بن الأحنف:

سلبتني من السرور ثيابا وكستني من الهموم ثيابا

كلما أغلقت من الوصل باباً فتحت لي إلى المنية بابا

عذبيني بكل شيء سوى الصد فما ذقت كالصدود عذابا

قال الرياشي - وقد ذكر عنده العباس بن الأحنف -: والله لو لم يقل من

الشعر إلا هذين البيتين لكفيا:

أحرم منكم بما أقول وقد نال به العاشقون من عشقوا

صرت كأني ذبالة نصبت تضيء للناس وهي تحترق

ألف الرشيد العباس بن الأحنف، فلما خرج إلى خراسان طال مقامه بها، ثم خرج إلى أرمينية والعباس معه، فاشتاق إلى بغداد، فعارضه في طريقه، فأنشده:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفور فقد جئنا خراسانا

ما أقدر الله أن يدني على شحط سكان دجلة من سكان جيحانا

مضى الذي كنت أرجوه وآمله أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
عين الزمان أصابتنا فلا نظرت وعذبت بصنوف الهجر ألونا
فقال له الرشيد: قد اشتقت يا عباس، وأذنت لك خاصة، وأمر له بثلاثين
ألف درهم.

وقال مصعب الزبيري: العباس بن الأحنف وعمر بن أبي ربيعة ما ابتذلا
شعرهما في رغبة ولا رهبة، ولكن فيما أحباه، فلزما فنًا واحدًا لو لزمه غيرهما
ممن يكثر إكثارهما لضعف فيه.

(١٤) ابن مناذر^(١٩١)؛

كان ينحو نحو عدي بن زيد في شعره، ويميل إليه ويقدمه، وقد مدح
آل برمك وغيرهم. ولما نكبت البرامكة وآلت الوزارة إلى عدوهم الفضل
ابن الربيع أصبح شعراء البرامكة في خطر، فأراد ابن مناذر أن يتقرب إلى
الرشيد طلبًا للرزق، فاغتنم ذهابه إلى الحج وتقدم إليه يوم التروية بقصيدة،
فلاح البشر في وجه الرشيد؛ فقال الفضل بن الربيع للرشيد: هذا شاعر
البرامكة! فعبس الرشيد؛ فقال الفضل: مره أن ينشدك قوله فيهم: أتانا بنو
الأملاك من آل برمك؛ فأمره، فاعتذر، فألح عليه، فأنشده هذه القصيدة التي
يطري بها البرامكة:

أتانا بنو الأملاك من آل برمك	فيا طيب أخبار ويا حسن منظر
إذا وردوا بطحاء مكة أشرقت	بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فتظلم بغداد ويجلو لنا الدجى	بمكة ما حجوا ثلاثة أقر
فما صلحت إلا لجود أكفهم	وأرجلهم إلا لأعواد منبر
إذا راض يحيى الأمر ذلت صعا به	وحسبك من راع له ومدبر

ترى الناس إجلالاً له وكأنهم غرائق^(١٩٢) ماء تحت باز مصرصر^(١٩٣)

ولما فرغ منها أتبع ذلك قوله: «كانوا أولياءك يا أمير المؤمنين لما مدحتهم» فأمر الرشيد أن يلطم، فلطموه، وأمر أن يسحب، فسحبوه، وخرج لا يلوي على شيء؛ فلقيه أبو نواس فدفع إليه صرة فيها ثلثمائة دينار، وقال له: استعن بهذه واعذرني. ولم يعد ابن مناذر يرى خيراً بعد البرامكة.

قال الحسن بن علي كنا عند باب سفيان بن عيينة وقد هرب منا وعنده الحسن بن علي التختاخ ورجل من أصحاب الرشيد، فخلا بهم وليس يأذن لنا، فجاء ابن مناذر فقرب من الباب ثم رفع صوته فقال:

بعمرو وبالزهري والسلف الألى	بهم ثبتت رجلاك عند المقادم
جعلت طوال الدهر يوماً لصالح	ويوماً لصباح ويوماً لحاتم
وللحسن التختاخ يوماً ودونهم	خصصت حسيناً دون أهل المواسم
نظرت وطال الفكر فيك فلم أجد	رحاك جرت إلا لأخذ الدراهم

فخرج سفيان وفي يده عصا وصاح: خذوا الفاسق؛ فهرب ابن مناذر منه وأذن لنا فدخلنا.

كان الرشيد قد وصل ابن مناذر مرات صلوات سنية، فلما مات الرشيد رثاه بقوله:

من كان يبكي للعلا	ملكاً وللهم الشريفه
فليبك هارون الخليفة	فه للخليفة للخليفة

قال علي بن محمد النوفلي: رأيت ابن مناذر في الحج سنة ثمان وتسعين ومائة وهو قد كف بصره تقوده جويرية حرة وهو واقف يشتري ماء قربة، فرأيته وسخ الثوب والبدن، فلما صرنا إلى البصرة أتنا وفاته في تلك الأيام.

كان يحيى بن زياد يرمى بالزندقة، وكان من أظرف الناس وأنظفهم، فكان يقال: أظرف من الزنديق، وكان الحاركي، واسمه محمد بن زياد، يظهر الزندقة تظارفاً؛ فقال فيه ابن مناذر:

يا بن زياد يا أبا جعفر أظهرت ديناً غير ما تخفي
مزندق الظاهر باللفظ في باطن إسلام فتى عف
لست بزنديق ولكني أردت أن توسم بالظرف
ومن قوله يرثي سفيان بن عيينة:

يجني من الحكمة نوارها ما تشتهي الأنفس ألوانا
يا واحد الأمة في علمه لقيت من ذي العرش غفرانا
راحوا بسفيان على نعشه والعلم مكسوين أكفانا
إن الذي غودر بالمنحنى هدم من الإسلام أركاننا
لا يبعدنك الله من ميت ورثنا علماً وأحزاننا
خطب أبو أمية امرأة من ثقيف فرد عنها، وتصدى للقاضي أن يضمه مالا من أموال اليتامى فلم يجبه إلى ذلك ولم يثق به؛ فقال فيه ابن مناذر:

أبا أمية لا تغضب علي فما جزاء ما كان فيما بيننا الغضب
إن كان ردك قوم عن فتاتهم ففي كثير من الخطاب قد رغبوا
قالوا عليك ديون ما تقوم بها في كل عام بها تستحدث الكتب
وقد تقحم من خمسين غايتها مع أنه ذو عيال بعد ما انشعوا
وفي التي فعل القاضي فلا تجدن فليس في تلك لي ذنب ولا ذنب
أردت أموال أيتام تضمنها وما يضمن إلا من له نسب

قال له جعفر بن يحيى قل في وفي الرشيد شعراً تصف فيه الألفة بيننا، فقال:

قد تقطع الرحم القريب وتكفر الذ
عمى ولا كتقارب القلبين
يدي الهوى هذا ويدي ذا الهوى
فإذا هما نفس ترى نفسين

(١٥) صالح بن عبد القدوس^(١٩٤)؛

كان متهمًا بالزندقة، فبلغ إلى المهدي خبر زندقته، فبعث إليه يستقدمه من دمشق، وكان قد رحل إليها وهو شيخ طاعن في السن، فلما جاء بغداد ومثل بين يدي المهدي قال له المهدي: ألسن القائل:

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رسمه
قال: بلى يا أمير المؤمنين! قال: وأنت لا تترك أخلاقك حتى تموت؟ فأمر به،
فقتل وصلب على جسر بغداد سنة ١٦٧ هـ. وأكثر شعره في الحكم الفلسفية.
ومن أحاسن أقواله القصيدة التي منها ذلك البيت، وهو يقول فيها:

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رسمه
إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنا عاد إلى نكسه
وإن من أدبته في الصبا كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقًا ناضرًا بعد الذي أبصرت من يسه

وقوله:

لا يعجبك من يصون ثيابه حذر الغبار وعرضه مبذول
ولربما افتقر الفتى فرأيته دنس الثياب وعرضه مغسول
وكان فيه ميل إلى العزلة والانقطاع عن الناس شأن الفلاسفة؛ ومن ذلك قوله:
أنست بوحدي ولزمت بيتي فتم العز لي ونما السرور
وأدبني الزمان فليت أني هجرت فلا أزار ولا أزور

ولست بقائل ما دمت حيًّا أقام الجند أم نزل الأمير
وهو القائل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
وله قصيدة حكيمية أخلاقية بديعة، وهي التي يقول فيها:

المرء يجمع والزمان يفرق ويظل يرقع والخطوب تمزق
ولأن يعادي عاقلاً خير له من أن يكون له صديق أحق
فارباً بنفسك أن تصادق أحقاً إن الصديق على الصديق مصدق
وزن الكلام إذا نطقت فإنما يبدي عقول ذوي العقول المنطق
ومن الرجال إذا استوت أخلاقهم من يستشار إذا استشير فيطرق
حتى يحل بكل واد قلبه فيرى ويعرف ما يقول فينطق
لا ألفينك ثاوياً في غربة إن الغريب بكل سهم يرشق
وله منها:

ما الناس إلا عاملان فعامل قد مات من عطش وآخر يغرق
والناس في طلب المعاش وإنما بالجد يرزق منهم من يرزق
لو يرزقون الناس حسب عقولهم ألفيت أكثر من ترى يتصدق
لكنه فضل المليك عليهم هذا عليه موسع ومضيق
وإذا الجنازة والعروس تلاقيا ورأيت دمع نوائح يترقرق
سكت الذي تبع العروس مبهتاً ورأيت من تبع الجنازة ينطق
بقي الذين إذا يقولوا يكذبوا ومضى الذين إذا يقولوا يصدقوا
وله من قصيدته المعروفة بالزينية:
وابداً عدوك بالتحية ولتكن منه زمانك خائفاً تترقب

واحذره إن لاقيته متبسماً
إن العدو وإن تقادم عهده
وإذا الصديق لقيته متملقاً
لا خير في ود امرئ متملق
يلقاك يحلف أنه بك واثق
يعطيك من طرف اللسان حلاوة
وصل الكرام وإن رموك بجفوة
واختر قرينك واصطفيه تفاخراً
إن الغني من الرجال مكرم
ويش بالترحيب عند قدومه
والفقر شين للرجال فإنه
واخفض جناحك للأقارب كلهم
ودع الكذوب فلا يكن لك صاحباً
وزن الكلام إذا نطقت ولا تكن
واحفظ لسانك واحترز من لفظه
والسر فاكتمه ولا تنطق به
وكذاك سر المرء إن لم يطوه
لا تحرصن فالحرص ليس بزائد
وارع الأمانة والخيانة فاجتنب
وإذا أصابك نكبة فاصبر لها
وإذا رميت من الزمان بريئة

فالليث يبدو نابه إذ يغضب
فالحقد باق في الصدور مغيب
فهو العدو وحقه يتجنب
حلو اللسان وقلبه يتلهب
وإذا توارى عنك فهو العقرب
ويروغ منك كما يروغ الثعلب
فالصفح عنهم والتجاوز أصوب
إن القرين إلى المقارن ينسب
وتراه يرجى ما لديه ويرهب
ويقام عند سلامه ويقرب
حقاً يهون به الشريف الأنسب
بتذلل واسمح لهم إن أذنبوا
إن الكذوب يشين حرّاً يصحب
ثرثارة في كل ناد تخطب
فالمرء يسلم باللسان ويعطب
إن الزجاجة كسرهما لا يشعب
نشرته ألسنة تزيد وتكذب
في الرزق بل يشقي الحريص ويتعب
واعدل ولا تظلم يطب لك مكسب
من ذا رأيت مسلماً لا ينكب
أو نالك الأمر الأشق الأصب

فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعوه من جبل الوريد وأقرب
واحذر مصاحبة اللئيم فإنه يعدي كما يعدي الصحيح الأجرب
واحذر من المظلوم سهماً صائباً واعلم بأن دعاءه لا يجب
ولقد نصحتك إن قبلت نصيحتي والنصح أغلى ما يباع ويوهب

(١٦) سعيد بن وهب^(١٩٥)؛

كان شاعراً مطبوعاً ومات في أيام المأمون، وأكثر شعره في الغزل والتشبيب بالمذكر، وكان مشغولاً بالعلمان والشراب، ثم تنسك وتاب وحج راجلاً على قدميه ومات على توبة وإقلاع ومذهب جميل، ومات وأبو العتاهية حي وكان صديقه فرثاه.

أخبر علي بن سليمان الأخفش عن محمد بن مزيد قال: حدثت عن بعض أصحاب أبي العتاهية قال: جاء رجل إلى أبي العتاهية ونحن عنده، فساره في شيء، فبكى أبو العتاهية، فقلنا له: ما قال لك هذا الرجل يا أبا إسحاق فأبكاك؟ فقال - وهو يحدثنا لا يريد أن يقول شعراً -:

قال لي مات سعيد بن وهب رحم الله سعيد بن وهب
يا أبا عثمان أبكيت عيني يا أبا عثمان أوجعت قلبي

قال: فعجبنا من طبعه، وإنه يحدث فكان حديثه شعراً موزوناً.

وكان سعيد بن وهب الشاعر البصري مولى بني سامة قد تاب وتزهد وترك قول الشعر، وكان له عشرة من البنين وعشر من البنات، فكان إذا وجد شيئاً من شعره خرقه وأحرقه، وكان امرأ صدق، كثير الصلاة، يزكي في كل سنة عن جميع ما عنده، حتى إنه ليزكي عن فضة كانت على امرأته.

وكان سعيد بن وهب يتعشق غلاماً يتشطر يقال له سعيد، فبلغه أنه توعد أنه

يجرحه، فقال فيه:

من عذيري من سمي من عذيري من سعيد
أنا باللحم أجاه ويجاني^(١٩٦) بالحديد
ونظر سعيد بن وهب إلى قوم من كتاب السلطان في أحوال جميلة، فأنشأ يقول:
من كان في الدنيا له شارة فنحن من نظارة الدنيا
نرمقها من كذب حسرة كأننا لفظ بلا معنى
يعلو بها الناس وأيامنا تذهب في الأرذل والأدنى
وحدث حماد بن إسحاق عن أبيه قال: كان سعيد بن وهب لي صديقاً، وكان
له ابن يكنى أبا الخطاب من أكيس الصبيان، وأحسنهم وجهاً وأدباً، فكان
لا يكاد يفارقه في كل حال، لشدة شغفه به ورقته عليه، فمات وله عشر سنين،
فجزع عليه جزعاً شديداً وانقطع عن لذاته، فدخلت إليه يوماً لأعاتبه على
ذلك وأستعطفه، فحين رأى ذلك في وجهي فاضت دموعه، ثم انتحب حتى
رحمته، وأنشدني:

عين جودي على أبي الخطاب إذ تولى غضاً بهاء الشباب
لم يقارب ذنباً ولم يبلغ الحنـ ث مزجى مطهر الأثواب
فقدته عيني إذا ما سعى أتـ رابه من جماعة الأتراب
إن غدا موحشاً لداري فقد أصـ بح أنس الثرى وزين التراب
أحمد الله يا حبيبي فيني بك راج منه عظيم الثواب

ثم ناشدني ألا أذكره بشيء مما جئت إليه، فقمت ولم أخاطبه بحرف.

دخل سعيد بن وهب على الفضل بن يحيى في يوم قد جلس فيه للشعراء،
فجعلوا ينشدونه ويأمر لهم بالجوائز حتى لم يبق منهم أحد، فالتفت إلى

سعيد ابن وهب كالمستنطق؛ فقال له: أيها الوزير، إني ما كنت استعددت لهذه الحال، ولا تقدمت لها عندي مقدمة فأعرفها، ولكن قد حضرني بيتان أرجو أن ينوبا عن قصيدة؛ فقال: هاتهما، فرب قليل أبلغ من الكثير؛ فقال سعيد:

مدح الفضل نفسه بالمعالي فعلا عن مديحنا بالمقال

أمروني بمدحه قلت كلا كبر الفضل عن مديح الرجال

قال: فطرب الفضل وقال له: أحسنت والله وأجدت، ولئن قل القول ونزر، لقد اتسع المعنى وكثر، ثم أمر له بمثل ما أعطاه كل من أنشده مديحاً يومئذ، وقال: لا خير فيما يجيء بعد بيتيك، وقام من المجلس، وخرج الناس يومئذ بالبيتين لا يتناشدون سواهما.

وحدث الخريمي قال: كان الفضل بن يحيى ينافس أخاه جعفرًا وينافسه جعفر، وكان أنس بن أبي شيخ خاصًا بجعفر، ينادمه ويأنس به في خلواته، وكان سعيد بن وهب بهذه المنزلة للفضل، فدخلت يومًا إلى جعفر ودخل إليه سعيد بن وهب فحدثه وأنشده وتنادر له، وحكى عن المتناذرين وأتى بكل ما يسر ويطرب ويضحك، وجعفر ينظر إليه لا يزيد على ذلك، فلما خرج سعيد من عنده تجاهلت عليه وقلت له: من هذا الرجل الكثير الهذيان؟ قال: أو ما تعرفه؟ قلت: لا؛ قال: هذا سعيد بن وهب صديق أخي أبي العباس وخلصانه وعشيقه؛ قلت: وأي شيء رأى فيه؟ قال: لا شيء والله إلا القدر والبرد والغثاء، ثم دخلت بعد ذلك إلى الفضل، ودخل أنس بن أبي شيخ فحدث وندر وحكى عن المضحكين وأتى بكل طريفة، فكانت قصة الفضل معه قصة جعفر مع سعيد، فقلت له بعد أن خرج من حضرته: من هذا المبرم؟ قال: أو لا تعرفه؟ قلت: لا؛ قال: هذا أنس بن أبي شيخ صديق أخي الفضل

وعشيقة وخاصته، قلت: وأي شيء أعجبه فيه؟ قال: لا أدري والله إلا القدر والبرد وسوء الاختيار؛ قال: وأنا والله أعرف بسعيد وأنس من الناس جميعاً، ولكنني تجاهلت عليهما وساعدتهما على هواهما.

وحدث عمرو بن بانة قال: كان في جوارى رجل من البرامكة، وكانت له جارية شاعرة ظريفة يقال لها حسناء، يدخل إليها الشعراء ويسألونها عن المعاني، فتأتي بكل مستحسن من الجواب؛ فدخل إليها سعيد بن وهب يوماً وجلس إليها فحدثها طويلاً ثم قال لها بعد ذلك:

حاجيتك يا حسنا	ء في جنس من الشعر
وفيما طول له شبر	وقد يوفى على الشبر
له في رأسه شق	نطوف بالندى يجري
إذا ما جف لم يجر	لدى بر ولا بحر
وإن بل أتى بالعد	جب العاجب والسحر
أجيبني لم أرد فحشاً	ورب الشفع والوتر
ولكن صغت أبياتاً	لهأظ من الزجر

قال: فغضب مولاهما وتغير لونه وقال: أتفحش على جاريتي تخاطبها بالحنى؟ فقالت له: خفض عليك، فما ذهب إلى ما ظننت وإنما يعني القلم؛ فسرى عنه، وضحك سعيد وقال: هي أعلم منك بما سمعت.

(١٧) الحسن بن وهب^(١٩٧)؛

حدث ميمون بن هارون: قال: كنا عند الحسن بن وهب فقال لبنان: غنيني:

أناذنون لصب في زيارتكم	فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمم السوء إن طال الجلوس به	عف الضمير ولكن فاسق النظر

قال فضحكت، ثم قال: فأبي خير فيه إن كان كذا أو أي معنى؟ فخبجل الحسن من بادرتها عليه، وعجبنا من حدة جوابها وفطنتها.

وحدث محمد بن عيسى قال: جاء عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع إلى الحسن بن وهب، وعنده بنان جارية محمد بن حماد، وهي نائمة سكرى وهو يبكي عندها، فقال له: ما لك؟ قال: قد كنت نائماً فجاءتني فأنبهتني وقالت: اجلس حتى تشرب فجلست، فوالله ما غنت عشرة أصوات حتى نامت، وما شربت إلا قليلاً، فتذكرت قول أشعر الناس وأظرفهم العباس بن الأحنف:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
فأنا أبكي وأنشد هذا البيت.

وحدث محمد بن موسى بن حماد قال: دعا الحسن بن وهب إبراهيم بن العباس فقال له: اركب وأجيئك عشياً فلا تنتظرنى بالغداة، فأبطأ عليه، وأسرع الحسن في شربه فسكر ونام، وجاء إبراهيم فرآه على تلك الحال، فدعا بدواة وكتب:
رحنا إليك وقد راحت بك الراح وأسرعت فيك أوتار وأفراح
وحدث أيضاً محمد بن موسى قال: نظر إبراهيم بن العباس الحسن بن وهب وهو مخمور فقال له:

عيناك قد حكنا مبي تك كيف كنت وكيف كانا
ولرب عين قد أرت ك ميت صاحبها عيانا
فأجابه الحسن بن وهب بعشرين بيتاً وطالبه بمثلها، فكتب إليه أربعة أبيات وطالبه بأربعين بيتاً. وأبيات إبراهيم:
أبأ علي خير قولك ما حصلت أنجعه ومختصره

ما عندنا في البيع من غبن للمستقل بواحد عشره
أنا أهل ذلك غير محتشم أرضى القديم وأقتني أثره
هنا نحن وفيناك أربعة والأربعون لديك منتظره
وقال عبيد الله بن سليمان: لعمرى ما في الكتاب أشعر من أبي إسحاق وأبي علي
(يعني عمه الحسن بن وهب).

حدث علي بن يحيى قال: قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصلي، وقد جرى
ذكر أحمد بن يحيى المكي: يا أبا محمد، لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى المكي
مملوكاً كم كان يساوي؟ فقال: أخبرك عن ذلك، انصرفت ليلة من دار الواقف،
فاجتزت بدار الحسن بن وهب فدخلت إليه، فإذا أحمد عنده، فلما قام لصلاة
العشاء الآخرة قال لي الحسن بن وهب: وكم يساوي أحمد لو كان مملوكاً؟
قلت: يساوي عشرين ألف دينار. قال: ثم رجعت فغنى صوتاً، فقال لي الحسن
ابن وهب: يا أبا محمد، أضعفها. قال: ثم تغنى صوتاً آخر، فقلت للحسن:
يا أبا علي أضعفها، ثم أردت الانصراف فقلت لأحمد غني:

لولا الحياء وأن السير من خلقي إذن قعدت إليك الدهر لم أقم
أليس عندك سكر للتي جعلت ما ابيض من قادمات الرأس كالحمم
فغناه أحمد بن يحيى المكي فأحسن فيه كل الإحسان، فلما قمت للانصراف
قلت للحسن: يا أبا علي، أضعف الجميع، فقال له أحمد: ما هذا الذي أسمعكما
تقولانه ولست أدري ما معناه؟ قال نحن نبيعك ونشتريك منذ الليلة وأنت
لا تدري.

وحدث محمد بن موسى قال: كان أبو تمام يعيش غلاماً خزريراً للحسن بن وهب،
وكان الحسن يتعشق غلاماً رومياً لأبي تمام، فرآه أبو تمام يوماً يعبث بغلامه،

فقال له: والله لئن أعنقت^(١٩٨) إلى الروم لنركضن إلى الخزر؛ فقال له الحسن: لو شئت حكمتنا واحتكمت؛ فقال له أبو تمام: أنا أشبهك بداود عليه السلام وأشبه نفسي بخصمه؛ فقال الحسن: لو كان هذا منظومًا خفناه، فأما وهو منشور فلا، لأنه عارض لا حقيقة له؛ فقال أبو تمام:

أبا علي بصرف الدهر والغير	وبالحوادث والأيام فاعتبر ^(١٩٩)
أذكرتني أمر داود وكنت فتى	مصرف القلب في الأهواء والفكر
أعندك الشمس لم يحظ المغيب بها	وأنت مضطرب الأحشاء للقمر
إن أنت لم تترك السير الحثيث إلى	جآذر الروم أعنقنا إلى الخزر
إن القطوب له منى محل هوى	يحل منى محل السمع والبصر
ورب أمتع منه جانبصا وحمى	أمسى وتكته منى على خطر
جردت فيه جنود العزم فأنكشفت	عنه غيابه عن فجرة هدر
سبحان من سبحته كل جارحة	ما فيك من طمحان العين بالنظر
أنت المقيم فما تغدور وواحله	وفعله أبدًا منه على سفر

وحدث وهب بن سعيد قال: جاء دعبل إلى الحسن بن وهب في حاجة بعد موت أبي تمام، فقال له رجل في المجلس: يا أبا علي، أنت الذي تطعن على من يقول: شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدي ومحت كما محت وشائع من برد وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجد فصاح دعبل: أحسن والله! وجعل يردد:

فيا دمع أنجدني على ساكني نجد

ثم قال: رحمه الله، لو كان ترك لي شيئًا من شعره لقلت: إنه أشعر الناس. وحدث أحمد بن عبيد الله بن ناصح قال: قلت لدعبل وقد عرض علي قصيدة

له يمدح بها الحسن بن وهب أولها:

أعاذلتي ليس الهوى من هوانيا

فقلت له: ويحك أتقول فيه هذا بعد قولك:

أين محل الحي يا حادي خبر سقاك الرائح الغادي

وبعد قولك:

قالت سلامة أين المال قلت لها المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا

وبعد قولك:

فعلى أياننا يجري الندى وعلى أسيافنا تجري المهج

والله إني أراك لو أنشدته إياها لأمر لك بصفع؛ فقال: صدقت والله، ولقد

نبهتني وحذرتني، ثم مزقها.

وحدث محمد بن موسى قال: أنشدني الحسن ابن وهب لمحمد بن عبد الملك

أبياتاً يرثي بها سكرانة أم ابنه عمر، وجعل الحسن يتعجب من جودتها ويقول:

يقول لي الخلان لو زرت قبرها فقلت وهل غير الفؤاد لها قبر

على حين لم أحدث فأجهل قدرها ولم أبلغ السن التي معها الصبر

وحدث محمد بن يزيد قال: دامت الأمطار بـ «سر من رأى»، فتأخر الحسن بن

وهب عن محمد بن عبد الملك الزيات، وهو يومئذ وزير والحسن يكتب له،

فاستبطأه محمد، فكتب إليه الحسن يقول:

أوجب العذر في تراخي اللقاء ما توالى من هذه الأنواء

لست أدري ماذا أقول وأشكو من سماء تعوقني عن سماء

غير أني أدعو على تلك بالثكـ لـ وأدعو لهذه بالبقاء

فسلام الإله أهديه غضاً لك مني يا سيد الوزراء

وحدث محمد بن موسى قال: اعتلَّ الحسن ابن وهب فتأخر عن محمد بن عبد الملك أيامًا كثيرة، فلم يأتَه رسوله، ولا تعرف خبره، فكتب إليه الحسن قوله:

أيهذا الوزير أيديك اللـه	هـ وأبقاك لي بقاء طويلا
أجميلا تراه يا أكرم النا	س لكيمأ أراه أيضا جميلا
إنني قد أقمت عشرا عليلا	ما ترى مرسلأ إلي رسولا
إن يكن موجب التعمد في الصـ	حة منأ علي منك طويلا
فهو أولى يا سيد الناس برأ	وافتقادأ لمن يكون عليلا
فلماذا تركتني عرضة الظن	من الحاسدين جيلا فجيلا
ألذنب؟ فما علمت سوى الشك	ر قريئنا لنيتي ودخيلا
أم ملال؟ فما علمتك للصا	حب مثلي على الزمان ملولا
قد أتى الله بالشفاء فما أعـ	رف مما أنكرت إلا قليلا
وأكلت الدراج وهو غذاء	أفلت علتي عليه أفولا
بعد ما كنت قد حملت من العد	لة عبئأ على الطباع ثقيلا
ولعلي قدمت قبلك آتـ	ك غدا إن وجدت فيه سبيلا

فأجابه محمد بن عبد الملك:

دفع الله عنك نائبة الدهـ	ر وحاشاك أن تكون عليلا
أشهد الله ما علمت وما ذا	ك من العذر جائزا مقبولا
ولعمري أن لو علمت فلازم	تك حولا لكان عندي قليلا
إنني أرثجي وإن لم يكن ما	كان مما نقمت إلا جليلا
أن أكون الذي إذا أضمر الإخـ	لاص لم يلتمس عليه كفيلا
ثم لا يبذل المودة حتى	يجعل الجهد دونها مبذولا

فإذا قال كان ما قال إذ كا ن بعيداً من طبعه أن يقولوا
فاجعلن لي إلى التعلق بالعذ ر سبيلاً إن لم أجد لي سبيلاً
فقدماً ما جاد بالصفح والعف و وما سامح الخليل الخليلاً

وكتب محمد بن عبد الملك إلى الحسن بن وهب وقد تأخر عنه:

قالوا جفاك فلا عهد ولا خبر ماذا تراه دهاه قلت أيلول
شهر تجذ جبال الوصل فيه فما عقد من الوصل إلا وهو محلول

وكان محمد قد ندبه لأن يخرج في أمر مهم فأجابه الحسن فقال:

إني بحول امرئ أعليت رتبته فحظه منك تعظيم وتبجيل
وأنت عدته في نيل همته وأنت في كل ما يهواه مأمول
ما غالني عنك أيلول بلذته وطيبه ولنعم الشهر أيلول
الليل لا قصر فيه ولا طول والجوصاف وظهر الكأس مرحول
والعود مستنطق عن كل معجبة يضحى بها كل قلب وهو متبول
لكن توقع وشك البين عن بلد تحله فوكاء العين محلول
ما لي إذا شممت بي عنك مبتكراً دهم البغال أو الهوج المراسيل
إلا رعاياتك اللاتي يعود بها حد الحوادث عني وهو مفلول

وكان الحسن بن وهب يساير محمداً على مسنة^(٢٠٠)، فعدل عن المسنة لئلا يضيق لمحمد الطريق، فظن محمد أنه أشفق على نفسه من المسنة، فعدل عنها ولم يساعده على طريقه، وظن بنفسه أن يصيبها ما يصيبه، فقال له محمد:

قد رأيناك إذ تركت المسنة وحاذيتني يسار الطريق
ولعمري ما ذاك منك وقد جد بك الجد من فعال الشفيق

فقال له الحسن:

إن يكن خوفي الختوف أراني أن تراني مشبهاً بالعقوق
 فلقد جارت الظنون على المشد فق والظن مولع بالشفيق
 عذر السيد الأجل وقد سا ر على الخوف من يمين الطريق
 فأخذت الشمال بقيا على السيد د إذ هالني سلوك المضيق
 إن عندي مودة لك حازت ما حوى عاشق من المعشوق
 طود عز خصصت منه ببر صار قدري به مع العيوق
 وبنفسي وإخوتي وأبي البر وعمي وأسرتي وصديقي
 من إذا ما روعت أمن روعي وإذا ما شرقت سوغ ريعي
 وحدث المبرد قال: استسقى الحسن بن وهب من عبد الملك نبذاً
 ببلد الروم وهو مع المعتصم، فسقاه وكتب إليه:

لم تلق مثلي صاحباً أندى يداً وأعم جوداً
 يسقى النديم بقفرة لم يسق فيها الماء عوداً
 صفراء صافية كأن بكأسها دراً نضيداً
 وأجود حين أجود لا حصراً بذاك ولا بليداً
 وإذا استقل بشكرها أوجبت بالشكر المزيداً
 خذها إليك كأنما كسيت زجاجتها عقوداً
 واجعل عليك بأن تقو م بشكرها أبداً عهداً
 ومن جيد شعره قوله:

بأبي كرهت النار لما أوقدت فعرفت ما معنأك في إبعادها
 هي ضرة لك بالتعاضضائها وبحسن صورتها لدى إيقادها
 وأرى صنيعك بالقلوب صنيعها بسيالها وأراكها وعراها

شركتك في كل الأمور بحسنها وضيائها وصلاحتها وفسادها
ومات الحسن بن وهب فرثاه أخوه سليمان بن وهب:
مضى مذهبى عز المعالي وأصبحت لآلى الحجا والقول ليس لها نظم
وأضحى نجى الفكر بعد فراقه إذا هم بالإفصاح منطقهم كظم
وكتب الحسن بن وهب يشكر:

من شكرك على درجة رفعته إليها، أو ثروة أقدرته عليها، فإن شكري لك
على مهجة أحيتها، وحشاشة أبقيتها، ورمق أمسكت به، وقمت بين التلف
وبينه؛ فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهي إليه، ومدى يوقف عنده، وغاية
من الشكر يسمو إليها الطرف، خلا هذه النعمة التي فاقت الوصف، وأطالت
الشكر وتجاوزت قدره، وأتت من وراء كل غاية؛ رددت عنا كيد العدو،
وأرغمت أنف الحسود، فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل، وكنف كريم، فكيف
يشكر الشاكر، وأين يبلغ جهده المجتهد.

(١٨) أشجع السلمي^(٢٠١)؛

كان متصلاً بالبرامكة وله فيهم أشعار كثيرة، منها قوله في يحيى بن خالد
وكان قد غاب:

قد غاب يحيى فما أرى أحداً يأنس إلا بذكره الحسن
أوحشت الأرض حين فارقها من الأيادي العظام والمنن
لولا رجاء الإياب لانصدت قلوبنا بعده من الحزن
وقال أيضاً:

رأيت بغاة الخير في كل وجهة لغيبة يحيى مستكينين خضعا
فإن يمس من في الرقتين مؤملا لأوبة يحيى نحوها متطلعا

فما وجه يحى وحده غاب عنهم
وقال فيه أيضاً:

إذا غاب يحى عن بلاد تغيرت
وإن فعال الخير في كل بلدة
وقال فيه حين اعتل:

لقد قرعت شكاة أبي علي
فإن يدفع لنا الرحمن عنه
فقد أمسى صلاح أبي علي
إذا ما الموت أخطأه فلسنا
وهو القائل:

ليس للحاجات إلا
ولسان طرمذار^(٢٠٢)
إن أكن أبطأ الحا
فعلي الجهد فيها
ويستجاد له في مدح الرشيد:

وصلت يدك السيف يوم تقطعت
وعلى عدوك يابن عم محمد
فإذا تنبه رعته وإذا غفا
ويستجاد له أيضاً قوله:

غداً يتفرق أهل الهوى
وتختلف الأرض بالظاعنين
ويكثر بأك ومسترجع
وجوهاً تشد^(٢٠٣) ولا تجمع

وتفنى الطلول ويبقى الهوى
وأنت تبكي وهم جيرة
أطعم في العيش بعد الفراق
وفيها يقول في جعفر بن يحيى:

بديته مثل تدبيره
إذا هم بالأمل لم يشنه
ففي كفه للغنى مطلب
وكم قائل إذ رأى بهجتي
غدا في ظلال ندى جعفر
وما خلفه لامرئ مطمع
متى هجته فهو مستجمع
هجوم ولا شادن أفرع
وللسر في صدره موضع
وما في فضول الغنى أصنع
يجر ثياب الغنى أشجع
ولا دونه لامرئ مقنع

وهو القائل في محمد بن منصور بن زياد يرثيه:

أنعى فتى الجود إلى الجود
أنعى فتى أصبح معروفه
أنعى فتى مص الثرى بعده
قد ثلم الدهر به ثلثة
أنعى فتى كان ومعرفه
فأصبحا بعد تساميهما
الآن نخشى عشرات الندى
وعدوة البخل على الجود

ويستجاد له قوله في إبراهيم بن عثمان بن نهيك وكان صاحب شرط الرشيد
وكان جباراً عبوساً:

في سيف إبراهيم خوف واقع
بذوي النفاق وفيه أمن المسلم

وبييت يكلأ والعيون هواجع
جعل الخطام بأنف كل مخالف
لا يصلح السلطان إلا شدة
ومن الولاة مقحم لا يتقي
منعت مهابتك النفوس حديثها
وقال لأخيه:

أبت غفلات قلبك أن تروحا
كأنك لا ترى حسنًا جميلًا
ويستجاد له قوله في الرشيد:

لا زلت تنشر أعيادًا وتطويها
مستقبلًا جدة الدنيا وبهجتها
العيد والعيد والأيام بينهما
وليهنك النصر والأيام مقبلة
ويستجاد له قوله يمدح إسماعيل بن صبيح:

له نظر لا يغمض الأمر دونه
تكدستور الغيب عنه تمزق
وهو القائل:

وما ترك المداح فيك مقالة
ولا قال إلا دون ما فيك قائل
وقال أيضًا:

مضى ابن سعيد حين لم يبق مشرق
وما كنت أدري ما فواضل كفه
فأصبح في لحد من الأرض ميتًا
ولا مغرب إلا له فيه مادح
على الناس حتى غيبته الصفائح^(٢٠٤)
وكانت به حيًا تضيق الصحاح^(٢٠٥)

سأبكيك مافاضت دموعي فإن تغض
فما أنا من رزء وإن جل جازع
كأن لم يمت حي سواك ولم يقم
لئن حسنت فيك المراثي وذكرها
فحسبك مني ما تجن الجوانح^(٢٠٦)
ولا بسرور بعد موتك فارح
على أحد إلا عليك النوائح
لقد حسنت من قبل فيك المدائح
(١٩) علي بن الجهم^(٢٠٧)؛

كان علي بن الجهم قد هجا بختيشوع، فسبه عند المتوكل فحبسه المتوكل.
فقال علي بن الجهم في حبسه عدة قصائد كتب بها إلى المتوكل، فأطلقه بعد سنة
ثم نفاه بعد ذلك إلى خراسان. فقال أول ما حبس قصيدة كتب بها إلى أخيه،
أولها قوله:

توكلنا على رب السماء
ووطننا على غير الليالي
وأفنية الملوك محجبات
هي الأيام تكلمنا وتأسو
وما يجدي الشراء على غني
حلبنا الدهر أشطره ومرت
وجربنا وجرب أولونا
ولم ندع الحياء لمس ضر
ولم نحزن على دنيا تولت
توق الناس يابن أبي وأمي
ولا يغررك من وغد إخاء
ألم تر مظهرين علي عتبًا
وسلمنا لأسباب القضاء
نفوسًا سامحت بعد الإباء
وباب الله مبذول الفناء
وتأتي بالسعادة والشقاء
إذا ما كان محذور العطاء
بنا عقب الشدائد والرخاء
فلا شيء أعز من الوفاء
وبعض الضر يذهب بالحياء
ولم نسبق إلى حسن العزاء
فهم تبع المهافة والرجاء
لأمر ما غدا حسن الإخاء
وهم بالأمس إخوان الصفاء

فلما أن بليت غدوا وراحوا
أبت أخطارهم أن ينصروني
وخافوا أن يقال لهم خذتم
تظافرت الروافض والنصارى
وعابوني وما ذنبي إليهم
فبختيشوع يشهد لابن عمرو
وما الجذماء بنت أبي سمير
إذا ما عد مثلكم رجالا
عليكم لعنة الله ابتداء
إذا سميتم للناس قالوا
أنا المتوكلي هوى ورأيا
وما حبس الخليفة لي بعار
وليس بمؤيسي منه التناي

كان سبب حبس المتوكل علي بن الجهم أن جماعة من الجلساء سعوا به إليه وقالوا له: إنه يخمش الخدم ويغمزهم، وإنه كثير الطعن عليك والعيب لك والإزراء على أخلاقك، ولم يزالوا به يوغرون صدره عليه حتى حبسه، ثم أبلغوه عنه أنه هجاه، فنفاه إلى خراسان وكتب بأن يصلب إذا ورد لها يوماً إلى الليل، فلما وصل إلى الشاذياخ حبسه طاهر بن عبد الله بن طاهر بها، ثم أخرج فصلب يوماً إلى الليل مجرداً ثم أنزل، فقال في ذلك:

لم ينصبوا بالشاذياخ عشية
نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم
الإنين مسبوفاً ولا مجهولا
شرفاً وملء صدورهم تبجيلا
ما ازداد إلا رفعة بنكوله
وازدادت الأعداء عنه نكولا

هل كان إلا الليث فارق غيله
لا يأمن الأعداء من شداته
ما عابه أن بُز عنه لباسه
إن يتذل فالبدر لا يزري به
أو يسلبوه المال يحزن فقده
أو يجسوه فليس يجبس سائر
إن المصائب ما تعدت دينه
والله ليس بغافل عن أمره
ولتعلمن إذا القلوب تكشفت
وكتب المتوكل إلى طاهر بن عبد الله بإطلاق علي بن الجهم، فلما أطلقه قال:
أطاهر إني عن خراسان راحل
أأصدق أم أكني عن الصدق أيما
وسارت به الركبان واصطفقت به
وإني بعالي الحمد والذم عالم
وحقاً أقول الصدق إني لمائل
ألا حرمة ترعى ألا عقد ذمة
ألا منصف إن لم نجد متفضلاً
فلا تقطعن غيظاً علي أناملاً
أطاهر إن تحسن فإني محسن
فقال له طاهر: لا تقل إلا خيراً، فإني لا أفعل بك إلا ما تحب، فوصله وحمله
وكساه.

وقال علي بن الجهم للمتوكل:

عفا الله عنك! ألا حرمة
لئن جل ذنب ولم أعتمد
ألم تر عبداً عدا طوره
ومفسداً أمر تلافيته
أقلني أقالك من لم يزل
وأحسن شعر قاله في الحبس قصيدته التي أولها:

قالوا حبست فقلت ليس بضائري
أو ما رأيت الليث يألف غيله
والشمس لولا أنها محجوبة
والبدر يدركه السرار فتنجلي
والغيث يحصره الغمام فما يرى
والزاعبية لا يقيم كعوبها
والنار في أحجارها مخبوءة
والحبس ما لم تغشه لدنية
بيت يجدد للكريم كرامة
لو لم يكن في الحبس إلا أنه
كم من عليل قد نخطاه الردى
يا أحمد بن أبي دواد إنما
أبلغ أمير المؤمنين ودونه
أنتم بنو عم النبي محمد

حبسي وأي مهند لا يغمد
كبراً وأوباش السباع تردد
عن ناظريك لما أضاء الفرقد
أيامه وكأنه متجدد
إلا وريقه يراعى ويرعد
إلا الثقاف وجذوة تتوقد
لا تصطلي إن لم تثرها الأزند
شنعاء نعم المنزل المتوود
ويزار فيه ولا يزور ويحمد
لا يستذلك بالحجاب الأعبد
فنجاً ومات طبيبه والعود
تدعى لكل عزيمة يا أحمد
خوض الردى ومخاوف لا تنفد
أولى بما شرع النبي محمد

ما كان من كرم فأنتم أهله
أمن السوية يابن عم محمد
إن الذين سعوا إليك بباطل
شهدوا وغبنا عنهم فتحكموا
لو يجمع الخصماء عندك مجلس
فبأي جرم أصبحت أعراضنا
خرج علي بن الجهم إلى الشام في قافلة فخرجت عليهم الأعراب
في خساف^(٢٠٨)، فهرب من كان في القافلة من المقاتلة وثبت علي بن الجهم،
فقاتلهم قتالاً شديداً وثاب الناس إليه فدفعهم ولم يحظوا بشيء. فقال في ذلك:

صبرت ومثلي صبره ليس ينكر
غريزة حر لا اختلاق تكلف
ولما رأيت الموت تهفو بنوده
وأقبلت الأعراب من كل جانب
بكل مشيح^(٢١٠) مستميت مشمر
بأرض خساف حين لم يك دافع
فقلل في عيني عظيم جموعهم
بمعترك فيه المنايا حواسر
فما صنت وجهي عن ظبات سيوفهم
ولم أك في حر الكريمة محجما
إذا ساعد الطرف الفتى وجنانه
فذاك وإن كان الكريم بنفسه

كرمت مغارسكم وطاب المحتد
خصم تقربه وآخر تبعد
حساد نعمتك التي لا تجحد
فيها، وليس كغائب من يشهد
يوماً لبان لك الطريق الأقص
نهباً تقسمها اللئيم الأوغد
وليس على ترك التقحم يعذر
إذا خام^(٢٠٩) في يوم الوغى المتصبر
وبانت علامات له ليس تنكر
وثار عجاج أسود اللون أكر
يجول به طرف أقب مشمر
ولا مانع إلا الصفيح المذكر
عزيمة قلب فيه ما جل يصغر
ونار الوغى بالمشرفة تسعر
ولا انحزت عنهم والقنا تتكسر
إذا لم يكن في الحرب للورد مصدر
وأسمر خطي وأبيض مبر
إذا اصطلت الأبطال في النقع عسكر

منعتهم من أن ينالوا قلامه
وتلك سجايانا قديماً وحادثاً
أبت لي قروم أنجبنتني أن أرى
أولئك آل الله فهر بن مالك
هم المنكب العالي على كل منكب
وكنت شجاهم والأسنة تقطر
بها عرف الماضي وعز المؤخر
وإن جل خطب خاشعاً أتضجر
بهم يجبر العظم الكسير ويكسر
سيوفهم تُفني وتُغني وتُفقر

كان علي بن الجهم يعاشر جماعة من فتيان بغداد لما أطلق من حبسه ورد من
النفي، وكانوا يتقانون ببغداد ويلزمون منزل مغن بالكرخ يقال له المفضل،
فقال فيه علي بن الجهم:

نزلنا بباب الكرخ أطيّب منزل
فلا بن سريج والغريض ومعبّد
أوانس ما للضيف منهن حشمة
يسر إذا ما الضيف قل حياؤه
ويكثر من ذم الوقار وأهله
ولا يدفع الأيدي المريبة غيرة
ويطرق إطراق الشجاع مهابة
أشر بيد واغمز بطرف ولا تخف
وأعرض عن المصباح والهج بمثله
وسل غير ممنوع وقل غير مسكت
لك البيت ما دامت هداياك حمة
فبادر بأيام الشباب فإنها
ودع عنك قول الناس أتلف ماله
على محسنات من قيان المفضل
بدائع في أسماعنا لم تبدل
ولا رهن بالجليل المبجل
ويغفل عنه وهو غير مغفل
إذا الضيف لم يأنس ولم يتبدل
إذا نال حظاً من لبوس ومأكل
ليطلق طرف الناظر المتأمل
رقباً إذا ما كنت غير مبخل
فإن همد المصباح فادن وقبل
ونم غير مذعور وقم غير معجل
وكنت ملياً بالنبذ المعسل
تقضى وتفنى والغواية تنجلي
فلان فأضحى مدبراً غير مقبل

هل الدهر إلا ليلة طرحت بنا
سقى الله باب الكرخ من متنزه
إلى قصر وضاح فبركة زلزل
مساحب أذيال القيان ومسرح الـ
أواخرها في يوم لهو معجل
لو أن امرأ القيس بن حجر يحلها
إذن لرأى أن يمنح الود شادناً
مقصر أذيال القنا غير مسيل
إذا الليل أدنى مضجعي منه لم أقل
«عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل»

دخل علي بن الجهم يوماً على عبد الله بن طاهر في غداة من غدوات الربيع وفي السماء غيم رقيق، والمطر يجيء قليلاً ويسكن قليلاً، وقد كان عبد الله عزم على الصبوح فغاضبته حظية له، فتغنص عليه عزمه وفتر، فخبّر علي بن الجهم بالخبر وقيل له: قل في هذا المعنى لعله ينشط للصبوح؛ فدخل عليه فأنشده:

أما ترى اليوم ما أحلى شبائله
صحو وغيم وإبراق وإرعاد
كأنه أنت يا من لا شبيه له
وصل وهجر وتغريب وإبعاد
فباكر الراح واشربها معتقة
لم يدخر مثلها كسرى ولا عاد
واشرب على الروض إذ لاحت زخارفه
زهر ونور وأوراق وأوراد
كأنما يومنا فعل الحبيب بنا
بذل وبخل وإيعاد وميعاد
وليس يذهب عني كل فعلكم
غي ورشد وإصلاح وإفساد

فاستحسن الأبيات وأمر له بثلاثمائة دينار وحمله وخلع عليه.

لما أطلق عبد الله بن طاهر علي بن الجهم من الحبس أقام معه بالشاذياخ مدة، فخرجوا يوماً إلى الصيد. واتفق لهم مرج كثير الطير والوحش وكانت أيام الزعفران، فاصطادوا صيداً كثيراً حسناً، وأقاموا يشربون على الزعفران، فقال علي بن الجهم يصف ذلك:

وطئنا رياض الزعفران وأمسكت
ولم تحمها الأدغال منا وإنما
بمستروحات سابحات بطونها
ومستشرفات بالهوادي كأنها
ومن دالعات ألسناً فكأنها
فلينا بها الغيطان فلياً كأنها
فقل لبغاة الصيد هل من مفاخر
قرناً بزاة بالصقور وحومت
لما فلج ابن أبي دواد شمت به علي بن الجهم وأظهر ذلك له وقال فيه:

لم يبق منك سوى خيالك لامعاً
فرحت بمصرعك البرية كلها
كم مجلس لله قد عطلته
ولكم مصابيح لنا أطفأتها
ولكم كريمة معشر أرملتها
إن الأساري في السجون تفرجوا
وغدا لمصرعك الطيب فلم يجد
فذق الهوان معجلاً ومؤجلاً
لا زال فالجك الذي بك دائباً
ومن جيد شعره قوله:

نطق الهوى بجوى هو الحق
رفقاً بقلبي يا معذبه
وملكتني فليهنك الرق
رفقاً وليس لظالم رفق

وإذا رأيتك لا تكلمني ضاقت علي الأرض والأفق
وله أيضاً:

يا رحمة للغريب بالبلد النا زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا

(٢٠) علي بن جبلة:

قال المأمون يوماً لبعض جلسائه: أقسم على أن حضر ممن يحفظ قصيدة علي بن جبلة^(٢١٤) الأعمى في القاسم بن عيسى إلا أنشدنيها؛ فقال له بعض الجلساء: قد أقسم أمير المؤمنين ولا بد من إبرار قسمه، وما أحفظها ولكنها مكتوبة عندي؛ قال: قم فجنني بها، فمضى وأتاه بها وأنشده إياها، وهي:

زاد ورد الغي عن صدره	وارعوى واللهم من وطره
وأبت إلا البكاء له	ضحكات الشيب في شعره
ندمي أن الشباب مضى	لم أبلغه مدى أشره
وانقضت أيامه سلماً	لم أجد حولاً على غيره
حسرت عني بشاشته	وذوى المحمود من ثمره
ودم أهدرت من رشاً	لم يرد عقلاً على هدره
فأنت دون الصبا هنة	قلبت فوقى على وتره
جارتا ليس الشباب لمن	راح محنياً على كبره
ذهبت أشياء كنت لها	صارها ^(٢١٥) حلمي إلى صوره
دع جدا قحطان أو مضر	في يمانيه وفي مضره
وامتدح من وائل رجلاً	عصر الآفاق في عصره
المنايا في مناقبه	والعطايا في ذرا حجره

ملك تندی أنامله
مستهل عن مواهبه
جبل عزت مناكبه
إنما الدنيا أبودلف
فإذا ولي أبو دلف
لست أدري ما أقول له
يا دواء الأرض إن فسدت
كل من في الأرض من عرب
مستعير منك مكرمة
وفيهما يقول:

وزحوف في صواهله
قدته والموت مكن
فرمت حقويه منه يد
زرتة والخييل عابسة
خارجات تحت رايتها
وعلى النعمان عجت به
غمط النعمان صفوتها
ولقرقور أدت رَحًا
قد تأنيت البقاء له
وطغى حتى رفعت له
فغضب المأمون واغتاظ، وقال: لست لأبي إن لم أقطع لسانه أو أسفك دمه.

وكان يمدح حميد بن عبد الحميد، فلما سمع حميد هذا في أبي دلف قال: أي شيء بقيت لنا بعد هذا من مدحك؟ فقال:

إنما الدنيا حميد وأياديه الجسام
فإذا ولي حميد فعلى الدنيا السلام
وهو القائل في حميد:

دجلة تسقي وأبو غانم يطعم من تسقي من الناس
والناس جسم وإمام الهدى رأس وأنت العين في الراس
وقال للحسن بن سهل:

أعطيتني يا ولي الحق مبتدئاً عطية كافأت مدحي ولم ترني
ما شمت برقك حتى نلت ريقه كأنما كنت بالجدوى تبادرني
وهو القائل في حميد:

إلى أكرم قحطان وصلنا السهب بالسهب
إلى مجتمع النيل وملقى أرحل الركب
حميد مفزع الأمم في الشرق وفي الغرب
كأن الناس جسم وهـ ومنه موضع القلب
إذا سالم أرضاً غـ نيت آمنة السرب
وإن حاربها حلت بهاراغية السقب
إذا لاقى رعيـل المو ت بالشطبة والشطب
وبالمأذية الخضر وبالمأذية القضب
غداً مجتمع القلب له جند من الرعب
فيا فوز الذي والى ويا بؤسى أخى الذنب

أيا ذا الجود فاسلم ما
فأنت الغيث في السلم
وأنت الجامع الفار
بك الله تلافى النا
ورد البيض والبيض
بإقدامك في الحرب
فكم أمنت من خوف
وكم أصلحت من خطب
وما تمهرها إلا
تناهت بك قحطان
ففاتت شرف الأحياء
وما أسرف فيه فكفر أو قارب الكفر قوله في أبي دلف:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها
وما مددت مدى طرف إلى أحد
تزور سخطاً فتسمى البيض راضية
وقال فيها:

كأن خيلك في أثناء غمرتها
يخرجن من غمرات الموت سامية
وقال أيضاً:

جلاء مشيب نزل
طوى صاحب صاحباً
وأنشش شباب رحل
كذلك اختلاف الدول

أعاذلتي أقصري كفاك المشيب العذل
بدا بدلاً بالشبا ب ليت الشباب البدل
جلال ولكنه حماماه حور المقل

وقد كان حميد ركب يوم عيد في جيش عظيم لم ير مثله، فقال علي بن جبلة يصف ذلك:

غدا بأمر المؤمنين ويمنه أبو غانم غدو الندى والسحائب
وضاقت فجاج الأرض عن كل موكب أحاط به مستعليًا للمواكب
كأن سمو النقع والبيض فوقهم سماوة ليل قرنت بالكواكب
فكان لأهل العيد عيد بنسكهم وكان حميد عيدهم بالمواهب
ولولا حميد لم تبلغ عن الندى يمين ولم يدرك غنى كسب كاسب
ولو ملك الدنيا لما كان سائل ولا اعتام فيها صاحب فضل صاحب
له ضحكة تستغرق المال بالندى على عبسة تشجي القنا بالترائب
ذهبت بأيام العلا فاردًا بها وصرمت عن مسعاك شأو المطالب
وعدلت ميل الأرض حتى تعدلت فلم ينأ منها جانب فوق جانب
بلغت بأدنى الحزم أبعد قطرها كأنك منها شاهد كل غائب

شخص علي بن جبلة إلى عبد الله بن طاهر إلى خراسان، وقد مدحه فأجزل صلته، واستأذنه في الرجوع فسأله أن يقيم، وكان بره يتصل عنده؛ فلما طال مقامه اشتاق إلى أهله فدخل إليه فأنشده:

راعه الشيب إذ نزل وكفاه من العذل
وانقضت مدة الصبا وانقضى اللهو والغزل
قد لعمري دملته بخضاب فما اندمل

فابك للشيب إذ بدا لا على الربع والطلل
وصل الله للأمية ر عرى الملك فاتصل
ملك عزمه الزما ن وأفعاله الدول
كسروي، بمجده يضرب الضارب المثل
وإلى ظل عزه يلجأ الخائف الوجل
كل خلق سوى الإما م لإنعامه خول
ليته حين جادلي بالغنى جاد بالقفل

فضحك وقال: أبيت إلا أن توحشنا، وأجزل صلتته وأذن له.

دخل علي بن جبلة العكوك على حميد الطوسي في أول يوم من شهر رمضان،
فأنشده:

جعل الله مدخل الصوم فوزاً لحמיד ومتمعة في البقاء
فهو شهر الربيع للقراء وفراق الندمان والصهباء
وأنا الضامن الملى لمن عا قرها مفطراً بطول الظماء
وكأني أرى الندامى على الخس ف يرجون صبحهم بالمساء
قد طوى بعضهم زيارة بعض واستعاضوا مصاحفًا بالغناء
وفيها يقول:

بحميد - وأين مثل حميد - فخرت طيء على الأحياء
جوده أظهر الساحة في الأر ض وأغنى المقوى عن الإقواء
ملك يأمل العباد نداه مثل ما يأملون قطر السماء
صاغه الله مطعم الناس في الأر ض وصاغ السحاب للإسقاء

فأمر له بخمسة آلاف درهم، وقال: استعن بهذه على نفقة صومك؛ ثم دخل

إليه ثاني شوال فأنشده:

عللاني بصفو ما في الدنان
واسبقا فاجع المنية بالعي
عللاني بشربة تذهب اله
والقيا في مسامع سدها الصو
قد أتنا شوال فاقبل العي
نعم عون الفتى على نوب الده
وكتوس تجري بماء كروم
من عقار تमित كل احتشام
وكان المزاج يقدح منها
فاشرب الراح واعص من لام فيها
واصحب الدهر بارتحال وحل
حسب مستظهر على الدهر ركنًا
ملك يقتني المكارم كنزًا
خلقت راحتاه للجود والبأ
ملكته على العباد معد
أريحي النداء جميل المحيا
وجهه مشرق إلى معتفيه
جعل الدهر بين يومية قسمي
فإذا سار بالخميس لحرب
وإذا ما هززه لنوال

واتركا ما يقوله العاذلان
ش فكل على الجديدين فاني
م وتنفي طوارق الأحزان
م رقى الموصلي أو دحمان
ش وأعدى قسرًا على رمضان
ر سماع القيان والعيدان
ومطي الكتوس أيدي القيان
وتسر الندمان بالندمان
شررًا في سبائك العقيان
إنها نعم عدة الفتیان
لا تخف ما يحره الحادثان
بحميد ردءًا من الحدثان
وتراه من أكرم الفتیان
س وأمواله لشكر اللسان
وأقرت له بنو قحطان
يده والسماح معتقدان
ويداه بالغيث تنفجران
ن بعرف جزل وحر طعان
كل عن نص جريه الخافقان
ضاق عن رحب صدره الأفقان

غيث جذب إذا أقام ربيع
يا أبا غانم بقيت على الدهر
ما نبالي إذا عدتكم المنايا
قد جعلنا إليك بعث المطايا
وحملنا الحاجات فوق عتاق
ليس جود وراء جودك ينتا
يتغشى بالسيب كل مكان
روخلدت ما جرى العصران
من أصابت بكلكل وجران
هرباً من زماننا الخوان
ضامنات حوائج الركبان
ب ولا يعتفي لغيرك عاني

فأمر له بعشر آلاف درهم، وقال: تلك كانت للصوص فخففت وخففنا، وهذه للفرط فقد زدتنا وزدناك.

ولما مات حميد الطوسي رثاه بقصيدته العينية المشهورة التي تعد من نادر الشعر وبديعه، وهي:

أللدهر تبكي أم على الدهر تجزع
ولو سهلت عنك الأسى كان في الأسى
تعز بما عزيت غيرك إنها
أصبنا بيوم في حميد لو انه
وأدبنا ما أدب الناس قبلنا
ألم تر للأيام كيف تصرمت
وكيف التقى شوى من الأرض ضيق
ولما انقضت أيامه انقضت العلا
وراح عدو الدين جذلان ينتحي
وكان حميد معقلاً ركعت به
وما صاحب الأيام إلا مفعج
عزاء معز لليبس ومقنع
سهام المنايا حائمت ووقع
أصاب عروش الدهر ظلت تضعضع
ولكنه لم يبق للصبر موضع
به، وبه كانت تزداد وتدفع
على جبل كانت به الأرض تمنع
وأضحى به أنف الندى وهو أجدع
أماني كانت في حشاه تقطع
قواعد ما كانت على الضيم تركع

وكنـت أراه كالرزايا رزئتـها
حمام رماء من مواضع أمنه
وليس بغرو أن تصيب منية
لقد أدركت فينا المنايا بئأرها
نعاء حميداً للسرايا إذا غدت
وللمرهق المكروب ضاقت بأمره
وللبيض خلتها البعول ولم يدع
كأن حميداً لم يقـد جيش عسكر
ولم يبعث الخيل المغيرة بالضحي
رواجع يحملن النهاب ولم تكن
هوى جبل الدنيا المنيع وغيثها الـ
وسيف أمير المؤمنين ورحمه
فأقنعه من ملكه ورباعه
على أي شجوة تشتكي النفس بعده
ألم تر أن الشمس حال ضياؤها
وأوحشت الدنيا وأودى بهاؤها
وقد كانت الدنيا به مطمئنة
بكي فقده روح الحياة كما بكي
وفارقت البيض الخدور وأبرزت
وأيقظ أجفاناً وكان لها الكرى
ولكنه مقدار يوم ثوى به

ولم أدر أن الخلق تبكيه أجمع
حمام، كذاك الخطب بالخطب يقـدع
حمى أختها أو أن يذل الممنوع
وحلت بخطب وهيه ليس يرقع
تذاد بأطراف الرماح وتوزع
فلم يدر في حوماتها كيف يصنع
لها غيره داعي الصباح المـفزع
إلى عسكر أشياعه لا تـروع
مراحاً ولم يرجع بها وهي ظلع
كتائبه إلا على النهب ترجع
مريع وحاميتها الكمي المشيع
ومفتاح باب الخطب والخطب أـفـطع
ونائله قفر من الأرض بلقع
إلى شجوه أو يذخر الدمع مدمع
عليه وأضحى لونها وهو أسفع
وأجذب مرعاها الذي كان يـمرع
فقد جعلت أوتادها تتقلع
نداه الندى وابن السبيل المدفع
عواطل حسري بعده لا تقنع
ونامت عيون لم تكن قبل تهـجع
لكل امرئ منه نهال ومـشـرع

وقد رأب الله الملا بمحمد وبالأصل ينمي فرعه المتفرع
أغر، على أسيفه ورماحه تقسم أنفال الخميس وتجمع
حوى عن أبيه بذل راحته الندى وطعن الكي والزاعبية شرع

هوامش:

(١) هو أبو معاذ بشار المرعث بن برد، أشعر مخضرمي الدولتين، ورأس الشعراء المحدثين، وممهد طريق الاختراع، والبديع للمتفنين، وأحد البلغاء المكفوفين، وأصله من فرس طخارستان من سبي المهلب بن أبي صفرة، ووقع ملك أبويه لبني عقيل بن كعب، فنشأ بشار فيهم وتربى في منازلهم، واختلف إلى الأعراب الضاريين بالبصرة حتى خرج نابغة زمانه في الفصاحة والشعر، وكان أكمه مجذور الوجه، قبيح المنظر، مفطر الطول، ضخم الجثة، متوقد الذكاء، صادق الحس، لطيف الدراية، شديد المجون والاستخفاف بالناس، كثير الاستهتار بالدين، قليل المبالاة للوقوع فيه، متهمًا بالزندقة شعوبياً، متعصباً على العرب، شديد التبرم بالناس، نهائياً لأعراضهم، لا يسلم من لسانه خليفة ولا سوقة، وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشاراً ولا بشار يعرفه، فإنه إن لم يصبه في عرضه أصابه في ماله، وقال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين، وما بلغ الحلم إلا وهو مخشي معرفة لسانه. وقد أجمع رواة الشعر ونقدته على أن بشاراً هو رأس المحدثين وأسبقهم إلى معاطاة البديع، وطرق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضري، والمهجاء المقلد. وأنه أول من جمع في شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين، وفتق المعاني الدقيقة، والأخيلة اللطيفة، حتى عد شعره برزخاً بين الشعر القديم والحديث، مجازاً يعبر عليه الشعر من مرابع البداوة إلى مقاصير الحضارة. وقد طرق كل باب من أبواب الشعر التي عرفت قبله وأربى عليها، وغلب عليه المهجاء والتشبيب بالنساء والخروج به عن الحد المألوف عند أهل زمانه، حتى أنكره عليه العلماء والمتورعون لما رأوا من سوء أثره في شبان البصرة. وقد نهاه المهدي عن التشبيب، فكان إذا مالت له نفسه يذكر منه ما يشاء ويقول: إن الخليفة منعه من كذا وكذا وأنه له مطيع. وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة، فلم يزد على أن حرمه الجائزة، وشجعه على ذلك وزيره يعقوب بن داود، وكان متورعاً، فهجأهما، فكان ذلك إلى زندقته سبب قتله. توفي سنة ١٦٧ هـ وقد نيف على التسعين. وتجد ترجمته في الأغاني (ج ٣ ص ١٩ وج ٦ ص ٧) وابن خلكان (ج ١ ص ٨٨) والشعر والشعراء (ص ٤٧٦) والفهرست (ص ١٥٩).

(٢) تشب: تزداد وترتفع.

(٣) أبديت أي أخرجت إلى البادية.

(٤) مطاه: ظهره.

(٥) الغضاضة: المنقصة.

(٦) الخوافي: الريشات الصغيرة التي في جناح الطائر إذا ضمها خفيت، واحدها خافية ضد

القوادم.

(٧) الغل بالضم: الحديد التي تجمع بين يد الأسير وعنقه وتسمى الجامعة.

(٨) الشبا بالفتح جمع شبة وهي من كل شيء حده.

- (٩) المشيع: الشجاع.
- (١٠) الجال: حافة القبر ونواحيه.
- (١١) الزبرج: الزينة من وشي أو جوهر.
- (١٢) طخفة: موضع بعد النجاج وبعد إمرة في طريق البصرة إلى مكة، ومنه يوم طخفة لبنى يربوع على قابوس بن المنذر بن ماء السماء.
- (١٣) المقربات: الخيل التي يقرب مربطها ومعلفها لكرامتها.
- (١٤) من قرى اليمامة لبنى نمير.
- (١٥) بيت رأس: قرية بالشأم من قرى حلب ينسب إليها الخمر.
- (١٦) البرسام: علة يهذي فيها وهو ورم حار يعرض للحجاب الذي بين الكبد والأمعاء ثم يتصل إلى الدماغ.
- (١٧) حيت بالإدغام لغة في حيي كرضي.
- (١٨) الأيسار: جمع يسر، وهو اللاعب بالقдах.
- (١٩) نفستهم: حسدتهم.
- (٢٠) الكمن: واحدها كمنة وهي جرب وحمرة تبقى في العين من رمد يساء علاجه.
- (٢١) العفر: قلة الزيارة، يقال: ما تأتينا إلا عن عفر أي بعد قلة زيارة وطول عهد.
- (٢٢) كان قد قال: نينان البحور، فعابه بذلك سيبويه، فجعله تيار البحور.
- (٢٣) الدثر: الكثير.
- (٢٤) الرود: الشابة الحسنة الناعمة.
- (٢٥) مقارف ذنب: مخالطه ومرتكبه من قارف الخطيئة إذا خالطها.
- (٢٦) القذى: ما يسقط في الشراب من ذباب أو غيره.
- (٢٧) السبائب: جمع سبيبة، وهي شقة من الكتان رقيقة يريد بها الألوية.
- (٢٨) العانة: القطعة من الحمير. والجأب: ذكرها، ومعنى شكواها الصدى بأبصارها أن العطش قد تبين في أحداقها فغارت، وهذا من أحسن ما وصف به الحمار والأتن.
- (٢٩) أي لم أطلب معروفك متوسلاً إليك بعهد أو قرابة.
- (٣٠) الحرف: الناقة المهزولة.
- (٣١) العلافي: الرجل العظيم.
- (٣٢) وجناء ذعلب أي ناقة شديدة سريعة.
- (٣٣) ماق: حلق في غباوة.
- (٣٤) المحلة: منزل القوم.
- (٣٥) أصله من الموالي، وقد استوزره الخليفة المهدي وسلمه الأمور كلها واشتغل هو باللهو.
- (٣٦) هو حماد بن يحيى بن عمرو مولى عامر بن صعصعة. نشأ في الكوفة ثم واسط. وعاصر الدولتين، نبغ في الدولة العباسية بعد أن نادى الوليد بن يزيد الأموي. وجاء بغداد أيام المهدي ومعه

مطيع بن إياس ويحيى بن زياد، وكلهم من المتهمين في دينهم. وحماد من الشعراء المجيدين، وكان ماجناً ظريفاً خليعاً متهماً في دينه مرمياً بالزندقة. وأدرك بشار بن برد وله معه أهاج فاحشة، ولم يكن يهاب كبيراً ولا صغيراً، عالماً كان أو خليفة. توفي سنة ١٦١هـ. وتجد ترجمته في الأغاني (ج ١٣ ص ٧٣) وابن خلكان (ج ١ ص ١٦٥) والشعر والشعراء (ص ٤٩٠) والفهرست (ص ٩١).

(٣٧) من بحوث صديقي الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

(٣٨) النقرى: الدعوة الخاصة.

(٣٩) القلطبان: الذي لا يغار.

(٤٠) مناص: مدافع، من قولهم ناصاه مناصاة: أخذ كل بناصية صاحبه.

(٤١) ثبير: اسم جبل.

(٤٢) الثيل: وعاء قضيب البعير، والعود: البعير.

(٤٣) أي لو كان لك ذنب ما صادفتني مسرعاً إليك بالمكافأة.

(٤٤) السياق: الاحتضار.

(٤٥) السب: الكثير السباب.

(٤٦) من بحوث صديقي الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

(٤٧) هو من الشعراء الموالي، أصل جده من سبي إصطخر، وكان غلاماً اشتراه عثمان بن عفان ووهبه لمروان بن الحكم، وأقام بعدئذ باليامة، وقد اختلفوا في حقيقة نسبه. شب مروان على كره الشيعة لأنه من موالي بني أمية وقد حارب معهم، وكان شجاعاً مجرباً، فلما نبغ في الشعر قدم بغداد ومدح المهدي ثم الرشيد، وكان يتقرب إليه بهجاء العلويين، وهو من الفحول المقدمين، أول من شهره ونوه به معن بن زائدة الجواد المشهور بقصيدة نونية مدحه بها، مطلعها:

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً على شرف بنو شيبان
ولكنه اشتهر على الخصوص بقصيدة لامية مدح بها معنًا مطلعها:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لهم في بطن خفان أشبل
فأجازته عليها ببال كثير، فكان كلما زاده معن عطاء زاده مروان مدحاً. توفي سنة ١٨١هـ. وتجد أخباره في الأغاني (ج ٩ ص ٣٦) وابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٠) والشعر والشعراء (ص ٤٨١) وخزانة الأدب (ج ١ ص ٤٤٧) والفهرست لابن النديم (ص ١٦٠).

(٤٨) لهاميم واحدا له موم، وهو العظيم الكثير الخير.

(٤٩) التليل: العنق.

(٥٠) تنجو: تسرع.

(٥١) الخرجاء: النعامة.

(٥٢) الرئال: فراخ النعامة واحدا رأل.

(٥٣) الرعال: القطع من الخيل واحدا رعلة.

(٥٤) النحاتن: الأنساع.

(٥٥) الميس: شجر عظيم تتخذ منه الرحال.

(٥٦) النبي: الشحم.

(٥٧) مدينة بناها السفاح بالكوفة، وذلك أنه لما ولي الخلافة نزل بقصر ابن هبيرة واستتم بناءه وجعله مدينة وسماها الهاشمية، فكان الناس ينسبونها إلى ابن هبيرة على العادة، فقال: ما أرى ذكر ابن هبيرة يسقط عنها، فرفضها وبني حيالها مدينة سماها الهاشمية ونزلها.

(٥٨) هو زند بن الجون، وسمي أبا دلامة نسبة إلى ابنه دلامة، وهو كوفي المنشأ أسود اللون مولى لبني أسد، وكان أبوه عبداً لرجل منهم فأعتقه. أدرك أبو دلامة أواخر الدولة الأموية، ولكنه نبغ في الدولة العباسية، وانقطع إلى أبي العباس السفاح والمنصور والمهدي، وكانوا يقدمونه ويصلونه ويستطيون محاسنه ونوادره، وفيه دعابة وظرف، لا يخلو حديثه من نكتة أو ملححة، وكان مع ذلك معدوداً في جملة المتهمين بالزندقة وفساد الدين، وكان يشرب الخمر ولا يحضر صلاة ولا فروضا. توفي سنة ١٦١هـ. وأخباره في الأغاني (ج ٩ ص ١٢٠) وابن خلكان طبع بلاق (ج ١ ص ٢٦٧) والشعر والشعراء ص ٧٤٨ والدميري (ج ١ ص ١٣٢) والمستطرف (ج ٢ ص ٤٣).

(٥٩) في الشعر والشعراء: «أبا مجرم».

(٦٠) في الطبري ج ٢ ص ٣٧١ طبع أوربا «فزاد الإمام المصطفى».

(٦١) البجر: خروج السرة ونتوءها وغلظ أصلها. والفدع: اعوجاج في الرسغ من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف والقدم إلى إنسيها.

(٦٢) أي غضبت.

(٦٣) الحراب بمعنى المحاربة وفي الأغاني «ضراب».

(٦٤) هكذا بالأصل ولعلها: اقفل، من قولهم اقفلت يده: تقبضت.

(٦٥) لزه بالشيء: ألزمه إياه.

(٦٦) الساج: الطيلسان الأخضر، وقيل الأسود.

(٦٧) البرش: نقط بيض في الجلد.

(٦٨) همة: هرمة.

(٦٩) المشجب: خشبات موثقة منصوبة توضع عليها الثياب وتنشر.

(٧٠) القطرب: ذكر الغيلان.

(٧١) المغرب: الأبيض من كل شيء.

(٧٢) يقال: فلان من أحلاس الخيل، أي من راضتها وساستها والملازمين ظهورها.

- (٧٣) الكتف: عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس.
 (٧٤) السدف: الضوء وإقبال الصباح.
 (٧٥) تجد ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٢٩ وقد ذكرناه هنا لمناسبة ذكر ما عثرنا عليه من منظومته لكتاب كليله ودمنة. وقد أضفنا هنا ما لم نذكره في ترجمته هناك.
 (٧٦) القيارة: محل إسالة القار.
 (٧٧) طفر: وثب في ارتفاع.
 (٧٨) ندم وحزن.
 (٧٩) الدخنة: نحو يدخن به الثياب أو البيت، وفي الأصل: «الدجنة» بالجيم وهو تحريف.
 (٨٠) في الأصل «ثم للعر» والعر: الحمار.
 (٨١) الأملاك: الملوك.
 (٨٢) كذا في الأصل ولعله: «بل الظن الحسن».
 (٨٣) أوقها: ثقلها.
 (٨٤) في الأصل هكذا «ينطره».
 (٨٥) الهوج: الحمو. وفي الأصل: «الهوج» باللام وهو تحريف.
 (٨٦) الظهار مصدر ظاهر الرجل من امرأته إذا قال لها: أنت علي كظهر أمي، فكنى بالظهار عن البطن تأدياً.
 (٨٧) في الأصل: «موطوف».
 (٨٨) أيذا: قوياً.
 (٨٩) في الأصل: «فكم».
 (٩٠) في الأصل:

لوصف باب بابا

- (٩١) محارف: محروم محدود إذا طلب لا يرزق.
 (٩٢) حزق: ضن عليه وبخل.
 (٩٣) العرم: الشدة والشراسة. وفي الأصل: «العزم».
 (٩٤) هو منصور بن الزبرقان بن سلمة النمري الربيعي، من النمر بن قاسط، ثم من ربيعة بن نزار شاعر من شعراء الدولة العباسية، من أهل الجزيرة، وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العتابي وراويته، عنه أخذ، ومن بحره استقى، وبمذهبه تشبه. وصفه العتابي للفضل بن يحيى بن خالد وقرظه عنده حتى استقدمه من الجزيرة واستصحبه، ثم وصله بالرشيد وجرت بعد ذلك بينه وبين العتابي وحشة حتى تهاجرا وتناقضا وسعى كل واحد منهما في هلاك صاحبه؛ وكان النمري قد مدح الفضل بقصيدة وهو مقيم بالجزيرة، فأوصلها العتابي إليه واسترفده له وسأله استصحابه، فأذن له في القدوم، فحظي عنده، وعرف مذهب الرشيد في الشعر وإرادته أن يصل مدحه إياه بنفي الإمامة

عن ولد علي بن أبي طالب عليهم السلام والطعن عليهم وعلم مغزاه في ذلك مما كان يبلغه من تقديم مروان بن أبي حفصة وتفضيله إياه على الشعراء في الجوائز، فسلك مذهب مروان في ذلك ونحا نحوه، ولم يصرح بالهجاء والسب كما كان يفعل مروان ولكنه حام ولم يقع وأوماً ولم يحقق، لأنه كان يتشيع، وكان مروان شديد العدواة لآل أبي طالب وكان ينطق عن نية قوية يقصد بها طلب الدنيا فلا يبقى ولا يذر، وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٢ ص ١٦ وج ١٧ ص ٣٢ و ١٤١).

(٩٥) رواية الأغاني: «تتسع».

(٩٦) مفردة قنبل بفتح فسكون ثم فتح: الطائفة من الناس.

(٩٧) كذا في الأصل ولعله:

لا أنت أصبحت يعقد بيننا أرب

بتسكين الفعل يعقد للضرورة، وتسكين الفعل في الضرورة وارد ومنه قول امرئ القيس:

فاليوم أشرب غير مستحبب إنما من الله ولا واغل

(٩٨) في الشعر والشعراء «مصاليات».

(٩٩) الأزل: الضيق والشدة.

(١٠٠) العرام: الحدة.

(١٠١) العذم بالشفة كالعض بالأسنان.

(١٠٢) هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري، والسيد لقبه ويكنى أبا هاشم، كان شاعراً متقدماً مطبوعاً، يقال إن أكثر الناس شعراً في الجاهلية والإسلام ثلاثة: بشار وأبو العتاهية والسيد، فإنه لا يعلم أن أحداً قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع، وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه في شعره ويستعمله في قذفهم والطعن عليهم، فتحومي شعره من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس تحوفاً وترقباً، وله طراز من الشعر ومذهب قلما يلحق فيه أو يقارب، ولا يعرف له من الشعر كثير، وليس يخلو من مدح بني هاشم أو ذم غيرهم ممن هو عنده ضد لهم. توفي سنة ١٧٣ هـ. وتجد ترجمته وأخباره في الأغاني (ج ٧ ص ٢) وفوات الوفيات (ج ١ ص ١٩).

(١٠٣) من بحوث صديقي الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

(١٠٤) هم الحسن والحسين ومحمد.

(١٠٥) العزلاء: مصب الماء من الراوية ونحوها، ويقال: أنزلت السماء عزاليها، إشارة إلى شدة

وقوع المطر على التشبيه بنزوله من أفواه المزايدات.

(١٠٦) الرعن: أنف يتقدم الجبل جمعه رعون ورعان. والجبل: الطويل. ودهدى الحجر

فتدهدى، أي دحرجه فتدحرج.

(١٠٧) الأواذي: أمواج البحر مفرداً آذي.

(١٠٨) الزيم: المتفرق من اللحم.

(١٠٩) الحفان: صغار النعام.

(١١٠) هو سلم (ويقال سالم) بن عمرو أحد موالى أبي بكر الصديق، نشأ في البصرة، وكان شاعراً مطبوعاً متصرفاً في فنون الشعر، وكان متظاهراً بالخلاعة والفسوق المجون، وزاد شاعرية وتغرساً بالشعر على يد بشار، لأنه كان راويته وتلميذه، أخذ عنه واغترف من بحره ونسج على منواله، وكثيراً ما كان يأخذ أقواله فيسلخها ويمسخها كما مسخ هذا البيت:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج
فجعله:

من راقب الناس مات غماً وفاز باللذة الجسور

فبلغ بيته بشاراً فغضب وأقسم ألا يدخل عليه ولا يفيد ما دام حياً، فاستشفع إليه بكل صديق حتى رضي ووبخه وقنعه بمخصرة كانت بيده. وكان صديقاً لإبراهيم الموصلي المغني المشهور ولأبي العتاهية. وكان يمدح البرامكة وخصوصاً الفضل بن يحيى. توفي سنة ١٨٦ هـ. وتجد ترجمته في الأغاني ج ٢١ ص ١١٠ وابن خلكان ج ١ ص ١٩٨.

(١١١) الدمنة: الحقد.

(١١٢) قصير.

(١١٣) الكرايس: جمع كرباس وهو القطن.

(١١٤) أي خفا فرو كثير الصوف غليظه.

(١١٥) الغلصمة: أصل اللسان.

(١١٦) معور: مخوف.

(١١٧) الشبه: النحاس الأصفر.

(١١٨) البوتقة: الوعاء الذي يذيب فيه الصائغ.

(١١٩) امتلكه.

(١٢٠) هو أبو أسامة ربيعة بن ثابت من موالى سليم، ويكنى أبا شبابه، وكان ينزل الرقة، وبها مولده ومنشؤه، فأشخصه المهدي إليه، فمدحه بعدة قصائد وأثابه عليها ثواباً كبيراً، وهو من المكثرين المجيدين، وكان ضريراً وإنما أحمل ذكره وأسقطه عن طبقته بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء ومع ذلك فما عدم مفضلاً مقدماً له. وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٥ ص ٣٨) وخزانة الأدب للبغدادى (ج ٣ ص ٥٥).

(١٢١) أي لا استثناء فيها.

(١٢٢) هو يزيد بن أسيد (بضم الهمزة) من بهثة بن سليم، وأخو الأزد هو يزيد بن حاتم بن

قيصة بن المهلب.

(١٢٣) أثيراً: مكرماً.

(١٢٤) جرض بريقه: ابتلعه بالجهد على هم وحزن.
 (١٢٥) العود: الرقية يرقى بها الإنسان من فزع أو جنون أو مرض.
 (١٢٦) النفث البصاق اليسير ينفضه الراقي في العقدة عند الرقية.
 (١٢٧) الحوفزان هو الحارث بن شريك الشيباني، سمي بذلك لأن قيس بن عاصم التميمي حفزه بالرمح حين خاف أن يفوته، وقد فخر بذلك سوار بن حبان المنقري فقال:

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة سقته نجيعاً من دم الجوف أشكلا
 (١٢٨) الخلة: الخلية.

(١٢٩) هو الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش، وهو من أهل البصرة. توفي سنة ٢٠٠هـ. وتجد ترجمته في الأغاني (ج ١٥ ص ٣٥) ووفيات الوفيات (ج ٢ ص ١٢٥) والشعر والشعراء (ص ٥١٥).
 (١٣٠) المعابر: المعايير.

(١٣١) هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد، أطبع أهل زمانه شعراً وأكثرهم قولاً وأسهلهم لفظاً، وأسرعهم بديهة وارتجالاً، وأول من فتح للشعراء باب الوعظ والتزهيد في الدنيا والنهي عن الاعتزاز بها، وأكثر من الحكمة. ولد بعين التمر سنة ١٣٠هـ ونشأ بالكوفة في عمل أهله. وكانوا باعة جزار، إلا أنه رباً بنفسه عن عمله وقال الشعر في صباه وامتزج بلحمه ودمه حتى صار كما قال هو عن نفسه «لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت» فذاع صيته وسلك طريق خلعاء الكوفة. ثم قدم بغداد ومدح المهدي وتعرف ببعض خدام قصر الخلافة وجواريه فتعشق منهن فتاة تدعى عتبة، ولما يئس منها لها عنها بعض الشيء. ودرس كثيراً من مذاهب المتكلمين والشيعة والجبرية والزهاد فكان يسلك كل مذهب منها مدة ثم ينتقل عنه إلى الآخر حتى اختار له من كل ذلك عقيدة مختلطة أفضت به إلى العبادة والزهد في الدنيا قولاً ومعيشة على إفراط منه في حب المال والجمع له والبخل به على الأهل والولد والخدم. ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغزل وقصر قوله على الزهد في الدنيا والتذكير بالموت وأهواله، وهو في خلال ذلك يمدح الخليفة وملوك الدولة ويأخذ جوائزهم، ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر البتة حتى حبسه الرشيد لعدم تلبية ما اقترحه عليه من القول فيه ثم أطلقه بعد أن أجاب طلبته، وعاد إلى قول الشعر على عاداته فيه وترك الغزل والهجاء، وبقي على ذلك مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون. توفي سنة ٢١١هـ. وله ديوان مطبوع في بيروت سنة ١٨٨٧ وتجد أخباره في الأغاني ج ٣ ص ١٢٦ وج ٦ ص ١٨٦ وج ٨ ص ٢٤ وابن خلكان ج ١ ص ٧١ وطبقات الشعراء ص ٤٩٧ والفهرست ص ١٦٠.
 (١٣٢) النظرة: التأخير والإمهال.

(١٣٣) هو مسلم بن الوليد مولى الأنصار يلقب صريع الغواني، شاعر متقدم من شعراء الدولة العباسية، منشؤه ومولده الكوفة، وهو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع، وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف، وتبعه فيه جماعة، وأشهرهم فيه أبو تمام الطائي، فإنه جعل شعره كله مذهباً واحداً فيه، ومسلم كان متفناً متصرفاً في شعره. قال محمد بن يزيد: كان مسلم شاعراً حسن

المنمط، جيد القول في الشراب، وكثير من الرواة يقرنه بأبي نواس في هذا المعنى، وهو أول من عقد هذه المعاني الظريفة واستخرجها. وقال القاسم بن مهرويه: أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد، جاء بهذا الفن الذي سباه الناس البديع ثم جاء الطائي بعده ففتن فيه. توفي بجرجان سنة ٢٠٨ هـ وله ديوان مطبوع في ليدن سنة ١٨٧٥ م. وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٣ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٢٨) والعقد الفريد (ج ١ ص ١٤٢).

(١٣٤) أجزرت فلاناً رسنه: تركته وشأنه، والخليع: الذي خلع عذاره في الصبا.

(١٣٥) الطموح: المرتفعة في النظر إلى الأعبة. ومفرق: مقسم.

(١٣٦) أي لم تظن بي.

(١٣٧) يريد الخمر والجواري.

(١٣٨) محضر، أي حضرته اللذات. والخلل: جمع خلة وهي الصديقة.

(١٣٩) خفرها، أي ولد عليها الخفر وهو شدة الحياء.

(١٤٠) أي مختار.

(١٤١) منضية: متعبة. والوجيف: ضرب من السير. والذلل: الضامرات.

(١٤٢) يريد بالنجم: الثريا. ومعتزاً: منتصباً.

(١٤٣) مطرداً، أي مخذولاً. وضرب السمك والطول مثلاً.

(١٤٤) الهبل: الفقدان.

(١٤٥) يعني البيت الحرام.

(١٤٦) الكوم: العظام الأسنة واحدها كوماء. والبزل: جمع بازل وهو ما له تسعة أعوام.

(١٤٧) جمع عان وهو الأسير، والخطل: ذو الخطل وهو الخطأ.

(١٤٨) هذا مثل، يريد لما رامت الحوادث من استجار به.

(١٤٩) نسبة إلى شريك، وهو أحد أجداد يزيد.

(١٥٠) هكذا في الأصل، وعندنا أن الكلمة محرفة عن (اتطدت) أي ثبتت، وهي وزان افتعل

من وطم. وكانت أوتطد ثم قلبت فاء الافتعال تاء وأدغم المثل في المثل.

(١٥١) عترة الدين: جماعة الإسلام.

(١٥٢) أحد الخوارج على الرشيد.

(١٥٣) غافصه: فاجأه على غرة.

(١٥٤) هو الوليد بن طريف الشاري.

(١٥٥) الناضل: المصيب، والخصل مثله.

(١٥٦) الرس: وادي أذربيجان.

(١٥٧) تستن بالعضل: تتابع بالعسر، والمعضلة: الداهية.

(١٥٨) لا تدع بي الشوق، أي لا تدعني مشتاقاً. وسأله دجيل عن معنى ذلك فقال: لا تدعني

صريع الغواني فلست كذلك، وكان لهذا اللقب كارهاً. ومعمود: عاشق، والهيف: الضامرات الخصور.

- (١٥٩) أي ذهبت بجلدي.
- (١٦٠) اغتزلت: اختلطت، ويريد بالنسجين: ما ولي الماء من الخمر أسرع فيه الماء فحلله، وما ولي منها القاع بقي على حاله لم يحله الماء بعد.
- (١٦١) الحبرة: النعيم.
- (١٦٢) الفند: اللوم. والمخضود: الواهن.
- (١٦٣) أي لا تدعوني إلى نفسها.
- (١٦٤) الخطارة: الناقة تحرك ذنبها. والسرّح: الخفيفة.
- (١٦٥) الرهين: الأسير، والمصفود: الموثق بالحديد.
- (١٦٦) المحملة: السنة الجذبة. والجارود: المنجدة من النبات.
- (١٦٧) تخمطها: سال بها. والقرديد: جمع قرد، وهو المرتفع من الجبال.
- (١٦٨) السهام: طائر يشبه القطا. والصيخود: شدة الحر.
- (١٦٩) التحريد من الحر، وهو داء يصيب الإبل في قوائمه. والأين: التعب.
- (١٧٠) البهر: هو ما يعتري الإنسان عند العدو من اللهث وتتابع النفس.
- (١٧١) رق الصريح، أي استعباد الحر. والمداويد: الانجاد واحده مذود.
- (١٧٢) المحاييد: الجبناء جمع محياد.
- (١٧٣) الهدأة: الفترة.
- (١٧٤) الأبلخ: المتكبر.
- (١٧٥) شآها: سبقها. ومزمود: مرعوب.
- (١٧٦) المفثود: الذي أصيب فؤاده.
- (١٧٧) الضبات: أوصال الرأس. والقماحيد: جمع قمحودة وهي العظم الناتئ في مؤخر الرأس بين القفا وأعلى الرأس.
- (١٧٨) أعذر: جاء بما يعذر عليه.
- (١٧٩) أي أغرت طوائفها.
- (١٨٠) ترتاب: أي تستنكر.
- (١٨١) الأفياء: جمع فيء وهو الظل آخر النهار. والجسد: الدم.
- (١٨٢) موجفة: سريعة.
- (١٨٣) أملود: أملس.
- (١٨٤) الجرداء: قصيرة الشعر. والقيدود: الناقة الطويلة الظهر.
- (١٨٥) كلمتان يزجر بهما الإبل.
- (١٨٦) بعقوتهم، أي بفنائهم.
- (١٨٧) الأهمال: جمع همل، وهو الشيء المسيب، ويراد به الصعب. ومخيسة: مذلة.
- (١٨٨) بلدة عظيمة كانت بالقرب من بحر قزوين إلى الجنوب الشرقي منه.

(١٨٩) الجعاسيس: اللثام في الخلق والخلق.

(١٩٠) كان العباس شاعراً غزلاً مطبوعاً من شعراء الدولة العباسية، وله مذهب حسن، ولدياجة شعره رونق، ولمعانيه عذوبة ولطف، ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء، ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني، وقدمه أبو العباس المبرد في كتاب الروضة على نظرائه وأطنب في وصفه، وقال: رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه، قال: وكان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخلعاء، وكان غزلاً ولم يكن فاسقاً، وكان ظاهر النعمة ملوكي المذهب شديد التطرف، وذلك بين في شعره، وكان قصده الغزل وشغله النسيب، وكان حلواً مقبولاً غزلاً غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف في الغزل وحده، ولم يكن هجاء ولا مداحاً، وله ديوان طبع مع ديوان ابن مطروح بالآستانة سنة ١٢٩٨ هـ وتجد أخباره وأشعاره في الأغاني (ج ٨ ص ١٥) وابن خلكان (ج ١ ص ٣٤٦) والشعر والشعراء (ص ٥٢٥).

(١٩١) هو محمد بن منذر، مولى لبنى يربوع، ويكنى أبا جعفر، شاعر فصيح، مقدم في العلم باللغة وإمام فيها، حتى أخذ عنه أكابر أهلها. وكان في أول أمره يتعبد ثم عدل عن ذلك، فهجا الناس وتهتك وخلع وقذف أعراض أهل البصرة حتى نفى عنها إلى الحجاز، فمات هناك سنة ١٩٨ هـ. وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٧ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٥٣).

(١٩٢) الغرائيق: جمع غرنوق، وهو طائر مائي أسود وقيل أبيض يشبه الكركي.

(١٩٣) مصرصر: صائح بشدة.

(١٩٤) هو صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس، من حكماء الشعراء، متهم بالزندقة، قوي الحجة، له منزلة سامية عند أهل مذهبه. نشأ في البصرة، وكان يقص على الناس ويغفلهم. توفي سنة ١٦٧ هـ. وتجد أكثر أخباره في فوات الوفيات (ج ١ ص ١٩١) والدمري (ج ١ ص ٢٦).

(١٩٥) هو سعيد بن وهب أبو عثمان مولى بني سامة بن لؤي بن نصر، مولده ومنشؤه بالبصرة ثم صار إلى بغداد فأقام بها. وكانت الكتابة صناعته، فتصرف مع البرامكة فاصطنعوه وتقدم عندهم. وتجد أخباره في الأغاني (ج ٢١ ص ١٠٤).

(١٩٦) وجأه يوجأه ويجأه: ضربه باليد أو بالسكين. وخففت الهمزة ها هنا للشعر.

(١٩٧) كان الحسن بن وهب حسن الشعر والبلاغة، جيد اللسان، حلو البيان كأخيه سليمان، وكان موته بالشام. وتجد طرفاً من أخباره في الأغاني (ج ٩ ص ٢ وج ٢٠ ص ٥٤) وزهر الآداب (ج ٣ ص ٤٤).

(١٩٨) أعنقت: أسرعت.

(١٩٩) وردت هذه الأبيات في الأغاني وفيها بعض ألفاظ تخل بالآداب، وأثبتناها هنا كما وردت في ديوان أبي تمام.

(٢٠٠) المسناة: ما يبنى في وجه السيل.

(٢٠١) هو أشجع بن عمرو من ولد الشريد بن مطرود السلمي، وكان يكنى أبا الوليد، شاعر إسلامي عباسي، نشأ بالبصرة، وقال الشعر وأجاد فيه حتى عد من الفحول؛ وكان الشعر يومئذ في ربيعة واليمن، ولم يكن لقيس شاعر، فلما نجم أشجع وقال الشعر افتخرت به قيس. وانقطع إلى البرامكة ومدحهم واختص بجعفر فأصفاه مدحه، فأعجب به جعفر ووصله إلى الرشيد ومدحه فأعجب به أيضًا وأمدّه بالمال فأثرى وحسنت حاله في أيامه، وتقدم عنده، وله فيه المدايح المختارة، والقصائد السائرة. وتجد أشعاره وأخباره في الأغاني (ج ١٧ ص ٣٠) والشعر والشعراء (ص ٥٦٢). (٢٠٢) الطرمذار: المتكثر بما لا يفعل.

(٢٠٣) تفرق.

(٢٠٤) الصفائح: أحجار عراض تغطي بها القبور.

(٢٠٥) الصحاصح: جمع صحصح: وهي الأرض الجرداء المستوية الواسعة ذات حصى صغار.

(٢٠٦) الجوانح: الضلوع.

(٢٠٧) هو عربي قرشي شاعر فصيح مطبوع، وقد خص بالمتوكل حتى صار من جلسائه ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية إليه بندمائه فكان إذا خلا به عرفه أنهم يعيبونه ويثلبونه، فيكشف الخليفة عن ذلك فلا يجد له حقيقة، فنفاه إلى خراسان بعد أن حبسه مدة. وكان مذهبه في الشعر مذهب مروان بن أبي حفصة في هجاء آل أبي طالب وذمهم والإغراء بهم وهجاء الشيعة كقوله:

ورافضة تقول بشعب رضوى إمام، خاب ذلك من إمام

إمام من له عـشرون ألفاً من الأتراك مشرعة السهام

وله أقوال في الغزل والعتاب وفي الوصف، توفي سنة ٢٤٩هـ. وتجد أخباره في الأغاني (ج ٩ ص ١٠٤) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٩٧).

(٢٠٨) برية بين بالس وحلب.

(٢٠٩) خام: نكص وجبن.

(٢١٠) المشيح: المانع لما وراء ظهره. والأقب من الخيل: الدقيق الخصر الضامر البطن.

(٢١١) واحده دراج (بضم الدال وتشديد الراء) وهو طائر على خلقة القطا إلا أنه ألطف.

(٢١٢) الزالج من السهام: الذي يمشي على وجه الأرض ثم يمضي.

(٢١٣) الرامج: الملواح الذي يصاد به الصقور ونحوها من جوارح الطير.

(٢١٤) هو علي بن جبلة الأنباري، والعكوك لقبه، وهو من الموالي أبناء الشيعة الخراسانية من

أهل بغداد، ولد في الحربية منها ونشأ فيها، وكان ضريراً منذ ولادته مثل بشار بن برد، وهو شاعر مطبوع عذب اللفظ جزله، لطيف المعاني، مداح حسن التصرف، وقد استنفد شعره في مدح أبي دلف العجلي وأبي غانم حميد بن عبد الحميد الطوسي، وزاد في تفضيلها وتفضيل أبي دلف خاصة حتى فضل ربيعة على مضر، فاستاء المأمون من ذلك وبلغه أبيات قالها العكوك في أبي دلف منها:

كل من في الأرض من عرب بين يديه إلى حضره

مستعير منك مكرمة يكتسيها يوم مفتخره

توفي سنة ٢١٣هـ. وتجد أكثر أخباره في الأغاني (ج ١٨ ص ١٠٠) وابن خلكان طبع بولاق (ج ١ ص ٤٩٥) والشعر والشعراء (ص ٥٥٠).

(٢١٥) صارها: أمالها.

(٢١٦) العجب: أصل الذنب.

فهرس

باب المنشور	٣
١ - رسالتا أبي بكر وعليّ	٣
٢ - ومن كلام عائشة رضي الله عنها في الانتصار لأبيها	١٣
٣ - كلمة أم الخير بنت الحريش	١٥
٤ - كلمة الزرقاء بنت عديّ	١٨
٥ - عكرشة بنت الأطرش	٢٠
٦ - رسالة لعبد الحميد الكاتب	٢١
٧ - رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب	٥٨
٨ - رسالة ثالثة لعبد الحميد الكاتب	٦٢
٩ - رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب	٦٥
باب المنظوم	٧٧
١ - الغزل	٧٧
أ - الغزل الإباحي	٧٨
ب - الغزل العذري	١١٠
ج - الغزل الصناعي	١٣٠
د - الغزل القصصي	١٤٢
٢ - الشعر السياسي	١٦٧

(ملحق الكتاب الثاني)

- باب المنشور ١٩٥
- ١ - مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان ١٩٥
- ٢ - رسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي كتبها للرشيد إلى
قسطنطين ملك الروم ٢١٣
- ٣ - رسالة يحيى بن زياد في تقرير الرشيد ٢٦٦
- ٤ - كتب الرشيد ٢٧٤
- أ - كتاب عهد البيعة ٢٧٤
- ب - نسخة الشرط الذي كتب عبد الله بن أمير المؤمنين
بخط يده في الكعبة ٢٧٨
- ج - نسخة كتاب الرشيد إلى العمال ٢٨٠
- باب المنظوم ٢٩١
- ١ - بشار بن برد العقيلي ٢٩١
- ٢ - حماد عجرد ٣١٥
- ٣ - مروان بن أبي حفصة ٣٢٥
- ٤ - أبو دلالة ٣٤٠
- ٥ - أبان بن عبد الحميد اللاحقي ٣٥٧
- ٦ - منصور النمري ٣٧٣
- ٧ - السيد الحميري ٣٧٨
- ٨ - سلم بن عمرو الخاسر ٣٨٨
- ٩ - ربيعة الرقي ٣٩٢

- ١٠ - الرقاشي ٣٩٦
- ١١ - أبو العتاهية ٣٩٨
- ١٢ - مسلم بن الوليد أحد الشعراء المغلقين والبلغاء المبدعين .. ٤١١
- ١٣ - العباس ابن الأحنف ٤٢٩
- ١٤ - ابن منذر ٤٣٦
- ١٥ - صالح بن عبد القدوس ٤٣٩
- ١٦ - سعيد بن وهب ٤٤٢
- ١٧ - الحسن بن وهب ٤٤٥
- ١٨ - أشجع السلمي ٤٥٣
- ١٩ - علي بن الجهم ٤٥٧
- ٢٠ - علي بن جبلة ٤٦٥

طبع بمطابع دار المعارف